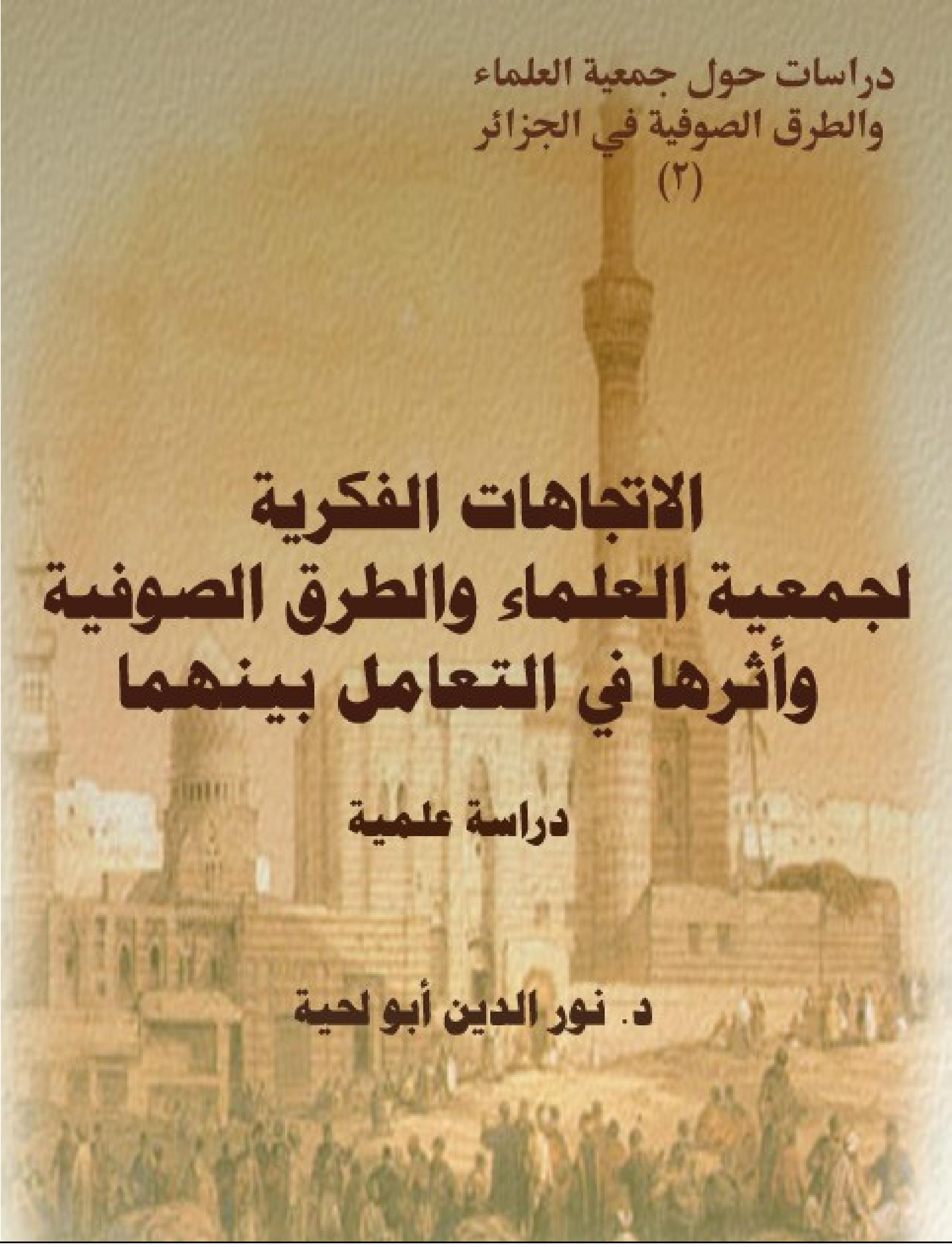


دراسات حول جمعية العلماء
والطرق الصوفية في الجزائر
(٢)

الاتجاهات الفكرية لجمعية العلماء والطرق الصوفية وأثرها في التعامل بينهما

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

دراسات حول جمعية العلماء
والطرق الصوفية في الجزائر
(2)

الاتجاهات الفكرية لجمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية
1437 هـ -2016
دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة

لا يخفى أن للاتجاهـات الفكريـة تأثيرهـا الكبـير في المواقـف والمعاملات وجميع التصرفات، فالفكر هو مقدمة السلوك ومنبعـه وأصـله الـذي منـه يسـتمد، ومن المجانبـة للصـواب أن نحلـل أي قضية دون الرجوع إلى منابعها الفكرية التي منها انطلقت، وخاصة إذا مست القضية تاريخ أمة وثقافتها ودينها.

وانطلاقـا من هـذا التصـور البـديهي والمنهجي، نحـاول في هـذا الجزء أن نتعرف على المنابع الفكرية الـتي يسـتقي منهـا كـل من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والطرق الصـوفية، لاعتقادنـا بأن تلك المنابع هي التفسير الصحيح، بل والوحيـد لكـل مـا حصـل من توافق أو خلاف.

وعلى الرغم من بديهية هذا الطرح ومنهجيته إلا أنـا - للأسـف - لم نر تطبيقيا حقيقيا له في الواقع البحثي والأكاديمي فيما يرتبط بالتعامل بين الجمعية والطرق الصوفية، فقد دأب أكثر من اطلعنـا على دراسـاتهم على الاقتصـار على الرجـوع لرجـال الجمعيـة في مواقفها من الآخـر، واعتبـار مـا ذكرتـه هـو الحقيقـة المطلقـة من جميـع جوانبهـا، من غـير النظـر فيمـا كتبـه الآخـر أو دافـع بـه عن نفسه، أو التعرف على الأصول التي جعلته يعتقد ذلك الاعتقاد.

وقد أدى هذا المنهج إلى تحول أكثر البـاحثين إلى مجـرد أبـواق تردد ما ذكـره الإبـراهيمي أو ابن بـاديس أو الميلي أو غـيرهم من غير أن يكلف هؤلاء أنفسهم التحقيق في مدى صـحة مـا قـالوا، أو الرجوع للذي شنت تلك الحرب للتحقـق من مـدى صـحة الجـرائم التي اتهم بها.

بناء على هذا التنبيه أو النقد الذي رأينـا ضـرورة طرحـه نحـاول في هذا الباب أن نتجنب هـذا الخطـأ العلمي والمنهجي والأخلاقي، وذلك بالرجوع إلى كـل طـرف من طـرفي التعامـل للتعـرف على المدرسـة الفكريـة الـتي ينتمي إليهـا، وعلى المشـروع الإصـلاحي الذي يحمله من غير أن نسيء به الظن، أو نقولـه مـا لم يقـل، أو نتجنى عليه بأي جناية تصطدم مع العلم والدين والأخلاق.

ولا نكتفي بذلك، بل نحاول أن نرجع إلى مصادر الفكـر ومنابعـه التي منها يستمد، ذلك أن النظرة الموضوعية التي هـدانا إليهـا مـا

وقع في جميع التـاريخ الـديني والثقـافي للعـالم الإسـلامي هـو أن جمعيـة العلمـاء في حقيقتهـا ليسـت سـوى امتـداد لمدرسـة أو مدارس فكرية وسلوكية موجودة منذ فجر التاريخ الإسلامي.

والطـرق الصـوفية لا تختلـف عنهـا في ذلـك، فلهـا هي الأخـرى امتدادها التاريخي والجغرافي في جميع العالم الإسلامي.

وكما أن للمدرسة الأولى علماؤها ورجالها الذين ينافحون عنهـا، فكذلك للمدرسة الثانية علماؤها ورجالها وأطروحاتها.

ولهذا فإن من المخالفـة للمنهج العلمي أن نـدرس كلا التيـارين مبتورا عن الجذور التي أنبتته بالشكل الذي هو عليه.

انطلاقا من هذا قسمنا هذا الجزء إلى ثلاثة فصول:

حاولنا في **الفصل الأول** أن نتعـرف على المدرسـة الفكريـة التي تنتمي إليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والمشـروع الإصلاحي الذي تريد تنفيده في الواقع الجزائري.

وفي **الفصل الثاني** تناولنا المدرسة الفكرية التي تنتمي إليها الطـرق الصـوفية، والمشـروع الإصـلاحي الـذي تريـد تنفيـذه في الواقع الجزائري.

وفي الفصـــل الثـــالث: تناولنـــا أثـــر الاتجاهـــات الفكريـــة والإصلاحية لجمعية العلماء والطرق الصوفية في التعامل بينهما.

الفصل الأول
الاتجاه الفكري لجمعية العلماء ومشروعها الإصلاحي

من الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث التحديد الدقيق للتوجه الفكري الذي يجتمع عليه أعضاء الجمعية، وسبب ذلك واضح بسيط، وهو أن الجمعية في أصلها، وكما عرفنا في الجزء السابق، تكونت من الطبقة الجزائرية المثقفة، وكانت هذه الطبقة قد تشكلت قناعاتها الفكرية قبل دخولها الجمعية، وبالتالي دخلت إلى الجمعية بذلك التوجه الفكري الذي تحمله، ولهذا ضمت بين جنباتها وخاصة في بداية تأسيسها الصوفي والإباضي والمالكي والسلفي وغيرهم من التيارات.

وحتى بعد حصول الانشقاق انتسب إليها، بل وعمل في إطار نشاطاتها بعض الطرق الصوفية، وقد ضربنا أمثلة على ذلك في الجزء السابق.

وهذا ما دعانا إلى التمييز في تحديد الاتجاه بين أمرين:

الأول: هو القناعات الفكرية لأعضاء الجمعية، والتي هي نتاج الثقافة الخاصة بكل عضو، والتي على أساسها يبرز الاعتدال أو التشدد أو التسامح مع الآخر.

الثاني: هو المشروع النهضوي الذي أتت به الجمعية أو توحدت عليه.

وهذا ما يجعل من جمعية العلماء المسلمين نسقا خاصا يختلف عن كثير من الحركات الإسلامية، بل حتى مع الطرق الصوفية.

فالحركة الوهابية – مثلا - والتي كان لها وجود فاعل في وقت الجمعية كانت صاحبة توجه فكري واحد، وصاحبة مشروع نهضوي واحد.

والطرق الصوفية كذلك، مهما اختلفت مشاربها أو تسمياتها لا تختلف فيما بينها إلا في الطقوس الظاهرية الممارسة، أما التوجه الفكري، فيجمع بينها جميعا حتى أننا لا نستطيع أن نميز تعابير الشيخ ابن عليوة - المعاصر للجمعية، والذي كان المعارض الأكبر لها – مع أي صوفي في أي طريقة داخل الجزائر أو خارجها.

وهذا ما جعلنا بدل أن نغرق في التعميم نبحث عن التصنيف المناسب لأعضاء الجمعية من الناحية الفكرية، ثم عن التصنيف

المناسب الذي يجمعها في مشروعها النهضوي، ولهذا قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: الاتجاه الفكري لجمعية العلماء

المبحث الثاني: المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء

ونحب أن ننبه أننا في كلا المبحثين نراعي مواقف أعلام الجمعية الكبار ممن يمكن اعتبارهم ناطقين رسميين باسم الجمعية كابن باديس والإبراهيمي والميلي والعقبي والعربي التبسي وغيرهم من الذين تولوا مناصب حساسة في الجمعية، أما من عداهم، فنستأنس بذكره دون أن نحمل الجمعية تبعاته، سواء في ذلك التوجهات الفكرية أو المشاريع الإصلاحية.

فلا نستطيع مثلا أن نعتبر الجمعية معتزلية الاعتقاد باعتبار أن بعض أفرادها إباضية، وهم يتبنون الكثير من الآراء المعتزلية، ولا نستطيع كذلك عند الحديث عن مشروعها السياسي أن نعتبرها متخاذلة في مواقفها من الاستعمار أو الثورة لأن بعض أفرادها كان كذلك[1].

وقد دعانا إلى هذا التنبيه ما نراه في بعض الدراسات المناوئة خصوصا من اختيار بعض النماذج في التوجهات الفكرية أو الإصلاحية لتبنى على أساسها المواقف.

---

[1] انظر في الرد على القول بأن الجمعية خذلت الثورة ولم تشارك فيها وكانت في صف المندمجين، رد الشيخ عبد الرحمن شيبان، (حقائق وأباطيل) ط2، مطبعة ثالة، الجزائر، 2009.

المبحث الأول: الاتجاه الفكري لجمعية العلماء

يتفق معظم الدارسين لجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين على تصنيفها ضمن (الحركات السلفية) التي كانت في ذلك الحين في أوج نشاطها.

وهذا التصنيف ليس قاصرا على الدراسات الحديثة، بل كـل من تحدث عن الجمعية في ذلك الوقت كان يعتبر توجهها توجها سلفيا محضا لا يختلف عن التوجهات السلفية في ذلك الحين:

فهذا الشيخ محب الدين الخطيب يقول في جريدة (الفتح) التي كان يشرف عليها: (جاءتنا من المغرب الأوسط (الجزائـر) رسـالة نافعة –إن شاء اللـه- ألّفهـا العلامـة السـلفي الأسـتاذ الشـيخ عبـد الحميد بن باديس من كبار العلماء المصلحين في الديار المغربيـة) [1]

وكتب الشيخ محمّد القرّي من فـاس قصـيدة إثـر الاعتـداء على عبد الحميد بن باديس وأرسلها إلى (الشـهاب)، وقـال في مقدّمـة الرسالة الملحقة بالقصيدة: (جناب مدير مجلّة الشهاب المحـترم. تحيّة وسـلاما. الرجـاء منكم أن تنشـروا على صـفحات –الشـهاب- الأغّر القصيدة التالية بمناسبة نجاة العلامة السلفي المصلح السيّد عبد الحميد بن باديس من ضربة الشقي الأثيم ولكم مزيد الشكر) [2]

وقـد وردت تصـريحات كثـيرة من علمـاء الجمعيـة – سنسـرد بعضها في هذا المبحث – تعلن تبنيها لهذا المنهج، ولذلك سـننطلق من هذا الإعلان والتصريح، ولكنـا لا نكتفي بـه، فالسـلفية مـدارس متعـددة، وآراء متضـاربة وأحيانـا متناقضـة، وهـو مـا يحوجنـا إلى التعرف على نوع المدرسة التي تنتمي إليها الجمعية.

وبناء على هذا، فقد قسمنا هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التوجه السلفي وعلاقة جمعية العلماء به

المطلب الثاني: السلفية المحافظة، وعلاقة جمعيـة العلمـاء

---

[1]) نشر في مجلّة الشهاب في العدد87 بتاريخ 6 رمضان 1345 هـ.

[2]) (الشهاب) عدد 82 الصادر يوم الخميس 30 رجب 1345هـ، 3 أبريل 1927م.

بها

المطلب الثالث: السلفية التنويرية، وعلاقة جمعية العلماء بها

المطلب الأول: التوجه السلفي وعلاقة جمعية العلماء به:

أولا ـ حقيقة السلفية:

لغة**:** يطلق السلف ويراد به لغة أحد ثلاثة معان[1]:

الأول: التسوية، ومنه سلف- بفتح السين واللام- الأرض،من باب نصر، سواها بالمسِلفة –بكسر الميم- شيء تسوى به الأرض.

الثاني: بمعنى مضى وتقدم، من سلف يسلُف، ومنه السلاف المتقدمون، وسلف الرجل:آباؤه المتقدمون، وجمعه أسلاف وسلاف، قال ابن منظور: (السلف الجماعة المتقدمون في السير أو في السن أو في الفضل أو في الموت، والسلف أيضا العمل المتقدم في الإنسان)[2]

الثالث: بمعنى السَّلم، نوع من أنواع البيوع يعجل فيه الثمن وتضبط السلعة بالوصف إلى اجل معلوم، فالثمن مقدم على تسليم السلعة.

وقد وردت كلمة سلف في القرآن الكريم مرادا بها معنى واحدا وهو السبق والتقدم في الزمن ومنه قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال الآية 38]،،أي يغفر لهم ما تقدم ومضى من الذنب.

اصطلاحا:

نجد أحيانا من بعض الكتاب والباحثين خلطا بين مصطلح (**السلف**)، ومصطلح (**السلفية**)، أو (**التمذهب بمذهب السلف**)، وهذا يستدعي منا البحث عن المراد من كليهما، وبذلك يتضح لنا سر اختلاف المدارس السلفية، ذلك لأن لكل منها سلفه الخاص، أو فهمه الخاص للمراد بالسلف، ذلك أن كل تيار يزعم

---

[1]) ينظر مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادرالرازي باب السين ص264، ومفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني باب السين ص339.

[2]) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 9/158

أن له سلفه الخاص الممتد إلى العصور الأولى للإسلام[1].

1 ـ لفظ (السلف): يطلق لفظ السلف عادة على القرون الثلاثة المفضلة بنص قوله ﷺ: (إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) [2]، ذلك أنه ورد في الحديث اعتبار هذه القرون قرونا نموذجية في تمثيلها للإسلام وفهمها له، فقد ورد في تتمه الحديث: (ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن)[3]

وقد اختلف العلماء في تحديد (السلف) المرادين - بناء على هذا اختلافا شديدا - سواء من حيث تعيين المدة الزمنية بدقة، أو من حيث السلف المرادون في الحديث، والعادة الجارية عند المحدثين أن المراد بهم هم أهل الحديث، وخاصة من كان منهم في زمن الرواية، وعند الصوفية يشمل الطائفة الأولى من الصوفية، والذين أرخ لهم القشيري في رسالته، وهكذا نجد لكل طائفة سلفها الخاص بها، وشروطها الخاصة بهم.

2 ـ **لفظ (السلفية)**: كما اختلف في المراد من لفظ (السلف) وقع الخلاف في المراد من لفظ (السلفية)، وربما يمكن حصر الخلاف في مذهبين على أساسهما صنفت بعد ذلك التيارات الكثيرة:

المذهب الأول: وهو أن (السلفية) ليست مذهبًا إسلاميًا محددًا، بل هي - كما يعبر د. محمد سعيد رمضان البوطي - مرحلة زمنية مباركة، محصورة بالقرون الثلاثة الأولى من عمر

---

[1] لدرجة أن في الشيعة فرقة يقال لها (السلفية)، يطلق عليها كذلك (الإخبارية)، وهم كأهل الحديث بالنسبة للسنة (انظر: السيد علي حسين الجابري، الفكر السلفي عند الشيعة الاثني عشرية ، رسالة لنيل الماجستير من كلية الآداب في جامعة بغداد ، وطبع الكتاب في بيروت ، منشورات عويدات ، الطبعة الأُولى ، (1977 م)

[2] محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الجامع الصحيح المختصر، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط3، 1407، ج3، 3/324.

[3] صحيح البخاري، 3/224.

هـذه الأمة[1]، وبـذلك يصـبح المـراد بالسـلف هـو نفسـه المـراد بالسلفية.

وبالتالي لا يمكن اعتبـار السـلف الصـالح بهـذا الاعتبـار مصـدرا للتشريع أو لفهم الدين، وإنمـا يمكن فقـط اعتبـارهم في الخيريـة التي تعني الالتزام والتطبيق الفعلي للإسلام.

وعلى هـذا التفسـير نجـد أكـثر المـذاهب الفقهيـة والعقديـة والصوفية.. فكلهم يجل السلف ويحترمهم، ولكنه في نفس الوقت لا يلتزم بفهومهم أو اجتهاداتهم، بل نجـد فقيهـا كبـيرا كـأبي حنيفة يقول: (ما جاءَ عن اللهِ تعالى فعلى الرأسِ والعينين، وما جـاءَ عن رسولِ الله ﷺ فسمعاً وطاعةً، ومـا جـاءَ عن الصـحابةِ رضـي اللـه عنهم تخيرنا من أقوالهم، ولم نخرجْ عنهم، ومـا جـاءَ عن التـابعين فهُمْ رجالٌ ونحنُ رجالٌ)[2]

المذهب الثاني: ويـرى أن السـلف مصـدر للفهم والتشـريع، وأنــه لا يمكن فقــط التمــذهب بمــذهبهم، وإنمــا يجب التمــذهب بمذهبهم.

وقد ظهر هذا النوع من السلفية، والـتي يمكن أن نطلـق عليهـا (سلفية الاتجاه) ابتداء من عصر الإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ)، وتحديدا بعـد موقفـه من قضـية (خلـق القـرآن)، فقـد اعتـبر ذلـك الموقـف تاريخـاً فاصـلا بين (الابتـداع باسـم الـدين)، و(التمسـك بالأصول العقدية الصـحيحة من منابعهـا من القـرآن والسـنة وفهم السلف).. وبعده صارت السلفية اتجاهاً فكريـاً على سـاحة الفكـر الإسلامي، ويمثل خطوطاً منهجية تحاول أن تهتدي بهدي من تـراه صالحا من سلف[3].

---

[1]) د. محمد سعيد رمضان البوطي: السـلفية مرحلـة زمنيـة مباركـة لا مـذهب إسـلامي، دار الفكر، دمشق، ص9..

[2]) شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي، المبسوط، دراسة وتحقيق: خليل محي الدين الميس، دار الفكر للطباعـة والنشـر والتوزيـع، بـيروت، لبنـان، الطبعـة : الأولى، 1421هـ 2000م (11/3)

[3]) انظر: د. محمد أحمد عبد القادر، ملامح الفكر الإسلامي بين الاعتدال والغلو، دار المعرفة الجانبية، مصر، 2004 م، ص 68 -70

وبذلك فإن هـذا الاتجـاه ليس مـذهباً محـدد المعـالم كالمـذاهب الفقهيــة مثلاً، ولا هــو جماعــة محــددة التقاســيم كـــ (الإخــوان المسلمين) بل هـو -كمـا يعـبر عنهـا أصـحابها – (روح تسـري في العالم الإسلامي منذ عهود التـابعين واشـتهر باسـم (السـلف)، أو (أهــل الأثـــر)، ويقابلــه من الجــانب الآخـــر (أهــل الـــرأي)، أو (المتصوفة)، أو (المتكلمون)، أو غيرهم[1].

ولذلك فإن أكثر التعاريف التي يوردها القائلون بهذا هي تعاريف سلبية أكثر منها إيجابية أي أنهم يعمدون إلى النفي أكثر منهم إلى التحديد الدقيق، كما نـرى في تعريـف عبـد الـرحمن عبـد الخـالق الذي هو علم من أعلام السلفية المعاصرين، فهو يعـرف السـلفية بقولـه: (المـراد بمـذهب السـلف مـا كـان عليـه الصـحابة الكـرام رضــوان اللــه عليهم والتــابعون لهم بإحســان إلى يــوم الــدين، وأتباعهم وأئمة الدين ممن شـهد لـه بالإمامـة وعـرف عظم شـأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سـلف، كالأئمـة الأربعـة وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن المبـارك والنخعي والبخـاري ومسـلم وسـائر أصـحاب السـنن، دون من رمي بالبدعـة أو شـهر بلقب غير مرضي مثـل: الخـوارج والـروافض والمرجئـة والجبريـة والجهمية والمعتزلة. فكل من التزم بعقائد وفقه هؤلاء الأئمة كـان منسوبا إليهم وإن باعدت بينه وبينهم الأمـاكن والأزمـان، وكـل من خــالفهم فليس منهم وإن عــاش بين أظهــرهم وجمــع بهم نفس المكان والزمان)[2]

ويرى هؤلاء على عكس الفريـق السـابق أن التمـذهب بمـذهب السلف ليس جائزا فقط، وإنما هو واجب لا يصح العدول عنه، كما جــاء في رد علم من أعلام الســلفية المعاصــرين، وهــو الشــيخ الفـوزان على البـوطي في قولـه السـابق، وهـو في كتـاب تحت عنوان (نظرات وتعقيبات على ما في كتاب السلفية لمحمد سـعيد رمضــان من الهفــوات)، جــاء فيــه: (هــذا الكلام يثــير الدهشــة

---

[1] انظر : د.موسى زيد الكيلاني، الحركات الإسلامية في الأردن وفلسطين، ص237.

[2] عبـد الـرحمن عبـد الخـالق، لأصـول العلميـة للـدعوة السـلفية، الـدار السـلفية، الكـويت الطبعة: الثانية، 1398 هـ، ص5.

والاستغراب، كيف يكون التمذهب بالسلفية بدعة والبدعة ضلالة ؟ وكيـف يكـون وهـو اتبـاع لمـذهب السـلف، واتبـاع مـذهبهم واجب بالكتاب والسنة وحق وهـدي؟.. فالتمـذهب بمـذهب السـلف سـنة وليس بدعة، وإنما البدعة التمذهب بغير مذهبهم)[1]

ونحب أن نشير هنـا إلى أنـه من الصـعوبة فهم (السـلفية) على هـذا الاعتبـار لأن هنـاك انتقائيـة كبـيرة في تحديـد أعيـان السـلف المرادين، فالكثير من الأعلام الذين وجـدوا في العهـود الأولى من الإسلام، والذين صنفهم هذا التيـار في إطـار الخـوارج والـروافض والمرجئة، والجهميّة، والمعتزلـة.. وغـيرهم ضـالون لا يجـوز الأخـذ عنهم، بل يجب الرد عليهم.

ولهذا نجدهم بدل تعميم لفـظ (السـلف)، أو (السـلف الصـالح) يعمدون إلى ذكر أسامي المرادين مع أنهـا لم تحـدد في الحـديث، فيـذكرون (الأئمـة الأربعـة، والسـفيانيين، والليث بن سـعد، وابن مبارك النخعي، والبخاري، ومسلم وسائر أصحاب السنن)[2]

ولكنهم مع ذلك يقعون في تناقضات أخرى ذلك أنّ من ذكروهم كان فيما بينهم خصومات إلى حـد التكفـير، فهـذا الإمـام أحمد بن حنبل كان يرى أن الإمام أبـا حنيفة كـان من المرجئة[3]، والمـرجئ في تصورهم ضال منحرف ومبتدع[4]، وقد كفّرتـه بـاقي الفـرق[5].. وفوق ذلك نراه يقول بخلـق القـرآن[6]، وفي تصـورهم أن كـل من يقول بخلق القرآن فهو جهمي، وكل جهمي كافر.

ثانيا ــ موقف جمعيـة العلمـاء المسـلمين من التوجـه

---

[1] الشيخ الفوزان، نظرات وتعقيبات على ما في كتاب السـلفية لمحمـد سـعيد رمضـان من الهفوات، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشـاد، مجلـة البحـوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتـاء والـدعوة والإرشاد – العدد26، ص211.

[2] د. محمود عبد الحليم: السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص11.

[3] أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، المكتبة العصرية، بيروت، 1/202.

[4] ابن حجر: لسان الميزان، مكتب المطبوعات الاسلامية، 2/142.

[5] البغدادي: الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 5، 1982م، ص 128.

[6] الأشعري: مقالات الإسلاميين 1/312.

السلفي

وردت التصــريحات الكثــيرة من أعضــاء الجمعيــة تنص على توجهها السـلفي، بـل وتفتخـر بهـذا التوجـه، وتـدعو إليـه، وتعتـبر الدعوة إليه من صميم أهداف الجمعية الذي أسست لأجله.

وســنكتفي هنــا بعــرض بعض هــذه التصــريحات من أعضــاء الجمعيــة، وخصوصــا الكبــار منهم لنــبرهن بــذلك على توجههــا السلفي.

أمـا فهم الجمعيـة للمـراد من (السـلفية)، والمبـادئ المرتبطـة بذلك، فسنتحدث عنها عنـد الحـديث عن أنـوع المـدارس السـلفية التي ارتبطت بها.

عبد الحميد بن باديس:

صــرح عبــد الحميــد بن بــاديس في مواضــع كثــيرة من خطبــه ومقالاته ورسائله على توجهه وتوجه جمعيته السـلفي، فهـو يقـول في رسـالته: (العقائـد الإسـلامية من الآيـات القرآنيـة والأحـاديث النبوية): (القـرآن هـو كتـاب الإسـلام، السـنّة القوليـة والفعليـة -الصحيحة- تفسير وبيان للقرآن، سلوك السلف الصـالح –الصـحابة والتابعين وأتباع التابعين- تطبيق صحيح لهدي الإسـلام فهـوم أئمـة السلف الصالح أصدق الفهـوم لحقـائق الإسـلام ونصـوص الكتـاب والسنّة)[1]

ويقــول في كلمتــه الــتي ألقاهــا في حفــل ختم تفســير القــرآن الكريم بالجامع الأخضر بقسنطينة: (فإنّنا والحمد لله نربي تلامذتنا على القـرآن من أوّل يـوم، ونوّجـه نفوسـهم إلى القـرآن في كـلّ يوم، وغايتنا التي سـتتحقق أن يُكـوّن القـرآن منهم رجـالا كرجـال سلفهم)[2]

وشــهد لــه بهــذا التوجــه الســلفي رفيــق دربــه الشــيخ البشــير الإبراهيمي في كلمته التي ألقاها في حفـل ختمـه تفسـير القـرآن الكريم، فقال: (هذا هو اليوم الذي يختم فيـه إمـام سـلفي تفسـير كتـاب اللــه تفســيرا ســلفيا لــيرجع المســلمون إلى فهمــه فهمــا

---

[1] ابن باديس، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، دار البعث، ط1، سنة 1406 هـ، ص17.

[2] آثار ابن باديس (1/ 80)

سلفيا...)[1]

وقال في مقال له حول الحفل نفسه: (وأراد الله فحقق للأستاذ أمنيته من ختم التفسير، وللأمّة رجاءها في تسجيل هذه المفخرة للجزائر، ولأنصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانهم بمدارسة كتاب الله كاملا...)[2]

وقال في موضع آخر: (أتمّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درساً على الطريقة السلفية... ولا معنى لذلك كلّه إلا أنّ إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمّة التي تدين لله به)[3]

وقال مثنيا عليه بعد وفاته بهذا التوجه: (باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر؛ وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وامام الحركة السلفية؛ ومنشئ مجلة (الشهاب) مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربّي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدْي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومُحيي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسّر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها، علم البيان، وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأوّل مؤسّس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، رحمه الله ورضي عنه)[4]

البشير الإبراهيمي:

وقد صرح في مواضع كثيرة عن توجهه السلفي وفخره به، ومن تصريحاته الدالة على تعظيمه لهذا الاتجاه قوله في رده

---

1) ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، من منشورات وزارة الشؤون الدينية، ص467.

2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص453.

3) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص15.

4) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 552)

على الشيخ عبد الحي الكتاني: (لقد كان من مقتضى كون الرجل محدِّثًا أن يكون سلفيّ العقيدة وقّافًا عند حدود الكتاب والسنَّة، يرى ما سواهما من وسواس الشياطين، وأن يكون مستقلًّا في الاستدلال لما يؤخذ ولما يترك من مسائل الدين، وقد تعالت همم المحدّثين عن تقليد الأئمة المجتهدين، فكيف بالمبتدعة الدجّالين؛ وعرفوا بالوقوف عند الآثار والعمل بها، لا يعْدونها إلى قول غير المعصوم إلا في الاجتهاديات المحضة التي لا نصّ فيها؛ ولكن المعروف عن هذا المحدّث أنه قضى عمره في نصر الطرقية وضلالات الطرقيين ومحدَثاتهم بالقول والفعل والسكوت، وأنه خصم لدود للسلفيين، وحرب عوان على السلفية، وهل يرجى ممن نشأ في أحضان الطرقية، وفتح عينيه على ما فيها من مال وجاه وشهوات ميسّرة ومخايل من المُلك، أن يكون سلفيًّا ولو سلسل الدنيا كلها بمسلسلاته؟)[1]

ثم وضح شروط التحقق بـ (السلفية)، فقال: (إن السلفية نشأة وارتياض ودراسة، فالنشأة أن ينشأ في بيئة أو بيت كل ما فيها يجري على السنّة عملًا لا قولًا؛ والدراسة أن يدرس من القرآن والحديث الأصول الاعتقادية، ومن السيرة النبوية الجوانب الأخلاقية والنفسية، ثم يروّض نفسه بعد ذلك على الهدي المعتصر من تلك السيرة وممن جرى على صراطها من السلف) [2]

وصرح بهذا وفي رسالة وجهها إلى الملك سعود يقول فيها: (حضرة صاحب الجلالة الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية- الرياض.. يا صاحب الجلالة: ما زلنا نعتقد أن جلالتكم أعلم الناس بالحركتين الإصلاحية السلفية، والثقافية العلمية العربية بالجزائر، وأعلم الناس بآثارهما الطيبة في الأمّة الجزائرية، وإنكم أكبر أنصارهما والمقدّرين لثمراتهما والعاملين على تغذيتهما والمرجوّين لاحتضانهما..)[3]

وفي رسالة وجهها إلى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ جاء

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 544)

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 544)

[3]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 51)

فيها (..أُذَكِّرِكم أن لكم بالجانب الغربي من وطن العروبة ومنــابت الإســلام الأولى ومجــرى ســوابق المجاهــدين الأولين لَإِخوانًــا في العروبــة وهي رحم قويــة، وفي الإســلام وهــو ســبب مــرعي، وفي ذلك المعنى الخاص من الإسلام وهو السلفية التي جاهدتم وجاهــد أســلافكم الأبــرار في ســبيل تثبيتهــا في أرض اللــه، وقــد لقــوا من عنت الاستعمار وجبروته مــا أهمّهم وأهمّ كــل مســلم حقيقي يعلم أن الإســلام رحم شــابكة بين بنيــه أينمــا كــانوا، وأن أقــل واجباتــه النجدة في حينها والتناصر لوقته)(1)

أبو يعلى الزواوي:

وقد صرح بانتمائه لهــذا التوجــه، وشــهد لــه بــه، فمن تصــريحاته قوله في مقاله الذي نشر في جريدة الشهاب: (...وســاءني كثــيرا إذ فشلت في سعي في الصلح والهدنة والاتفاق على قواعد نجري عليهــا نحن معشــر الســلفيين) ثمّ أمضــى هــذا المقــال: (الــزواوي السلفي إمام مسجد سيدي رمضان)(2)

وقــال: (ثمّ بقي أن أقــول: أنّــه لا ينبغي بحــال ونحن ســلفيون إسلاميون شرعيون مقيدون بــالقوانين الإلهيــة والدوليــة أن تكــون أعمالنا من قبيل الرجم بــالغيب أو التشــفّي والإنتقــام ممن عســى أن يكونوا برءاء)

وقال في رسالته إلى الكاتب السلاوي الفاسي: (لأننــا ســلفيون دعاة الإصلاح العام في الدّين وما ألصــق بــه وفي الجنس ومــا هــو فيه... ونخصّ – نحن السلفيّون- بشيء أدقّ مما يكون، وما هو هذا الشيء ؟ وهو التدقيق والتحقيق في الأقوال والأفعال، والحذر من الخطأ والخطل في القول والعمل)(3)

وقال - مشيدا بطريقة السلف في العقيدة والتوحيد -: (إن خــير طريقة في العقيدة التوحيدية طريقــة الســلف الــتي هي اتبــاع مــا ثبت عن اللــه وعن رســوله من غــير كــثرة التأويــل والــدخول في

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 221)

(2) أحمد حماني، صراع بين السنّة والبدعة 1/135-138.

(3) أحمد حماني، صراع بين السنّة والبدعة 2/67.

الأخذ والرد من الجدل في المتشابه وإيراد الشبه والرد عليها)[1]

وقال متبرئا من غير المنهج السلفي: (أما أنا ومن على شاكلتي من إخواني الكثيرين فلا شريعة لنا ولا دين ولا ديوان إلا الكتاب والسنة وما عليه محمد وأصحابه وعقيدة السلف الصالح أي فلا اعتزال ولا ماتريدي ولا أشعري وذلك أن الأشاعرة تفرقوا واختلفوا أي المتقدمون منهم والمتأخرون، ووقعوا في ارتباك من التأويل والحيرة في مسائل يطول شرحها لم تصف بعد فعلام؟ وقل آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،كما قال تعالى: {قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} (النساء: 91)[2]

وعند ذكره لأسباب تفرق المسلمين ذكر البعد عن المنهج السلفي، فقال: (إن كثرة التفريق والاختلاف في التعاليم الدينية مزق الأمة كل ممزق، وهذا مما أدركه كل مسلم جاهلا كان أو عالما، فلزم إذن عدم التفريق وذلك إنما يكون بتوحيد التعاليم قدما وحديثا وهذا أمر صعب ولكن على غير العاملين بحديث النجاة وهو قوله ﷺ : (إلا واحدة وهي ما أنا عليه وأصحابي)[3] فعلام نغفل هذا أو نتعامى ونعمل بمائة مذهب وبألف ملة وطريقة)[4]

وقد سبق ذكر بعض الشهادات من الشيخ مبارك الميلي والطيب العقبي تشيد بتوجهه السلفي.

العربي التبسي:

وقد صرح بتوجهه السلفي في مواضع كثيرة من مقالاته ورسائله وغيرها، ومن ذلك قوله في رسالته (بدعة الطرائق في الإسلام): (وبعون الله سأجعل كلّ حجّة من حجج الطرائق التي اشتهرت بها، وذاعت بيننا منفردة ببحث وأقيسها بعصر السلف.

---

1) أبو يعلى الزواوي، الاسلام الصحيح، مطبعة المنار، مصر، سنة 1345هـ، (ص:14)

2) أبو يعلى الزواوي، الإسلام الصحيح، ص94.

3) الترمذي، السنن، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998 م، 4/323.

4) أبو يعلى الزواوي، الإسلام الصحيح، ص117.

فإن وُجد لها أصلٌ بينهم (أي السلف الصالح) قبلناهـا وعملنـا بهـا، وعززناها. وما لم نجد له أصـلا في أيـامهم، وعـرف بينهم اعتقـدنا أنّه بدعة محدثة)[1]

وقال: (ونحن نعرض عملهم هذا ونقيسه بالهدي النبوي وعمــل السـلف، فـذلك الـدّين، ومـا لم يعـرف في تلـك الأيّـام بعمـوم أو خصوص فليس من الدّين، فإنكاره قربة، والاعتراف به بدعة) [2]

وقال في موضع آخـر: (إن هـذا الإرشـاد الـذي يجب القيـام بـه تبليغـا للـدين نيابـة عنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، يجب أن يكـون مستمدا من أصول التشريع الإسـلامي، الـتي هي الكتـاب الحكيم، والسيرة النبوية، والسنة المطهرة، وهدي السلف الصالح، وفهــوم أئمة الإسلام، الـذين يحكمـون أصـول الـدين في أقـوالهم وآرائهم ويقولون كلهم راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر، إشارة لقبره صلى الله عليه وسلم، ويقولون الـدين حـاكم في أقـوال الرجـال، وأقوالهم محكومة خاضعة لأدلـة الـدين. فعلى هـذه الأصـول الـتي هي مصدر التشريع الإسلامي ينبني الإرشاد الديني)[3]

مبارك الميلي:

وقد صرح بهذا التوجه وانتصر له في مواضـع كثـيرة، ومن ذلـك قولـه في مقـال لـه بعنـوان (المصـلحون والمرجفـون): (من أين فهمتم إنكارنــا الولايــة الثابتــة بالكتــاب الــذي دعونــاكم ولا نــزال ندعوكم إلى طرح ما يخالفه؟ وفي أيّ جملة رأيتم عدم الاعـتراف بالكرامة، وهي عقيدة السلف ونحن سـلفيّون نرجـو أن نلقى اللـه كذلك)[4]

وقال في (رسالة الشرك ومظاهره): (فنحن بالعقيـدة السّـلفية قائلون، ولما مات عليه الأشعري موافقون)[5]

---

[1] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، دط، دت، ص9.

[2] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص10.

[3] نقلا عن: منارات من شهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للـدكتور أحمد عيساوي، ص 109.

[4] جريدة المنتقد، العدد 14.

[5] رسالة الشرك ومظاهره، ص26.

الطيّب العقبي:

وسلفيته أشهر من أن يستدل لها، فقد قـال عنـه الشـيخ أحمـد حماني: (كان الشيخ العقبي في دروسه وخطبه ومقالاتـه ينهج نهج السـلفيين في إحيـاء السـنّة وإماتـة البدعـة والهجـوم بشـدّة على البدع والضلالات والأوهام والخرافات)[1]

وقال هو عن نفسه في في قصيدته (إلى الدّين الخالص)[2] :

أيهــا الســائل عن معتقــدي يبتغي مني مـا يحـوي الفـؤاد

إنــــني لســــت ببــــدعي ولا خــارجي دأبــه طــول العنــاد

إلى أن يقول:

مــــذهبي شــــرع النــــبي المصطفى واعتقادي سـلفيٌ ذو سـداد

خطــــتي علم وفكــــر نظر في شــؤون الكــون بحث واجتهاد

وطريق الحـق عنـدي واحد مشــربي مشــرب قــرب لا ابتعاد

ثالثا ــ المدارس السلفية وموقف جمعية العلماء منها

إن هـذه التصـريحات الـتي نقلناهـا - مـع أهميتهـا - لا يمكن من خلالهـا وحـدها أن نتعـرف على التوجـه الفكـري لجمعيـة العلمـاء المسلمين، وذلك لسببين:

الأول: أن اسـم السـلفية تتنازعـه تيـارات مختلفـة، بـل أحيانـا متناقضـة، حـتى أن البعض يعتـبر سـلامة موسى سـلفيا[3]، على

---

[1] صراع بين السنّة والبدعة 2/174.

[2] الطيب العقبي، قصيدة إلى الدين الخالص، د.ط.د.ت، ص2.

[3] انظر: حموده سعيدي، الخطاب الإيبستيمولوجي في الفكر الفلسـفي العـربي المعاصـر : حـدوده وآفاقـه، أطروحـة لنيـل دكتـوراه الدولـة في الفلسـفة، تخصـص : إيبسـتيمولوجيا، إشراف : د. عبد اللّه شريط، السنة الجامعية : 2002- 2003، ص51..

الرغم من توجهه التغريبي، وذلك لادعائه أن اللغة العربيـة عـاجزة عن استيعاب الثقافة المعاصرة، وكأنها لا تسـتطيع أن تعـبر إلا عن الواقع السلفي الذي ازدهرت فيه.

بالإضافة إلى هذا، فقـد ظهـرت على السـاحة الإسـلامية الكثـير من المناهج، والتي تعتبر نفسها جميعا منـاهج سـلفية على الـرغم من التناقضات الكثيرة بينها.

الثاني: وهو نتيجة لمـا قبلـه، وهـو أن هنـاك خلافـا شـديدا بين الكتاب المعاصرين حول مدى سلفية الجمعيـة أو أعضـائها، فبينمـا نجد بعضها يحاول أن يثبت (سلفية ابن باديس) مثلا، مثل ما كتبـه الحاج عيسى[1]، أو أبو عبـد المعـزّ محمـد علي فركـوس، نجـد في المقابل من يكتب الكتب والمقالات المطولة الـتي لا تمنحـه هـذه النسبة، ونفس الشيء يقال عن سـائر أعضـاء جمعيـة العلمـاء إلا من ندر منهم.

وبناء على هذا نحـاول في هـذا المطلب أن نتعـرف - أولا- على أنواع المدارس السلفية، ثم عن موقف جمعية العلماء المسـلمين منها، لنحدد من خلال ذلك الاتجاه الدقيق لجمعية العلماء.

1 ــ المدارس السلفية وتنوعها:

بناء على ما ذكرنا سـابقا من التنـازع في التعامـل مـع مصـطلح (السلفية)، فقد ظهرت مدارس كثيرة تحمل هذا الاسم، وقد كـان ولا زال الخلاف بينها شديدا إلى درجة التناقض.

وقــد كتب محمــد عمــارة في هــذا كتابــا بعنــوان (الســلفية.. واحـدة؟.. أم سـلفيات؟) تنـاول فيـه قضـية التنـوع والتنـاقض بين المدارس السلفية على السـاحة السياسـية والإعلاميـة في العـالم الإسلامي، بل على مستوى العالم ككل[2].

---

[1]) كتب الحاج عيسى كتاب (الرد النفيس على الطاعن في العلامة ابن باديس) ناقش فيـه ما ورد في كتاب (الرد الوافي على من زعم أن ابن باديس سلفي) للمدعوة ام ايـوب، حيث أخرجت الشيخ ابن باديس من السلفية بأدلة رد عليها الشيخ محمد حاج عيسى.

[2]) صدر الكتاب ضمن سلسلة (في التنوير الإسلامي)، من أربعة مباحث رئيسية، تناول الأول منها تحرير للمفاهيم والمصطلحات المحددة كمحور للدراسة، بينما تناول الثاني تاريخ ظهـور المصطلح منذ أيام الدولـة العباسـية، أمـا المبحث الثـالث فقـد تنـاول تطـور السـلفية طيلـة

وقد خلص في نتيجة بحثه إلى أن السلفية (قـد توزعتهـا العديـد من التوجهات، فطرأ عليها الكثير من الانشقاقات فمنها ما يسـمى بالسلفية العلمية الـتي تحـاول اسـتلهام المشـروع التجديـدي لابن تيميــة.. ومنهــا الســلفية الجهاديــة الــتي ســلكت طريــق العنــف والتغيـير.. ومن هـذه السـلفية المعاصـرة فصـيل بلـغ في الغلـو والجمود حدوداً فـاقت الخيـال حـتى لقـد كتب بعضـهم في تفكـير أئمة السلفية مثـل ابن القيم الـذي قـالوا عنـه : (إنـه زائـغ مبتـدع كذاب وقح بليد غبي جاهل ضال مضل خارجي ملعون كافر)، وقال أحد كتاب هذه السلفية الظلامية عن ابن تيمية: (إنـه لا تؤخـذ منـه أحكام الـولاء والـبراء ولقـد سـئمت من تتبـع مخـازي هـذا الرجـل المسكين)[1]

وفي موضع آخر عبر عن النتيجة التي يدل عليها الواقع الـدعوي والسياسي المعاصر، فقـال: (وهكـذا نجـد أنفسـنا تاريخيـاً وحـديثاً أمام عدد من السلفيات، وليس أمـام سـلفية واحـدة كمـا يحسـب كثير من السلفيين ومن خصوم السلفيين) [2]

وكمثــال على هــذا التنــوع، نحب أن نــذكر دراســة مهمــة عن الحركة السلفية في مصـر وتنوعهـا، وهي دراسـة ميدانيـة صـنفت الحركات السلفية المصرية إلى أربع سلفيات: السـلفية التقليديـة، والسلفية العلميـة، والسـلفية الحركيـة، السـلفية الحديثيـة (أهـل الحديث)[3]

فالسلفية التقليدية: وتهـدف – بحسـب دعاتهـا – إلى تنقيـة الدين مما يرونه من البدع خاصة المرتبطـة بالتصـوف والأضـرحة، وكذلك منع المسلمين من الإفتتان بالحضـارة الغربيـة ومرتكزاتهـا الفكرية المخالفـة للإسـلام.. ووسـيلة التغيـير عنـدهم تنحصـر في الــدعوة عــبر خطب الجمعــة والــدروس الدينيــة في المســاجد

القرون الماضية، بينما تناول المبحث الرابع السلفية في العصر الحديث.

[1] محمد عمارة، السلفية.. واحدة؟.. أم سلفيات؟ نهضة مصر، القاهرة، 2008 ، ص75.

[2] محمد عمارة، السلفية.. واحدة؟.. أم سلفيات؟ ص77.

[3] انظر: موقـع التغيـير على هـذا الرابـط: http://abomalik3.blogspot.com/، ولم أجـد هـذه الدراسة منشورة.

بالإضافة إلى الدعوة الفردية.

السلفية العلمية: وهي السلفية التي تعتمد مهج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وتتلخص رؤيتها في أن ما لحق بالمسلمين من تدهور حضاري سببه الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات والآراء الفقهية التي تخالف الحديث الصحيح وبالتالي فالتغيير الإسلامي لابد من أن يمر بالمراحل التالية:

أولا- التصفية: وهي أن يقوم علماء المسلمين بتنقية الكتب الشرعية كلها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات والأراء الفقهية التي تخالف الحديث الصحيح.

ثانيا- التربية: حيث يتم دعوة وتربية أغلبية المسلمين على هذه الكتب الصافية من أي أخطاء.

ثالثا- المفاصلة: حيث يعلن المؤمنون انفصالهم عن الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله ويعلنون أن هؤلاء الحكام على باطل وينذرون الحكام واعوانهم بالرجوع عن باطلهم وإلا سيواجهون جهادا إسلاميا من أهل الحق ويطالب كل المسلمين بتحديد موقفهم بشكل واضح إما مع أهل الحق وإما مع أهل الحكم وهنا حكمهم هو حكم أهل الباطل.

رابعا- الجهاد: وهو في حالة ما إذا رفض الحكام الإلتزام بالإسلام بعد الإنذار السابق فحينئذ يجاهدهم أهل الحق لأن الصفوف في هذه الحالة ستكون قد تمايزت فصار بعض الشعب مع الحق وبعضه مع الباطل وهنا سيكون الفريقان المتصارعان واضحين لا بس فيهما, فلا يقع ضحايا لا علاقة لهم بالصراع بل يكون أى إنسان إما مع هذا الفريق أو ذاك.

السلفية الحركية: وقد نشأت في نفس الوقت الذي نشأت فيه السلفية العلمية (منتصف السبعينات من القرن العشرين الميلادي) بقيادة عدد من الدعاة الشباب حينذاك، ولم يختلف هذا الرافد السلفي عن السلفية العلمية إلا في شيء واحد وهو الاعلان عن كفر الحاكم الذي لا يحكم بالشريعة الاسلامية باسمه أيا كان اسمه.

سلفية أهل الحديث: وقد ظهر هذا الاتجاه – وإن كان في أصله تابع للسلفية العلمية – في أوائل الثمانينات, فانجرف بعض

السلفيين نحو دراسة المصطلح وعلم العلل ومعرفة الصحيح من الضعيف , بالاضافة لإلقاء الخطب والدروس الوعظية والعلمية للعامة وللخاصة, ومن هؤلاء أبو إسحاق الحويني , ومصطفى العدوي , وأسامة القوصي , ومحمد سعيد رسلان وغيرهم.

هذا نموذج عن استعداد المدارس السلفية للخلاف، وقد عقب كاتب الدراسة على كلامه هذا بقوله عند ذكر بعض التيارات السلفية: (هذا الكلام قبل أحداث ثورة 25 يناير , ولنا كتاب (الدولة السلفية) نبين فيه التحولات السياسية والفكرية عند هذا الفصيل السلفي)

ولعل السر في هذا الاختلاف والاستعداد له هو تنوع السلف أنفسهم، فالسلف ليسوا فردا واحدا، ولا فكرا واحدا، ولا منهجا واحدا، ولذلك ما أسهل أن يجد كل من يريد أن يصف نفسه بالسلفي من السلف من يؤيده في دعواه.

ولكنا مع هذا رأينا، ومن خلال تتبع الفروق الكبرى بين المدارس السلفية القديمة والمعاصرة أن هناك تياران كبيران، يجتمعان في لقب السلف، ويختلفان بعد ذلك اختلافات شديدة يصعب معها اجتماعهم لأنها تصل إلى حد التناقض، وقد عبرنا عنهما ب (السلفية المحافظة)، و(السلفية التنويرية)

وقد رأينا أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد ذكرتهما واستفادت من كليهما، وإن كانت أكثر ميلا من السلفية الثانية منها إلى السلفية الأولى.

2 ـ موقف جمعية العلماء من المدارس السلفية:

من خلال أدلة كثيرة سيتم استعراضها رأينا أنه يمكن تحديد التوجه الفكري لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ضمن صنفين من التوجهات كلاهما يطلق عليه - اصطلاحا- (سلفية)، وهما (السلفية التنويرية)، و(السلفية المحافظة)، فبعض أعضاء الجمعية، وخصوصا ابن باديس كان أميل إلى السلفية التنويرية منه إلى السلفية المحافظة، وفي المقابل نجد الطيب العقبي أكثر ميلا إلى السلفية المحافظة منه إلى السلفية التنويرية، ولعل هذا

من الأسـباب الـتي عجلت بـالخلاف بين الـرجلين الكبـيرين المؤسسين للجمعية.

وذلـك لأن الخلاف بين كلتـا السـلفيتين خلاف حـاد، رغم بعض النقاط المشتركة بينهما، ويـدل على ذلـك أن السـلفية المحافظـة وإلى الآن تعتبر محمد عبده ممثل السلفية التنويرية مبتدعا ضـالا، إلى غيرها من المواصفات التي تصفه بها.

ومثل ذلك نجد محمد عمارة الذي يصـرح بأنـه امتـداد للسـلفية التنويرية ينتقـد التيـار السـلفي المحافـظ انتقـادا حـادا إلى درجـة اعتباره خطرا على الإسلام[1].

ولكنا مع ذلك يمكننا - بشيء من التحفظ - أن نذكر بأن جمعيـة العلماء - وخصوصا في موقفها من الطـرق الصـوفية - حـاولت أن تمـزج بين كلتـا السـلفيتين، فهي تـرد على التخلـف الطـرقي والخرافة الطرقيـة باعتبارهـا سـلفية تنويريـة، وتـرد على تفاصـيل الممارسات الطرقية بالأدلة التي تراها باعتبارها سلفية محافظـة، ولهـذا نراهـا تسـتعير من رسـائل الوهابيـة وكتبهـا مـا تـدعم بـه مقولاتها.

ومع ذلـك، فـإن هـذا لا يعـني أن جمعيـة العلمـاء تقمصـت كلتـا المدرستين تقمصا كليا، أو أنها تلقت تعاليمهـا منهمـا فقـط، وإنمـا هناك اتفاق كبير بينها وبين كلتـا المدرسـتين، ويوضـح هـذا أن ابن بـاديس يخـبر عن نفسـه أنـه اتهم بالعبدوية[2]، كمـا اتهم بعـد ذلـك بالوهابية من غير أن يكـون لـه اطلاع كبـير على مؤلفـات كليهمـا، يقول في ذلك في مقال تحت عنوان (عبـداويون، ثم وهـابيون، ثم ماذا؟): (لمـا قفلنـا من الحجـاز وحللنـا بقسـنطينة عـام 1932 م، وعزمنـا على القيـام بالتـدريس أدخلنـا في برنـامج دروسـنا تعليم اللغـة وأدبهـا، والتفسـير، والحـديث، والأصـول، ومبـادئ التـاريخ، ومبادئ الجغرافية، ومبـادئ الحسـاب، وغـير هـذا.. ونحبب النـاس

---

[1] صرح بذلك في مواضع كثيرة من كتبه منها قولـه مثلا: (نحن في مواجهـة خطـر السـلفية النصوصـية) (المعتزلـة.. ص(5) وانظـر كتبـه: (نظـرة جديـدة..) ص(13)، و(الإسـلام والمستقبل)، ص(249).

[2] وهي إشارة إلى محمد عبده.

في فهم القـرآن، ونـدعو الطلبـة إلى الفكـر والنظـر في الفـروع الفقهيــة، والعمــل على ربطهــا بأدلتهــا الشــرعية، ونــرغبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين، لما قمنا بهذا وأعلناه قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود والركـود، وصـاروا يدعوننا – للتنفير والحط منـا (عبـداويين) دون أن أكـون – واللـه – يوم جئت قسنطينة قرأت كتب الشيخ محمد عبده إلا القليـل، فلم نلتفت إلى قـولهم، ولم نكـترث لإنكـارهم، على كـثرة سـوادهم، وشدة مكرهم، ومضينا على ما رسمنا من خطة، وصـمدنا إلى مـا قصدنا من غاية، وقضيناها عشر سنوات في الدرس لتكوين نشـئ علمي لم نخلط به غيره من عمل آخر.. وكانت هذه المـرة غضـبة الباطل أشد، ونطاق فتنته أوسع، وسواد أتباعه أكـثر، وتمـالأ علينـا دعاة الجمود والبدعة، وعليهما بنيت صروح من الجاه، ومنها جرت أنهارالمال، وأصبحت الجماعة الداعية إلى الله بدعون من الداعين إلى أنفسهم (الوهابيين) ووالله ما كنت أملك يومئذ كتابا لابن عبـد الوهاب، ولا أعرف من ترجمـة حياتـه إلا القليـل، ووالله إنمـا هي أفيكات قوم يهرفون بما لا يعرفون، ويحاولون من إطفاء نور اللـه مالا يستطيعون، وسنعرض عنهم اليوم، وهم يدعوننا وهابيين، كمـا أعرضنا عنهم بالأمس وهم يدعوننا عبدواويين ولنا أسـوة بمواقـف أمثالنا مع أمثالهم من الماضين)[1]

ونفس المقولـة رددهـا الشـيخ البشـير الإبـراهيمي، فقـد قـال: (ويقولـون عنـا إننـا وهـابيون، كلمـة كـثر ترددادهـا في هـذه الأيـام الأخيرة حـتى أنسـت مـا قبلهـا من كلمـات : عبـداويين، وإباضـيين وخوارج...فنحن بحمـد اللـه ثـابتون في مكـان واحـد وهـو مسـتقر الحق)[2]

المطلب الثاني: السـلفية المحافظـة وعلاقـة جمعيـة العلماء بها

يطلــق الكثــير لقب (الوهابيــة) على هــذا النــوع من الســلفية، باعتبار أن المؤسس الأكبر لهـذا التيـار هـو الشـيخ محمـد بن عبـد

[1] آثار ابن باديس: 3/28.

[2] آثار الابراهيمي: 3/123.

الوهاب، وهو لقب اختلف السلفيون المحافظون في قبوله وعدم قبوله[1]، ولذلك آثرنا بدل تلقيبهم به، تلقيبهم بالمحافظين، وذلك لأنهم يتبنون المنهج المحافظ التقليدي الذي يرفض الكثير من الأدواب والأساليب المعاصرة.

وقد عرفهم أمير البيان شكيب أرسلان، فقال: (لا ينكر أن الوهابية هي نهضة في الإسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند، والقائمون بها أولو تعصب شديد، وربما أفرطوا في مبادئهم وغلوا في عقائدهم شأن جميع المذاهب التي لا يقف أتباعها عند الحد الذي وضعه أصحابها، ولكن المقرر أنها حركة إنابة إلى العقيدة الحق وهدي السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول ﷺ والصحابة ونبذ الخرافات والبدع، وحظر الاستغاثة بغير الله ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ولذلك يسمونها

---

[1]) الكثير من خصوم هذا النوع من المدارس السلفية أطلقوا لقب (الوهابية) عليها، لكن بعضهم يتحاشى من هذا اللقب. (انظر : تعقيب الشيخ صالح الفوزان على كتاب (محمد بن عبد الوهاب) لعبد الكريم الخطيب (مجلة كلية أصول الدين) ع1، ص68)، حيث خطأ الفوزان إطلاق اسم الوهابية على دعوة الشيخ من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى، وانظر :ما كتبه الشيخ عبد الله الجبرين حول هذا الإطلاق في مجلة البحوث الإسلامية ع9، ص129). ولكن فيما بعد نجد أنصار هذا التيار وعلماءه لا يتحاشون استعمال كلمة (الوهابية) (انظر : رسالة (الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية) لابن سحمان، و(أثر الدعوة الوهابية) لمحمد حامد الفقي، و(الوهابيون والحجاز) لمحمد رشيد رضا و(الثورية الوهابية والفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم) للقصيمي و(حقيقة المذهب الوهابي) لسليمان الدخيل.

يقول مسعود الندوي في كتابه (محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم: ص 165) : (وعلى كل حال فنظرا إلى تلك المحاولات التي بذلت لإظهار الوهابية في صورة مذهب مستقل وطائفة ضالة هذا الاسم منتقد أشد الانتقاد ولكن بغض النظر عن هذه الأكذوبة والافتراء فلا أرى حرجاً في هذه التسمية) (نقلا عن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، طبعة الدرر السنية، ص 92)

وقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تطلق على هذا النوع من السلفية لقب (الوهابية) كما سنرى.

عقيدة السلف ويلقب الوهابيون أنفسهم سفليين)[1]

بناء على هذا، سنحاول في هـذا المطلب أن نبحث في نـاحيتين ربما تكونان دليلين كافيين لإثبات مـدى صـلة الجمعيـة بهـذا التيـار السلفي:

أمـا **أولاهما**، فهي إثبـات مـدى العلاقـة الـتي تربـط أعضـاء الجمعية بها، من خلال تصريحاتهم، أو غيرها.

وأما **الثانية**، فهي إثبات مدى الاتفاق في المبادئ بين الجمعيـة وبين هذا التيار السلفي.

ونحسب أن الثانية كافية في الدلالـة لأن المبـادئ هي الأسـاس في الاتفاق أو الاختلاف، ولكنـا أحببنـا أن نضـم إليهـا الأولى، حـتى نعرف أنواع المصادر التي كانت تعتمد عليها الجمعية في تعاملاتهـا مع المخالفين، وخصوصا أصحاب الطرق الصوفية.

أولا ــ علاقة جمعية العلماء بالسلفية المحافظة:

بما أن مصطلح السلفية منذ فترة طويلة صار لا يطلـق إلا على هذا التوجه المحافظ، فإنا نرى الكثير من الباحثين وغـيرهم حملـوا النصوص التي عبر فيها أعضاء الجمعية عن توجههم السـلفي على هـذا النـوع من التوجـه حـتى أن هنـاك من ألـف الكتب والرسـائل للدلالة على هذا، كرسالة الدكتور عبـد الحليم عـويس المعنونـة بـ (أثـر دعـوة الإمـام محمـد بن عبـد الوهـاب في الفكـر الإسـلامي الإصلاحي بالجزائر)، والتي ذكر فيها أن أول من حمل راية الدعوة السلفية هو المؤرخ الجزائري (أبـو راس الناصـري) الـذي اجتمـع بتلاميذ الشيخ محمد بن عبـدالوهاب في الحج وذاكـرهم في أمـور إلى أن انتهى به الأمر بالاقتناع , وكان ذلك بحضور وفد حجيج كان يرأسه ولي عهد المغرب آنذاك[2].

ومنها كتاب الدكتور تركي رابح (الشيخ عبـد الحميـد بن بـاديس والشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب في طريـق الإصـلاح والسـلفية -

---

[1]) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة، تحقيـق: شـكيب أرسـلان، دار الفكـر العربي، الحاشية رقم (1) 1/264.

[2]) عبـد الحليم عـويس , أثـر الإمـام محمـد بن عبـدالوهاب في الفكـر الإسـلامي الإصـلاحي بالجزائر , مصر , 1، دار الصحوة , 1305 هجري , ص 13.

دراسة مقارنة)[1]

ومنها رسالة الباحث محمد حاج عيسى الجزائري (أصول الدعوة السلفية من كلام ابن عبد الوهاب وابن باديس)[2]

ومن الأدلة التي يستدل بها هؤلاء على هذا هو أن أعداء الجمعية كانوا يرمون الجمعية بهذه التهمة، حتى أن الأمر وصل بهم إلى تحريض إدارة الاحتلال الفرنسي على الجمعية مدعين عليهم بهذه التهمة، فكان أن أصدر الكاتب العام للشؤون الأهلية والشرطة العامة (ميشال) قراره المشهور بتاريخ (16 فبراير 1933 م)، ومما جاء فيه: (أنهي إليَّ من مصادر متعددة أن الأهالي دخلت عليهم الحيرة والتشويش بسبب دعاية تنشر في أوساطهم يقوم بها إما دعاة استمدوا فكرتهم من الحركة الوهابية السائدة بمكة، وإما حجاج جزائريون تمكنت فيهم عاطفة التعصب الإسلامي.. وإما جمعيات كجمعية العلماء المؤسسة بالجزائر بقصد افتتاح مدارس عربية حرة لتعليم القرآن والعربية.. إن المقصد العام من هذه الدعاية هو نشر التعاليم والأصول الوهابية بين الأوساط الجزائرية بدعوى الرجوع بهم إلى أصول الدين الصحيح وتطهير الإسلام من الخرافات القديمة التي يستغلها أصحاب الطرق وأتباعهم، ولكن لا يبعد أن يكون في نفس الأمر وراء هذه الدعاية مقصد سياسي يرمي إلى المس بالنفوذ الفرنسوي.. لا يخفى أن أكثر رؤساء الزوايا وكثيرا من المرابطين المعظَّمين في نفوس الأهالي اطمأنت قلوبهم للسيادة الفرنسوية، وبمقتضاه صاروا يطلبون الاعتماد على حكومتنا لمقاومة الأخطار التي أمست تهددهم من جراء تلك الجمعية التي لا يزال أنصارها يتكاثرون يوما فيوما بفضل دعاية متواصلة الجهود، ماهرة الأساليب، وعلى الأخص فيما بين الناشئة المتعلمة

---

[1] عده ضمن ما طُبع له في كتابه (الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر)، ط5، ص 542.

[2] أشار إليها في رسالته (عقيدة العلامة عبد الحميد بن باديس السلفية وبيان موقفه من الأشعرية)، ص 27.

بالمدارس القرآنية) [1]

إلى أن قال: (وعليه فإني أعهد إليكم أن تراقبوا بكامل الاهتمام ما يروج في الاجتماعات والمسامرات الواقعة باسم الجمعية التي يترأسها السيد ابن باديس، ولسانها الرسمي في الجزائر العاصـمة الشـيخ الطيب العقـبي، كمـا يجب أن تشـمل مـراقبتكم المكـاتب القرآنيـة المقصـود اسـتبدال الطلبـة القـائمين بهـا بطلبـة اعتنقـوا الفكرة الوهابية)[2]

ومن الأدلة التي ييستدلون بهـا كـذلك بعض التصـريحات من أعضاء الجمعيـة الكبـار، ومنهـا خصوصـا مـا كتبـه الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس من مقـالات يعـرف فيهـا بالـدعوة الوهابيـة وبشيخها وقائدها الأول ابن عبد الوهاب، والتي كـانت تحت عنـوان (من هم الوهـــابيون ؟ مـــا هي حكــــومتهم ؟ مـــا هي غـــايتهم السياسية ؟ ما هـو مـذهبهم ؟)[3]، والـتي كتبهـا في وقت اشـتدت فيه الهجمة من طرف العلماء، وخصوصا علمـاء الطـرق الصـوفية ضدها.

فقـد أرجـع هجمتهم عليهـا إلى أسـباب سياسـية، وهي بالتـالي تفتقر إلى المصداقية العلميـة، يقـول في ذلـك: (وصـار من يُريـد معرفتهم لا يجد لها موردا إلا كتب خصومهم الذين ما كتب أكثرهم إلا تحت تـأثير السياسـة التركيـة الـتي كـانت تخشـى من نجـاح الوهابيين نهضة العرب كافة وأقلهم من كتب عن حسن قصــد من غير استقلال في الفهم ولا تثبت في النقـل فلم تسـلم كتابتـه في الغالب من الخطأ والتحريف.. وأنَّى تُعرف الحقائق من مثـل هاتـه الكتب أو تلك، أم كيف تُؤخذ حقيقـة قـوم من كتب خصـومهم، ولا سيما إذا كانوا مثل الصِنفين المذكورين؟)[4]

لكنه في موضع آخـر يشـرح مـذهبها مصـورا لـه بنفس صـورة

---

[1]) جريدة البصائر العدد 31، 19 جمادى الأولى 135 هـ / 7 أوت 1936 م، ص 4.

[2]) جريدة البصائر، العدد 31، 19 جمادى الأولى 135 هـ / 7 أوت 1936 م، ص 4.

[3]) نشرها في جريدة النجاح (الأعداد 179 و180 و181، أكتوبر / نوفمبر 1924 م)، انظـر: "آثاره (5 / 23 – 24)

[4]) آثار ابن باديس:5/23.

المنهج الذي تبنته جمعية العلماء، وكأنه يريد من خلال ذلك أن يقرب هذه الحركة للمجتمع الجزائري الذي كان شديد النفور عنها بحكم مصادمتها للإسلام التقليدي الذي ألفه، فهو يقول مثلا: (قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوة دينية، فتبعه عليها قوم فلقبوا بـ : (الوهابيين) لم يدع إلى مذهب مستقل في الفقه ؛ فإن أتباع النجديين كانوا قبله ولا زالوا إلى الآن بعده حنبليين ؛ يدرسون الفقه في كتب الحنابلة، ولم يدع إلى مذهب مستقل في العقائد؛ فإن أتباعه كانوا قبله ولا زالوا إلى الآن سنيين سلفيين ؛ أهل إثبات وتنزيه، يؤمنون بالقدر ويثبتون الكسب والاختيار، ويصدقون بالرؤية، ويثبتون الشفاعة، ويرضون عن جميع السلف، ولا يكفرون بالكبيرة، ويثبتون الكرامة.. وإنما كانت غاية دعوة ابن عبد الوهاب تطهير الدين من كل ما أحدث فيه المحدثون من البدع، في الأقوال والأعمال والعقائد، والرجوع بالمسلمين إلى الصراط السوي من دينهم القويم بعد انحرافهم الكثير، وزيغهم المبين.. لم تكن هاته الغاية التي رمى إليها بالقريبة المنال ولا السهلة السبل، فإن البدع والخرافات باضت وفرخت في العقول، وانتشرت في سائر الطوائف وجميع الطبقات على تعاقب الأجيال في العصور الطوال؛ يشب عليها الصغير، ويشيب عليها الكبير، أقام لها إبليس من جنده من الجن والإنس أعوانا وأنصارا، وحراسا كبارا من زنادقة منافقين، ومعمَّمين جامدين محرفين، ومتصوفة جاهلين، وخطباء وضَّاعين.. فما كانت - وهذا الرسوخ رسوخها، وهذه المنعة منعتها - لتقوى على فعلها طائفة واحدة كـ (الوهابيين) في مدة قليلة، ولو أعدَّت ما شاءت من العدة، وارتكبت ما استطاعت من الشدة)[1]

إلى أن قال : (إن الغاية التي رمى إليها ابن عبد الوهاب، وسعى إليها أتباعه، هي التي لا زال يسعى إليها الأئمة المجددون، والعلماء المصلحون في جميع الأزمان)

فثناء ابن باديس على الوهابية بهذا، خاصة في ظل الانتقادات الكثيرة التي كانت توجه لهم، جعل المنتصرون لهذه النسبة يجعلون هذا من أدلة كونه من هذه المدرسة، خاصة اعتبارهم أنهم (أهل إثبات وتنزيه)، و(سنيون سلفيون) فقد كان الفقهاء

---

[1]) آثار ابن باديس: (5 / 32 - 33).

والعلمـاء وخاصـة من مـدارس المتكلمين يرمـون الوهابيـة بـأنهم (مجسمة ومشبهة وحشوية) [1]

وقال في موضع آخر يرد على أحد خصـوم الوهابيـة: (ثم يـرمي الجمعية بأنها تنشر المـذهب الوهـابي، أَفَتَعُـدُّ الـدعوة إلى الكتـاب والسـنة ومـا كـان عليـه سـلف الأمـة، وطـرحِ البـدع والضـلالات واجتنابِ المرديـات والمهلكـات نشـرا للوهابيـة، أم أن نشـر العلم والتهــذيب وحريــة الضــمير وإجلال العقــل واســتعمال الفكــر واسـتخدام الجـوارح نشـر للوهابيـة؟ إذا فالعـالم المتمـدن كلـه وهابي! فأئمة الإسلام كلهم وهابيون ! مـا ضـرنا إذا دعونـا إلى مـا دعا إليه جميع أئمة الإسلام)[2]

ومنها انتصار الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس لـدعوة السـلطان المغـربي محمـد بن عبـد اللـه وابنـه سـليمان[3]، وهـو من أنصـار

---

[1] ومن ذلك قول أبي الفداء إسماعيل التميمي المغربي في كتابـه المسـمى (المنح الإلهيـة في طمس الضـلالة الوهابيـة): (ويحكي عنهم – أي الوهابيـة – أنهم اتبعـوه – أي ابن تيمية – في القول بالتجسيم، وحملوا على ذلك ظواهر القرآن الكريم تعالى الله عمـا يقولـون علـواً كبيراً.. وكانوا أجدر باللحوق بأهل الأصنام لأنهم إذا اعتقدوا أن معبودهم جسم لم يعبدوا اللـه ولا عرفوا منـه إلا الاسـم..) ((المنح الإلهيـة في طمس الضـلالة الوهابيـة)، الكـويت، ص 9). (نقلا عن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص156)

[2] آثار ابن باديس: (5/282-283).

[3] يقول الدكتور محمد عابد الجابري في مقال : الأصالة والتحديث في المغـرب (نشـر في مجلة الثقافة عدد77 / سبتمبر أكتـوبر 1983 ص 59-60): (هكـذا أصـبحت الوهابيـة أساسـا لإيديولوجيا الإصلاح في المغرب في النصف الثـاني من القـرن الثـامن عشـر والنصـف الأول من القرن التاسع عشر، لقد ظهرت الملامح الأولى للوهابية في المغرب في الاتجـاه الـديني السلفي الذي عرف به السـلطان محمـد بن عبـد اللـه (1757-1790) الـذي كـان ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية ...وكـان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتـاب والسـنة بلا تأويل، وكان يقول عن نفسه أنه مالكي مـذهبا حنبلي اعتقـادا. ومن أعمالـه في هـذا الاتجـاه هدمه لزاوية أبي الجعد وتشريده لأهلها ونقله لشيخها منفيا إلى مراكش، وإصـداره لمنشـور يحدد المواد التي يجب الاقتصـار على تدريسـها في المسـاجد؛ القـرويين وغيرهـا، والمراجـع

الوهابية الكبار في المغرب الأقصى، فقد نشر الشيخ عبـد الحميـد بن باديس خطبة للسلطان السلفي سـليمان المـذكور، وقـدم لهـا مقدمة ضمنها تزكية هذا السـلطان وطلب من خطبـاء الجزائـر أن يخطبوا بها، وعنونها بقوله (لا تخلوا الأرض من قائم للـه بالحجـة)، ثم قال: (من المعلوم عند أهل العلم أن ممـا حفـظ اللـه بـه دينـه وأبقى بـه حجتـه؛ أن لا تنقطـع الـدعوة إلى اللـه في هـذه الأمـة والقيــام على الحـــق والإعلان بالســنن، والــرد على المنحــرفين والمتغالين والزائغين والمبتدعين، وأن أهل هذه الطائفـة معروفـة مواقفهم في كل جيل، محفوظ آثارهم عند العلمـاء، غـير أن غلبـة الجهل وكثرة أهل الضلال قد تحـول دون بلـوغ صـوتهم إلى جميـع الناس، فترى أنصـار الباطـل كلمـا ظهـر داع من دعـاة الحـق في ناحية اعترضـوه بسـكوت من سـكت من قبلـه؛ وأوهمـوا أتبـاعهم المغرورين بهم أن هذا الداعي جاء بدين جديـد، فيكـون من أعظم ما يرد به عليهم ويبصر أولئك المغترين بهم نشر ما تقدم من كلام دعاة الحق وأنصار الهدى في سالف الزمان، ولهذا ننشر فيما يلي خطبة جليلة لمولانا السلطان سـليمان ابن سـيدي محمـد بن عبـد الله، أحـد مفـاخر ملـوك المسـلمين في القـرن الثـاني عشـر في القطر الشقيق المغرب الأقصى، وقد كان هذا الإمام عاملا بعلمــه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر داعيا للسنة محاربا للبدعة، معلما

التي يجب اعتمادها دون غيرها في الفقه والنحو والأدب والسـيرة والحـديث والتفسـير، وقـد ورد في ختـام هـذا المنشـور مـا يلي: من أراد أن يخـوض في علم الكلام والمنطـق وعلـوم الفلسـفة وكتب غلاة الصـوفية وكتب القصـص فليتعـاط ذلـك في داره مـع أصـحابه الـذين لا يدرون أنهم لا يدرون، ومن تعاطى ما ذكرناه في المساجد ونالته العقوبة فلا يلومن إلا نفسه ... وسواء كان السلطان محمد بن عبد الله متأثرا في آرائه ومواقفـه تلـك بالـدعوة الوهابيـة التي كان الحجاج المغاربة ومنهم الفقهاء ينقلون أخبارها ومضـامينها إلى المغـرب كمـا يؤكـد ذلك جوليان أو أن ذلك كان من اجتهاده الخاص كما يميل إلى القول بـه بعض كتـاب التـاريخ الوطني في المغرب، فإن الإجماع حاصل على أن الوهابيـة كـانت بصـورة علنيـة إيديولوجيـة الدولـة في عهـد ابنـه السـلطان سـليمان (1792-1822)، وقـد خلـف أخـاه اليزيـد (1790-1792) الذي رحب رسميا بالوهابيـة وطبـق تعاليمهـا وراسـل القـائم بهـا في الحجـاز آنـذاك الأمير عبد الله بن سعود)

للأمة ما علمه الله، منفذا فيها لأحكام الله، وقد نشر هذه الخطبـة في رسـالة خاصـة إخواننـا المصـلحون في المغـرب ورجـوا من الخطباء أن يخطبوا بها كما كان أمر صاحبها رحمه اللـه تعـالى أن يخطب بها في زمانه، فنقلناهـا من تلـك الرسـالة ونحن نرجـو من خطباء الجزائر أن يخطبوا بها على الناس إن كانوا لهم ناصحين)[1]

ومن الأدلة كذلك الثناء الكثـير الـذي كـان يبديـه الشـيخ محمـد البشير الإبراهيمي كل حين للوهابيين والدعوة الوهابية، ومن ذلـك قوله ردا على أعـداء الوهابيـة: (ولا دافـع لهم إلى الحشـد إلا أنهم موتورون لهذه الوهابية التي هدمت أنصـابهم ومحت بـدعهم فيمـا وقع تحت سلطانها من أرض الله، وقد ضج مبتدعـة الحجـاز فضـج هؤلاء لضجيجهم والبدعة رحم ماسة)[2]

ثم بين أن دعـوتهم ودعـوة الوهـابيين دعـوةٌ واحـدة، فقـال : (ونحن في الجزائـر وهم في الجزيـرة، ونحن نعمـل في طريـق الإصـلاح الأقلام وهم يعملـون فيهـا الأقـدام، وهم يعملـون في الأضرحة المعاول ونحن نعمل في بانيها المقاول)[3]

بل إن الإبـراهيمي كتب في الوهابيـة والوهـابيين أرجـوزتين في غاية القوة والجمـال، أمـا الأولى، فبعثهـا لبعض علمـاء نجـد، قـال فيها[4]:

إنَّا إذا مـا ليـلُ نجـدٍ عسعسا	وغربت هذي الجـواري خُنَّسا
والصـــبح عن ضـــيائه تنفَّسا	قمنا نؤدِّي الـواجب المقدَّسا
ونقطع اليوم نناجي الطُّرُسا	وننتحي بعـد العشـاء مجلسا
موطَّداً على التقى مؤسَّسا	في شِـــيخةٍ حـــديثهم يجلـــو الأسى

[1] آثار ابن باديس:3/135.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 123)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 124)

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 126)

ومما جاء فيها قوله[1]:

بــوركتِ يــا أرضٌ بهــا الــدين رسا وَأَمِنَتْ آثـــــــاره أن تَدْرُسا

والشرك في كلِّ البلاد عرَّسا جـــذلان يتلـــو كُتْبَــه مُدرِّسا

إلى آخر الأرجوزة الممتلئة بالثناء على الوهابية والوهابيين[2]، أما الثانية، فتوجه إلى بعض علماء نجد[3]، ومما جاء فيها قوله:

قـــد كنت في جِنِّ النَّشَــاط والأشــــــــــــــرْ كـــأنَّني خـــرجتُ عَن طـــورِ البَشَــــــــــــــر

وكنت نَجْـــدِيَّ الهـــوى من الصـــــــــــغرْ أهيمُ في بَـــدْر الـــدُّجى إذا سَــــــــــــــفَرْ

وقائــدي في الــدين آيٌ وأَثَر صَــحَّ بَــرَاوٍ مــا وَنَى وَلا عَثَر

وَمَـــــذهبي حُبُّ عَلِيٍّ وَعُمَر والخلفـــاءِ الصَّـــالحين في الزُّمــــــــــــــرْ

هــذا وَلا أحْصُــرُهُمْ في اثــني عَشَــــــــــــــــر لا ولا أَرْفَعُهمْ فــــوق البّشر

ومن ذلك ما كتبه الشيخ أبــو يعلى الــزواوي في مقــال بعنــوان (الوهــابيون ســنيون، وليســوا بمعتزلــة كمــا يقولــون هنــا عنــدنا بالجزائر)[4] جاء فيه: (لما سئلت عن هذه الكلمة (الوهابيــة)، وعن

---

1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 127)

2) انظر الأرجوزة كاملة - مع شرح غريبها - في آثار الإبراهيمي: (4 / 126 - 130).

3) آثار الإبراهيمي: (4 / 131 – 134) .

4) نشــره في (العــدد 98) من في جريــدة الشــهاب، 2 ذي القعــدة 1345 هــ / 26 مــايو 1927 م، ص 2 .

عقيـدة الإخـوان النجـديين، وسـمعت أذنـاي ممن سـألوني ومن غـيرهم قـولهم : إن الوهـابيين معتزلـة، وإن الحجـاج منقبضـون بسـبب هـذه الكلمـة - الوهابيـة أو المعتزلـة – المخالفـة على زعمهم ؛ أجبت بالاختصـار أن الإخـوان الوهـابيين حنابلـة يتعبـدون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الذي هو أحـد المـذاهب الأربعـة المشهورة).

إلى أن قـال: (إن ابن عبـد الوهـاب حنبلي، وإنمـا هـو عـالم إصلاحي وأتباعه - السلطان ابن السعود ورعيته وإمارته النجديـة - إصلاحيون سـلفيون سـنيون حقيقيـون على مـذهب أحمـد الإمـام، وعلى طريقـة الإمـام تقي الـدين ابن تيمية في الإصـلاح والعنايـة التامة بالسنة)[1].

ومن ذلك ما كتبـه الأسـتاذ محمـد السـعيد الزاهـري، فقـد قـام بنشر مقال لوزير المعارف بالمغرب الأقصى محمد الحجوي تحت عنوان (الوهابيون سنيون حنابلة)[2] قال في التقديم لـه مـا نصـه : (كتب معالي الأستاذ الحجوي فصلا قيِّما عن الوهابيـة والوهـابيون أردنا أن نتحف به قراءنا ليطلعوا على ما يقول العلماء الأعلام في الوهابية، وعلى ما يتمنون لها من سعة الانتشار، ونحن ننشـر هـذا الفصـل كـرد على لغـط هـؤلاء المشـاغبين المغرضـين الـذين لا يزالون يرموننا بأننا وهابية، ويرمون الوهابية بـالكفر والمـروق من الدين)

ومن ذلـك مـا كتبـه الشـيخ الطيب العقـبي في (العـدد 2) من جريدة (السنة)[3] يقول: (هـذا وإن دعوتنـا الإصـلاحية - قبـل كـل شيء وبعده - هي دعوة دينيـة محضـة، لا دخـل لهـا في السياسـة ألبتة، نريد منها تثقيف أمتنا وتهذيب مجتمعنا بتعـاليم دين الإسـلام الصحيحة، وهي تتلخص في كلمتين : أن لا نعبد إلا الله وحده، وأن لا تكون عبادتنا له إلا بما شرعه وجاء من عنـده.. ثم مـا هي هـذه

---

[1] المصدر السابق، ص 4.

[2] وذلك في في (العدد 3) من جريدة الصراط السوي (5 جمادى الثانية 1352 هـ / 25 سبتمبر 1933 م، ص 3).

[3] جريدة (السنة، العدد2، (22 ذي الحجة 1351 هـ / 17 أبريل 1933 م، ص 7)

الوهابية التي تصورها المتخيلـون أو صـورها لهم المجرمـون بغـير صـورتها الحقيقـة؟ أهي حـزب سياسـي ؟... أم هي مـذهب ديـني وعقيدة إسلامية كغيرها من العقائد والمذاهب التي تنتحلها وتــدين بها مذاهب وجماعات من المسـلمين ؟ وإذا كـانت الوهابيـة : هي عبادة الله وحده بما شرعه لعباده، فإنها هي مـذهبنا ودينـنـا وملتنـا السمحة التي ندين الله بهـا وعليهـا نحي وعليهـا نمـوت ونبعث إن شاء الله من الآمنين)

بالإضـافة إلى هـذا، فقـد كـان من الكتب الـتي درسـها الشـيخ العقبي في مجالسه العلمية كتاب (كشف الشبهات) للشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]، وهـو من أخطـر كتب الوهابيـة، وأكثرهـا تحـاملا على ما سميناه (الإسلام التقليدي) إلى درجة الحكم على أصـحابه بالشرك الأكبر[2].

ومن ذلــك قــول الشــيخ أحمـد حمــاني مثنيــا على المدرســة الوهابيـــة: (أول صـــوت ارتفـــع بالإصـــلاح والإنكـــار على البدعـــة والمبتدعين ووجوب الرجوع إلى كتاب الله والتمسك بسنة رسـول الله ﷺ ونبذ كل ابتداع ومقاومة أصحابه، جاء من الجزيرة العربيـــة وأعلنه في الناس الإمام محمد بن عبد الوهاب أثناء القرن الثــامن عشر (1694-1765) وقد وجدت دعوته أمامها المقاومة الشديدة حـتى انضـم إليهـا الأمـير محمـد بن سـعود وجـرد سـيفه لنصـرتها والقضــاء على معارضـيها فانتصـرت...وكـانت مبنيـة على الـدين وتوحيد الله سبحانه في ألوهيته وربوبيتـه ومحـو كـل آثـار الشـرك الـذي هـو الظلم العظيم، والقضـاء على الأوثـان والأنصـاب الـتي نصبت لتعبـد من دون اللـه أو تتخـذ للتقـرب بهـا إلى اللـه، ومنهـا القباب والقبور في المساجد والمشاهد)[3]

وهكذا نجد كـل من انتسـب للجمعيـة من قـريب أو بعيـد يعتـبر الوهابية مدرسة إصلاحية كبرى، وهي تصريحات يراها هؤلاء كافيـة

---

[1] انظر كتاب (الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية) للأستاذ أحمد مريوش، ص 89.

[2] سنرى الأمثلة الكثيرة عن تأثر الجمعية خصوصا مبارك الميلي بهذا الكتاب.

[3] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة (1/50).

لاعتبار الجمعية فرعا من فروع الحركة الوهابية في الجزائر.

وفي مقابل هؤلاء نجد من الوهابيين أنفسهم من ينكر هذه النسبة، ويستدل لذلك بالكثير من الأدلة، ولعل أهمها ارتباط الجمعية بالسلفية التنويرية مع الفارق الشديد بين كلتا السلفيتين.

ونحن في هذا المقام لا نستطيع أن نستعجل بالحكم على الجمعية من خلال بعض تصريحاتها، ولكنا نحب أن نذكر أن في الجمعية ميلا خاصا لهذه المدرسة في جانب واحد، وهو الموقف من الطرق الصوفية، ومن العادات المرتبطة بها، فإن الجمعية في هذه الحالة تصبح وهابية بامتياز، ولعل أحسن مثال على هذا التقارب الشديد بين الجمعية والمدرسة الوهابية ما كتبه الشيخ مبارك الميلي تحت عنوان (رسالة الشرك ومظاهره)، فقد اهتمت هذه الرسالة بما يهتم به الوهابيون من القبور ونحوها، واعتبار ذلك شركا جليا، مع أن ذلك مما انفردت به الوهابية عن غيرها من الحركات.

والدارس لتلك الرسالة لا يراها في الحقيقة إلا نسخة من (كتاب التوحيد) لابن عبد الوهاب، وقد قال الشيخ في مقدمتها معترفا بهذا: (وبعد تمام التأليف، وقبل الشروع في الطبع ؛ اتصلت بهدية من جدة، من الأخ في الله السيد محمد نصيف[1] ؛ تشتمل على كتاب (فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد) لابن عبد الوهاب، فعلقت منه فوائد ألحقتها بمواضعها معزوة إليه، ولو اطلعت عليه قبل كتابة الرسالة ؛ لخفف علي من عناء ابتكار العناوين وتنسيقها)[2] .

بل إن الشيخ وإمعانا في البرهنة على هذا التوجه قام بإهداء رسالته إلى الملك عبد العزيز ونجليه سعود وفيصل، وشيخ الإسلام في ذلك العهد الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ[3].

---

[1]) وقد كان من الوهابية الكبار الذين كانت لهم علاقات كبيرة مع الجمعية إلى درجة أنهم منحوه الرئاسة الشرفية، انظر: جريدة البصائر، عدد 172 ـ 173، الجزائر 15 أكتوبر 1951.

[2]) رسالة الشرك ومظاهره، ص 38.

[3]) كما جاء في رسالة له إلى الأستاذ عبد القدوس الأنصاري مؤرخة في (20 ذي القعدة 1356 هـ / 22 يناير 1938 م)، نشرت في مجلة المنهل الحجازية (م 38، ج 12، ذو الحجة

وقد عبر ابنه الأستاذ محمد الميلي في كتابه (الشيخ مبارك الميلي ؛ حياته العلمية ونضاله الوطني) عن توجه والده في هذه الرسالة، فقال: (إن هذا العمل - أي رسالة الشرك ومظاهره - يكشف عن مدى الترابط بين الفكر الإصلاحي الديني والسياسي في المشرق وفي الجزائر، أي انه يسجل مظهرا من مظاهر الوحدة الفكرية بين المغرب العربي والمشرق، وهي وحدة تحققت بفعل عامل الدين الإسلامي واللغة العربية في نفس الوقت. فأوجه الشبه بين حركة جمعية العلماء وتيارات الفكر السلفي في المشرق عديدة، فقد اعتمدت في دعوتها على كتب ابن تيمية وابن القيم وكتابات محمد بن عبد الوهاب.. ولم يكن محض صدفة أن نجد في خزانات الرعيل الأول من جمعية العلماء أهم كتب الفكر السلفي التي كانت قد طبعت على نفقة المرحوم عبد العزيز آل سعود، وكذلك مطبوعات (المنار))[1]

وسنرى أمثلة أخرى كثيرة على هذا عند ذكر فروع الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية.

ثانيا ـ مبادئ السلفية المحافظة وموقف الجمعية منها

من خلال استقراء التراث الضخم الذي ألفه علماء الوهابية في السعودية ومصر والهند وباكستان وغيرها من المناطق المتأثرة بالمدرسة الوهابية، نجد اجتماعها على النواحي التالية:

1- محاربة مظاهر الشرك بكل أنواعه وأشكاله القولية والعملية – على حسب ما يؤصلون له- وخصوصا ما يرتبط منه بتعظيم الأولياء وزيارة القبور والتبرك والتوسل والاستغاثة ونحوها، مما يعتبرونه مناقضا لتوحيد الألوهية.

2- التحذير من البدع أيًا كانت، كلية أم جزئية، وحقيقية أم إضافية.

3- دعوتهم إلى العودة إلى المصادر الأصلية في استنباط الأحكام.

1397 هـ / ديسمبر 1977 م، ص 1538)

[1]) محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي ؛ حياته العلمية ونضاله الوطني، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ص128.

4 - عدم الاهتمام بالسياسة، وأحيانـا كثـيرة يـرون لـزوم طاعـة السلطان مهما كان، ولهذا نجد ذلك الاتفاق العجيب بين آل سـعود وآل الشيخ، فلآل سعود الدنيا، ولآل الشيخ الدين.

انطلاقـا من هـذه المبـادئ الكـبرى، نحـاول هنـا أن نبحث عن موقف جمعية العلماء المسـلمين الجزائـريين منهـا، لنكتشـف من خلالها مدى قربها من الوهابية، أو مدى بعدها عنها.

1 ــ التحذير من الشرك:

مع أن التحذير من الشـرك متفـق عليـه بين الأمـة جميعـا، لأنـه أصل الإسلام، والهدف من بعثة الرسل – عليهم الصـلاة والسـلام- إلا أن هذه المدرسـة تتصـور نفسـها هي القـائم الواحـد في الأمـة على هذا الثغر.

وهي تختصر مفهوم الشرك عـادة في بعض الظـواهر البسـيطة الـتي لا تخـرج عن بعض التعبـيرات الرمزيـة عن المحبـة والـولاء ونحوها لأناس يعتقد فيهم الصلاح، أو لمواضع يعتقـد فيهـا البركـة، وأكثر تلك المواضع اهتمامـا من جهـة هـذه المدرسـة هي المقـابر والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي.

وقد عبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسـالة كتب بهـا إلى عبد الرحمن بن عبد الله السويدي أحد علماء العراق يذكر له فيها حقيقة دعوته، ومما ورد فيها قوله: (أخبرك أني ولله الحمـد متبـع، ولست بمبتـدع، عقيـدتي وديـني الـذي أدين اللـه بـه مـذهب أهـل السنّة والجماعة الذي عليـه أئمـة المسـلمين مثـل الأئمـة الأربعـة وأتباعهم إلى يوم القيامـة، لكـني بيَّنت للنـاس إخلاص الـدين للـه، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأمـوات من الصـالحين وغـيرهم، وعن اشتراكهم فيما يعبد الله به، من الـذبح والنـذر والتوكـل والسـجود وغير ذلك مما هو حق لله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نـبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسـل من أوَّلهم إلى آخـرهم، وهـو الذي عليه أهل السنَّة والجماعة)[1]

وكتب الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في بيان دعـوة جـده الشيخ عبد الوهاب يقول: (إن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله إنمـا دعـا النـاس إلى أن يعبـدوا اللـه لا شـريك لـه، ولا

[1] مجموعة مؤلفات الشيخ (الرسائل الشخصية) : 5 / 36.

يشركوا به شيئاً وهذا لا يرتاب فيه مسلم إنه دين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه)(1)

ويبين الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن في رسالته التي بعثها إلى أهل الحجاز وعسير واليمن معتقدهم وما يدعون إليه فيقول: (اعلموا أن الذي نعتقده وندين الله به، وندعو الناس إليه ونجاهدهم عليه هو دين الإسلام الذي أوجبه الله على عباده وهو حقّه عليهم الذي خلقهم لأجله، فإن الله خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحداً من المخلوقين لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما ... ونأمر بهدم القباب ونهدم ما بني على القبور، ولا يزاد القبر على شبر من التراب وغيره)(2)

هذا هو التصور العام الذي يناضل من أجله الوهابية، وقد قاموا لأجله بهدم الأضرحة، والقضاء على الكثير من الآثار التي كانت مخزنا مهما للتاريخ الإسلامي.

وعند محاولة المقارنة بين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والجمعية من هذه الناحية نجد نقاط وصل كثيرة، سنرى تفاصيلها في محلها من هذا الجزء والجزء الثالث، ولكنا هنا نكتفي ببعض الشواهد على ذلك للدلالة على المطابقة التامة بين الوهابية والجمعية في هذه الناحية.

ولعل أقرب شاهد إلى ذلك ما ذكرناه في الفصل السابق من قيام جماعة تعرف بجماعة الشيخ مبارك الميلي باعتراض أفراد قبيلة أراس من سكان فج أمزالة عند عودتها من زيارتها لمقام الشيخ الزواوي بالروفاك والاعتداء عليها بالسب والشتم، (لولا تدخل الفرنسيين وتفريقهم لهم لوقعت بينهم ملحمة عظيمة)(3)

وهذا يدل على أن هناك استنساخا حصل في الجزائر، يراد منه إعادة ما فعله الشيخ محمد ابن عبد الوهاب إلى الجزائر.

والدارس لرسالة الشرك ومظاهره يكتشف هذا بوضوح، فهو

---

1) (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية)، ط1، مطبعة المنار، مصر 1344هـ، 3/367.

2) عبد الرحمن بن قاسم (جمع)، (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) ط2، المكتب الإسلامي، بيروت 1385هـ، 1 / 290، 291 باختصار.

3) مامي إسماعيل; فتنة ميلة، النجاح، العدد1871، يوم20 ماي 1936، ص2.

يعتبر الكثير من القضايا الخلافية من الشرك.

ومثله، ولعله أكثر منه جرأة، وأقرب إلى المدرسة الوهابية الطيب العقبي، الذي اقتصرت دعوته وإصلاحه على مقاومة ما يسميه شركا، ومن قصائده في هذا قوله[1]:

لا أنادي صاحب القبر أغث	أنت قطب، أنت غوث وسناد
قائما أو قاعدا أدعو به	إن ذا عندي شرك وارتداد
لا أناديه ولا أدعو سوى	خالق الخلق رؤوف بالعباد
من له أسماؤه الحسنى وهل	أحد يدفع ما الله أراد؟
مخلصا ديني له ممتثلا	أمره لا أمر من زاغ وحاد

وقد اشتهر الشيخ الطيب العقبي بهذا إلى درجة أن أصبح ارتباط النهي عما يسمى (مظاهر الشرك) عند كثير من العامة باسم (العقبي)، ويقال لمن يسلك سبيله في الجزائر العاصمة ونواحيها بـ (العقبي)[2]

---

[1] من قصيدته إلى الدين الخالص، ص3.

[2] ورد ذكر هذا في الملتقى السلفي المشهور (ملتقى أهل الحديث)، فقد ذكر بعض أعضائه هذا، فقال – مجيبا زميلا له من العاصمة-: (إن أما ما ذكرته من إطلاق كلمة (عقبي) على من عرف بعداوته للطرق الصوفية والضلالات، فهذا صحيح، وليس في الجزائر العاصمة وسهول متيجة فقط، بل حتى في الغرب الجزائري، فأنا من مدينة الشلف أورد لك هذه الحادثة التي وقعت معي في أحد الأيام من صيف 2004 م وذلك عندما كنت في طابور الانتظار عند طبيب الأسنان، وكان قبالتي شيخ طاعن في السن أبيض اللحية، وكان في الشيخ شيء من الفضول خاصة عندما رأى إعفائي للحيتي فأخذ يجاذبني أطراف الحديث وانتهينا إلى مسألة الطواف بالقبور والاستغاثة بالمقبور واخذت أنكر بشدة هذه السلوكات الشركية البعيدة عن الإسلام وكان الشيخ يوافقني في كل ما أقول ولا يعارضني ولما انتهيت من محاضرتي له قال لي: (هاه ..راك عقبي كبير)، فاستغربت الامر وغمرت بالفضول فقلت له: (ماذا تعني بالعقبي؟) فقال: (إنه عالم كبير في الجزائر اسمه الطيب العقبي كان يحارب البدع والصوفية خاصة بن عليوة)، ثم سألته عن علاقته به فقال أنه عندما كان صغيرا وكان

ولأجـل مـا أحدثـه من فتنـة بسـبب هـذه المواقـف منـع من التدريس، وقد جاء في منشور ميشال الذي بـه أوقـف الشـيخ عن التدريس ما يلي: (إن القصـد العـام من هـذه الدعايـة ــ أي دعـوة العقبي ـ هو نشر تعاليم وأصول الوهابيـة بين الأوسـاط الجزائريـة بدعوى الرجوع بهم إلى أصول الدين الصحيح وتطهير الإسـلام من الخرافات القديمة التي يستغلها أصحاب الطرق وأتباعهم)[1]

ومثلهما الشيخ البشير الإبراهيمي، فقد كان يحمل حملة شديدة على نفس المظاهر التي يعتبرهـا الشـيخ ابن عبـد الوهـاب شـركا جليا مكفرا، وهو يقلده في ذلك تقليـدا، أو يتبعـه اتباعـا، بـل يزيـد عليه في الحدة والشـدة في بعض المواقـف كهـذا الموقـف الـذي يصف فيه بعض الموالد التي تقام في منطقـة وهـران، ولا يتحـرج أن يرمي بالشرك كل من حضرها أو حضر لها، لا يستثني من ذلك أحدا، يقول في ذلـك: (هـذه الـزرد الـتي تقـام في طـول العمالـة الوهرانيـة وعرضـها هي أعـراس الشـيطان وولائمـه، وحفلاتـه ومواسمه، وكلّ ما يقع فيها من البداية إلى النهايـة كلـه رجس من عمل الشيطان، وكلّ داع إليها، أو معين عليهـا، أو مكـثر لسـوادها فهو من أعوان الشيطان)[2]

ويضيف معللا سر هـذا الموقـف المتشـدد قـائلا: (كلّمـا انتصـف فصل الربيع من كل سنة تداعى أولياء الشيطان في كل بقعـة من هـذه العمالـة إلى زردة يُقيمونهـا على وثن معـروف من أوثـانهم، يسوّله لهم الشيطان وليًّا صالحًا، بل يصوّره لهم إلهًـا متصـرفًا في الكون، متصرفًا في النفع والضـرّ والـرزق والأجـل بين عبـاد اللـه، وقـد يكـون صـاحب القـبر رجلًا صـالحًا، فمـا علاقـة هـذه الـزرد

منتسبا للكشافة الإسلامية ذهب في جولة إلى البليدة للسماع لمحاضرة الطيب العقبي حول الإصلاح أو شيء من هذا القبيل، وهذا يتكرر خاصة عندما نجادل أقطاب التصـوف والطرقيـة الـذين يعرفـون شـيئا من العلم فينبزوننـا بـالعقبيين (انظـر: ملـف (الطيب العقـبي: مصـلح أضـــاعه قومـــه)، من ملتقى أهـــل الحـــديث، على هـــذا الرابـــط (http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=107251)

[1] البصائر: 1/ع31/ص3.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 320)

بصلاحه؟ وما مكانها في الدين؟ وهل يرضى بها لو كـان حيًّا وكـان صالحًا الصلاح الشرعي؟)[1]

2 ــ التحذير من البدع:

وهو الركن الثاني من الأركـان الـتي تعتبرهـا الوهابيـة أصـلا من أصـول دعوتهـا، ومـع كـون ذلـك بديهيـة عنـد جميـع المـذاهب والطوائف الإسـلامية بمن فيهم أصـحاب الطـرق الصـوفية، إلا أن للوهابيـة تصـورها الخـاص للبدعـة، وهي تنتهج في ذلـك مـا نهجـه الشاطبي في الاعتصام، والـذي ينص على أن كـل مـا لم يـرد في النصـوص من أمـور العبـادات بدعـة، حـتى لـو كـان لـه أصـل في الشـريعة إذا لم تـرد النصـوص بفعلـه من النـبي ﷺ أو السـلف الصالح.

وبناء على هذا أنكر الشاطبي على القـائلين بتقسـيم البـدع إلى حسنة وسيئة، وهو القول الـذي اشـتهر بـه العـز بن عبـد السـلام، وكثير من الفقهاء، وتبناه الصوفية, معتـبرا أن (هـذا التقسـيم أمـر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي، بـل هـو في نفسـه متـدافع ؛ لأن من حقيقـة البدعـة أن لا يـدل عليهـا دليـل شـرعي لا من نصـوص الشرع ولا من قواعده، إذ لو كان هنالك مـا يـدل من الشـرع على وجوب أو ندب أو إباحة لَمَا كان ثَمّ بدعـة ولكـان العمـل داخلاً في عمـوم الأعمـال المـأمور بـــها أو المُخيَّر فيهـا. فـالجمع بين تلـك الأشياء بدعاً وبين كون الأدلة تدل على وجوبـها أو ندبها أو إباحتها: جمع بين متنافيين)[2]

وكما أن الجمعية اعتمـدت آراء المتشـددين في مفهـوم البدعـة والموقف منها، وهي تتفق في ذلك تمام الاتفاق مع الوهابية، فهي كذلك اختارت طريقتهم في التعامل مع ما تراه بدعة، ولو وقع فيه الخلاف بين العلماء، وقد جعلها هذا تقـع في صـدام لا مـع الطـرق الصوفية وحـدها، بـل حـتى مـع المـدارس المقاصـدية الـتي مثلهـا سابقا العز بن عبد السلام، ومثلها في عصر الجمعية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، لأن هذه المدارس تـرى انفتـاح الشـريعة على الجديد الكثير الذي يخدم مقاصد الشريعة.

وسنحاول هنا باختصـار أن نـذكر نمـوذجين لمواقفهـا ممـا تـراه

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 320)

[2] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، دار النشر : المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (1/191)

بدعة، مثل النموذج الأول الشيخ عبد الحميد بن باديس مـع شـيخه ابن عاشـور، وهـو إمـام المدرسـة المقاصـدية في هـذا العصـر، والثاني هو الشيخ محمد البشير الإبـراهيمي مـع الطـرق الصـوفية عموما، والطريقة العلاوية خصوصا.

وقد اخترنا لهذين النموذجين مسألة واحدة أولتها الجمعية أهمية كبرى، وهي مسألة قـراءة القـرآن على المـوتى، وتشـييع الجنـائز بالذكر، ونحو ذلك مما يضعه الفريـق المتشـدد ضـمن مـا يسـميه (بدع الجنائز)

النموذج الأول: ابن باديس وشيخه ابن عاشور:

وقـد حصـل هـذا الخلاف بين الشـيخ ابن بـاديس وشـيخه ابن عاشور بسبب مسألة (قراءة القرآن الكـريم على على الأمـوات)، وهل هي بدعة، أو ليست بدعة.

ونرى - أنهـا بمـا أعطيت من أهميـة من خلال جريـدة البصـائر، وبما أثارت من ضجة وقتها ــ خير مثال يـدل على تشـدد الجمعيـة في موقفها مما تراه بدعـة، وأن ذلـك التشـدد لا يتوقـف عنـد حـد مواجهة الطرق الصوفية وحدها، بل يتعداه إلى المدارس الأخـرى، وخاصة المدرسة المقاصدية.

وبدأ هذا الخلاف الحاد الشديد بسبب فتوى أصـدرها الشـيخ ابن عاشور حول جواز قراءة القرآن الكريم على الموتى، ونصـها كمـا ورد في البصائر هو: (أن السنة في المحتضر وفي تشـييع الجنـازة وفي الدفن هو الصمت للتفكر والاعتبار. فإذا نطق الحاضـر فليكن نطقه بالدعاء للميت، بالمغفرة والرحمة فإن دعوة المؤمن لأخيــه بظهر الغيب مرجوة الإجابـة. وأمـا قـراءة القـرآن عن الميت حين موتـه وحين تشـييع جنازتـه وحين دفنـه فلم تكن معمـولا بهـا في زمان رسول الله ﷺ وزمان الصحابة، إذ لم ينقل ذلك في الصحيح من كتب السنة والأثر مع توفر الدواعي على نقله لو كان موجودا. إلا الأثر المروي في قراءة سورة يس عند رأس الميت، عند موتـه على خلاف فيه، ولهذا كان ترك القراءة هـو السـنة، وكـان أفضـل من القراءة في المواطن الثلاثة المذكورة، وحينئـذ فتكـون قـراءة القرآن في تلك المواطن إما مكروهة وإما مباحة غير سنة، فتكون مندوبة في جميعها، وإما مندوبة في بعضها دون بعض)[1]

[1]) انظر: آثار ابن باديس: (3/77.

ونحب أن نبين قبل طرح موقف الشيخ عبـد الحميـد بن بـاديس منها، ومن شيخه بسببها أن نبين أن الشيخ ابن عاشور من أركــان علم المقاصـد الكبـار، أو هـو (المعلم الثـاني) – على حـد وصـف محمد الطاهر الميساوي - بعد (المعلم الأول) الذي هو الشـاطبي، وله فيها إضافات محترمة لقيت عناية من الباحثين[1]، بالإضافة إلى إدخاله علم المقاصد في البرنامج الدراسي لجامعة الزيتونة.

ولعـل رأيـه في هـذه المسـألة، وفي ذلـك الحين الـذي حـاول المسـتعمر فيـه طمس الهويـة الوطنيـة للشـعوب المسـتعمرة، وإبعادها عن دينها وكتابها وقيمها، ينطلق من رؤية مقاصدية بإباحة بل استحباب كل ما يخدم الهويـة ويحفـظ الـدين بغض النظـر عن كونه فعل في عهد الرسول ﷺ أو لم يفعل، مـا دام لا يتصـادم مـع الشريعة ومصادرها.

لكن الشيخ عبد الحميد بن باديس المشبع بما ذكـره الشـاطبي، وبما تتبناه الوهابية لم يرض هذه النظرة، بل رأى أن في فتح هــذا الباب تحريفا للشريعة وتصرفا فيها، وأن ذلك ليس مأذونـا بـه في حال من الأحوال.

ولذلك نـرى ابن بـاديس في خطابـه لشـيخه ورده عليـه قاسـيا شديدا يكتب المقالات الطوال في الرد عليهـا، وعلى المنهج الـذي اعتمده، وينتصر فيها بقوة لمنهج الشاطبي، وينقل أدلته عليه، بــل يضيف إليها.

ونرى لأجل هذا أن هذه الردود هي أحســن وثيقــة تـبين موقـف الجمعية مما تتصوره من البـدع، ومصـادرها في ذلـك، وهي بـذلك تيسر على الباحث معرفة وجوه الاستدلال ومصادره الذي تعتمــده الجمعية.

وبناء على هذا، فسنحاول ــ هنا ــ أن نحلل هذه الوثيقة المهمة، لا لنكتشف الموقف من البدعة، والأدلة الشرعية عليها فقـط، بـل لنرى كذلك منهج التعامل مع من تتصوره الجمعية مبتدعا كائنا من

[1]) من أبرز ما أضافه ابن عاشور لعلم المقاصد ذلـك النـوع من المقاصـد الـذي خصـص لـه القسم الثالث من كتابه, وسماه (مقاصد التشـريع الخاصـة بـأنوع المعـاملات)، ومن ضـمنها: مقاصد أحكام العائلة.. مقاصد التصرفات المالية.. مقاصد الشريعة في المعاملات المنعقــدة على الأبدان.. مقاصد أحكام القضاء والشهادة.. المقصد من العقوبات.

كان.

يبـدأ الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس ـــ كعـادة التيـار السـلفي عموما، والوهـابيين خصوصـا ـــ قبـل الحـديث عن تجـريح البدعـة تجريح المبتدع، ومحاولة اكتشـاف الـدوافع وراء بدعتـه، والتحـذير منه بعد ذلك.

ويتجلى هذا كلـه واضـحا من خلال العنـوان الـذي كتب فيـه رده على الشـيخ ابن عاشـور، فقـد عنـون المقـال بـ (شـيخ الإسـلام بتونس يقاوم السنة، ويؤيد البدعة، ويغري السلطة بالمسـلمين!!) [1]

ونلاحـظ هنـا أن ابن بـاديس يعتـبر الشـيخ ابن عاشـور مقاومـا للسنة، ومؤيدا للبدعة مع أن المسألة الـتي ذكرهـا الشـيخ مسـألة خلافية قديمـة لهـا من يؤيـدها من الفقهـاء القـدامى، وخاصـة من الفقهاء الـذين ينتهجـون منهج المدرسـة المقاصـدية إلا أن الشـيخ ابن باديس لم ينظر إليها بتلك الصورة، بل نظر إليها بنفس الشدة التي ينظر إليها التيار السلفي عموما إلى المسائل الخلافية.

وقد بدأ مقاله بهذا الاستهلال القاسي، والذي يقول فيـه: (نطـق (شيخ الإسلام) - والحمـد للـه- بعـد سـكوت مـألوف منـذ السـنين الطوال، وإن كان أتى بما لا يرضي الله ورسـوله، والحـق ودليلـه، فقد نطق على كل حال. ولقد كان نطقه متوقعـا لـدينا. فقـد كـان المقال المنشور بالعدد الحـادي عشـر من (البصـائر) الموجـه إلى علماء الزيتونة عامة وشيخي الإسلام به خاصة، قنبلة وقعت وسط أولئك النائمين والمتناومين أزعجتهم في مراقـدم ونبهت من كـان غافلا عنهم من النـاس، حـتى لقـد تسـابق النـاس إلى ذلـك العـدد يطلبونه بأضعاف ثمنه كما أخبرني تلامذتي الذين رجعوا من تونس لتعطيل القراءة بجامع الزيتونة بسـبب البلاغ المشـهور ومـا لحـق تلامذة الجامع من سجن وتغريب)[2]

ولم يكتف الشيخ ابن باديس بهذا الاستهلال القاسي في خطاب شيخه، بل راح يصفه بالعجب والغرور ومواجهة أنصار السنة، وهـو

---

[1]) البصائر: السنة الأولى، العدد 16، الجزائر، الجمعة 2 صفر 1355 هـ 24 أفريـل 1936م، الآثار: (3/73).

[2]) ابن باديس، الآثار: (3/73)

موقف يذكرنا تماما بموقف مشايخ الوهابية عموما مع المخالف لهم مهما كان، يقول ابن باديس مخاطبا شيخه: (إننا نشكر لشيخ الإسلام المالكي هبوطه إلى الميدان، وإن كان هبط إليه هبوط المغيظ المحنق الذي أنساه الغيظ والحنق ما يناسب مقامه من التحري والاتزان، فتعثر في أذيال العجب والتعظم عثرات أهوت به مرات في مهاوي الخطأ والتناقض حتى تردى في هودة إذاية أنصار السنة باللسان، ومحاولة إذايتهم بيد العدوان.. شيخ الإسلام يقاوم السنة- ويؤيد البدعة-! ويغري (السلطة) بالمسلمين!! هذا- والله- عظيم وإن كان القارئ يود أن يعرف من هو هذا الذي تحلى بهذا اللقب وأتى بهذه الشنع التي لا يأتي بها من ينتمي انتماء صادقا للإسلام من عامة المسلمين فكيف بشيخ الإسلام؟ نعم كل أحد يتعجب نهاية العجب أن يصدر هذا من شيخ الإسلام. ويزيد كاتب هذه السطور عجبا آخر فوق عجب كل أحد أن شيخه وأستاذه وصديقه الشيخ الطاهر بن عاشور هو الذي يأتي بهذا الباطل ويرتكب هذا الذنب)[1]

ولكن ابن باديس مع هذا التشدد الذي دفعه إليه نصرة ما يعتقده من حق، يعدل أحيانا عن هذا الموقف المتشدد ليبين أن غرضه منه نصرة الحق والسنة، لا نصرة النفس والهوى، ليذكرنا في ذلك بمقولة ابن القيم عن شيخ الإسلام الهروي، فقد قال بعد مناقشته في بعض المسائل في (منازل السائرين)[2] : (شَيْخُ الْإِسْلَامِ حَبِيبٌ إِلَيْنَا. وَالْحَقُّ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُ. وَكُلُّ مَنْ عَدَا الْمَعْصُومِ ﷺ فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ وَمَتْرُوكٌ)[3]

وهكذا فعل الشيخ ابن باديس مع شيخه ابن عاشور، فقد قال فيه: (إنني امرؤ جبلت على حب شيوخي وأساتذتي وعلى احترامهم إلى حد بعيد، وخصوصا بعضهم، وأستاذي هذا من ذلك

---

[1] ابن باديس، الآثار: (3/73)

[2] وهي قوله: (الرَّجَاءُ أَضْعَفُ مَنَازِلِ الْمُرِيدِينَ)، انظر: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1393 – 1973، (2/38)

[3] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/38).

الخصوص، ولكن ماذا أصنع إذا ابتليت بهم في ميـدان الكفـاح عن الحق ونصرته؟ لا يسعني وأنا مسلم أدين بقولـه تعـالى: {قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ} [التوبـة: 24] إلا مقـاومتهم ورد عاديتهم عن الحق وأهله)[1]

وابن باديس مع موقفه المتشدد هذا يعترف لشيخه بـالتبحر في العلم والتحقيق، فقد عرفه ـ كما يذكر ـــ (في جامع الزيتونة، وهو ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم والتحقيق في النظر والسمو والاتساع في التفكير أولهما العلامة الأسـتاذ شـيخنا (محمـد النخلي) القـيرواني رحمـه اللـه، وثانيهنـا العلامـة الأسـتاذ شيخنا (الطاهر بن عاشور)[2]

وهو يقر كذلك بأن شيخه لم يكن معارضا للإصـلاح الـذي تمثـل في ذلك الوقت بمدرسة محمد عبده، ويقر بدروه في تربيتـه على حب العربية والاعتزاز بها كما اعتز بالإسلام.

ولكنه مع هذا الإقرار يرى أن المناصب الـتي تولاهـا الشـيخ هي الـتي جعلتـه يفـتي تلـك الفتـوى، لا التحقيـق العلمي، ولا المنهج المقاصدي الذي أصل له، وكان يعتمد عليـه في فتـاواه، ولا الأخـذ بما أخذ به الكثير من الفقهاء في عصور الإسـلام المختلفـة ابتـداء من العصر الأول.

وهـذا المنهج يـذكرنا أيضـا بمـا فعلتـه الجمعيـة في مناقشـاتها الفقهية مع الطرق الصـوفية، كمـا سـنرى، فهي لا تكتفي بـالردود العلمية عليها، بل تضم إلى ذلك اتهامها في دوافعهـا ونياتهـا، وهـو منهج يطغى على التيار السلفي عموما في مناقشاته مع الآخر.

يقول ابن باديس مقارنا بين شيخيه النخلي وابن عاشور: (مـات الأستاذ النخلي على ما عاش عليه، وبقي الأستاذ ابن عاشور حتى دخل سلك القضاء، فخبت تلك الشعلة وتبدلت تلك الروح فحدثني من حضر دروسه في التفسـير أنـه- وهـو من أعـرف إنكـاره على

---

[1] ابن باديس، الآثار: (3/74)

[2] ابن باديس، الآثار: (3/74)

الطرق اللفظية وأساليبها- قد أصبح لا يخرج عن المألوف في الجامع من المناقشات اللفظية على طريقة عبد الحكيم في مماحكاته وطرائق أمثاله وبقي حتى تقلد خطة شيخ الإسلام، ووقف هو وزميله الحنفي في مسألة التجنيس المعروفة منذ بضع سنوات، ذلك الموقف حتى أصبح اسمه لا يذكر عند الأمة التونسية إلا بما يذكر به مثله. وها هو اليوم يتقدم بمقال نشره بجريدة (الزهرة) في عدد يوم الاثنين الرابع عشر من هذا الشهر الحرم يقاوم فيه السنة ويؤيد فيه البدعة ويغري السلطة بالمسلمين.. فهل ابن عاشور هذا اللقب بشيخ الاسلام، هو ابن عاشور أستاذي الذي أعرف؟ لا! ذلك رجل آخر مضى قضى عليه القضاء وأقبرته المشيخة، وقد أديت له حقه بما ذكرته به. وهذا مخلوق آخر ليس.. موقفه اليوم أول مواقفه ولا أحسبه يكون آخرها. وإنني لا أود أن يكون آخرها فإن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى معرفة ما ينطوي عليه مثله ممن ينتحلون ألقابا مخترعة في الإسلام، ولا يفضحهم مثل مقال هذا الرجل) [1]

بعد هذا، وفي أعداد تالية من البصائر، بدأ الشيخ عبد الحميد بن باديس يناقش شيخه في المسألة، ويعتمد في الأدلة التي يسوقها على نفس الأدلة التي اعتمد عليها قبله الشاطبي في الاعتصام، بل يحاكم شيخه إلى الشاطبي مع أن الشيخ ابن عاشور ــ كما يرى كل باحث منصف ــ لا يقل في فقهه وفهمه للمقاصد عن الشاطبي نفسه.

لكن ابن باديس مع ذلك يخاطبه قائلا: (لم ينصف فضيلته الشاطبي في الصورة التي صور بها كلامه وفيما رواه به. وكل ذلك لأجل أن يتوصل إلى تهوين ارتكاب بدعة القراءة في المواطن الثلاثة لأنها من المكروه الذي لا يعاقب على فعله)[2]

وانطلاقا من هذا راح الشيخ ابن باديس يلخص استدلالات الشاطبي، بل ويزيد عليها، وسنرى تفاصيل ذلك عند الحديث عن مصادر الجمعية في موقفها من البدعة في الفصل الأول من الجزء الثالث من هذه السلسلة.

---

[1] ابن باديس، الآثار: (3/54)

[2] آثار ابن باديس (3/ 79)

النموذج الثاني: الشيخ البشير الإبـراهيمي والطريقـة العلاوية

وقف الشيخ البشـير الإبـراهيمي مـع الشـيخ ابن بـاديس وأنكـر الكثير مما يتصوره من (بدع الجنائز)، ومن ذلك ما كتبه في جريدة البصائر تحت عنوان (إما سـنّة وإمـا بدعـة)[1] يـرد بهـا على مقـال تحت عنوان (المصـلحون يحـاربون لا إلـه إلا اللـه) نشـرته جريـدة (لسان الدين) التابعة للطريقة العلاوية.

وقــد خــاطب العلاويين فيــه بطريقــة لا تقــل عن طريقــة ابن باديس، بل إن الإبراهيمي اعتبر فيه المعركة مع الطرقيين معركـة سنة أو بدعة، يقول: (المسألة بيننا لا تتجاوز أحد أمرين: إمـا سـنّة نحن وهم سـواء في امتثالهـا والإذعــان لهــا،. أو بدعــة نحن وهم سواء في تجنبها وقتلها. هذا باعتبار الإسـلام الجـامع بيننـا. أمـا إذا كان الطرف الآخر لا يدين بما ندين فما كان لنـا أن نأخـذ من على غير ملتنا بما وجب علينا أخذ أنفسنا به.. الأمر- يا لله لهـذا الـدين- بيننا وبين إخوان لنا في الدين والجنس والوطن. إخواننـا فيهـا وإن كانوا لا يراعونها ولا يراعون عهدها وميثاقها الذي واثقنا الله به)[2]

ثم تحــدث بنفس المنهج الــذي انتهجــه الشـيخ ابن بـاديس من مراعاة قاعدة الترك، واعتبرها المعيـار الـذي يمـيز بـه بين السـنة والبدعــة، يقــول في ذلــك: (من بــاب مــا هــو معلــوم من الــدين بالضرورة إذا قلنا إِن تشييع الجنائز على عهد الرسول ﷺ كان بمـا يناسب جلال الموت ورهبته، والذي يتناسب وينسـجم مـع التشـييع هو الخشوع والتذكر والاعتبار بمن حملوا على الأعــواد. والخشــوع معروف هو غـير الصـراخ والعويـل والضـجيج والتهويـل وقـد شـيّع الرســول ﷺ أصــحابه وبناتــه، وشـيّعه أصــحابه من بعــده وشـيّع الصحابة- رضوان الله عليهم- بعضهم بعضًا كذلك على هيئة واجمة رهيبة تأثيرها في مشاهديها تأثير ما بعده من تأثير)[3]

---

[1] نشر المقال في جريدة (البصائر)، عدد 56، 19 فيفري 1937، بدون توقيع، وهو في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 289)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 289)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 289)

ثم استعرض بعض ما ذكره الطرقيون من أدلة على تلك الأذكار التي تشيع بها الجنائز، ورد عليها، قال: (إنهم يقولون ان ذكـر اللـه في تشـييع الجنـائز يلهي بـاقي المشـيّعين عن لهـو الحـديث، نحن معهم على هـذا بشـرط أن يكـون الـذكر تفكـرًا واعتبـارًا لا طبلًا ومزمارًا. أما ما هم عليه من رفع أصـواتهم في التشـييع بلا إلـه إلا اللـه وبمـا سـوّلت لهم أنفسـهم وزين لهم شـياطينهم فهـو منكـر أنكره الله ورسوله وأصحابه والأيمة المرتضون.. إن لا إله إلا اللــه لا توضع في غير مواضعها يا قوم! فما لكم إذا قيل لكم لا تضعوها في غير محلهـا، ومنـه الجهـر بهـا في التشـييع قلتم متجـرئين إننـا نحارب لا إله إلا الله؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم)[1]

وهــو يــدعو الطرقــيين إلى مراعــاة مــذهب مالــك في هــذه المسائل، كما دعا قبله الشيخ ابن بـاديس شـيخه ابن عاشـور إلى هـذه المراعـاة، يقـول في ذلـك: (ولـو كـانوا ممن يبتغي إلى اللـه سبيلًا كمـا يزعمـون لكفـاهم أن ينظـروا كتـاب الجنـائز من موطـأ مالك - رضي الله عنه - أو من البخاري أو مسلم أو غـير هـذه من كتب الحديث الصحيحة ولكنهم إشربوا حب البدعـة حـتى الثمالـة. فما لنا نجادلهم بالحـديث وبالكتـاب المنـير؛ وهم لم ينقـادوا حـتى للفقهاء الذين يدعون أنهم لهم مقلدون؟!)[2]

3 ـ الدعوة إلى العودة إلى المصادر الأصلية لاستنباط الأحكام:

وهذا هو القاسم المشترك الأكبر بين المـدارس السـلفية، فقـد انتقدت جميعا انصـراف العلـوم الإسـلامية عن المصـادر الأصـلية، والتصـاقها بالمصـادر الدخيلـة من الفلسـفة والاجتهـادات العقليـة المجردة عن الرجوع إلى النقل الصحيح.

وانطلاقا من هذا وقفت الجمعية موقفا ســلبيا من (علم الكلام) الذي ترك الأدلـة القرآنيـة الواضـحة البسـيطة إلى أدلـة معقـدة لا تثمر يقينا ولا إيمانا، يقول ابن باديس: (أدلة العقائد مبسوطة كلهـا في القرآن العظيم بغاية البيان ونهايـة التيسـير.. فحـق على أهـل

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 289)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 289)

العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلـك العقائـد من القــرآن العظيم، إذ يجب على كـل مكلـف أن يكـون في كـل عقيــدة من عقائــده الدينيــة على علم، ولن يجــد العــامي الأدلــة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهـو الـذي يجب على أهـل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسـلمين إليـه، أمـا الإعـراض عن أدلة القرآن، والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبـارة الاصطلاحية، فإنـه من الهجـر لكتـاب اللـه وتصـعيب طريقـة العلم على عباده وهم في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجته ما نــراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه)[1]

ومثـل ذلـك السـنة المطهـرة فهي صـنو القـرآن في التعريـف بعقائـد الإسـلام، والبرهنـة عليهـا، وقـد نص على هـذا الشـيخ ابن باديس في مواضع كثيرة من مقالاته، من ذلك ما نشره في مجلـة الشهاب عند بيانه للمنهج المثالي الذي كان ينمي بـه رسـول اللـه ﷺ المعاني العقدية في نفوس الناس، قال: (كان الأعرابي الجاهل المشـرك يـأتي للنـبي- صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم- فيـؤمن بـه ويصحبه يتعلم منه الدين، ويأخذ عنه الهدى، فيستنير عقلـه بعقائـد الحق وتتزكى نفسه بصفات الفضل، وتستقيم أعماله على طريــق الهدى، فيرجع إلى قومه هادياً مهدياً، أما ما يقتدي به، ويؤخذ عنــه كما اقتدى هو بالنبي- صلى الله عليه وآله وسلم- وأخذ عنه. فعلى كـل مـؤمن أن يسـلك هـذا السـلوك فيحضـر مجـالس العلم الـتي تذكره بآيات الله وأحاديث رسوله ما يصـحح عقـده ويـزكي نفسـه ويقوِّم عمله وليطبق مـا يسـمعه على نفسـه وليجاهـد في تنفيـذه على ظاهره وباطنه وليداوم على هذا حتى يبلغ إلى ما قدر له من كمال فيه فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره، في حاله، وسلوكه)[2]

وانطلاقــا من هــذا كــان ابن بــاديس يــرى أن المنهج الكلامي لا يصل بالإنسان إلى اليقين الذي يوصله إليه القرآن الكـريم، يقــول في ذلــك: (قلوبنــا معرّضــة لخطــرات الوســواس بــل للأوهــام

---

[1] آثار ابن باديس (1/ 272)

[2] الشهاب: ج6، م9، ص 223 - 229. غرة محرم 1352هـ - ماي 1933م.، نقلا عن الآثار: 1/497.

والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكــات المتكلمين ومناقضــاتهم، فمــا ازدادوا إلا شــكا ومــا ازدادت قلوبهم إلا مرضا، حتى رجع كثـير منهم في أواخـر أيـامهم إلى عقائـد القـرآن وأدلـة القـرآن فشـفوا بعـد مـا كـادوا كإمـام الحرمين والفخر الرازي)[1]

ولأجل هذا يرى الكثـير من البـاحثين أن ابن بـاديس لم يكن من المدرسة الأشعرية كما يـذكر البعض، ويؤيـد هـذا اعتبـاره تـأويلات الأشعرية من الخطأ الضار، إذ قال في ترجمته للشيخ محمد رشيد رضا: (دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه الجليـل للإمـام المرتضي الحسيني، فلما طالعه ورأى طريقتـه الأثريـة في تخـريج أحاديث الإحياء فتح له باب الاشتغال بعلوم الحـديث، وكتب السـنة، وتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطأ الضار وهو قليل، ولاسيما عقيـدة الجـبر والتـأويلات الأشـعرية والصـوفية والغلـو في الزهـد وبعض العبادات المبتدعة)[2]

وعلى نفس المنهج كـان الشـيخ العـربي التبسي - الـذي تـولى مهمة الإفتاء في الجمعية سنين طوالا، بل كان رئيس لجنة الفتوى فيها - يقول في بيـان مصـادر اسـتدلاله للفتـاوى: (وقـد رأينـا هـذا الزاعم يقول إنّ الأخذ بظـواهر أقـوال النـبيّ ﷺ وأعمالـه اجتهـاد، والاجتهـاد قـد انقضـت أيّامــه ومـاتت رجالــه، وبـذلك يجب على المسلمين أن يتركوا كـلّ آيـة من الكتـاب، وكـلّ قـول وعمـل من رسول الله، ولا يهتدون بشيء من كتاب ربّهم ولا من سـنّة نـبيّهم، وعليهم أن يقتصروا على مـا كُتِب في الفـروع، يحلّـون مـا أحلّت، ويحرّمون ما حـرّمت، ويوالـون من والت مـاداموا غـير مجتهـدين. هذه هي مقالة هذا المفتي المزهّـدة في كتـاب اللـه، الصـادّة عن سنّة رسول الله ﷺ ، وهي باطلـة بإجمـاع المسـلمين من يـوم أن بعث نـبيّهم إلى اليـوم، ذلـك أنّ العـوامّ والعلمـاء يعملـون بـأقوال النبيّ ﷺ وأعماله من غير توقّف على أحد منهم لوصولهم إلى رتبة

---

[1] آثار ابن باديس (1/ 416)

[2] آثار ابن باديس (4/ 197)

الاجتهاد، وهـذا أمـر معلـوم من عصـر الصّحابة إلى اليـوم، واللـه يقول الحق وهو يهدي السبيل)[1]

وهو يؤرخ للانحطاط الذي وقعت في الأمة بتـاريخ إعراضـها عن السنة النبوية، يقول في ذلك: (لست أعرف ابتداءه تاريخياّ (يعني الانحطاط) ولكنّي أستطيع أن أحدّده بظهور آثـار التغـير في هـذه الأمّة، وأزعم أنّه يبتـدئ من يـوم أضـاع النّـاس السـنّة المحمّديـة، وركنـوا إلى بـدع الرّجـال الّـتي صـرفتهم عن التّربيـة المحمّديـة والأخلاق الإسلامية، وظهر في الشّعب رؤساء ينسبون إلى الـدّين، فكان وجودهم سببا في انقسام في الوحدة، واختلاف في الكلمة، وذيـوع الأهـواء، وتُحيِّز جماعـات الأمّـة إلى نزاعـات تفت عضـد الوحدة المقصودة للدّين، حتى أصبح الحبّ والبغض ليسا في اللـه كمـا هي القاعـدة الدّينيـة، واتّخـذ النّـاس رؤسـاء جهّـالا بـدعيين يعدّونهم من أولياء الله وخواصّ عباده المقرّبين عنـده، ففُتِنت بهم جهلة الأمّة وأشباه الجهلة، فنصـروهم على عمايـة واتبعـوهم على غواية وصار الدين ألعوبة في يد هؤلاء الرؤساء وأتباعهم)[2]

ومثلمـا رأينـا ابن بـاديس ينكـر على ابن عاشـور وقوعـه في البدعة، فإنا نـرى كـذلك نفس الموقـف من العـربي التبسي ينكـر على ابن عاشور إعراضه عن السنة، وذلـك في فتـوى لـه بعنـوان (صلاة العيد لمن فاتته في اليوم الثاني سنة)[3]

وقـد قـدمت لهـا الجمعية[4] بهـذا التقـديم المهين للشـيخ ابن

---

[1] انظر: جريدة البصـائر، السلسـلة 1، السـنة الثالثـة، عـدد 90، الجمعـة 17/ـ 12/1937م الموافق 07/شوال/1356 هـ، ص 1.

[2] جريدة البصائر، السلسلة 1، السنة الثالثة، عدد 90، الجمعـة 17/ـ 12/1937م الموافـق 07/شوال/1356 هـ، ص 2.

[3] نشـرت هـذه الفتـوى في جريـدة البصـائر، السلسـلة الأولى، السـنة الثالثـة، عـدد 102، الجمعة 04/مارس/1938م الموافق 01/محرم/1357هـ، ص 1 و2 و3

[4] ذكر الدكتور أحمد عيساوي أن هذه المقدمة التوضيحية بقلم، وتوقيع إدارة تحرير جريـدة البصائر التي كان صاحب الامتياز فيهـا آن صـدور هـذه الأعـداد الشـيخ (محمـد خـير الـدين)، ورئيس التحرير والمدير المسؤول الشـيخ (مبـارك بن محمـد الميلي)، انظـر: الـدكتور أحمـد عيساوي، منارات من شهاب البصائر للشيخ العربي بن بلقاسم التبسي (1308 ـ 1377هـ /

عاشور: (علمنا ما وقع للنـاس من اضـطراب في حكم صـلاة عيـد الفطـر في هاتـه السـنة فـذكرنا لهم حـديث أبي عمـير في العـدد التسعين[1]، ولكن من النـاس من يطمئن لقـول مصـنف فقيـه ولا يطمئن - والعياذ بالله - لسماع الحديث الصحيح. فنشرنا تثبيتا لهم ملخص مقالين أضاف كاتبهما إلى ذلك الحـديث أقـوال الأئمـة من المالكية وغيرهم. وبعـد هـذا كلـه طلعت علينـا المجلـة الزيتونية[2] بفتوى شـيخ الإسـلام المـالكي بتـونس تحمـل على مـا نشـرنا في الموضوع حملة سـيئة القصـد والأدب، مخطئـة في العلم والنظـر، حتى أنهـا ختمت بضـرب مثـل يحقـر المتمسـكين بـذلك الحـديث. ويعلق أصحاب المجلة على ذلك المثل بالشرح إظهـارا لسـرورهم بهـذا الأدب؟.. وتعريضـا بـأن المخـاطب بـه لا يفهمـه. وقـد كتب الأستاذ الشيخ العربي التبسي مقالا نقض به تلك الفتوى، الـتي إن دلت على شيء فهو أن شيخ الإسلام أصبح للعلمـاء الأحـرار شـيخ خصام لا لإحقاق حق وإبطال باطل ولكن لحاجـة في نفس الشـيخ يعلمها هو ومن عرف حرصه على مشـيخة جـامع الزيتونـة وشـدة أسفه على تملصها منه، وسعيه بكل وجه لاستعادتها. ولكثرة مـواد الجريدة تأخر نشر هـذا المقـال القيم إلى اليـوم. ولكنـه ليس من تأخير البيان عن وقت الحاجة)[3]

ونحن في هذا المقام لا نملك إلا أن نتأسف على هـذا الخطـاب الذي لا يوجه للشيخ ابن عليـوة أو الشـيخ الحـافظي، وإنمـا يوجـه

1891 - 1957م)، ص243.

[1]) جريدة البصائر، السلسلة 1، السنة الثالثة، عدد 90، الجمعـة 17/ـ 12/1937م الموافـق 07/شوال/1356 هـ، ص 1 و2، نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العـربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص223.

[2]) المجلة الزيتونية لسان حال جامع الزيتونة. أسست سنة 1936م ورئس تحريرهـا الشـيخ محمد الشاذلي بن القاضي. انظر: محمد بن قفصية، أضواء على تـاريخ الصـحافة التونسـية، دار بوسلامة للطباعة، نوتس، دون طبعة، دون تاريخ، ص 228 نقلا عن: منـارات من شـهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص223.

[3]) جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثـة، عـدد 102، الجمعـة 04/مـارس/1938م الموافق 01/محرم/1357هـ، ص 1 .

إلى الشـيخ ابن عاشـور المعـروف بعلمـه ونظراتـه المقاصـدية الإصلاحية.

وهذا المثال كاف ليرينا مـدى تعمـق المنهج الوهـابي في النقـد وفي التعامل مـع الآخـر وفي عـدم رعايـة حرمـة أي كـان مـا دام مخالفا في أذهان وسـلوكات الجمعيـة، وهـو مـا يقربهـا كثـيرا من الوهابية، بل يكاد يجعل منها فرعا من فروعها في الجزائر.

4 – الموقف من الحكام:

وهــذا من النقــاط الفارقــة بين الجمعيــة والطــرق الصــوفية، فالوهابية ترى عدم التـدخل في السياسـة مطلقـا، وتـرى الطاعـة المطلقة للحاكم مهما كان[1] بينمـا تختلـف الجمعيـة معهـا في هـذه

[1] عبر عن ذلك الشيخ ابن عـثيمين، وهـو من علمـائهم الكبـار في هـذا العصـر، فقـال في (مجموع فتاوى ورسـائل الشـيخ محمـد بن صـالح العـثيمين - شـرح العقيـدة الواسـطية، دار الثريا، الطبعة الأولى، 1419هـ) في فصل تحت عنوان (منهج أهل السنة والجماعة في الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر وغيرهـا من الخصـال) (8/657): (أهـل السـنة رحمهم اللـه يخالفون أهل البدع تماما، فيرون إقامة الحج مع الأمير، وإن كان من أفسق عبـاد اللـه.. فهم يرون إقامة الحج مع الأمراء، وإن كانوا فساقا، حتى وإن كـانوا يشـربون الخمـر في الحج، لا يقولون: هذا إمام فاجر، لا نقبل إمامتـه؛ لأنهم يـرون أن طاعـة ولي الأمـر واجبـة، وإن كـان فاسقا، بشرط أن لا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهـان، فهـذا لا طاعة له، ويجب أن يزال عن تولي أمور المسلمين، لكن الفجور الذي دون الكفر مهما بلــغ، فإن الولاية لا تزال به، بل هي ثابتة، والطاعـة لـولي الأمـر واجبـة في غـير المعصـية.. خلافـا للخوارج، الذين يرون أنه لا طاعة للإمام والأمير إذا كان عاصيا، لأن من قاعدتهم: أن الكبيرة تخرج من الملة. وخلافا للرافضة الذين يقولون: إنه لا إمام إلا المعصوم، وإن الأمة الإسلامية منذ غاب من يزعمون أنه الإمام المنتظر، ليسـت على إمـام، ولا تبعـا لإمـام، بـل هي تمـوت ميتة جاهلية من ذلك الوقت إلى اليوم، ويقولون: إنه لا إمام إلا الإمـام المعصـوم، ولا حج ولا جهاد مع أي أمير كان؛ لأن الإمام لم يأت بعد.. لكن أهل السنة والجماعة يقولـون: نحن نـرى إقامة الحج مع الأمراء سواء كانوا أبرارا أو فجارا، وكذلك إقامة الجهاد مـع الأمـير، ولـو كـان فساقا، ويقيمون الجهاد مع أمير لا يصلي معهم الجماعة، بل يصلي في رحله)

ثم علل ذلك بقوله: (فأهل السنة والجماعة لديهم بعد نظر، لأن المخالفـات في هـذه الأمـور معصية لله ورسوله، وتجر إلى فتن عظيمة.. فما الذي فتح باب الفتن والقتال بين المسلمين والاختلاف في الآراء إلا الخروج على الأئمة؟! فيرى أهل السنة والجماعة وجوب إقامــة الحج والجهاد مع الأمراء، وإن كانوا فجارا)

الناحية، فصحف الجمعية ونشاطها السياسي - كما سنرى في المبحث الثاني - يبعدها تماما عن هذا النوع من السلفية، ولذلك لقي موقف أعضاء الجمعية من الديمقراطية نقدا لاذعا شديدا من الوهابية المعاصرين، لدرجة أنهم بدعوا الجمعية بجميع أعضائها بسببه.

وقبل أن ننقل مواقف الوهابية المعاصرين من الجمعية بسبب هذا، نذكر بعض النصوص التي صرح بها بعض أعضاء الجمعية، والتي لقيت هذا الاستياء من طرف الوهابية المعاصرين.

وأولهم ابن باديس، فقد قال في خطاب له في عرض حالة الجمعية الأدبية: (نعم نهضنا نهضة (بنينا على الدين أركانها فكانت سلاما على البشرية) لا يخشاها- والله- النصراني لنصرانيته ولا اليهودي ليهوديته بل ولا المجوسي لمجوسيته ولكن يجب- والله- أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته)[1]

ومن ذلك ما نشره مخاطبا الشعب الجزائري بحماسة قائلا[2]: (ها هم اليوم يريدون خدعك، ويحاولون استعمالك آلة لأغراضهم ضد أصدقائك الإنسانيين.. أيها الشعب الكريم: كن- كلك- مع الحكومة الفرنسوية الممثلة للشعب الفرنسي الديموقراطي أصدق تمثيل.كن كلك ضد كل متعصب ضد أي جنس وأي دين. كن متحدا فبالاتحاد- فقط- تبلغ غايتك الشريفة الإنسانية. كن مستيقظا منظما، لتبرهن على أنك شعب لا تريد إلا العيش والحرية والسلام. ارفع عقيرتك بالاحتجاج ضد جميع الذين يستعملون العنف والقسوة والأساليب الشيطانية الخفية ليحدثوا الفتنة والشغب ضد فرنسا والجزائر. ناد من كل قلبك: لتحيى الجزائر! لتحيى فرانسا الشعبية! ليسقط الظلم والاستعباد! ليسقط أضداد الأجناس وحرية الأديان والأفكار!) [3]

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 557)

[2] نشرت جمعية العلماء المسلمين على الأمة الجزائريين منشورين في أيام حادثة مقتل الشيخ كحول سنة 1355هـ - 1936م، تحضها على ملازمة الهدوء والسكون وتدعوها إلى الثقة بالعدالة الفرنسوية (انظر: آثار ابن باديس (3/ 119)

[3] آثار ابن باديس (3/ 120)

ومن التصريحات التي ينكرونها في هذا البـاب على الإبـراهيمي قوله، وهو يتحدث عن الديمقراطية، ويثني عليهـا: (والديمقراطيـة رأي يوناني نظري جميـل، منسـوب إلى اسـم صـاحبه، وهـو قـائم على أن الشعب هو مصـدر السـلطة، ومن ثمّ فهـو صـاحب الحـق في الحكم والتشريع، وعلى أن الأفراد متسـاوون في هـذا الحـق، ويناقضه رأي آخر يوناني النشأة أيضًا. اصطرع الرأيان في ميــدان الجدل، ثم اصـطرعا في ميـدان العمـل حـتى أصـبحا مـذهبين في سياسـة الحكم، وبـابين في فلسـفة الاجتمـاع، وكـانت هـذه الآراء الجميلة في الحياة مثل رأي ديموقراط تدور بين فلاسـفة اليونـان وقياصرة الرومان، أولئك يدرسونها جدلًا، وهـؤلاء يدرسـونها عملًا، إلى أن انتصف الله للحـق بالإسـلام، فجـاء بالشـورى والمسـاواة- حكمًا من الله- وأين حكم العقول من حكم خـالق العقـول؟ وجـاء عمر فلقّن العالم درسًا عمليًّا في المثـل الأعلى للحكم، ثم جـاءت الحضارة الغربية المجتهدة في إثمـار الحقـول، المقلـدةُ في أثمـار العقول، وكان من آثار التعصب فيها للآريّة والمسـيحية أنهـا آثـرت الديمقراطية على العُمَرية، آثرتهـا في التسـمية والنسـبة، أمـا في التطبيق والعمل، فإن هـذه الحضـارة- وهي حاضـنة المتناقضـات- اتسعت لرأي ديمقراط ولرأي ميكيافيلّي صـاحب كتـاب "الأمـير"، فإذا أرادت التلبيس ألبست الثاني ثوب الأول)[1]

ويشـتد نكـيرهم عنـدما يعتـبر أنهـا مظلومـة، وأن الـداعي لهـا مأجور، وهو بذلك يقررها ويشرعنها، وهذا نص تصريحه الـذي لقي الإنكار الشديد من الوهابية المحافظين: (لم تُظلَم هذه الكلمـة مـا ظلمت في هـذه العهـود الأخـيرة، فقـد أصـبحت أداة خـداع في الحرب وفي السلم، جاءت الحرب فجنـدها الاسـتعمار في كتائبـه، وجاء السلم فكـانت سـرابًا بقيعـة، ولقـد كـثر أدعياؤهـا ومـدّعوها والـداعون إليهـا، والمـدّعي لهـا مغـرور، والـداعي إليهـا مـأجور، والدعيّ فيها لابسٌ ثـوبَي زور.. أصـبح اسـتعمار الأقويـاء للضـعفاء ديمقراطية، وتقتيلهم للعزل الأبريـاء ديمقراطيـة، ونقض المواثيـق

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 508)

ديمقراطية.. لك الله أيتها الديمقراطية!)[1]

ومن التصـريحات الـتي ينكرونهـا على الشـيخ العـربي التبسي قوله: (ثم جاء دور من أدوار تحديد علاقة الدولة الفرنسية بالأديان وذلك حين صدر قرار 9 ديسمبر 1905 القاضي بفصل الــدين عن الدولة، وكان موقف الحكومة الاستعمارية في الجزائـر من الـدين الإسلامي أنه ليس بدين، وليس بأهل لأن تطبق عليه قوانين فصل الدين عن الدولة.. إن هذه المسألة لا ينبغي للـديمقراطيين كيفمـا كان دينهم وكيفمـا كـانت جنسـيتهم أن ينظـروا إليهـا كمسـألة بين الحكومـة الاسـتعمارية وبين المسـلمين الجزائـريين. بـل الـواجب على كـل ديمقـراطي حـر الضـمير أن ينظـر للمسـألة من جهتهـا الديمقراطية الـتي هي فصـل الـدين عن الدولـة ووجـوب احـترام الناس في أديانهم وعقائـدهم، وشـعائر دينهم، ومنـع الحكومـة من التفريق بين الأديان الـتي يعيش معتنقوهـا في وطن واحـد وحـتى يعيش الناس في وئام واتفاق ومع حكومـة واحـدة. هـذا موقـف – أيها الديمقراطيون- يجب علينا أن نقفه كلما حـاولت الحكومـة أن تعتدي على مظهر من مظاهر الديمقراطية)[2]

حتى الشيخ الطيب العقبي – مع رضاهم الشديد عنــه – إلا أنهم في هــذا الموقــف ينكــرون عليــه قولــه المنشــور في جريــدة (الشـهاب)، وهـو قولـه:(..ويكفي في نظـري لربـط العلائـق بين المتـدينين من المسـلمين والمسـيحيين أن يعمـل كـل منهمـا بمـا جاءت به تعاليم دينـه الصـحيح، ومـتى حققـوا العمـل بمـا جـاء بـه (سـيدنا عيسـى) و(سـيدنا محمـد) ﷺ عليهمـا من مظـاهر العـدل والرحمة كانوا أمة واحدة تعمل لخير الإنسانية وصالح هذا المجتمع الإنساني الـذي يجب أن تـراعي لـه كرامتـه ويجب أن لا يحتقـر أو يهان في حال من الأحوال)[3]

ويعتبرون هذا مخالفا لقول النبي ﷺ: (لا تسألوا أهل الكتاب عن

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 508)

[2]) العربي التبسي: مقالات في الدعوة إلى النهضـة الإسـلامية في الجزائر، جمـع: شـرفي أحمد الرفاعي قسنطينة، دار البعث 1981، 1/180-181.

[3]) الشهاب (11/326) (غرة جمادى الأولى:1354هـ/أوت:1935)

شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإنكم إما أن تصدقوا بباطــل أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حـل لـه إلا أن يتبعني)[1]

وقد دافع الباحث محمد حاج عيسى – مـع توجهـه الوهـابي- عن هذا الموقـف في كتابـه: (الـرد النفيس على الطـاعن في العلامـة ابن بـــاديس)[2]، حيث قـــال في مطلبـــه الثـــالث: (قضـــية تحكيم الشـريعة): (..إن المتكلم بلفـظ الديمقراطيـة قـد لا يعـني بـذلك مبدأها الأصلي الذي هو الحكم للشعب الذي هو كفر، كما لا يعـني فصل الدين عن الدولة، وهو من الأسس التي تقوم عليها الأنظمـة الديمقراطية، ولكن بعضهم يعني بها حرية التعبير والانتقاد بالطرق السليمة، ومنه ما يستعمله السياسيون المسلمون في معنى حرية المعارضة السياسية المنظمة، وقد يراد بها حرية العقيـدة بحيث لا يضيق على أهـل الـديانات المختلفـة وتضـمن لهم حريـة ممارسـة شعائرهم الدينية، فيجعلونهـا مقابلـة للحكم الجـبري الـديكتاتوري، وهذه المعاني لا ترقى إلى كونهـا من نـواقض الإسـلام أو لا تعـني بالضرورة أن المعبر بها مرتد كافر أو مضلل للناس، وحرية التعبير وحرية العقيدة وإن كانت لها ضوابطها الشرعية المخالفة للطريقة الديمقراطيـــة، فإنـــه في بـــاب المـــداراة يجـــوز اســـتعمال اللفـــظ المشترك الذي يفهم منه السامع شيئا ويريد به المتكلم شيئا آخر، بـل هـذا هـو معـنى التوريـة الـتي لا شـك في جوازهـا في حالـة الاضطرار، وأنها من الكذب المباح كما قال إبراهيم – عليه السلام – للملك الظالم عن سارة بأنها أخته هو يقصـد في الـدين والملـك فهم أنها أخته في النسب)[3]

وقد رد التيار الأكثر تشـددا على هـذا بـأن كلامـه فيـه (مغالطـة وأغلاط من وجوه عدة: منها: تأويله السـمج لكلام ابن بـاديس في

---

[1] مسند أحمد بن حنبل (3/ 338)

[2] محمد حاج عيسى، (الرد النفيس على الطاعن في العلامة ابن باديس)، د.ط، د.ت، (ص: 253-254)

[3] الرد النفيس على الطاعن في العلامة ابن باديس، (ص: 253-254).

الديمقراطيـة وتشـنيعه على من رد عليـه فيهـا بكلام حـق وقـال: (تضـليل الشـعب بفكـرة الديمقراطيـة، والديمقراطيـة هي الكفـر عينه إذ أنها تنادي بوجوب إخضاع الحكم للشعب، والحكم للـه عـز وجـل في شـريعتنا وعقيـدتنا، فكيـف خفي هـذا على الشـيخ ابن باديس؟.. - ومنها: تكلف الأعذار في حمل الكلام غـير مـا يحتمـل، كقوله: (إن المتكلم بلفظ الديمقراطيـة قـد لا يعـني بـذلك مبـدأها الأصلي الذي هو الحكم للشعب الذي هو كفر، كمـا لا يعـني فصـل الـدين عن الدولـة، وهـو من الأسـس الـتي تقـوم عليهـا الأنظمـة الديمقراطية)، وكلام ابن بـاديس في الديمقراطيـة واضـح وضـوح الشمس، ويعني كل ما سبق ومنها مبدأها الأصلي كما عبر الـرَّاد.. ومنها: قول الكاتب - عن معـاني الديمقراطيـة أنهـا (لا تـرقى إلى كونها من نواقض الإسلام أو لا تعني بالضرورة أن المعبر بها مرتـد كافر أو مضلل للناس)، وهذا فيه من المغالطة ما فيه، حيث أوهم القاري أن القـول بهـا ليس من نـواقض الإسـلام وأن من رد على خطـأ ابن بـاديس وأمثالـه من الكتـاب الإسـلاميين القـائلين بالديمقراطية؛ فقد يلزم منه تكفيرهم.. وليَعلم الأخ الكاتب – عفـا الله عنه – أن (الديمقراطية = الكفر)، وأنها ليسـت من الإسـلام، أما تكفير القائل بها فإنَّ ردَّ الخطأ لا يلزم منه الحكم بالتكفير، أما التضليل فقد ضل الشيخ ابن باديس - وغيره - عن الحق في هـذه المسألة وغيرهـا..و الحكم بـالتكفير في مثـل هـذه القضـايا لأهـل العلم الراسخين، وليس لكل من هب ودب)[1]

وهكذا نجـد الرسـائل والمقـالات والمـدونات بين الطـرفين من الوهابية المتشدد منهم، والأقل تشـددا، منهم من يتهم ابن بـاديس والجمعية، ومنهم من يدافع عنهم، والكل متفق على أن ظـاهر مـا قالـه ومـا قالـه أعضـاء الجمعيـة معـه منكـر، والفـرق بينهمـا أن المتشـدد يأخـذ بظـواهر الألفـاظ، والأقـل تشـددا يـؤول ويلتمس الأعذار.

[1]) ورد هذا النقد في منتديات الآفاق السلفية في موضوع تحت عنـوان (الشـيخ بن بـاديس- رحمه الله تعالى- والديمقراطية) ضمن سلسلة (التنبيهـات السَّـلفية..) على هـذا الرابـط: (http://al-afak.amanjamy.net/showthread.php?t=2356)

المطلب الثالث: السلفية التنويرية وعلاقة جمعية العلماء بها

السلفية التنويرية هي المدرسة الثانية من مدارس السلفية الكبرى، وهي وإن كانت تتفق معها في الاسم، فإنها تختلف معها في المسمى اختلافا شديدا يصل أحيانا إلى حد الصراع.

فالتنويريون يتهمون المحافظين بالجمود والتخلف والحرفية، والمحافظون يتهمون التنويريين بالعقلانية والبدعة والضلالة.

فهذا محمد عبده زعيم السلفية التنويرية يقول منتقدا السلفية المحافظة: (... اللهم إلا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين، وإن أنكرت كثيرا من البدع، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من اللفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية أحباء)[1]

وقد علق الشيخ رشيد رضا على قوله هذا بقوله: (يعني بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية، فقد كان يحمد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الأثر على آراء البشر، وينكر عليهم ضيق العطن دون ما أرشدت إليه النصوص من علوم الأكوان ومقدمات المدنية والعمران التي تعتني بها الأمة وتعلو كلمة الملة)[2]

وهذا فهد الرومي من السلفية المحافظة يذكر المستجدات الفكرية والعلمية الحديثة، فيقول: (.. وهال الأمر علماء المسلمين، وذهبوا للرد على تلك الأفكار مذاهب شتى. وحاولت فئة منهم التوفيق بين الدين والعلم وبينت للناس أن الدين الإسلامي الحق لا يحارب العلم ولا ينافي العقل وأنه دين العقل والحرية والفكر. وذهبت تبين للناس ذلك المنهج وتقيم الدين

[1] محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، ط 3 1988 م، ص 127 - 128.

[2] محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (هامش)، ص 127.

الإسلامي على العقل – الذي لا يقـر أربـاب الثقافـة الغربيـة غـيره حكما – وبينت أن ليس في الإسلام ما لا يقره العقـل وحـاولت أن تفسر القرآن الكريم على هذا المنهج وهـذا الأسـاس وكـان لهـذه المدرسـة العقليـة رجـال كـان لهم نشـاط واسـع في نشـر هـذه الثقافة ومكافحة الاسـتعمار ومقاومـة الهجـوم على الـدين وإلقـاء التبعة عليه في التخلف الحضاري.. وكان من رجال هذه المدرسـة المؤسسين لها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده وتلاميذه محمد مصطفى المـراغي ومحمـد رشـيد رضا وغـير هـؤلاء كثـير.. وسميت نهضتهم هذه بالنهضة الإصلاحية وكان لهذه المدرسـة آراء كثيرة تخالف رأي السـلف وشـطحات مـا كـانوا ليقعـوا فيهـا لـولا مبـالغتهم الشـديدة في تحكيم العقـل في كـل أمـور الـدين حـتى جـاوزوا الحـق والصـواب وشـكك بعض رجـال الفكـر الإسـلامي الحديث في نزاهة المؤسسين لهذه المدرسة أعـني جمـال الـدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده مستدلين على ذلـك ببعض علاقـاتهم وما ورد في كتاباتهم)[1]

وهذا سلمان بن فهد العودة مع اعتدالـه في كثـير من المواقـف يقول عن هذه المدرسة: (إن المدرسة العقليـة اسـم يطلـق على ذلك التوجه الفكري الذي يسعى إلى التوفيق بين نصـوص الشـرع وبين الحضـارة الغربيـة والفكـر الغـربي العاصـر، وذلـك بتطويـع النصوص وتأويلها تأويلا جديدا يتلاءم مع المفاهيم المسـتقرة لـدى الغربيين، ومع انفجـار المعلومـات والاكتشـافات الصـناعية الهائلـة في هذا العصـر، وتتفـاوت رمـوز تلـك المدرسـة تفاوتـا كبـيرا في موقفهـا من النص الشـرعي، ولكنهـا تشـترك في الإسـراف في تأويل النصوص، سواء كانت نصوص العقيدة، أو نصـوص الأحكـام، أو الأخبار المحضة، وفي رد ما يستعصـي من تلـك النصـوص على التأويل)[2]

---

[1]) فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، دار الرسـالة، الطبعـة الرابعـة، 1414 ص66.

[2]) سلمان العودة، حـوار هـادئ مـع محمـد الغـزالي، الرئاسـة العامـة لإدارات البحـوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ذو القعدة 1409 هـ، ص9.

ويقول آخر بلهجة أشد: (وقد سلك مسلك هؤلاء الزائغين جمال الدين الإيراني المتـأفغن، ومحمـد عبـده المصـري، ومحمـد رشـيد رضا، ومحمد مصطفى المـراغي، ومحمـد فريـد وجـدي، ومحمـود شــلتوت، وعبــدالعزيز جــاويش، وعبــدالقادر المغــربي، وأحمــد مصـطفى المـراغي، وأبـو ريّـة صـاحب الظلمـات، وأحمـد أمين صاحب (فجر الإسلام) و(ضحاه) و(ظهره)[1]

ومــع هــذا البــون الشــديد بين المدرســتين إلا أن الكثــير من المــؤرخين والمفكــرين اســتعملوا هــذا المصــطلح في كتابــاتهم (سـلفية)، ينعتـون بـه مفكـري عصـر النهضـة، وزعمـاء الحركـات الإسلامية الكبرى التي ظهرت في العـالم الإسـلامي، مثـل رفاعـة الطهطاوي وجمـال الـدين الأفغـاني ومحمـد عبـده، ومن تبعهم أو سار على نهجهم أو اتفق معهم في مبادئهم كأبي شـعيب الـدكالي والعربي العلوي والزعيم علال الفاسي من المغرب الأقصى، وابن بـاديس والإبـراهيمي من الجزائـر، وسـالم بوحـاجب والطـاهر ابن عاشور من تونس، وحسن البنا من مصر، ومحمد إقبال في الهند، وعلي شريعتي في إيران، والمودودي في باكستان[2].

وبما أن لجمعية العلمـاء علاقـة كـبرى بهـذا التيـار السـلفي إلى درجة أن الكثير من الباحثين يعتبرونها امتدادا لـه، فإنـا نحتـاج إلى ما احتجنا إليه في المطلب السابق من إثباتات، وهي نوعان:

الأول: إثبات علاقة الجمعية مع رواد هذه المدرسة.

الثاني: إثبـات مـدى الاتفـاق في المبـادئ بين الجمعيـة وهـذه المدرسة.

وقد خصصنا كل قسم منهما بفـرع خـاص، وقـدمنا لـذلك بفـرع حول حقيقة التنوير.

أولا ــ حقيقة التنوير:

لغة: التنوير كلمة مشتقة من (النُّور)، أي الضـياء. والنـور: ضـد الظلمة، والتنوير: وقت أسفار الصبح، يقال: قد نور الصبح تنــويراً.

---

[1]) أبو عبد الـرحمن مقبـل بن هـادي الـوادعي، ردود أهـل العلم على الطـاعنين في حـديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عن السلفية، دط.ط2، ص7.

[2]) مجموعـة من المـؤلفين، الموسـوعة الفلسـفية العربيـة، معهـد الانمـاء العـربي، بـيروت، المجلد الثاني، مادة السلفية، ص 737.

والتنوير: الإنارة[1].

اصطلاحاً:

ربما يكون الفضل في نشأة مصطلح (التنوير) - بمفهومه الحديث – إلى الثقافة الغربية قبل الثقافة العربية الإسلامية[2]، ذلك أنه بالتأمل البسيط لدلالة المصطلح والتعرف على المبادئ التي يراد بها منه نجد نقاطا كثيرة مشتركة:

فمفهوم التنوير (Enlightenment) في الثقافة الغربية يقصد به اتجاه ثقافي ساد أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر بتأثير من المثقفين الذين عرفوا باسم المتفلسفين، وكانوا صحفيين وكتاباً ونقاداً، ورواد صالونات أدبية من أمثال (فولتير)، (وديدرو)، و(كوندرسيه)، و(هولباخ)، و(بيكاريا)

وقد اتخذ هذا الاتجاه من العقل والطبيعة والتقدم، ركائز لنشر وجهته العلمانية (Secularism) والعِلمانية (Sciencism)، وكان شعار التنوير الغربي (العلم للجميع)، وكانت روح التنوير إلحادية، بل وشديدة العداء للكنيسة وللسلطة متمثلة في الدولة، وللخرافة والجهل والفقر، ولهذا اتخذ أصحابه من العلم سبيلاً لتنوير العقل وتحريره من ظلمة الجهل ونشر المعارف الحديثة، ومن الصحافة طريقاً لتثقيف الرأي العام وتربيته وتوعيته، ومن النقد درباً للوقوف على الحقيقية[3].

انطلاقا من هذا فهم (التنوير) في العالم الإسلامي فهمان

---

[1]) انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج 6، ص 4571، وأيضاً الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 1877 ،2، ص 624..

[2]) هذا بالنسبة له كمصطلح لاتجاه فكري، أما دلالته – كمنهج فكري- فهي موجودة بقوة في الثقافة الإسلامية، فهذا (ابن رشد) يستخدمه في دعوته إلى إعمال العقل في النص الديني في مقولة (التأويل)، والتي يعرفها بأنها (إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية)، والتأويل عنده من شأن الراسخين في العلم وليس من شأن الجمهور؛ ولهذا يمتنع تكفير المؤول. فالذي يكّفر هو الذي يتوهم أنه مالك للحقيقة المطلقة. وهذا الوهم هو الذي يحد من سلطان العقل. وقد أراد (ابن رشد) إزالة هذا الوهم بحيث لا يبقى سوى سلطان العقل. وهذا هو جوهر (التنوير) (انظر: مراد وهبه، ملاك الحقيقة المطلقة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ص 108)

متناقضان، ولكل منهما رواده ومفكروه ومشروعه الإصلاحي:

أما **الفهم الأول**، فأخذ من التنوير صورة مطابقة للأصل الغربي، فعرف (التنوير) بأنه (الاتصال المباشر بالغرب واقتفاء أثر الفلاسفة العقليين الأحرار في إعادة بناء الحضارة العربية الحديثة) [1]

وعرفه آخر: بأنه حركة فكرية عقلية إلحادية، أنكر أصحابها وجود الله، والكتب السماوية، والبعث، والآخرة، وانصبت جهودهم على إصلاح المجتمع[2].

وأما **الفهم الثاني**، فأخذ روح التنوير ومبادئه الكبرى دون انحرافاته المتمثلة في الإلحاد والمواجهة التامة مع الدين، لأن الإسلام ليس كالمسيحية، وقد عوض ذلك بمواجهة الأفكار الدخيلة على الإسلام، ولهذا ربط بين السلفية والتنوير، وقد كان على هذا النهج (محمد عبده) فقد وصف الأمم المتنورة بأنها الأمم المتمدينة؛ فهو يوحد بين (التنوير والتمدن)، ولا يربط بين التنوير والإلحاد.

بل إن بعض المفكرين المسلمين يعرفون (التنوير) بأنه (اتباع النور والهدى المبين، واقتفاء أثر النبي عليه الصلاة والسلام)، ووصفوه بأنه الفجر الذي يبدد ظلمات الجهل والجهالة، ومن ثم فهو مختلف اختلافاً جزئيا وًكلياً عن تعريف الغربين له[3].

ثانيا ـ رواد السلفية التنويرية وعلاقة الجمعية بهم:

كما حصل الاختلاف في مفهوم التنوير، فقد حصل الاختلاف بين الرواد التنويريين الكبار، فلهذا نجد منهم الذي يتخذ من الإسلام مادته الأساسية للتنوير، وينطلق في ذلك من الإسلام الأول قبل نشوء الفرق، ويركز خصوصا على القرآن الكريم، كالأفغاني

---

[3]) عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999،. ص 504، - وأيضاً عصمت نصار، اتجاهات فلسفية معاصرة، في بنية الثقافة الإسلامية، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2003 ،1، ص 12.

[1]) عصمت نصار، اتجاهات فلسفية معاصرة، ص 15.

[2]) عصمت نصار، إتجاهات فلسفية معاصرة، ص 14 ،13.

[3]) عصمت نصار، إتجاهات فلسفية معاصرة، ص15.

ومحمد عبده ورشيد رضا.

ونجـد منهم من يـرفض ذلـك، ويعتـبر الغـرب والثقافـة الغربيـة بجميع أركانها ومبادئها هي أساس التنوير، ولعل أحسـن من يمثـل هـذا التيـار سـلامة موسى، وطـه حسـين، وأحمـد لطفي السـيد، وغيرهم.

بالإضــافة إلى من اختلــف في تصــنيفهم البــاحثون كرفاعــة الطهطاوي، وعبد الرحمن الكواكبي، وقاسم أمين، وغيرهم.

وبما أن بحثنا مرتبط بالسلفية التنويرية الـتي أثـرت في جمعيـة العلمــاء المســلمين الجزائــريين، فســنذكر - باختصــار- بعض التنــويريين الكبــار الــذين نــرى أن لهم أثــرا في فكــر الجمعيــة ومشروعها الإصلاحي.

جمال الدين الأفغاني:

يعـد جمـال الـدين الأفغـاني (1838-1897 م) أول من صـاغ المشروع الإصـلاحي الحـديث المتمثـل في (الإسـلام في مواجهـة الاسـتعمار في الخـارج والقهـر في الـداخل) [1]، وقـد حـاول - من خلال مشــروعه الإصــلاحي - أن يجيب على كيفيــة تمكن لأمم الإسلامية من قهر التخلف واللحاق بـالأمم المتقدمـة على أسـاس من ذاتيتها وهويتها.

وحـاول -لـذلك- رصـد بعض القـوانين العامـة لنهضـة الشـعوب وسقوطها؛ وهي (قوانين التقدم والتخلف) على أساس أن النهضة هي القاعـدة والتخلـف هـو الاسـتثناء، فالنهضـة بالـدين والعمـل، والسقوط بالدين دون العمل؛ والسبب الرئيسي في تدهور أحـوال المسلمين هو تركهم حكمة الدين والعمل بها.

وهو يرى أن إصلاح ذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى ينـابيع العقيـدة الإسلامية الصافية، وقد اتخذ من ذلك قاعدة في شكل قانون هـو: (ترك ما كان سبباً للصعود يؤدي إلى الهبوط والسقوط)[2]

وقـد يتصـور البعض أن جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين تنظر إليه نظرة سلبية، كما تنظر إليـه السـلفية المحافظـة، ولكن الواقع خلاف ذلك[3]، فالجمعية وإن لم تكن قريبة منه بقـدر قربهـا من الشيخ محمد عبده ورشيد رضا إلا أنها كـانت تعتـبره من كبـار

[1]) حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، المائوية الأولى للكتاب، القاهرة 1999، ص 11.

[2]) حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، ص 185..

المصلحين، بل أب الإصلاح الحديث.

فهذا الإبراهيمي في خطبة لـه بعنـوان (الثـائر الإسـلامي جمـال الـدين الأفغـاني)[1] بمناسـبة ذكـراه يعتـبره أب المصـلحين، ويقـر بفضله على الإصلاح الحديث، فيقـول: (الـذكرى من الـذكر، فمـاذا تذكرون في هذه الليلة عن جمال الدين الأفغـاني، ومـاذا تـدّخرون من آثارها في نفوسكم لليالي المقبلـة من أعمـالكم؟ اذكـروا أنـه كـان عالمًـا شـجاعًا، قـوّالًا للحـق جريئًا فيـه، واذكـروا أنـه كـان لا يخشى في كلمة الحق يقولها ولا في الحق يـدعو إليـه لومـة لائم، واذكروا أن جميع الثغر التي أُتينـا منهـا فعِلّـةُ العلـل فيهـا آتيـة من سكوت علماء الدين وبعدهم عن شـؤون المسـلمين العامـة. وقـد جـزاه اللـه في الـدنيا جـزاءً عـاجلًا فرزقـه طـرازًا من التلامـذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، وربّاهم على مباديـه، وكـانوا من بعده حمَلَة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبـده.. وإن جمـال الـدين اقتحم هـذا الميـدان فكـان حجـة لبعض العلماء، وحجة على بعضهم. رحمة اللـه على جمـال الـدين جزاء ما قدّمه للإسـلام والمسـلمين، وكفـاء مـا سـنّه للعلمـاء من أسى حسنة لم نزل نتقلّب في أعطافها، وندين له بالفضل فيها)[2]

ويعتبره في موضع آخر واضع (أسـاس الوطنيـة الإسـلامية على صـخرة الإسـلام الصـحيح) والـذي أهـاب (بالمسـلمين أن ينفضـوا أيــديهم من ملــوكهم ورؤســائهم وفقهــائهم، لأنهم أصــل بلائهم وشقائهم)[3]

ويــرد الإبــراهيمي بقــوة على من يســميهم (علمــاء القشــور والرسوم) الذين ينظرون إلى الأفغاني على أنه (ليس عالمًـا دينيًـا بالمعنى الذي يفهمونه من الـدين (لأن العـالم الـديني عنـدهم هـو حـاكي أقـوال وحافـظ اصـطلحات وراوي حكايـات، (أمـا أصـحاب

---

[3] وهذا من النواحي الـتي ينكرهـا السـلفيون المحـافظون على جمعيـة العلمـاء، ويبـدعونها بسببها.

[1] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 192)

[2] آثار الإبراهيمي:5/196.

[3] آثار الإبراهيمي: 3/65.

العقول المُتَـدَبّرة والأفكـار المثمـرة، والبصـائر الـنيّرة، والمـوازين الصحيحة للرجال، فإنهم يرون في الأفغاني عالِمًا أي عالم، وفـردًا انطوى على عـالم، وحكيمًـا أي حكيم، وأنـه أحـيى وظيفـة العـالم الديني وأعاد سـيرتها الأولى، وأنعش جـدها العـاثر، وجـدّد رسـمها الداثر.. كان العالم الديني في تَأَنَـأة الإسـلام أقـوى نفـوذًا وأوسـع سـلطة من الخليفـة والملـك والأمـير، وكـان الأمـراء القاسـطون يخشون ذلك النفوذ الواسع ويضيقون به ويتبرمون منه)[1]

محمد عبده:

يعتبر محمد عبـده (**1849-1905 م)** باتفـاق البـاحثين مصـلحاً اجتماعياً ودينيـاً، ورائـداً من الـرواد الكبـار للفكـر الإسـلامي، وقـد كرس جميع جهـوده في سـبيل الإصـلاح.. وقـد اسـتطاع من خلال المناصب التي تقلدها أن يلعب دوراً في النهضة الفكريـة والدينيـة الحديثة.

وقد أسس مع أسـتاذه جمـال الـدين الأفغـاني جريـدة (العـروة الوثقى) (1884 م) واتفق معـه على أن سـبب ضـعف المسـلمين يعود إلى ضعف العقيدة وجهلهم بأصـول الـدين، وأن علاج ذلـك لا يكـون إلا بـالرجوع إلى ينـابيع الـدين الصـافية، وهـو يـذكرنا تمامـا بالاتفـاق الـذي حصـل بين ابن بـاديس والإبـراهيمي، ولكن الفـرق بينهما هو أن ابن بـاديس والإبـراهيمي ظلا على اتفـاق تـام، بينمـا اختلف الأفغاني مع محمد عبده في وسيلة الإصلاح:

فبينما سلك (الأفغاني) سبيل السياسية، رأى (محمـد عبـده) أن الوسيلة هي التعليم والتهـذيب؛ لاعتقـاده أن ارتقـاء المعـارف هـو سبب تقدم الأمم في الثروة والقوة، ومن أجل ذلـك اقـترح تعميم المدارس الوطنية وإصلاح البرامج الدينية[2].

وبعد عـودة الإمـام إلى مصـر – بعـد نفيـه إلى بـيروت– رأى أن ينهج نهجاً يحقق له غرضه في الإصلاح الديني، فعمد إلى مسـالمة الإنجلـيز، اعتقـاداً منـه أن المسـتعمر لا يقـاوم إلا بإنـارة الشـعب وتثقيفه الثقافة الدينية الصحيحة، وهو نفس ما فعلته الجمعيـة في

---

[1] آثار الإبراهيمي: 5/196.

[2] محمد عبده: رسالة التوحيد، قدم لهـا وعـرف عنهـا وعن مؤلفهـا الشـيخ حسـين يوسـف الغزال، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 1997 ،2، ص 7.

مواقفها من فرنسا، وعللت بنفس التعليل.

وبناء على هذا طرح محمد عبده مشروعه المتمثـل في تحقيـق ثلاثة أهداف كبرى للإصلاح، نذكرها هنا باختصار لنرى مدى توافقها مع المنهج الذي اعتمدته الجميعة:

1 ــ الإصلاح ديني: حيث دعـا إلى تحريـر الفكـر من التقليـد والجمود، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتبار الــدين من ضمن موازين العقل. فليس هناك تعارض بين العقل والنقل.

كما دعا إلى إصلاح العقيدة وتنقيتها من الخرافـات، ولهـذا ركـز على إصلاح الأزهر، وأكد على ضـرورة التكامـل بين الــدين والعلم من جهة، وبين العقل والوجدان من جهة أخرى؛ لأن الدين الكامـل هو علم وذوق، أو فكر ووجدان[1].

2 ـــ الإصـلاح اللغـوي: فقـد أدرك محمـد عبـده أن دعوتـه للاتصال بالغرب لن تحظى بالأهمية في ظل جمـود اللغـة العربيـة وهجمــات المستشــرقين عليهــا، فنهض (عــام 1892 م) –مــع أصدقائه– لتكوين أول مجمع للغة العربية في مصر، وهو (المجمـع البكــري) من أجــل إصــلاح اللغــة العربيــة وجعلهــا أداة صــالحة للمساهمة في التحرير الفكري.

3 ــ الإصلاح السياسي: فقـد دعـا محمـد عبـده إلى إيقـاظ الرأي العام إزاء الحاكم، فكمـا للحـاكم حـق على الشـعب، كـذلك للشـعب حـق على الحـاكم، وكـانت دعوتـه عن طريـق الصـحافة والتعليم ومجلس الشورى[2].

ونرى من خلال هـذا العـرض المختصـر لمشـروع محمـد عبـده الإصلاحي توافقا تاما مـع الجمعيـة، ولـذلك نراهـا تثـني عليـه، بـل تعتمده، بل تعتبر له الفضل في السبق والريادة والأستاذية.

وربمـا تعـود بـوادر هـذا التـأثير إلى زيـارة الشـيخ محمـد عبـده للجزائر، حيث استقبل استقبالا حافلا كـان لـه تـأثيره النفسـي في الجزائريين لتقبل الإصلاح على الطريقة التنويرية، حــتى أن البعض

---

[1]) محمد عبده: رسالة التوحيد، ص 14.

[2]) انظر: محمد عبده: رسالة التوحيد، ص 19.

يعتبر من الدوافع الكبرى للإصلاح تلك الزيارة، يقول عمار طالبي: (ومن الدوافع التي أدت إلى الإصلاح كذلك وساعدت عليه- إلى جانب المجلات والجرائد والكتب التي كانت تصل إلى الجزائر- زيارة الأستاذ محمد عبده إلى تونس والجزائر سنة 1321هـ (1903) في الصيف وقد مهد لتأثير هذه الزيارة، مجلة المنار، ومن قبلها العروة الوثقى، فكان الطلبة والشيوخ يطالعون هذه الصحف ويتداولونها)[1]

ويقول صالح خرفي عنها: (الزيارة الشخصية للشيخ محمد عبده كانت كفيلة بتعزيز بدايات النهضة الإصلاحية الحديثة في الجزائر، والوصول بها إلى حد الحزب الديني المصلح، حتى إن الشيخ رشيد رضا قال – وهو يؤرخ لزيارة الإمام محمد عبده أقطار المغرب العربي في مستهل القرن العشرين - : (وقد وجد له في تونس والجزائر حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم)[2]

ويشير ابن باديس إلى ريادة الشيخ محمد عبده للإصلاح فيقول: (أول من نادى بالإصلاح الديني علما وعملا نداء سمعه العالم الإسلامي كله في عصرنا هذا هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأول من قام بخدمته بنشرة إسلامية عالمية هو تلميذه حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار. رحمهما الله وجازاهما عن الإسلام والمسلمين خيرا ما جازى به المجددين لهذا الدين)[3]

وهذا التصريح يدل على أن ابن باديس متأثر بالسلفية التنويرية أكثر من تأثره بالسلفية المحافظة، ذلك أن السلفية المحافظة ترى أن ريادة الإصلاح للشيخ محمد بن عبد الوهاب لا للشيخ محمد عبده.

وهكذا نرى الإبراهيمي وغيرهما من أعضاء جمعية العلماء يبجلون الشيخ محمد عبده، ويعتبرونه أب الإصلاح الإسلامي

---

[1] من مقدمة عمار طالبي لآثار ابن باديس: 1/26.

[2] صالح خرفي : المدارس والمعاهد العليا، دورها في النهضة العربية لحديثة. المجلة الجزائرية للتربية، عدد 4، ص 37.

[3] آثار ابن باديس (3/ 66)

الحديث، يقول الإبراهيمي: (لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده- رضي الله عنه- وأنه أندى الأئمة المصلحين صوتًا وأبعدهم صيتًا في عالم الإصلاح. فلقد جاهر بالحقيقة المرة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح والتماس هديه من كتاب الله ومن سنة نبيه)[1]

ولأجل هذا التوافق وهذه الإشادة نرى الشيخ ابن عليوة يقتبس في رده على الجمعية، ودفاعه عن التصوف أو الأحوال الصوفية من الشيخ محمد عبده، ليواجههم بها، ويثبت لهم أن محمد عبده مع توجهه السلفي لم يكن ينكر على الصوفية، بل كان ينتصر لهم، بل كان فوق ذلك صوفيا عرفانيا بامتياز.

ومن ذلك ما ذكره في رسالة (الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف)[2] من اقتباسه من محمد عبده قوله: (والصوفي نسبة إلى الصوفية وهم طائفة من المسلمين همهم من العمل إصلاح القلوب وتصفية السرائر والاستقبال بالأرواح وجهة الحق الأعلى جل شأنه حتى تأخذهم الجذبات لله عمن سواه وتفنى ذواتهم في ذاته وصفاتهم في صفاته والعارفون منهم البالغون إلى الغاية من سيرهم في أعلى مرتبة من الكمال البشري بعد النبوة)[3]

ثم عقب على ذلك بقوله: (وفي ظني أنه لا شيء أبين من هذا فيما نريد إثباته وزاد على ذلك حضرة الكاتب ما أثبته للصوفية من تأثير الإرادة وغيرها من الخوارق التي تعتبر عند البعض من أهل العصر الحاضر من الخرافات ولا مستند لهم في ذلك إلا سوء الظن وعدم اعتبارهم ما للروح من الكمالات والخصائص الذاتية وهذا من حضرة الكاتب أبلغ ما يعتبر في الصراحة وأوضح ما

---

[1] آثار الإبراهيمي: 1/177.

[2] هي عدة مقالات في مجلة البلاغ الجزائري جمعت في رسالة واحدة، رد بها الشيخ على ما كتب في جريدة (الشهاب)

[3] أحمد بن عليوة المستغانمي، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط2، 1990، ص36.

يتأتى في التعريف)[1]

وسنرى المزيد من مواقف محمد عبده من التصوف، وخاصة التصوف العرفاني في محلها من هذه الرسالة، ومن خلالها سنعرف الفوارق الكبرى بين الجمعية والمدرسة التنويرية، وخصوصا الشيخ محمد عبده، ونعرف أن الجمعية لم تستفد من الشيخ محمد عبده إلا بعض مواقفه الإصلاحية، أما الجذور الفكرية لها، فإن بينها وبينها بونا بعيدا.

محمد رشيد رضا:

يعتبر محمد رشيد رضا (١٨٦٥ م – ١٩٣٥ م) أقرب الرواد الإصلاحيين الثلاثة إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولعله الواسطة التي وصل بها فكر الأفغاني وعبده إلى الجمعية كما وصل إلى العالم الإسلامي.

ولعله الواسطة أيضا في ذلك الموقف الذي وقفته الجمعية في نصرة الوهابية، فقد تصدى الشيخ رشيد للدعاية المناوئة لعلماء نجد، وكان يطلق عليهم في رسائله إلى شكيب أرسلان (الوهابية)، وعندما انتشرت الدعاوى ضدهم بعد افتتاح الطائف وزع ألوفاً من رسالة (الهدية السنية والتحفة النجدية) ونشر مقالات في الدفاع عنهم والرد على خصومهم، وقد قال له شيخ الأزهر أمام ملأ من العلماء: (جزاك الله خيراً بما أزلت عن الناس من الغمة في أمر الوهابية)[2]

واستمرت صلات رشيد رضا مع علماء نجد وزعمائها إلى وفاته.. وكانت له مثل هذه الصلات مع السلفيين في مختلف بلدان العالم الإسلامي.

ولا حاجة لنا إلى ذكر التصريحات التي تدل على مدى تأثر أعضاء الجمعية بالشيخ محمد رشيد رضا، فهي كثيرة جدا، وقد كتب ابن باديس تفاصيل حياة وفكر الشيخ رشيد في الشهاب، وأطنب في الثناء عليه.

أما البشير الإبراهيمي، فله معه ذكريات، فقد التقى به في

---

[1]) أحمد بن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص36.

[2]) شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ص 366.

دمشـق خلال إقامتـه فيهـا (1916-1920)[1]، وقـد ذكـر أنـه كـان يستعيد ذكرياته معه عند لقائه مع ابن باديس، وأن ذلك كـان سـببا في التفكير في إنشاء الجمعية، يقول: (ولا أنسى مجلساً كنا فيه على ربوة من جبل قاسـيون في زيـارة من زياراتـه لي، وكنـا في حالة حزن لموت الشيخ (رشيد رضا) قبل أسبوع من ذلـك اليـوم، فذكرنا تفسير المنار، وأسفنا لانقطاعـه بمـوت صـاحبه فقلت لـه. ليس لإكماله إلا أنت، فقال لي : ليس لإكماله إلا أنت، فقلت لــه : حتى يكون لي علم رشيد، وسعة رشـيد، ومكتبـة رشـيد، ومكـاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد. فقال لي واثقاً مؤكـداً : إننـا لـو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمـة تفسـيراً يغطى على التفاسـير من غير احتياج إلى ما ذكرت)[2]

وقـد كـان الشـيخ رشـيد رضا يبـادل الجمعيـة وأعضـاءها نفس المشاعر، فقد تحدث عن الإصلاح في الجزائر في أكثر من موضع من مجلة المنار، كما أنه كان يتـابع فيهـا باهتمـام أوضـاع الجزائـر السياسـية والاجتماعيـة والثقافيـة، ويـرد على أسـئلة الكثـير من الجزائريين كالزواوي وعبد القادر الجزائري وغيرهما.

ومن أمثلة تلك المواضع التي تحـدث فيهـا عن الجمعيـة مـا ورد في مجلـة المنـار عـدد (شـوال من سـنة 1347 هــ)/ وفي قسـم (تقريظ المطبوعات)، كتبت عن جريدة الشهاب تقول: (الشهاب: صحيفة تصدر في مدينة قسنطينية من قطر الجزائر في المغــرب الإسلامي، وهي إصلاحية تحيي مذهب السلف، وتقـاوم الخرافـات والبدع، يصدرها الأستاذ الفاضل الناصـح عبـد الحميـد بن بـاديس.. فنتمنى لها طول العمر ودوام النفـع، ونتمـنى مـع ذلـك أن يعـرف المسلمون لها قيمة خدمتها فيؤدوا لها حقها)[3]

وفي عدد (ربيع الأول 1351 هـ) كتبت تقول عن (جمعية علمـاء المسـلمين في الجزائـر): (نبـغ في بلاد الجزائـر في هـذا العهـد جماعة من العلماء المصلحين يبثـون في البلاد الـدعوة إلى الحـق

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 37.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (2/ 252)

[3] مجلة المنار: 29/794.

والخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالدروس والخطابة والكتابة في الصحف حتى إنهم أنشأوا عدة جرائد ومجلات عطلت حكومة الجزائر بعضها فخلفها غيرها.. وأشهر هؤلاء العلماء الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس منشئ مجلة الشهاب الإصلاحية التي خلفت جريدته (المنتقد) والأستاذ الشيخ الطيب العقبي والأستاذ الشيخ سعيد الزاهري وكلهم ممن جمع بين العلم والعقل والرأي وحسن البيان قولاً وكتابة وخطابة، وقد فكر هؤلاء منذ سنين في تأليف جمعية علمية تكون المرجع المعتمد لمسلمي هذا القطر في جميع أمور دينهم تزول بها هذه الفوضى الدينية العلمية التي تصدى للتعليم والإرشاد والإفتاء في ظلماتها كثير من الجاهلين والدجالين المضلين، وبعد التشاور مع إخوانهم من العلماء ومحبي الإصلاح والإرشاد من وجهاء المسلمين المستنيرين وفقوا لتأليف هذه الجمعية في العام الماضي واختاروا لرياستها الأستاذ العلامة المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس صاحب الشهاب المنير، وَظَاهَرَهُمْ على تأليفها جميع أهل البصيرة والهدى من العلماء والأدباء وأصحاب الصحف الإسلامية)[1]

وفي عدد (ربيع الثاني 1347 هـ) كتبت تقريضا لكتاب (الإسلام الصحيح) الذي ألفه الشيخ الزواوي أحد أعضاء جمعية العلماء، ومما جاء فيه: (.. حمله على تأليفه فيما نرى ما حدث في بلاد الجزائر في هذا العهد من النهضة الإسلامية ؛ إذ قام فيها بعض أهل العلم بمقاومة خرافات أهل الطريق ودجلهم والتقاليد المبتدعة، وأنشئت لذلك صحف مخصوصة قامت بالواجب قيامًا يفوق ما كنا نظن في هذه البلاد، وقد تناولتها بعض الصحف الخرافية وعارضتها بنشر الثناء على بعض رجال الصوفية ومشايخ الطرق وأصحاب الزوايا المعروفة، وقد وقف صاحب هذا الكتاب موقفًا وسطًا بين المختلفين بنشر كتاب في التعريف بالإسلام أصوله وفروع عبادته وآدابه، مع ميل ظاهر لتأييد ما كان عليه السلف الصالح بعبارات لطيفة فهو من أنصار الإصلاح الإسلامي

---

[1]) مجلة المنار: 32/554.

المعتدلين)[1]

ثالثا ـ مبادئ السلفية التنويرية وموقف الجمعية منها:

مع بعض الاختلافات التي رأيناها في منهج رواد السلفية التنويرية نجد بعض القواسم المشتركة، والتي يمكن اعتبارها مبادئ أساسية لهذا التيار السلفي، وسنذكر أهم هذه المبادئ هنا، لنرى مدى توافقها مع الاتجاه الفكري والإصلاحي لجمعية العلماء، لنتعرف بذلك على مدى القرب والبعد بين كلا التيارين، كما عرفنا ذلك في المطلب السابق، بينها وبين السلفية المحافظة.

1 ـ الاهتمام بالقرآن الكريم:

يتجلى التوجه السلفي التنويري بأعماقه المختلفة في منهج تعامل الجمعية مع القرآن الكريم عند بيان ابن باديس لمظاهر هجر القرآن الكريم، وأنه لا يقتصر على هجر تلاوته أو حفظه، وإنما يشمل تغييبه عن جميع مناحي الحياة ابتداء من التصورات العقدية، وانتهاء بالتدبر فيه لاستنباط كل ما يتعلق بالحياة.

فقد عرض عند تفسيره لقوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30]ـ – كما عرض من قبله ابن القيم[2]- تعدّد مظاهر الهجر, وأنَّ لكلّ هاجر حظّه من هذه الشكوى، فقال: (ونحن- معشر المسلمين- قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل وإن كنا به مؤمنين)[3]

---

[1]) مجلة المنار (29/ 475)

[2]) آثار ابن باديس: 1/408.

[3]) فقد قال في الفوائد: تحت عنوان (فائدة هجر القرآن أنواع)، قال بعدها: (أحدها هجر سماعه والايمان به والإصغاء إليه، والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به، والثالث هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به وكل هذا داخل في قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30] (انظر: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، الفوائد، دار الكتب العلمية – بيروت،

ثم استعرض نواحي الهجر التي تعامل بهـا المسـلمون في هـذا الزمن الطويل مع القرآن الكريم، وبدأها بالعقيدة، فمع أن القرآن الكريم (بسط عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقليـة القريبـة القاطعـة فهجرناهـا، وقلنـا تلـك أدلـة سـمعية لا تحصـل اليقين وأخـذنا في الطرائــق الكلاميــة المعقــدة وإشــكالاتها المتعـددة واصـطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة) [1]

ومثل ذلك الفـروع الفقهيـة، فقـد (بيَّن القـرآن أصـول الأحكـام وأمهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظـر والاعتبـار مـع بيـان حكم الأحكــام وفوائــدها في الصــالح الخــاص والعــام فهجرناهــا واقتصرنا على قـراءة الفـروع الفقهيـة مجـردة بلا نظـر، جافـة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفـاظ المختصـرة تفـني الأعمـار قبل الوصول إليها) [2]

ومثــل ذلــك علم الأخلاق، فقــد (بيَّن القــرآن مكــارم الأخلاق ومنافعهـا ومسـاويء الأخلاق ومضـارها، وبيَّن السـبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل بـه الفلاح بتزكيـة النفس والسـلامة من الخيبة بقدسيتها فهجرنـا ذلـك كلهـا ووضـعنا أوضـاعاً من عنـد أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنيفيــة السـمحة إلى الغلـو والتنطـع، وعن السـنة البيضـاء إلى الأحـداث والتبدع، وأدخلنا فيها من النسـك الأعجمي، والتخيُّل الفلسـفي مـا أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقي بين أهلها بذور الشــقاق والخصام وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالهـا والاقتصـار على بقية رسومها للانتفاع منها ومعارضة هداية القرآن بها) [3]

ومثـل ذلـك مـا ورد في القـرآن الكـريم من آيـات كونيـة، فقـد (عرض القرآن علينا هذا الكـون وعجائبـه ونبهنـا على مـا فيـه من عجائب الحكمة ومصـادر النعمـة لننظـر ونبحث ونسـتفيد ونعمـل، فهجرنا ذلـك كلـه إلى خريـدة العجـائب وبـدائع الزهـور والحـوت

الطبعة الثانية ، 1393 – 1973، (ص: 82)

[1] آثار ابن باديس: 1/408.

[2] آثار ابن باديس: 1/408.

[3] آثار ابن باديس: 1/409.

والصخرة وقرن الثور!) [1]

وابن باديس بهذا الانتقـاد المـؤلم للواقـع الإسـلامي في عصـور الانحطاط، يجعـل من القـرآن الكـريم الوسـيلة الكـبرى للإصـلاح، فالتعامل الصحيح معه هو الذي يثمر الإصلاح الصحيح.

وبناء على هذا التصور اعتبرت الجمعية العودة إلى القرآن بكـل ما تحمله العودة من معـان هـو الهـدف الأكـبر للعمليـة الإصـلاحية جميعا.

فقد اعتبر الشيخ البشير الإبـراهيمي أن السـبب الأكـبر في كـل الهـزائم الـتي لحقت المسـلمين هـو بعـدهم عن القـرآن الكـريم، يقول في ذلك: (ما أضـاع المسـلمين ومـزّق جـامعتهم ونـزل بهم على هذا الدرك من الهوان إلا بعـدهم عن هدايـة القـرآن، وجعلهم إياه عضين، وعدم تحكيمهم له في أهواء النفـوس ليكفكـف منهـا، وفي مزالـق الآراء ليأخـذ بيـدهم إلى صـوابها، وفي نـواجم الفتن ليجلي غماءها، وفي معترك الشهوات ليكسر شرتها، وفي مفـارق سبل الحياة ليهدي إلى أقومهـا، وفي أسـواق المصـالح والمفاسـد ليميز هذه من تلك، وفي مجامع العقائـد ليمـيز حقهـا من باطلهـا، وفي شعب الأحكام ليقطـع فيهـا بفصـل الخطـاب، وإن ذلـك كلـه موجود في القرآن بالنص أو بالظاهر أو بالإشارة أو بالاقتضاء) [2]

وهكذا الأمـر بالنسـبة للسـنة النبويـة المطهـرة، الـتي هي صـنو القرآن الكريم في الهداية والتذكير والبيان، فقد اعتـبرت الجمعيـة من وظائفها الكبرى إحياء السنة، وإعادة تدريسها، وقد تحدث ابن باديس بألم عن الواقع التعليمي الذي لم يكتف بهجـر القـرآن، بـل راح يهجر السنة أيضا، فقال: (علَّمنا القرآن أن النـبي- صـلى اللـه عليه وآله وسلم- هو المـبين للنـاس مـا نـزل إليهم من ربهم، وأن عليهم أن يأخذوا ما أتاهم وينهـوا عمـا نهـاهم عنـه، فكـانت سـنته العملية والقولية تالية للقرآن، فهجرناها كما هجرناه وعاملنـاه بمـا عاملناه، حتى إنه ليقل في المتصدرين للتدريس من كبـار العلمـاء في أكـبر المعاهـد من يكـون قـد ختم كتب الحـديث المشـهورة

---

[1] آثار ابن باديس: 1/408.

[2] آثار الإبراهيمي:4/226 وما بعدها من مقال بعنوان (دولة القرآن).

كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها مطالعـة فضـلاً عن غـيرهم من أهـل العلم وفضـلاً عن غيرهـا من كتب السـنة. وكم وكم وكم بيَّن القرآن وكم وكم وكم قابلناه بالصد والهجران)[1]

وقال الشيخ محمد خير الدين[2] في خطبة ضمن مؤتمر جمعيـة العلمـاء المنعقـد بنـادي الـترقي بـالجزائر سـنة (1935م): (أيهـا الإخوة الكرام: إن انتسابنا لهذه الجمعيـة معنـاه التعاهـد والتعـاون على تنفيذ المرامي التي ترمي إليها، والمباديء الـتي تسـعى لهـا، وأصول هذه المباديء هي: إحياء الإسـلام الصـحيح بإحيـاء الكتـاب والسـنة ونشـرهما بين النـاس حـتى يرجـع لهمـا سـلطانهما على نفوس المسلمين)[3]

وبما أن حفظ القرآن الكريم هـو الكفيـل بنشـره في المجتمـع، فقـد دعـا ابن بـاديس إلى الاهتمـام بهـذه الناحيـة، فقـال: (قـد تقاصرت همم المسلمين في هذه المدة الأخيرة عن تعليم القرآن وتعلمه، فقل الحـافظون لـه، فعلى كـل من نصـب نفسـه لإرشـاد المسـلمين في دينهم أن يحثهم على العنايـة بحفـظ كتـاب ربهم، وعلى الكُتَّاب أن يطرقوا هذا الموضوع الكثير النواحي، هـذا يأتيـه من ناحية فضل القرآن، وذلك من ناحية اختيـار المعلمين ومـا هي الصفات المطلوبة فيهم، والآخر من ناحية أسلوب التعليم ومـا هـو أقـرب إلى التحصـيل من أي الأسـاليب، ورابـه من ناحيـة تحسـين حال المعلمين وتوفير أجرتهم، وكل هذه النـواحي يلـزم أن تتعـدد فيها الكتابة حتى تحدث تأثيرا في المجتمـع وتكـون رأيـا عامـا في الموضوع)[4]

ونحب أن ننبه هنا إلى أن كلتا المدرستين السلفيتين المحافظـة

---

[1] آثار ابن باديس: 1/409.

[2] محمد خير الدين: ولدة ببسكرة سنة1902 وبها حفظ القـرآن، توجـه إلى جـامع الزيتونـة بتونس وتخرج منها بشـهادة التطويـع سـنة1925، رجـع إلى الجزائـر بعـد تخرجـه في نفس السنة، من أوائـل من انخـرط في تأسـيس (جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين) انظـر: (الشهاب الجزائرية: العدد/28 بتاريخ/28 ماي 1926) و(مذكرات الشيخ محمد خير الدين)

[3] سجل مؤتمر الجمعية، ص35.

[4] آثار ابن باديس (2/ 319)

والتنويرية وقفتا على طرفي نقيض في هذا الجانب، فبينما أعطت السلفية المحافظة للسنة المطهرة أهمية كبرى إلى درجة تقديمها أحيانا كثيرة على القرآن الكريم نفسه، نجد على خلافهـا السـلفية التنويرية، فهي تهتم بالقرآن أكثر من اهتمامها بالسنة، بل إنها في تعاملها مع السنة تحاكمها إلى القرآن، وقد تنكر ما صح من السنة إن عارض ما صرح من القرآن.

وهــذه نقطــة خلاف جوهريــة بين كلا المدرســتين، ولهــذا نجــد السلفية المحافظة تحمـل حملـة شـديدة على ابن بـاديس بسـبب موقفه من بعض الأحاديث.

وكمثال على ذلـك موقفـه من مسـألة (والـدي المصـطفى ﷺ)، والتي تصر المدرسة الوهابيـة على اعتبارهمـا من أهـل النـار، بـل تعتبر ذلك عقيـدة تمـيز أهـل السـنة عن غـيرهم، لكن ابن بـاديس يخالف ذلك، مسـتدلا لـذلك بقولـه تعـالى: {وَمَـا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولًا } [الإسـراء: 15] وقولـه: {أَنْ تَقُولُـوا مَـا جَاءَنَـا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ} [المائـدة: 19] وغيرهمـا، ومقـدما لهـا على مـا ورد في ذلـك من الأحاديث، وقد أبرز وجـه الدلالـة فيهـا على مـا ذهب إليـه، فقـال: (كلها آيات قواطع في نجاة أهـل الفـترة، ولا يسـتثنى من ذلـك إلا من جــاء فيهم نص ثــابت خــاص كعمــر بن لحي أول من ســيب السوائب وبدل في شريعة إبراهيم وغير وحلل للعرب وحرم فأبوا النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة، ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس: أن رجلا قال للنبي ﷺ: يا رسـول اللـه، أين أبي؟ قال: في النـار. فلمـا قفـا الرجـل دعـاه فقـال: إن أبي وأبـاك في النار)[1] لأنه خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل، يحمل الأب على العم مجازا يحسنه المشـاكلة اللفظيـة ومناسـبته لجـبر خاطر الرجل وذلك من رحمته- صلى الله عليه وآله وسلم- وكريم أخلاقه)[2]

وقد أثار هذا الموقف من حديث الآحاد حفيظة السلفية الوهابية

---

[1] مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق : محمـد فـؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (1/ 132)

[2] آثار ابن باديس (2/ 72)

فكتبت الكثـير من الـردود على ابن بـاديس، لتخرجـه من الطائفـة الناجية المنصورة طائفة الوهابية، لتدخلـه في طوائـف البـدع، مـع أنه عاش حياته جميعا يدعو إلى نبذ البدع، بل وحربها.

وسأقتبس هنا نصا من كتاب قد خصص لذكر المواقع التي خرج فيها ابن باديس من السنة والسلفية، وقـد قـالت كاتبتـه المـدعوة (أم أيوب) في معرض ذكرها لهذا الموقف في كتابها المتداول في النوادي السلفية بكثرة (الرّد الوافي على من زعم بأنّ ابن باديس سـلفيّ): (وهـذا الاسـتدلال مـردود جملـة وتفصـيلا إذ أنّ والـديّ الرّسـول ﷺ وردت فيهمـا نصـوص صـحيحة في السّـنة دلّت على أنّهمـا من أهـل النّـار، وليس من حقّنـا أن نضـرب بهـذه النّصـوص عرض الحائط طالما أنّها نصوص صحيحة صـحّت متنـا وسـندا، ولا يـــجوز الإعــراض عن السّــنة النّبويــة والاكتفــاء بــالقرآن الكــريم وحده..وللأسف هذا ما فعله الشيّخ ابن باديس في هذه المسـألة.. وإلى القارئ الكـريم أسـوق كلامـه ليتبيـّن للجميـع كيـف وقـع ابن بـاديس" في أخطـاء جسـيمة بـرئت منهـا ذّمـة علمـاء السّـلفية الحقيقيّين)[1]

2 ــ معارضة التقليد:

وهو مبدأ مشترك بين جميع المدارس السلفية، فالسلفية - كمـا عرفنا - تعني طرح كل اجتهـاد مسـتحدث يتعـارض مـع اجتهـادات السلف، أو يزاحم اجتهـادات السـلف، ولهـذا فـإن أول مـا ينـاقض الاجتهاد ويقف في طريقه هو التقليد وعقلية المقلد.

ولهذا نرى محمد عبده وتلميذه يعتبران التقليـد من أهم أسـباب انحطاط الأمـة وتخلفهـا، حيث سـارت الأمـة بطريـق تخـالف فيـه نصوص القرآن الواضحة لأجل آراء لم تتلق إلا عن طريق التقليد.

ومن الأمثلة التي استشهدا بها لذلك ما نقلاه عن الفخر الـرازي عن أحد شـيوخه قـائلاً: (قـد شـاهدت جماعـة من مقلـدة الفقهـاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعـالى في بعض المسـائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلـك الآيـات، فلم يقبلـوا تلـك الآيـات، ولم يلتفتـوا إليهـا وبقـوا ينظـرون إلى كـالمتعجب، يعـني كيـف يمكن

---

[1]) أم أيوب نورة حسن غاوي، الرّد الوافي على من زعم بأنّ ابن باديس سلفيّ، د.ت.د.ط، ص 36.

العمل بظواهر هذه الآيـات مـع أن الروايـة عن سـلفنا وردت على خلافها. ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الـداء سـارياً في عـروق الأكثرين من أهل الدنيا)[1]

ويعلق الشيخ رشيد على ذلك بقولـه: (إن الـرازي - رحمـه اللـه تعالى - كان يقرر هـذه الحقيقـة عنـدما يفسـر آياتهـا وينسـاها في مواضع أخرى، فيتعصب للأشعرية في أصـول العقائـد، وللشـافعية في فروع الفقـه، لا سـيما فيمـا يخـالفون فيـه الحنفيـة، وهـذا هـو أصول الداء الذي يشكو من بعض أعراضه عند الكلام في مســائل الخلاف مع الغفلة عن سببها. أمـا الإمـام الغـزالي فقـد تجـرد عن التعصب للمذاهب كلها في نهايتـه، ووصـف الـدواء في بعض كتبـه كالقسطاس المستقيم، ولكنه لم يوفق إلى تأليف أمـة تـدعو إليـه وتقوم به)[2]

ويستنتج من هذا ضرورة الإصلاح لمواجهة التقليد، فيقـول: (إذا كان الرازي وشـيخه يقـولان في علمـاء القـرن السـابع، والغـزالي يقول في علماء القـرن الخـامس مـا قـالوا فمـاذا نقـول في أكـثر علماء زماننا وهم يعترفون بما نعرفه من كونهم لا يشقون لأولئـك غبارا ؟ ألسنا الآن أحوج إلى الإصلاح منا إليه في تلك العصور التي اعترف هؤلاء الأئمة بأن الظلمات فيهـا غشـيت النـور، حـتى ضـل بالاختلاف الجمهور ؟ بلى، وهو ما نعاني فيـه مـا نعـاني وإلى اللـه ترجع الأمور)[3]

وقــد كــان هــذا هــو نفس منهج جمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائريين، والـذي نص عليـه ابن بـاديس بقولـه: (إن الـذي يسـع المعلمين ليس هو مذهبا بعينه وإنما هو الإسلام بجميع مذاهبه وقد كنا ولازلنا لا نلتزم مذهب مالك في كل جزئية)[4]

ونرى الشيخ التبسي رئيس لجنـة الفتـوى في الجمعيـة يتحـدث

---

[1] محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصـرية العامـة للكتاب، 1990 م ، ج 4، ص41.

[2] تفسير المنار، ج 4، ص 41.

[3] تفسير المنار، ج 4، ص 41.

[4] البصائر، ع 11/20 مارس 1936.

عن مقـام الإمـام مالك، ويعقب عليـه بقولـه: (لـو قـدر لمالـك أن يبعث حيا من قـبره لقـال في نسـبة هـذا الرهـط إليـه المخـالفين لوصـاياه المعطلين لـروح مذهبـه مـا قـال عيسـى صـلوات اللـه وسلامه عليه في أولئك الذين كـذبهم بقولـه: (مَـا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَـا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَهِيدٌ) (المائدة:117)، والله يشهد وأولوا العلم يشهدون أن مالكا بريء من كل نابذ لسنة عمليا أو قومة بـدعوى التمـذهب بمـذهب مالك)[1]

وسنرى عند عـرض تفاصـيل الخلاف بين الجمعيـة أمثلـة كثـيرة تدل على نبذها للتقليد، ولذلك فهي تتفق تماما مع هـذه المدرسـة في هذه الناحية.

3 ـ إعادة الاعتبار للمقاصد الشرعية:

بعـد رفض رواد المدرسـة التنويريـة للتقليـد الحـرفي للمـذاهب الفقهية دعـوا إلى النظـر المقاصـدي لأحكـام الشـريعة بعيـدا عن الحرفية التي وقع فيها الفقهاء، وخاصة في عصور التقليد.

ولهـذا نجـد رشـيد رضا يعتـبر أن المـراد بكلمـة (الفقـه) - كمـا وردت في المصـادر الأصـلية - عبـارة عن (مقاصـد الشـريعة وحكمها)، وليست:(علم أحكام الفروع) المعروف، فالمعنى الأخـير مستحدث مثلمـا يبن ذلـك الغـزالي والحكيم الترمـذي والشـاطبي وغـيرهم، وعلى ذلـك كـان رؤوس المسـلمين في عصـر النـبي والخلافة الراشدة من أهل الفقه المقاصدي في الغالب[2].

ولأجـل هـذا نجـد اهتمـام الشـيخ محمـد عبـده وتلميـذه بكتـاب (الموافقات أصول الشريعة) للشاطبي، فهما كثيراً ما كانا يوصيان به طلابهما، كما ينقل ذلك الشيخ عبد الله دراز في مقدمة تحقيقه للكتاب.

بالإضـافة إلى أن رشـيد رضا قـام بنشـر رسـالة نجم الـدين الطوفي في رعاية المصلحة في أحد أعداد مجلة (المنار)، وأيد ما

[1] البصائر، ع 102: /04 مارس 1938.

[2] تفسير المنار، ج 5، ص160.

جــاء فيهــا من نظريـــة تقـــديم المصـــلحة على النص في حـــال التعارض[1].

بـل إنـه كـان يـرى أن العمـل فيمـا ليس لـه حكم في الكتـاب والسـنة بـرأي أولي الأمـر في كـل زمن بشـرطه، هـو أولى من العمل برأي فقهاء القرون الحالية باعتباره أقرب للمصلحة، يقـول في ذلك: (إن الأحكـام السياسـية والقضـائية والإداريـة - وهي مـا يعبر عنها علماؤنا بالمعاملات- مدارها في الشريعة الإسلامية على قاعدة درء المفاسد وحفـظ المصـالح أو جلبهـا)، ويستشـهد لـذلك بترك عمر وغيره من الصحابة إقامة الحدود أحيانًا لأجل المصلحة، ويعقب على ذلك بقوله: (فدل ذلك على أنها تقدم على النص)[2]

لذا اشترط أن يكون أصحاب الرأي عالمين بالنصـوص ومقاصـد الشريعة وعللها حتى لا يخالفوها وليتيسـر لهم ردع المتنـازع فيهـا إليها[3].

ومن التطبيقات على هذا المبدأ موقف رشـيد رضا من (الـرق)، فقد برر جواز منع الرقيق بتحريم المباح طبقاً للمصلحة، وذلك أنه عد المصلحة أصلاً في الأحكام السياسية والمدنيـة يرجـع إليـه في غير تحليل المحرمات أو أبطال الواجبات[4].

ونرى أن جمعية العلماء المسـلمين الجزائـريين في هـذا البـاب خصوصا قصرت تقصيرا كبيرا، بـل كـانت فيـه أميـل إلى السـلفية الحرفية منها إلى السلفية التنويرية، ولهـذا حصـلت خلافـات بينهـا وبين الشيخ ابن عاشور في بعض المسائل كما ذكرنا سابقا.

---

[1] انظر:مجلة المنار: ج9، ص721، وقد قال في مقدمة نشـره لهـا: (وقـد طبعت في هـذه الأيام مجموعة رسائل في الأصول لبعض أئمة الشافعية والحنابلـة والظاهريـة منهـا : رسـالة للإمام نجم الدين الطوفي الحنبلي المتـوفى سـنة 716 تكلم فيهـا عن المصـلحة بمـا لم نَـرَ مثله لغيره من الفقهاء، وقد أوضح مـا يحتـاج إلى الإيضـاح منهـا في حواشـيها الشـيخ جمـال الدين القاسمي أحد علماء دمشق الشام المدققين فرأينا أن ننشـرها بحواشـيها في المنـار؛ لتكون تبصرةً لأولي الأبصار)

[2] مجلة المنار: ج9، ص721.

[3] المنار، ج ٥، ص ٢٢٧.

[4] المنار، ج٥، ص ٩.

ولعل أهم ما يدل على مخالفتها للمقاصدية هو اهتمام بفروع خلافية بسيطة في واقع استعماري يريد أن يستأصل الهوية من جذورها.

وكمثال بسيط على هذا ما ذكره الشيخ ابن عليوة في مقدمة رسالته (القول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد)[1] في بيان غرضه من تأليفها، فقد قال مخاطبا بعض الإصلاحيين: (أما بعد أيها الأخ المحترم، فقد كنتُ تشرفتُ بزيارتكم صحبة صديق الجميع حضرة الشيخ.. وبمناسبة ما دار بيننا من الحديث، في تلك السويعات التي رأيتكم فيها موغر الصدر على إخوانكم العلاويين، حسبما لاح لي في ذلك الحين، لا لذنب ارتكبوه سوى أنهم مولعون بإجراء الاسم المفرد على ألسنتهم، وهو قولهم: (اللـه). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقول العقاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجون بذكر ذلك الاسم بمناسبة أو غير مناسبة، سواء عليهم في الأزقة، أو غيرها من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقول: (اللـه)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقول: (الله)، وإذا جلس يقول: (الله)، إلى غير ذلك مما جرى به الحديث)[2]

فإنكار الجمعية لمثل هذا عجيب، خاصة في واقع يريد أن يمحو فيه المستعمر اسم الله من ألسنة الجزائريين.

ولا يغرنا بعد هذا ما ورد في بعض تصريحات وشعارات الجمعية من اعتمادها المقاصد الشرعية، لأن العبرة بالأفعال لا بالأقوال، وللأسف فقد كانت في هذا الباب بعيدة جدا عن الأقوال، وسنرى النماذج الكثيرة المثبتة لهذا في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

4 ــ الاهتمام بفقه السنن:

وهذا ما نلاحظه في جميع تراث المدرسة التنويرية ومن تبعها، بما فيها مدرسة جمعية العلماء، ولذلك اهتمت بالتفسير السنني للقرآن الكريم، وهو ما لا نلاحظه في السلفية المحافظة التي

---

[1] نشرها على جريدة (البلاغ الجزائري) عدد 69 و70 و71.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، المطبعة العلاوية، مستغانم، الطبعة الثانية، ص6، وسنرى المسألة بتفاصيلها في الباب الرابع من هذه الرسالة.

اهتمت بالتفسـير الحـرفي البعيـد عن الاهتمـام باسـتنباط السـنن الإلهية في الكون والمجتمع.

ولعل أول من أحيا هذا الاتجـاه في التفسـير والاسـتنباط جمـال الـدين الأفغـاني وتلميـذه محمـد عبـده في مقالاتهمـا في العـروة الوثقى، فقد نحيا فيه منحى يؤكد وجهتهما في الإصـلاح ووقوفهمـا على كثير من سنن الله تعالى في كونه ونواميسه في عباده.

وقد وصف تلميذهم رشيد رضا تأثير تلـك المقـالات في نفسـه، فقال: (كنت من قبل اشـتغالي بطلب العلم في طـرابلس الشـام مشـتغلاً بالعبـادة ميـالاً إلى التصـوف وكنت أنـوي بقـراءة القـرآن الإتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة في الآخرة والزهـد في الـدنيا ولمـا رأيت نفسـي أهلاً لنفـع النـاس بمـا حصـلت من العلم –على قلتـه صرت أجلس إلى العوام في بلدنا أعظهم بالقرآن مغلبـاً الـترهيب على الترغيب والخوف على الرجاء والإنـذار على التبشـير والزهـد في الـدنيا على القصـد والاعتـدال فيهـا، حـتى ظفـرت بنسـخ من جريدة العروة الـوثقى في أوراق والـدي فـأثَّرت في قلـبي تـأثيراً شديداً ودخلت بها في طور جديد من حياتي وأعجبت جد الإعجـاب بمنهج تلـك المقـالات في الإستشـهاد والإسـتدلال على قضـاياها بآيات الكتاب وما تضمنه من تفسيرها مما لم يحم حولـه أحـد من المفسرين على اختلاف أساليبهم في الكتابة ومـدارهم في الفهم) [1]

وقد لخص هذه الأمور التي انفردت بها العـروة الـوثقى ممـا لم يحم حولها أحد من المفسرين السابقين في ثلاثة أمور هي:

1 – بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظـام الاجتمـاع البشـري وأسباب ترقي الأمم وتدليها وقوتها وضعفها.

2 – بيان أن الإسـلام دين سـيادة وسـلطان وجمـع بين سـعادة الدنيا وسعادة الآخرة ومقتضـى ذلـك أنـه دين روحـاني واجتمـاعي ومدني وعسكري، وأن القوة الحربيـة فيـه لأجـل المحافظـة على الشريعة العادلة والهداية العامة وعزة الملة لا لأجـل الإكـراه على الدين بالقوة.

3 – بيان أنّ المسلمين ليس لهم جنسية إلاّ دينهم فهم إخـوة لا

---

[1]) تفسير المنار، 1/11.

يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة[1].

وفي موضع آخر يؤكد الاهتمام الكبير الذي أولته السلفية التنويرية لفقه السنن، فيقول: (إنّ مسلك جريدة العروة الوثقى في الدعوة إلى الإصلاح الإسلامي من طريق إرشاد القرآن وبيان سنن الله تعالى في الإنسان والأكوان قد فتح لي في فهم القرآن باباً لم يأخذ بحلقته أحد من المفسرين المتقدمين، فهناك فرق بين فهم عبده وأستاذه (الحكيم) للقرآن وبين أفهام المتقدمين الذين كانت حظوظهم من تفسير الآية كتابة سطرين أو بضعة أسطر أكثرها في غير سبيل هدايتها)[2]

بل إنا نكاد نلحظ الخيلاء في تعابير رشيد رضا عندما يصف تفسير المنار بكونه (التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول الذي يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر)[3]

بل إن الشيخ محمد عبده رأى أن ما استنبطه في تفسيره من إشارات سننية ليس شيئا بجنب ما في القرآن الكريم من بيان في هذا الباب، ولهذا دعا إلى تأسيس علم السنن وتدوينه، فيقول: (إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن تجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون لهم قوم يبينون لهم سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد عليها بالقرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لاجتلائها ومعرفة حقيقتها)[4]

---

[1] المنار، 1/11.

[2] تفسير المنار، ج10،ص36..

[3] صفحة الغلاف من كل أجزاء المنار.

[4] المنار،جج4،ص114-115..

وهو يرد على الاعتراض الموجه عادة من طرف السلفية المحافظة، والذي ينص على أن السلف لم يدونوا هذا العلم فيذكر أنهم لم يدونوه كما لم يدونوا باقي العلوم، ولكنهم كانوا يدركونه ويحسنون توظيفه في النصر والتجارب وإن لم يسموه باسمه فليسمه الناس (علم السنن) أو (علم الاجتماع) أو (علم السياسية الدينية) فلا حرج في التسمية[1].

ويذكر فضائل هذا العلم مرغبا فيه، فيقول: (إن علم السنن أعظم الوسائل لكمال العلم بالله –تعالى- وصفاته ومن أقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء وإنما يرجى الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعاً)[2]

وهو يعتب على تقصير المسلمين في الأخذ بهذا العلم مع أهميته، فيذكر أن المفسرين المتقدمين منهم والمتأخرين (لم يقصروا في شئ من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ دينها ودنياها وهو ما لا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة والسلم والإجارة فإن العلم بسنن الله تعالى لا يعدله إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله بل هو منه أو طريقه الموصل إليه)[3]

وقد سار ابن باديس على هذا الهدي، وبنى تفسيره عليه، ونقتصر على مثال واحد هنا، فقد قال في تفسيره لقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: 18،

---

[1] المنار، ج1، ص20-21..

[2] المنار، ج7، ص417.

[3] المنار، ج7، ص416.

19]: (وقـد أفـادت هـذه الآيـات كلّهـا، أنَّ الأسـباب الكونيـة الـتي وضعها الله تعالى في هذه الحياة، وسائل لمسبباتها، موصلة بـإذن الله تعالى مَن تمسّك بها إلى ما جُعلت وسيلة إليه، بمقتضـى أمـر الله وتقديره وسنّته في نظام هذه الحياة والكـون، ولـو كـان ذلـك المتمسّك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدّق المرسـلين.. ومن مقتضى هـذا أنَّ من أهمـل تلـك الأسـباب الكونيـة التقديريـة الإلهية، ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهـذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم..)[1]

ويقسم العباد على هذا الأساس إلى أربعة أقسام:

1ـ مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

2ـ ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

3ـ ومـؤمن تـارك للأسـباب، فهـذا شـقي في الـدنيا وينجـو بعـد المؤاخذة على الترك، في الآخرة.

4ـ ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الـدنيا ويكـون في الآخرة من الهالكين[2].

ويعــبر عن النتيجــة العمليــة لهــذا التحليــل بقولــه: (فلا يُفتنن المسلمون بعد علم هـذا مـا يرونـه من حـالهم وحـال من لا يـدين دينهم. فإنّه لم يكن تـأخّرهم لإيمـانهم، بـل بـترك الأخـذ بالأسـباب الذي هو سبب تأخرنا، من ضعف إيمانهم. ولم يتقدّم غيرهم بعـدم إيمانهم، بل بأخذهم بأسباب التقدّم في الحياة) [3]

وعلى هـذا النمـط نجـد الأمثلـة الكثـيرة في تفسـيره ومقالاتـه، ومثلـه بـاقي مشـايخ الجمعيـة، وخصوصـا الإبـراهيمي الـذي كتبت الدراسات المطولة عنه في هذا المجال.

ومـع هـذا نحب أن نعقب هنـا على أن الجمعيـة وإن أفلحت في دراسـة السـنن نظريـا، لكنهـا في الواقـع العملي لم تفلح كثـيرا، فعلى الـرغم من كـثرة الفـرص الـتي وضـعت أمامهـا إلا أنهـا لم تستغلها أحسن استغلال، بل تركت الفرصة للعلمانيين واللادينـيين ليسيروا دفة الحيـاة بعـد أن انشـغلت هي بحـرب إيقـاظ النـائمين

---

[1] آثار ابن باديس (1/ 201)

[2] آثار ابن باديس (1/ 202)

[3] آثار ابن باديس (1/ 202)

باسم الجلالة، وحرب الذكر الجماعي، والسخرية من الخلوة العليوية.

وقد أشرنا إلى مثال على ذلك سابقا من النقد اللاذع لمالك بن نبي فقيه السنن لها في هذه الناحية، وأشرنا إلى ما حصل بينه وبين العربي التبسي بسبب قضايا ما كان ينبغي لها أن تكون محل صراع.

5 ــ الانفتاح على المعارف المختلفة:

وهي نقطة فارقة كبرى بين السلفية المحافظة والسلفية التنويرية، وهي من الأمور التي توجهت فيها السلفية المحافظة على السلفية التنويرية بالنقد اللاذع، والذي يصل إلى حد الرمي بالضلال والبدعة.

والمنطلق الأول الذي ينطلق منه التنويريون في هذا هو التوجه التنويري نفسه، والذي يجعل للعقل سلطاناً على كل شيء حتى على النص المقدس نفسه، وقد عبر (كانط) عن هذا السلطان في مقاله المنشور عام 1784 م (جواب عن سؤال ما التنوير؟) جاء فيه أن شعار التنوير (كن جريئاً في إعمال عقلك) وفي عبارة أخرى (التنوير يعني ألا سلطان على العقل إلا العقل ذاته)[1]

وقد دعا هذا أكثر التنويريين غير المتدينين إلى البعد عن الدين بقدر قربهم من هذا التنوير الذي لا يجعل السلطة المطلقة إلا للعقل.

بينما يضيف التنويريون المتدينون مصدرا آخر للمعرفة هو أرقى من العقل المجرد، وهو النص المقدس الذي لم يتأثر برواسب القرون، وفي هذا يضيف التنويريون المتدينون البعد السلفي لتنويرهم.

ويرى هؤلاء أن النص المقدس لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة الواقع بكل تفاصيله، وما جد فيه من علوم ومعارف، فالنص في تصورهم مجمل، ولا يحل إجماله بالطرق التقليدية من التحليل اللغوي، وإنما بفعل ما يقدمه الواقع من تفصيل.

ويشير إلى هذا الشيخ محمد عبده عند تفسيره لقوله تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [البقرة: 213]، فيعلق عليها بقوله: (أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد

---

[1] مراد وهبه، ملاك الحقيقة المطلقة، دار قباء، القاهرة، ص 108.

أن يفسر الآية وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا؟ وكيف تفرقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أم ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم، لقد أجمل القران الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً وأمرنا بالنظر والتفكير، والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً، ولو اكتفينا من علم الكون بنظره في ظاهرة، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمه)[1]

وقد جعلت هذه النظرة الشيخ محمد عبده يحاول أن يربط النصوص القرآنية بمباحث العلوم الطبيعية، وميادين السنن الكونية والاجتماعية. وقد برر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [آل عمران: 164] ذاكرا أنها عبارة عن بيان الآيات الكونية والاستفادة منها والاعتبار بها[2].

ولكن هذا – مع الجزم بحسن النية وشرف المقصد- قد جره في أحيان كثيرة إلى التعسف في التأويل لصالح النظريات العلمية سواء ما رقى منها إلى رتبة الحقيقة العلمية أو لم يرق.

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك، والتي لقيت من المخالفين إنكارا شديدا هو أنه فسر سورة الفيل تفسيراً قائماً على الميكروبات والجراثيم، فجوز أن تكون الطير الوارد ذكرها في السورة عبارة عن بعض الحشرات كالبعوض والذباب، كما جوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض[3]، كما أن رشيد رضا اعتبر الجراثيم المرضية و(الميكروبات) يصح أن تكون نوعاً من الجن[4].

---

[1] تفسير المنار (1/ 21)

[2] تفسير المنار (2/ 150)

[3] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣ م،) ح ٥، ص ٥٢٩. وأيضاً: محمد حسين الذهبي التفسير والمفسرون، مصر، دار الكتب الحديثة،.. ١٩٧٦ م، ح ٢، ص ٥٦٨ /١٣٩٦.

[4] تفسير المنار: (3/96)

وقد كان لجمعية العلماء بعض الشطحات القريبة من هذا، أو الأخطر من هذا، والتي كانت محل نقد شديد لا من الاتجاه الوهابي وحده، بل من كل الاتجاهات، وهي ناتجة عن التسرع، وعدم إكمال الاجتهاد الكافي لفهم النص المقدس، أو في معرفة الحقيقة العلمية.

والمثال الذي نشير إليه هنا هو الموقف التأييدي للشيخ مبارك الميلي من مذهب النشوء والارتقاء (النظرية الدارونية)[1]، بل تفسير النص القرآني المقدس على أساسها، وهي النظرية التي اعتمدها التنويريون اللادينيون كشبلي شميل وغيره.

قال الشيخ مبارك الميلي عند حديثه عن ابتداء الإنسان ووجوده وأول عهده:(إن المؤرخين – وإن لم يكن لهم نقل عن أهل هذا العصر – لم يعدموا سبيلا للبحث عنه، فقد وجدوا من الآثار العريقة في القدم التي حفظها بطن الأرض أساسا للكلام عن حياة الإنسان الأول، وأنار أمامهم مذهب النشوء والارتقاء دياجي هذا العصر الحالكة)[2]

ولا يكتفي بهذا التصريح الذي قد يجد من يبرره، أو يحمله على غير المحمل الذي يدل عليه ظاهره، بل يزيد الأمر سوءا حين يربط هذا المذهب بمصدر الدين المقدس القرآن الكريم، فقد قال تعقيبا على الكلام السابق: (إن مذهب النشوء والارتقاء قديم

---

[1] هي نظرية نشرها الباحث الإنجليزي (تشارلزداروين) سنة 1859م في كتابه (أصل الأنواع) وهي تركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب، وقد جعلت نظريته كون الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخرها فاحدث ذلك ضجة لم يحدثها أي مؤلف آخر في التاريخ الأوروبي قاطبة، وكان له من الآثار في المجالات الفكرية والعملية مالم يكن في الحسبان، فقد أدت إلى انهيار العقيدة الدينية، ونشر الإلحاد في أوروبا، وهي في جوهرها فرضية بيولوجية أبعد شيء عن أن تكون نظرية فلسفية عامة، كما أنها بعيدة عن أن تكون حقيقة علمية ثابتة، وقد قال أحد العلماء الغربيين في النظرية الداروينية بـ بإنَّها نظرية (أبوها الكفر وأمها القذارة) (انظر: صالح بن إبراهيم البليهي، عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين، ط2، 1404هـ، (1/149))

[2] مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الإسلامية، (1/62).

ليس من بنات أفكار المتأخرين، والنـاس إزاءه فريقـان: مثبت لـه معجب به، ونافٍ له نافر منـه.. والحـق الـذي تشـهد لـه الضـرورة ويؤيـده القـرآن الكـريم أن المـذهب نفسـه – بصـرف النظـر عن بعض الجزئيات – معقول مقبول)[1]

ثم استدل على قبـول مـذهب النشـوء والارتقـاء بالضـرورة، ثم القرآن الكريم، وخلص إلى نتيجة عبر عنها بقوله: (وإذا ثبت لـديك أن المــذهب نفســه لا مغمــز فيــه، فلا يضــيقن صــدرك لبعض الجزئيـات الـتي يقسـر بعض المـاديين عقلاء البشـر على قبولهـا ويحاولون بها هدم الأديان – مثل ترقي القـرد إلى نـوع الإنسـان – فـإن تلـك الجزئيـات لم تـزل وهمـا ولن تـزال خيـالا فكيـف يصـح إلحاقها بذلك المذهب الصحيح؟)[2]

ثم خلص في النهايــة إلى أن الضــرورة والــدين متفقــان على إثبات النشوء والارتقاء في النوع الواحد[3].

ولا نملك أن نعلـق على هـذه المقولـة إلا بمـا علـق بـه صـاحب كتاب (منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير) بقوله: (وبهذا أعطى الشيخ مبارك الميلي- عفا الله عنـه - الضـوء الأخضـر لمن يريد أن يدخل نظرية داروين وغيرها في أذهان المسلمين)[4]

6 ـ الاهتمام بالتمدن:

ونقصد به الاهتمام المبالغ فيه من طـرف السـلفيين التنـويريين بمظـاهر التمـدن والرفـاه، واعتبارهـا في بعض الأحيـان مقـاييس صحيحة للتقدم أو الانحطاط.

وبنـاء على هـذا سـنرى كيـف كـان الإبـراهيمي ينتقـد الطـرق الصوفية في طريقـة ذكرهـا باعتبارهـا تشـوه صـورة الإسـلام في عيون الغرب، وكأنـه ينتظـر من الغـرب أن يعلمهـا كيـف تـذكر، أو كيف تتحرك في ذكرها.

ونرى أن هذا الحرص المبالغ فيه على المظـاهر جعـل الجمعيـة

---

1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث) (1/62).

2) (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) (1/63).

3) تاريخ الجزائر في القديم والحديث (1/63- وما بعدها)

4) فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: 2/611.

في اهتمامهـا بالجـانب الـتربوي تركـز على العمـران المرتبـط بالمدارس أكثر من حرصها على التكوين المتكامل فيها.

ولعل هذا الموقف من الرفاه هو الذي جعل ابن باديس يختلـف مع أكثر علماء الأمة في الموقف من بعض اللادينـيين، وخاصـة إذا كانوا في مواجهة الإسـلام التقليـدي والطـرقي، وربمـا يكـون أهم دليل على هـذا التوجـه التنـويري المغـالي موقـف ابن بـاديس من كمال أتاتورك حين أثنى عليه حيا وميتا، فقد رثاه بعـد موتـه بهـذه الكلمات التي لم يرث بمثلها غيره، فقـد قـال: (في السـابع عشـر من رمضـان المعظم ختمت أنفـاس أعظم رجـل عرفتـه البشـرية في التاريخ الحـديث, وعبقـري من أعظم عبـاقرة الشـرق, الـذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقاً جديداً ذلك هو مصطفى كمـال بطـل غـاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو)[1]

وبالرغم من آثار الاستغراب الكثير الـذي وقفـه البعض من هـذا المقال إلا أنه يبرز ناحية مهمة تدل على التصـورات الفكريـة لابن باديس ولكثـير من أعضـاء جمعيـة العلمـاء حـول المدنيـة الحديثـة والانبهـار بهـا إلى الدرجـة الـتي قـد تقـربهم من التنـويريين غـير المتدينين، أو الذي يعتبرون الدين سببا في التخلف.

وقد برر ابن باديس هذا بقوله: (إن الإحاطة بنواحي البحث في شخصية أتاتورك (أبي الترك) مما يقصـر عنـه البـاع، ويضـيق عنـه المجال، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقـول كلمـة في موقفـه إزاء الإسـلام. فهـذه هي الناحيـة الوحيـدة من نـواحي عظمـة مصـطفى أتـاتورك الـتي ينقبض لهـا قلب المسـلم ويقـف متأسفاً ويكاد يولي مصطفى في موقفـه هـذا الملامـة كلهـا حـتى يعرِّف المسؤولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقـف فمن هم هؤلاء المسؤلون؟... المسؤولون هم الذين كانوا يمثلـون الإسلام وينطقون باسـمه، ويتولـون أمـر النـاس بنفـوذه، ويعـدون أنفسهم أهله وأولى الناس به) [2]

---

[1] آثار ابن باديس:4/213.

[2] آثار ابن باديس:4/213.

ثم يحـــدد هــؤلاء، والــذين اعتــبر أتــاتورك بــالرغم من توجهــه العلماني أو الإلحادي أفضـل منهم، فـذكر أنهم (خليفـة المسـلمين شيخ إسلام المسلمين ومن معه من علماء الـدين، شـيوخ الطـرق المتصوفون، الأمم الإسلامية التي كـانت تعـد السـلطان العثمـاني خليفة لها)[1]

وهؤلاء الذين ذكـرهم هم نفسـهم الـذين كـان ابن بـاديس ومن معه من أعضاء الجمعية يختلفون معهم إلى درجة الصراع.

7 ــ الاهتمام باللغة العربية:

عرفنا عند عرض الأسس التي يقوم عليها الإصـلاح عنـد الشـيخ محمد عبده الاهتمام باللغة العربية وتحـديثها لتتناسـب مـع الحيـاة المعاصرة.

ونرى هذا متوافقـا تمامـا مـع دعـوة الجمعيـة، بـل كـانت اللغـة والبيان أبرز النواحي فيها، حتى أن قيمة العالم - حسب تصورها – كانت بقدر فصاحته وبلاغته.

ولذلك اعتـبر الإبـراهيمي إحيـاء اللغـة العربيـة ركنـا من أركـان العملية الإصلاحية الـتي نهضـت لأجلهـا الجمعيـة، فهـو يقـول: (إنّ جمعيّتكم هذه أُسِّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلِّ عــربي مسلم بهذا الوطن مكانـةٌ لا تسـاويهما مكانـة، وهمـا: إحيـاء مجـد الدِّين الإسلاميّ وإحياء مجد اللغة العربيّة)[2]

ويبرر ذلك بأن (اللغة هي المقوِّم الأكـبر من مقوِّمـات الاجتمـاع البشريّ وما من أمَّة أضاعت لغتها إلا وأضـاعت وجودهـا، واسـتتبع ضياعَ اللغة ضياعُ المقوِّمات الأخرى)[3]

ويذكر النتـائج الطيبـة الـتي حصـدتها الجمعيـة من نشـرها للغـة العربية واهتمامها بها، فقال: (وقـد أشـرفت هـذه اللغـة الشـريفة على الاضـمحلال بهـذه الـدِّيار لـولا أن تـداركتها جمعيّـة العلمـاء وأخذت بيدها وانتشلتها من الحضيض الذي وصلت إليه، فاستعادت على يدها شبابَها، ووصلت بسبب الدِّين الحنيف أسبابَها، وأصـبحت

---

[1] آثار ابن باديس:4/213.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 133)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 134)

الجزائـر في مـدَّة قليلـة تُفـاخر أمصـار العربيّـة الكـبرى ومنابتهـا الأصليّة، بأدبها وكُتّابها وشعرائها وخطبائها)[1]

ويــذكر تجربتــه في نشــرها فيقــول: (ولقــد بــدأت دروســي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى وأَخَـذْت نفسـي بـذلك أخذًا أصل فيه إلى درجة الاغراب أحيانًـا، وكـان لي من وراء ذلـك الالتزام غرضان: أحدُهُما إقامة الدليل للمتعلمين باللغـات الأجنبيـة على أن الفصحى لا تعيا بحمل المعاني مهما تنـوعت وعلت، وأنهـا تَبُذُّ اللغات في ميـدان التعبـير عن الحقـائق والخيـالات والخـواطر والتصورات، وقد بلغت من هذا الغرض ما أريـد.. والغـرض الثـاني أن أُحْـدِث في نفـوس العامـة المحـبين للعلم والـدين أسـفًا يقضّ مضاجعهم فَيَدُعُّهُم إلى تدارك مـا فـاتهم منهـا في أبنـائهم.. وكنت أرى من عامة السامعين حسن إصغاء ينبئ باهتمام عميق فأتأولــه على أنه تـأثر بالآيـات والأحـاديث الـتي يكـثر تردادهـا في الـدرس منزلة على ما سيقت له- والتأثُّر بكلام اللـه وكلام رسـوله طـبيعي في المسلم- وكم كنت أخشـى أن يَنْفَضُّـوا من حـولي يومًـا لعـدم فهم مــا يســمعون لــولا أنــني آوٍ إلى ركن شــديد من كلام اللــه ورسوله.. ومـا زلنـا على هـذا حـتى فعـل المـران فعلـه وأصـبحوا يفهمــون ويــذوقون ويخرجــون وهم يتدارســون.. وقــد رجعت إلى العامية في بعض الدروس فاسـتهجنوها ونبت عنهـا أذواقهم، وإني لا أدري لماذا لا نعجب للعـامي يتعلّم الفرنسـية بالسـماع ونَعْجَب- بل لا نكاد نصـدق- لـه أن يتعلّم العربيـة بالسـماع، مـع أن العربيـة أقرب إلى عاميته وفطرته وروحه)[2]

وهذا كله وغيره يدل على مدى اهتمام الجمعية باللغـة العربيـة، بل نرى أن مبالغتها في الاهتمام بها جعلها تنصـرف، أو تقصـر في تعلم الكثير من العلوم خاصة العلـوم الشـرعية، فباعهـا فيهـا كمـا يظهـر من خلال كتاباتهـا محـدود جـدا مقارنـة بقوتـه في اللغـة العربية.

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 286)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 149)

المبحث الثاني: المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء

بعد التعرف على التوجه الفكري الذي يكاد يجمع أعضاء جمعيـة العلماء المسـلمين الجزائـريين عليـه، والـذي رأينـا أنـه مـزيج من المدرسـتين السـلفيتين: التنويريـة والمحافظـة، نحـاول في هـذا المبحث التعرف على المشروع الإصلاحي الـذي حـاولت الجمعيـة تحقيقـه على أرض الواقـع، فلا يمكن التعـرف التـام على التوجـه الحقيقي لأي تيار إلا من خلال مبادئه الفكرية ومشاريعه العملية.

ونرى أن أحسن محل يمكن من خلاله التعرف على مشاريع أيـا تيار أو مدرسة هو النظر في أهدافـه الـتي يريـدها سـواء عـبر هـو عنها، أو عرف بها في الواقع، ولعل المعرفة الواقعية أخطر، لأنهـا تدل على المنجـزات أكـثر من دلالـة التصـريحات النظريـة، والـتي كثـيرا مـا تتلبس بلبـاس المثـل، فلـذلك لا يمكن الاعتمـاد عليهـا اعتمادا حقيقيا.

وقد عبر (فرحات عباس)، الذي عرفنـا أنـه من النخبـة المثقفـة ثقافة فرنسية عن أهداف الجمعية، فذكر أنها تنحصـر في الرجـوع إلى العربيـــة والإســـلام، ومحاربـــة أصـــحاب الطـــرق الصـــوفية المتواطـئين مـع الاسـتعمار، وتكـوين إطـارات اجتماعيـة مشـبعة بالثقافة العربية، لا تنكر فضل الثقافة الفرنسية[1].

وهكـذا الأمـر بالنسـبة للمـؤرخين الأجـانب فــ (شـارل أندريـه جوليان) حدد أهداف الجمعية على أنها دينية ثقافيـة في آن واحـد، فمن الناحية الدينيـة أرادت الرجـوع بالإسـلام إلى نقاوتـه الأصـلية عن طريق محاربة الطرقية التي اتبعت أمورا لا صلة لهـا بـالقرآن والسنة، أما من الناحيـة الثقافيـة فقـد قـامت على جمـع الشـتات والهيئـــات الإســـلامية بـــالتقريب قصـــد خلـــق كتلـــة واحـــدة من المسلمين[2].

و(جوزيـــف ديبـــارمي) لخص أهـــداف الجمعيـــة في (فهم لغـــة القرآن، والرجوع إلى الثقافة الإسـلامية القديمـة، وجعـل المغـرب

---

[1] عباس فرحات، ليل الاستعمار، مطبعة فضالة محمد، المغرب، ص 155.

[2] شارل أندريه جوليان، إفريقيـا الشـمالية تسـير، ترجمـة المنجي سـليم وآخـرين، تـونس، 1976، ص131.

العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغـرب وتنقيـة وتبسـيط الدين الإسلامي)[1]

هذا بالنسبة لما عرفت به في الواقع عند الكثير، أما تصــريحات الجمعية نفسـها، فقـد عـبر عنهـا الإبـراهيمي عنـدما وصـفها بأنهـا (جمعيــة علميــة دينيــة تهذيبيــة)، أي أنهــا تهـدف إلى نشــر العلم، وإحياء الدين، وتهذيب المجتمع.

وقد شرح هذه الأهـداف بقولـه: (فهي بالصـفة الأولى (علميـة) تعلم وتــدعو إلى العلم، وتــرغب فيــه وتعمــل على تمكينــه في النفوس بوسائل علنية واضحة لا تتستر، وهي بالصفة الثانيــة تعلم الدين والعربية لأنهما شيئان متلازمان وتدعو إليهما وتـرغب فيهمـا وتنحو في الدين منحاها الخصوصـي، وهـو الرجـوع بـه إلى نقاوتـه الأولى وسماحته في عقائده وعياداته، لأن هذا هـو معـنى الإصـلاح الـذي أسسـت لأجلـه ووقفت نفسـها عليـه، وهي تعمـل في هـذه الجهة أيضًا بوسائل علنية ظاهرة.. وبمقتضى الصفة الثالثــة تـدعو إلى مكــارم الأخلاق الــتي حض الــدين والعقــل عليهــا لأنهــا من كمالهما، وتحارب الرذائل الاجتماعية التي قبح الدين اقترافهـا وذم مقترفيها، وسلكت في هذه الطريق أيضًا الجادة الواضحة.. وبهـذه الصفة تعمل لترقيـة فكـر المسـلم بمـا اسـتطاعت، وترشـده إلى الأخذ بأسباب الحياة الزمنية، وتريه ما يتعارض منها مع الدين ومــا لا يتعارض.. فالجمعية- بهذا الوصـف الحقيقي لهـا- أداة من أدوات الخير والصلاح، وعامل لا يستهان به من عوامـل التربيـة الصـالحة والتهذيب النافع، وعون صالح لأولي الأمر على ما يعملـون لـه من هناء وراحة، تشكر أعماله ولا تنكر)[2]

ولتبسيط هذه الأهـداف وضـبطها لخصـها الإبـراهمي، أو فصـلها بعد إجمال في هذه البنود الثمانية:

1- تنظيم حملــة جارفــة على البــدع والخرافــات والضــلال في الدين، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعـظ والإرشـاد، في المســاجد، والأنديــة، والأمــاكن العامــة والخاصــة، حــتى في الأسـواق، والمقـالات في جرائـدنا الخاصـة الـتي أنشـأناها لخدمـة

---

[1] نقلا عن: الحركة الوطنية الجزائرية، للدكتور أبي القاسم سعد الله:3/91.

[2] آثار الإبراهيمي: 1/199.

الفكرة الإصلاحية.

2-الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار، فيما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الآباء، ربحًا للوقت قبل بناء المدارس.

3-تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرجين، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

4-العمل على تعميم التعليم العربي للشبان، على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

5-مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لنستخدمها في تعليم الأمة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.

6-مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزعتها، لتصرف في مصارفها التي وُقِفَت عليها. (وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة).

7-مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي، في الأحوال الشخصية مبدئيًا.

8-مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين.

وقد كانت مقالات وخطب أعضاء الجمعية كلها تنص على هذه الأهداف، وتذكر بها كل حين حتى ترفع تلك الشبهات التي كانت ترمى بها كل حين، فهذا الشيخ فرحات بن الدراجي[1] الذي يقول في خطبة له: (أيها الإخوة الكرام إن غايتنا التي نسعى في الوصول إليها وهدفنا الذي نرمي إليه أن ننهض بالإسلام ونعمل على تنقيته مما ألصق به؛ ولن يكون ذلك إلا بالرجوع لأصوله الأولى ومصادره الصحيحة حتى يرجع إليه جماله وجلاله؛ وأن نعمل على إحياء لغة القرآن حتى يرجع إليها سالف مجدها، وغابر

---

[1]) هو فرحات بن الدراجي (1909-1951) ولد ببسكرة، وبها حفظ القرآن الكريم، ثم توجه إلى جامع الزيتونة بتونس وتخرج منها سنة1931، رجع إلى الجزائر وصادف في عام رجوعه تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فكان من نخبة شبابها العاملين، قال عنه الشيخ مبارك الميلي: (الشيخ فرحات بن الدراجي مفخرة من مفاخر الزاب، وشخصية بارزة بين شبابنا المثقف الناهض، دؤوب على المطالعة والتحصيل، صبور على البحث ولتحليل، وهو من اضواء مصابيح المستقبل. (انظر: (من أعلام الإصلاح في الجزائر، للأستاذ/ محمد الحسن فضلاء، طبعة/2000- دار هومة بالجزائر: 1/154)

عزهـا وحـتى تصـبح منتشـرة في المـدن والقـرى، وبين الأفـراد والجماعات. هذه هي الغاية التي لها نعمل ما دام فينا عرق ينبض؛ ولن يصدنا عنها تهديـد ولا وعيـد، لنـبرهن بأقوالنـا وأعمالنـا للـذين يحاولون أو يعملون بالفعل على قطـع كـل صـلة تربطنـا بالإسـلام الصــحيح والعربيــة الفصــيحة، لنــبرهن لهــؤلاء أن الإســلام روح المسلم، والعربية لسانه، وليس في الإمكـان أن يعيش إنسـان بلا روح ومن غير لسان)[1]

بناء على هذا يمكن تقسيم أهـداف الجمعيـة إلى أربعـة أهـداف هي:

أولا ــ الإصلاح الديني

ثانيا ــ لإصلاح السياسي

ثالثا ــ لإصلاح الاجتماعي

رابعا ــ لإصلاح التربوي

وقد خصصنا كل هدف منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: الإصلاح الديني عند جمعية العلماء

كشأن جميع الحركات الإسلامية، والسلفية منهـا خصوصـا، فـإن الإصلاح الديني[2] هو المنطلق الذي تنطلق منه العمليـة الإصـلاحية جملـة وتفصـيلا، وذلـك لاعتقـاد المصـلحين في هـذه التيـارات أن الانحــراف الــديني أو الانحــراف عن الــدين كلاهمــا ســبب لكــل الانحرافات.

فالانحراف الديني يعني إيجاد منظومـات جديـدة مبتدعـة تلبس لباس الدين لتنحرف به عن مساره الصحيح.

والانحـراف عن الـدين يعـني إيجـاد بـدائل عن الـدين قـد تلبس لباس الهوى المجرد، وقد تلبس ألبســة أيديولوجيــة أخــرى شــبيهة

[1] سجل الجمعية، ص:204.

[2] عرف محمد البهى الإصلاح الديني بأنه (محاولة رد الاعتبـار للقيم الدينيـة، ورفـع مـا أثـير حولها من شبه وشكوك قصد التخفيـف من وزنهـا في نفـوس المسـلمين، ونعـني بـه كـذلك محاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركود الـتي وقفت عنـدها حيـاة المسـلمين إلى حياة المسلمين المعاصرة حتى لا يقف مسلم اليوم وحاضره عندما يصبح في غـده) (محمـد البهى، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبه الطبعـة العاشـرة، ص 421)

بالدين.
وقد عبر الشيخ ابن باديس عن حاجة الإصلاح لمواجهة كلا الانحرافين، فقال: (قد رأينا ونحن نخدم أمَّة مسلمة أن نسعى لتهذيبها من طريق الإسلام، ولم نشكّ قطُّ أنّ الإسلام ليس هو ما تمثِّله بسيرة مجموعها وأفرادها، وأنَّ الإسلام إنَّما هو في كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وما كان عليه سلفُها من أهل القرون الثَّلاثة المشهود لهم بالخيريَّة على لسان الصَّادق المصدوق، فصمدنا ندعو الأمَّة إلى الرجوع إلى هذه الأصول وطرحِ كلِّ ما يخالفها من قول وعمل واعتقاد)[1]

فهذا النص يدل على تبني الجمعية على لسان رئيسها الإسلام أولا كمرجع للإصلاح، ثم تحديدها إسلام أهل القرون الثلاثة، أو إسلام الاتجاه السلفي بكل مقوماته، لترد من خلاله كل انحراف عنه.

هذا من الناحية الفكرية النظرية، أما من الناحية الواقعية، فنجد اهتمام الجمعية بالجانب الثاني قد طغى على الجانب الأول، فكان اهتمامها بالانتقاد أكثر من اهتمامها بالبناء.

ولهذا لا نجد في فكر الجمعية أو تراثها أو منجزاتها العلمية عرضا للإسلام يوازي ما قامت به من تهديم لما تراه من انحرافات، ولعل هذا ما تتفق عليه جميع التيارات السلفية، وخاصة المحافظة منها نتيجة تغليبها المذهبية والطائفية على الإسلام.

فابن باديس أو غيره من المصلحين عند ذكر الإصلاح الديني يربطه دائما بالتوجه السلفي، وكأنه يظن أن الإسلام وحده – والمتضمن في مصادره المقدسة- لا يكفي إلا إذا قيد بفهم السلف وفعل السلف وختم السلف.

فلفظة (السلف) عنده –كما هي عند غيره من أعضاء الجمعية- لازمة مرتبطة بالكتاب والسنة لا يمكن التنازل عنها بحال من الأحوال، فقد كتب - مثلا- في جريدته (الشهاب)؛ في فاتحة السَّنة الثَّالثة عشرة، يقول: (وسنخطو هذه الخطوة - إن شاء الله تعالى - على ما عرفه النَّاس من مبدئنا في الإصلاح الدِّينيّ من ناحية العقائد والأخلاق والأفكار والأعمال، تصحيحاً وتهذيباً وتنويراً

---
[1]) جريدة الشهاب: (2/3)

وتقويماً، كلُّ ذلك في دائرة الإسلام كما نزل به القرآن، وبيَّنته السُّنَّة، ومضى عليه - علماً وعملاً - السَّلف الصَّالح من هذه الأمَّة)[1]

وعندما عرض دعوة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأصولَها ذكر من بينها: (الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله، وكمَّله على يد نبيِّه محمد ﷺ الذي لا نبيَّ بعده.. القرآن هو كتاب الإسلام.. السنّة - القوليّة والفعليّة - الصَّحيحة، تفسيرٌ وبيان للقرآن.. سلوك السَّلف الصَّالح - الصَّحابة والتَّابعين وأتباع التَّابعين - تطبيقٌ صحيح لهدي الإسلام.. فهوم أئمَّة السَّلف الصَّالح، أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسُّنَّة..)[2]

وليس هذا خاصا بالفترة التي تولى فيها رئاسة الجمعية، بل كان هذا هو أسلوبه الإصلاحي، فقبل تشكيل الجمعيّة، أنشأ جريدة (المنتقد)، واسمها يدل عليها، ولذلك عُطِّلت بعد فترة وجيزة، فأتبعها بجريدة (الشهاب) التي عرفها بكونها (شهابٌ رصد على الدِّين الصَّحيح من أن تلمَسه أيدي دجاجلة السُّوء وأنصار البدعة بأذى، وشهابٌ ثاقب يُقذف به كلُّ شيطان رجيم وأفَّاك أثيم..)[3]

وقد جاء في هذه الجريدة التَّصريح الصَّريح بالدَّعوة إلى هذه الأصول العظيمة: (إنّ من أهمِّ ما أُسِّست له هذه الصَّحيفة: الإصلاحَ الدِّيني وتطهيرَ العقائد من نزعات الشِّرك وباطل الخرافات ودحضَ أنواع البدع القوليَّة والفعليَّة، والإشادةَ بلزوم الاهتداء بالكتاب والسنَّة وعمل السَّلف الصالحين، والأخذَ بكلِّ ما وافق هذه الأصول، والطّرحَ لكلِّ ما خالفها)[4]

حتى وصيته الجامعة أشار فيها إلى هذا: (اعلموا - جعلكم الله من وعاة العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجمَّلكم بعزَّة الاتِّباع، وجنَّبكم ذِلّة الابتداع - أنَّ الواجب على كلِّ مسلم في كلِّ

---

[1] جريدة الشهاب: (13/3).

[2] آثار ابن باديس: (5/154).

[3] جريدة الشهاب: (1/3)..

[4] جريدة الشهاب: (2/474).

زمان ومكان، أن يعتقد - عقدا يتشـرَّبه قلبـه، وتسـكن لـه نفسـه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبني عليـه أعمالـه - أنَّ دين الله تعالى - من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان - إنّما هو في القرآن والسنّة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصـالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأنّ كـلَّ مـا خـرج عن هـذه الأصول، ولم يحظَ لديها بالقبول - قـولا كـان أو عملا أو عقـدا أو حالا - فإنّه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائنا من كان، في كلِّ زمان ومكان.. هذه نصيحتي لكم ووصـيَّتي أفضـيت بهـا إليكم، فاحفظوها واعملوا بها، تهتـدوا وترشـدوا - إن شـاء اللـه تعـالى -؛ فقد تضافرت عليهـا الأدلـة من الكتـاب والسـنّة وأقـوال أسـاطين الملة من علماء الأمصار، وأئمـة الأقطـار، وشـيوخ الزهـد الأخيـار، وهي - لعمر الحقّ - لا يَقبلها إلا أهل الدِّين والإيمـان، ولا يردُّهـا إلا أهل الزيغ والبهتان)[1]

وعلى هذا المنهج سار جميـع المصـلحين – للأسـف - فقـد غلب عليهم الإسـلام المـذهبي، والصـراع مـع الآخـر وإلغائـه، بـل حـتى الصراع مـع الـتراث الإسـلامي عن بيـان الإسـلام الحقيقي بجميـع منظوماته.

فهذا الشيخ مبارك الميلي يقول: (فالدَّاعي إلى الكتاب والسُّـنَّة وتفهُّمِهما إنَّما هو داعٍ لتحقيق كلمتَيْ الشَّـهادة، ولهـذا نجـد فيهمـا وفي كلام سـلف الأمَّة الحثَّ على تعلُّمهمـا واتِّباعهمـا وتحكيمهمـا عند النِّزاع، والتَّحذيرَ من مخالفتهما وارتكـابِ مـا أنكـراه على من تقدَّمَنا من مشركين وكتابيِّين)[2]

وهذا الشَّيخ العربي التبسي يقول: (فإنَّ الدَّعوة الإصلاحية الـتي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلاميّ في العالم الإسلاميّ عامّة، وتقوم بها (جمعيّة العلماء) في القطر الجزائريّ خاصّة، تتلخَّص في دعوة المسـلمين إلى العلم والعمـل بكتـاب ربِّهم وسـنَّة نـبيِّهم، والسَّـير على منهــاج ســلفهم الصَّــالح في أخلاقهم وعبــاداتهم القوليّــة والاعتقاديّة والعمليّة، وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائدَ وأعمال

---

[1] جواب سؤال عن سوء مقال، لابن باديس: ص (97-98)..

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 63)

وآداب على ما كان في عهد السَّلف الصَّالح، فما وافقه عدَدْناه من دِين اللهِ فعمِلنا به، واعتبرنا القائم به قائماً بدِين الله، وما لم يكن معروفاً في عهد الصَّحابة عدَدْناه ليس من دين الله، ولا علينا فيمن أحدَثه أو عمل به؛ فالدِّين حُجَّة على كلِّ أحد وليس عمل أحد حُجَّةً على الدِّين..)[1]

وليس هذا خاصا بابن باديس أو مبارك الميلي، أو غيرهما، بل هو شأن جمعيّة العلماء جميعا، فقد نصت في قانونها الدَّاخلي على أن (الجمعيّة تريد أنْ ترجع بهذه الأمَّة - من طريق الإرشاد - إلى هداية الكتاب والسُّنَّة وسيرة السَّلف الصَّالح، لتكون ماشية في رقيِّها الرُّوحيّ على شعاع تلك الهداية)[2]

ولكن مع هذا، نذكر أن هناك اهتماما، وإن شابه قصور كبير بالناحية الأولى، وهي الانحراف عن الدين، فقد اهتمت الجمعية بظاهرتي الإلحاد والتبشير اهتماما لا يتناسب مع خطرهما.

ظاهرة الإلحاد:

وقد ذكره الشيخ البشير الإبراهيمي متأسفا، فقال: (الإلحاد ضيف ثقيل حل بهذا القطر منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروبية من طريق التعليم اللاديني أو من طريق التقليد الأعمى، وغذته غفلة الآباء والأولياء عن هذه الناحية الضعيفة من أبنائهم)[3]

ثم ذكر كيفية سريان الإلحاد من خلال التعليم في المدارس اللائكية، فقال: (ذلك أن الناشئ الذي يتلقى التعليم في هذه المدارس اللايكية يحس من أول أيامه في التعليم بمنافرة ما يتعلمه في المدارس من حقائق الكون مثلًا لما تعوّد سماعه من أهليه، ثم يزداد ما يسمعه في المدارس رسوخًا في نفسه بما يقام عليه من الدلائل فيزداد على قدر ذلك نفورًا من كل ما يسمعه من أهليه، ثم ينقلب ذلك النفور منهم ومما يسمعه منهم احتقارًا لهم وله، ولكل ما يلابسهم من عوائد وأزياء حتى ينتهي به الأمر إلى الدين إذ يجد أبويه وأقاربه لا يعرفون منه إلّا قشورًا

---

[1] تقديم لرسالة (الشرك ومظاهره): ص (27).

[2] من المادة (66) من القانون الداخلي للجمعية، آثار الإبراهيمي: (1/84).

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 194)

ممزوجـة بالخرافـات، ثم هم لم ينشـئوه على احـترام الـدين ولم يشربوه حبـه من الصـغر ولم يروضـوه على إقامـة شـعائره، فـإذا تمادت به مراحل التعليم وهو على هذه الحالة، شب على الوحشة من قومه ولغته ودينه وملك الالحاد عليـه أمـره إلّا من رحم ربـك، وهــذه عاقبــة طبيعيــة للإهمــال المتفشــي في مثــل الأوســاط الجزائرية) [1]

ويـذكر دور الجمعيـة في مواجهـة الإلحـاد، فيقـول: (وقـد كـان لجمعية العلماء الآثار المحمودة في مقاومة الالحاد بما يبثه رجالها من حقائق الدين، وبما يشـرحونه في دروسـهم ومحاضـراتهم من مطابقته للعقل واتفاقه مع قضايا العلم ومسايرته للحياة المدنيـة، وبما أرشدوا إليه الآباء من رعاية الأبناء والظهـور أمـامهم بمظهـر القدوة الصالحة في الدين والخير والفضيلة)[2]

وهو يذكر اهتمام أعضاء الجمعية بهـذا الصـنف من النـاس، بـل يعتبر أنهم أقـرب إلى الإصـلاح من غـيرهم، فيقـول: (ولكن رجـال جمعية العلماء يعلمون أن هذه الطائفة المعرضة للإلحاد هي زهرة الأمة وأنها جـديرة بكـل عنايـة واهتمـام، وأنهـا- وإن لم تسـلم من طـائف الإلحـاد- سـالمة من الجمـود والتخريـف، وأنهـا أقـرب إلى الإصلاح والرجوع إلى الحق بما معهـا من إدراك صـحيح وبمـا فيهـا من ملكـات الاسـتدلال، لـذلك مـازجوا هـذه الطائفـه وخلطوهـا بأنفسـهم، وعرفـوا كيـف يجـذبونها إلى المحاضـرات والـدروس الدينية، فكان لهذه الطريقة الرشيدة أثرها الصالح في تقـويم زيـغ الزائغين منها وإرجاعهم إلى حظيرة الدين بكل سهولة) [3]

وهـو يعـود إلى توجهـه السـلفي حين يعتـبر مقاومـة التصـوف والطرق الصوفية سدا لباب من أبواب الإلحاد، فيقـول: (أرأيت أن القضاء على الطرقية قضاء على الإلحـاد في بعض معانيـه وحسـم لبعض أسبابه؟)[4]

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 194)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 195)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 195)

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 195)

ويرد على من عاتبهم على إهمالهم الإلحاد وانشغالهم بـالطرق الصوفية، فيقول: (وقد قرأت في هذه الأيام لكتاب تونسـي مقـالًا يَنْعَى فيـه على جمعيـة العلمـاء إهمالهـا لهـذه الجهـة من جهـات الفساد وهي جهة الإلحاد.. وفات هـذا الكـاتب الفاضـل أن جمعيـة العلماء لم تسكت عن الالحاد بل هاجمته في أمنع معاقله، ونازلته في أضـيق ميادينـه، كمـا فاتـه أن صـرعى الالحـاد لا يغشـون المساجد، فما تـأثير الخطب الجمعيـة الـتي تلقى على المصـلين؟ وهـل يـداوى المـريض بتحـذير الأصـحاء من المـرض أو أسـباب المـرض؟ ألا إن العـالم المرشـد كـالطبيب، لا ينجح في إنقـاذ المريض من الموت إلا بغشـيان مواقـع المـوت ومباشـرة جـراثيم الموت) [1]

وهو لا شـك يعتـبر جـراثيم المـوت هي تلـك الطـرق الصـوفية، ولسنا ندري مدى دقة هـذا أو صـحته، فقـد اسـتطاع بـديع الزمـان النورسي في بيئة كانت ممتلئة بالطرق الصوفية أن يقهر الإلحـاد، وأن يـربي جيلا مؤمنـا من غـير أن يصـطدم مـع أي طريقـة من الطرق الصوفية، بل على العكس من ذلـك اسـتغل أتبـاع الطـرق لينشر مبادئه الإيمانية فيهم بعيـدا عن الصـراع مـع أي طـرف من الأطراف إلا الإلحاد نفسه.

ظاهرة التبشير:

وقد عرفنا في الفصل الأول أن واضع أساسـه في الجزائـر هـو (الكردينـال لافيجـري) الـذي أسـس مراكـزه المهمـة، ثم أتمت الجمعيات التبشيرية ما بدأ به، وهي جمعيات قويـة يمـدها الأغنيـاء من المسـيحيين بـالملايين من المـال، ويمـدها رجـال الكهنـوت ونساؤه بالأعمال، وتمدها الحكومات بالمعونة والتأييد[2].

وقد ذكر الإبراهيمي في تحليله لدوافع التبشير بأنـه ليس سـوى نتيجة (من نتائج التعصب المسـيحي المسـلح، ومولـود من مواليـد القوّة الطاغية التي تسمي كل ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حرية دين أو حرية فكر، أو حرية تجارة، وأداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي، دفعته أولًا ليكـون رائـدها في الفتح

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 195)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 196)

وقائـدها إلى الاسـتعمار، وأمدتـه بالمعونـة والحمايـة، والصـيانة والرعاية، فمد اشطانه، وأصبحت جميع الأوطان أوطانـه، حـتى إذا صـاح صـائح بالويـل أو صـرخ مسـتغيث بالليـل، قـالت السياسـة: اسكت فعمل التبشير من عملي، هو حر وأنا حاميـة الحريـة، وهـو (انساني) وأنا منقذة الإنسانية) [1]

ولكنه يـرى مـع ذلـك أن التبشـير لم ينجح في الجزائـر، وأرجـع أسـباب ذلـك (لعـدة اعتبـارات، أولًا: تقـادم عهـده، وثانيًـا: صـولة الاستعمار الذي يحميه، ثالثًا: فشوّ الجهل والأمية والفقر في الأمـة التي هي فريسة التبشير، رابعًـا: انتشـار الطرقيـة الـتي هي ظـئر التبشير وكافلته والممهدة لـه حسًـا ومعـنى، وإن جهـل هـذا قـوم فعدوا من حسناتها مقاومة التبشـير، خامسًـا: قعـود علمـاء الـدين عن المقاومة وسكوتهم عن المعارضة قبل جمعية العلماء) [2]

والسبب الأكبر في تصوره هو (تصلب الجزائري في دينـه مهمـا بلغت به العامية والأمية والفقر)[3]

بعد هذا العرض لتصـور الشـيخ البشـير الإبـراهيمي، والـذي هـو تصور جمعية العلماء نفسه نتساءل: مـا سـر الصـلابة الـتي منعت الجزائـــري الفقـــير الأمي من الـــذوبان في الآخـــر، والخضـــوع للمبشرين مع كثرة المغريات التي كانوا يوعدون بها؟

ثم لمـاذا يعتـبر الإبـراهيمي أن الطـرق الصـوفية ظـئر التبشـير وكافلته والممهدة له حسًا ومعنى، مع ذكره بأن هناك من اعتبرهـا الحصن الحصين ضد التبشير؟

ثم إن الإسلام الجزائـري قبـل الجمعيـة -كمـا يـذكر الإبـراهيمي وغـيره - كـان الغـالب عليـه الإسـلام الطـرقي، وبالتـالي ألا يمكن اعتبار هذا الإسلام مهما كان مشوبا ببعض الانحرافات إسلاما قويـا اسـتطاع أن يحفـظ الشخصـية الجزائريـة من الـردة عن دينهـا، والتحول عن هويتها؟

طبعا الإجابة على هـذا، وعن سـر تجاهـل الجمعيـة على لسـان الإبراهيمي لدور الطرق الصوفية في هذا الباب نـاتج عن تـوجههم

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 196)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 196)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 196)

السلفي الذي يغلب المذهبية على الدين نفسه.
والأشد خطرا من ذلك تعليل الإبراهيمي بأن السبب في تقصير الجمعية عن مقاومة التبشير هو أنه (إلى الآن لم تتوفر لديها الوسائل الكافية لتنظيم مقاومة منتجة، وأهم عنصر في هذا الباب هو المال.. (فـ) السلاح الماضي الفتاك في هذا الميدان هو المال. ولعمري كيف تستطيع أن تقاوم جمعيات منظمة من ورائها أمم غنية تغدق عليها المال، مجهزة بالجيوش الوفيرة من الرهبان والراهبات والأطباء والممرضات، يوحد الجميع أخلاق ممتازة من الصبر والثبات والإيمان الجازم بحسن عاقبة ما وقفوا أنفسهم له) [1]

ونرى أن هذا التعليل ليس سوى مبرر للتقصير، وإلا فما الذي يمنع دعاة الجمعية الذين انتشروا في مناطق القطر الجزائري يحذرون الناس من الطرق الصوفية أن يرسلوهم إلى المناطق المتعرضة للتبشير ليحموهم من الخروج من الدين، وينشروا فيهم في نفس الوقت مبادئ الإصلاح؟

ولكن ذلك لم يحصل، وإن حصل فقد كان أقل من المستوى لأن الجمعية انشغلت - كما ذكرنا - بصراعات هامشية حالت بينها وبين الاهتمام بالقضايا الكبرى للدين، وهو منهج السلفية عموما من الغرق في الجزئيات وترك الكليات، ومن انهيار سلم الأولويات.

بالإضافة إلى هذا، فقد كان للجمعية أن تستغل صحفها في نشر الوعي الديني والتعريف بالإسلام، ومناقشة اللادينيين والمبشرين وغيرهم، ولكنها لم تفعل، فقد انشغلت مع كثرتها بقضايا الهدم أكبر من انشغالها بقضايا البناء.

بالإضافة إلى هذا، فما الذي كان يمنع الإبراهيمي وأعضاء الجمعية الذين استنكفوا من مناظرة الطرق الصوفية بحجة أنهم أقل منهم علما وشأنا [2] أن يناظروا المبشرين واللادينيين، أم أنهم

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 197)

[2] علل الإبراهيمي دوافع رفض المناظرة التي طلبها رجال الطرق الصوفية بقوله: (إن المناظرة في الشيء تستدعي نظيرين، أي مثيلين في المعنى الذي يتناظران فيه، والمناظرة المطلوبة هنا في مسائل علمية دينية لابسها تاريخ المسلمين الطويل، وداخلتها

أيضا لا يرقون إلى مرتبتهم؟

المطلب الثاني: الإصلاح التربوي عند جمعية العلماء

ربمـا يكـون أنجح مشـروع للجمعيـة، بـدأت بـه، وكـان أسـاس انطلاقتها الإصلاحية هو ما بذلته من جهـود للإصـلاح الـتربوي، فقـد تأسسـت على أسـاس أنهـا جمعيـة تعليميّـة تهذيبيّـة، ولـذلك فقـد ألزمت نفسها - منذ إنشائها - بتعليم الجزائريِّين - صـغارا وكبـارا - ونشر العلم في جميع ربوع الوطن، وإعدادِ العلماء الذين يقومـون بتوجيـه الأمَّة في دينهـا ودنياهـا، وحفـظ مقوِّماتهـا من لغـة ودين وأدب.

وقد جاء في قانونها الأساسي عِدَّة مـوادّ، تـدلُّ على اهتماماتهـا بهذا الباب بدءًا من تعليم القراءة والكتابة والحـروف، إلى محاربـة الأمِّية، إلى التبحُّر في علوم الكتاب والسنة:

ففي المـادة 77: (تسـعى الجمعيـة في تكثـير عـدد المكـاتب القرآنيـة على التـدريج في أهمِّ مراكـز القطـر، ويحتـوي برنامجهـا على تعليم الخطِّ العربي والنحو والصرف وحفظ القرآن مع تفهيم مفرداته، وضـروريات الـدِّين والأخلاق الإسـلامية، وتختـار من كتب التعليم أقربَها للإفادة، وتأخـذ الأسـاتذة بتنفيـذ ذلـك البرنـامج على وجه الدِّقَّة) [1]

وفي المادة 80: (تحارب الجمعية داء الأمِّية بكـل مـا تملـك من قـوَّة. ومن وسـائل هـذه الغايـة أن تُعـنى بتعليم مـا تسـتطيع من

عوائدهم واجتماعياتهم وأثر فيهـا هـذا وذاك.. وإذا كنـا نحن الطـرف الأول في هـذه القضـية، ونحن علماء نقول في الدين بدليلـه المعتـبر، ونتكلم في التـاريخ بعللـه وأسـبابه، ونقـول في العادات بمناشئها وآثارها، ونرجع كل شيء إلى أصله، ونرد كل حادثة إلى سببها، ونربــط بين الـدليل ومدلولـه والعلـة ومعلولهـا، فـإن الطرقـيين بـالطبع هم الطـرف الثـاني، وهـل بلـغ الطرقيون أن يكونوا نظراءنا بالعلم والدين والتاريخ والاجتماع؟ نحن نعـرفهم حـق المعرفـة، ونعـرف أنهم جهلاء ويفخـرون بالجهـل، وأنصـاف أمـيين ويتبـاهون بالأميـة، إذ ليس العلم ولا القـراءة شـرطا في طـرقهم ولا في مشـيختهم، ونعـرف أنهم لا يملكـون من أسـلحة هـذا الميدان إلا العناد والإصرار على الباطل.ولو كانوا علماء لما بلـغ الـنزاع بيننـا وبينهم إلى هـذا الحد، ولرجونا- إن لم يزعهم الدين- أن يزعهم العلم) آثار الإمام محمد البشـير الإبـراهيمي (1/ 301)

[1]) آثار الإبراهيمي: (1/88).

اليتامى الذين عُدِموا الكافل...) [1]

وفي المادة 81: (من غايات الجمعية النبيلة تأسيس كليـة دينيـة عربيـة بمدينـة الجزائـر، تُـدَرَّس فيهـا علـوم الـدِّين من وسـائل ومقاصد، والغاية الكبرى من هذه الكلية هي تقـريب العلـوم الـتي يهاجر أبناء الوطن لتحصيلها في الأقطار الأخرى) [2]

وفي المادة 74: (تُعنى الجمعية بـترغيب أعضـائها العـاملين في اقتنـاء الكتب النافعـة كأمَّهـات التفسـير والحـديث وفقهـه واللغـة والأدب والأخلاق والتصوُّف العملي[3] والتاريخ..)[4]

وانطلاقـا من هـذا سـنذكر هنـا باختصـار بعض مـا اهتمت بـه الجمعيـة في هـذا الجـانب، ونـرتب الكلام فيهـا بحسـب المراحـل الدارسية:

1 ـ محو الأمية:

أوْلت الجمعيّة عناية كبـيرة لمحـو الأمِّيـة لـدى الصـغار والكبـار. يقـول الإبـراهيمي: (إنِّي أظنُّ أنّ أوَّل هيئـة اجتماعيّـة فكّرت في محاربة الأمِّية بصورة منظَّمة في هذا الـوطن هي جمعيّـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريِّين، وأن أول رجـل أعرفـه فكّـر في مقاومـة الأميّة بصورة جدّية هو رئيسها المحترم. وأذكر أنني تحـادثت معـه في هذا المعنى، وقلّبنا وجوه الرأي فيه منـذ سـنوات، وربمـا كـان ذلك قبل تأسيس الجمعية)[5]

وبما أن هذا المشروع من مشاريع الجمعية الناجحـة، فإنـا نحب أن ننقل هنا باختصـار تجربتهـا فيهـا، وذلـك من خلال تقريرهـا لهـا

---

[1] آثار الإبراهيمي: (1/88).

[2] آثار الإبراهيمي: (1/88).

[3] يبدو أن هذا العلم بهذا المصطلح ذكر في الفترة التي كـانت فيهـا الجمعيـة منفتحـة على كل التيارات، وإلا فإنها بعد ذلك تشددت مع لفظ التصوف نفسه، فالإبراهيمي يقول عن هذه اللفظة بنبرة حادة: (ويميـًا، لو كـان للمسـلمين يـوم اتَّسـعت الفتوحـات، وتكـوَّنت المعامـل الفكريّة ببغداد، ديوانُ تفـتيش في العواصـم ودروب الـروم ومنافـذ العـراق العجمي؛ لكـانت هذه الكلمة من المواد الأوَّليّة المحرَّمة الدخول((آثار الإبراهيمي: (1/175)).

[4] آثار الإبراهيمي: (1/88).

[5] سجلّ مؤتمر جمعية العلماء: ص (99)..

عنها ألقي في مؤتمر الجمعية الذي انعقد بنادي الترقي بالعاصـمة في سبتمبر (1935)[1]:

وقد بدأ هذا التقرير بمقدمة عن الكمال الإنساني، وضرورته للخروج من التخلف والاستعباد، وهي بذلك تتبنى مقولة القابلية للاستعمار، فالمستعمر لم يستعمر الجزائر إلا لانتشار الجهل فيها، يقول التقرير: (ومن الأمثلة الصريحة التي لا تحتاج إلى ترتيب الأقيسة في الاستدلال عليها، نقيصة الأميّة. فإنها لا تفشو في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقتها بأخس أنواع الحيوانات، ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلة والمهانة والاستعباد)[2]

والتقرير يذكر مخاطر الأمية، وما تسببه من قابلية للاستعباد، فيقول: (فإذا كنا نعرف من شؤون الأفراد أن من يصاب منهم بشلل تتعطل منه وظيفة العضو المصاب، كذلك يجب أن نعرف من شؤون الأمم هذه الآثار السيئة التي تنشأ عن الأمّية، وهي تعطيل المواهب والقوى مع الفرق العظيم بين تعطيل وظائف أجزاء الجسم وبين تعطيل أجزاء الأمّة) [3]

وبين التقرير تصور الجمعية للأمية، وهو (الجهل بالقراءة والكتابة)، ولكنه يضيف إليه في موضع آخر (الأمية الفكرية) حين يذكر أن (أكبر جناية تجنيها الأميّة على الأمم هي القضاء على التفكير.. والتفكير هو المعيار الذي توزن به القيم العقلية في الأمّة سموًّا وإسفافًا. ومحال أن يسمو تفكير الأمي لأن فكره في قفص من أمّيته) [4]

ويعرج التقرير من المقدمات المنطقية العامة إلى الواقع الجزائري، فيذكر أن (فيما نراه سائدًا في أوساطنا الجزائرية من بساطة التفكير وتدلّيه خصوصًا في الشؤون العامة.. لدليلًا على

[1] انظر: كتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية الجزائرية، قسنطينة، ص:85 – 93، وقد استغنينا بهذا التوثيق هنا عن التوثيق في سائر الموضوع لأنا لخصناه من مواضع مختلفة كلها ضمن الصفحات المذكورة.

[2] آثار الإبراهيمي: (1/202)

[3] آثار الإبراهيمي: (1/202)

[4] آثار الإبراهيمي: (1/202)

أن هــذه الأميّــة هي أخت الوثنيــة في الفتــك بــالعقول وتعطيــل مواهبها. فلا كانت الأميّة ولا كانت الوثنية، من رضيعتي لبان واحد، وربيبتي حجر واحد) [1]

بعد هذا يـذكر التقريـر المقترحـات الخاصـة بعلاج الأميـة سـواء تعلقت بالصغار أم الكبار:

أما **الصغار**: فيـذكر التقريـر أن المصل[2] الـواقي لهم من هـذه العلة (هي تلقينهم مبادئ القراءة والكتابـة من الصـغر.. وأقـل مـا يجب على الجمعية في هذا السبيل الوصـايا والتحـذيرات المؤكـدة لآباء الناشئين لئلا يـتراخوا أو يفرطـوا في هـذا الـواجب..ثم عنايـة خاصة مضاعفة بـالتعليم الـذي تقـوم بـه الجمعيـة، يكـون أساسـه والقصد منه رفع الأميّة وحماية الناشئة منها) [3]

وأما **الكبار**: الذين فـاتهم سـن التعليم بحكم أعمـارهم، فيـذكر التقرير لتعليمهم اقتراحين[4]:

الأول: أن تتقدم لكل أعضائها العامدين، وتأخذ عليهم عهد الله وميثاقه على أن يعلم كل واحد منهم أميّا أو كثر من أقاربه مبـادئ الكتابة والقراءة والعمليات الأربع في الحساب، ويحفظه سورًا من القرآن على صحتها، وتتوسل الجمعيـة لهـذا بطبـع حـروف الهجـاء مركّبة ومفردة على صحائف من المقوى وبطبع الأرقام الحســابية كـذلك، وبطبـع سـور من القـرآن بـالحرف الغليـظ، وبطبـع جمـل تتضمن معاني مستقلة في العبادات والعقائد والفرائض.

الثــاني: أن تعمــد الجمعيــة إلى الجمعيــات القانونيــة، وإلى المجموعـات الـتي يجتمـع أفرادهـا في حرفـة أو عمـل كسـائقي السيارات أو صانعي الأحذية، فتتقدم إليهم بالنصيحة والإرشاد أولًا، ثم بالعمـل ثانيًـا، لأن مثـل هـذه المجموعـات أقـرب إلى النظـام والضـبط لأنهم يجتمعـون في الغـالب في سـاعة معيّنـة وأكـثر مـا

---

[1]) آثار الإبراهيمي: (1/202)

[2]) المصل: ما يؤخذ من دم حيوان محصَّن من الإصابة بمرض معيَّن، ثم يحقن به جسم آخـر ليكسبه مناعة تقيهِ الإصابة بذلك المرض. المعجم الوسيط: ص (874).

[3]) آثار الإبراهيمي: (1/205)

[4]) آثار الإبراهيمي: (1/206)

تكون في الليل.
وكيفية العمل مع هؤلاء أن تلزمهم بـدفع مبلـغ معيّن من المـال في كل شهر، ثم تلزم طالبًا من الطلبة أن يعلّمهم مبادئ القـراءة والكتابة وأرقام الحسـاب وبسـائط عملياتـه في سـاعتين من كـل ليلة، في مقابل ذلك المبلغ الشهري الذي يجمعونه.

2 ـ التعليم الابتدائي:

نظرا لتفشي الأمية كما ذكرنا، وقلة المـدارس العربيـة، وخطـر المــدارس اللائكيــة، فقــد اهتمت الجمعيــة بــالتعليم الابتــدائي، وإخراجه من دائرته الضـيقة المحـدودة إلى دائـرة أوسـع لتشـمل أكبر عدد من الجزائريين، وذلك عن طريق الخطوات التالية، وكلها مما نص عليه تقرير الجمعية السابق[1]:

1 ـ إحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، وتنظيم محاضــرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي.

ويذكر التقرير أن مساعي الجمعية نجحت في هذا البـاب نجاحًـا عظيمًا، وأنه لـولا عراقيـل الإدارة الاسـتعمارية المتمثلـة في غلـق بعض المكاتب، والتضـييق في إعطـاء الـرخص، وإيصـاد المسـاجد في وجوه الوعاظ لكانت النتيجة أكبر.

2 ـــ إصــلاح أســاليب التعليم بقســميه المكتــبي والمســجدي، وإبعاده عن الأساليب العتيقة العقيمة التي كان يباشـر بهـا، والـتي كانت محل شكوى وتـذمر في مكـاتب التعليم ومعاهـد العلم بغـير الجزائـر، ولم تسـتطع تلـك المكـاتب والمعاهـد التخلص منهـا مـع ظهور فسادها.

وربما يشير التقرير بهذا إلى ما قام به الشـيخ محمـد عبـده من إصــلاح للتعليم في الأزهــر، ومــا دعــا إليــه من إصــلاح المنــاهج التعليمية في العالم الإسلامي، وهنا يـبرز تـأثير السـلفية التنويريـة واضحا على الجمعية.

3 ـ إصلاح الوعظ والتذكير بحيث يصـير على (طريقـة السـلف، تذكر بكتاب اللـه، تشـرحه وتسـتجدي عـبره، وبالصـحيح من سـنّة رسول الله، تبينها وتنشرها، وبسيرته العملية، تجلوها وتدل النـاس

[1] انظر آثار الإبراهيمي: (1/191-193)، وقد استغنينا بهذا التوثيق هنا عن التوثيق في سائر الموضوع لأنا لخصناه من مواضع مختلفة كلها ضمن الصفحات المذكورة.

على مواضع التأسي منها، ثم سير الصحابة وهديهم، ثم سير حملة السـنة النبويـة، وحملـة الهـدي المحمـدي في أقـوالهم وأعمـالهم كذلك)[1]

ولعـل التقريـر يريـد من هـذا استنسـاخ منهج ابن بـاديس في التدريس في المساجد، لينفذ على مستوى أوسع.

ونلاحظ كذلك هنا غلبة التوجه السلفي المحافـظ على الجمعيـة كاختيـار (سـير الصـحابة وهـديهم، ثم سـير حملـة السـنة النبويـة، وحملـة الهـدي المحمـدي في أقـوالهم وأعمـالهم)، دون أن تـذكر غيرهم ممن مثل الإسلام بسلوكه وعلمه من الخلف.

4 ــ اختيـار أقـرب الأسـاليب في التعليم الـديني في المسـاجد، وذلك بالتركيز على المعنى والنفوذ إلى صميمه من أقـرب طريـق يؤدي إليه، وتجليته للسامعين بالصور العملية التطبيقية، والإعراض عن اللفظيـات والخلافـات وكـل مـا يشـوش أو يبعـد عن تصـور المعنى المقصود.

5 ـ الاهتمام في التعليم المكتـبي باللغـة العربيـة، وذلـك بتلقين التلامـذة أبسـط القواعـد في أسـهل الـتراكيب، ثم تمكينهـا من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية، والحرص على اشـرابهم معـنى مـا يقرأون والاجتهاد في تربية ملكة الـذوق والاسـتنتاج في نفوسـهم، وفي إصـلاح اللهجـات الـتي حرفتهـا العاميـة عن سـبيلها العـربي وتقويم اللسان على الحروف وهيأتهـا ومخارجهـا، والتشـجيع على التكلم أمام الناس بمـا يمليـه الخـاطر من غـير اعتمـاد على وحي معلم أو كتاب.

6 ــ الاهتمـام بـالتعليم القـرآني، وذلـك بتبـيين حقائقـه للنـاس، ونشر فضائله بينهم، وتحبيبـه إلى نفوسـهم، وشـرح مزايـاه فيهم، وجعلـه أساسًـا في التـذكير والوعـظ لتنشـئ من أبنـاء الأمـة جيلًا قرآنيًا يتقن حفظ القرآن وأداءه، ويحسن فهمه والعمل به ويتخلق بأخلاقه ويتربى على هديه، ثم ينشـر بواسـطته دين اللـه في أرض الله.

7 ـ الاهتمام بالتربية الخلقية، وذلك باعتماد أسـلوب الخطابيـات المـؤثرة في العقـول، الحـافزة للنفـوس، المنبهـة للمشـاعر على طريقة الترغيب والترهيب.

8 ــ إصـلاح الكتب المقـررة، وذلـك باعتمـاد الكتب الصـحيحة

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 191)

الموثوقة كأمهات كتب التفسير الموثوق بها، وكتب الحديث الصحيحة.

9 ـ بث الاهتمام بالبحث والمطالعة في نفوس الناشئة، وذلك عن طريق الترغيب في المطالعة النافعة، والبحث العلمي السديد، وتعليمهم كيفية المطالعة وطرائق البحث في التاريخ والاجتماع والأدب، والرجال والكتب.

3 ـ التعليم العالي:

لم تكتف الجمعية بالاهتمام بالتعليم الابتدائي ونحوه في المساجد والكتاتيب، بل راحت تبحث في تأسيس معاهد ومدارس عليا لتخريج الإطارات التي تساهم في نشر الإصلاح.

ولعلها استلهمت هذه الفكرة كما ذكرنا سابقا من المدرسة الشرعية التي أسسها محمد رشيد رضا، والتي أراد منها أن تنشر الدعاة في العالم الإسلامي.

ولهذا الغرض أنشأت الجمعيّة دار الحديث بتلمسان، والتي أريد لها أن تكون مدرسة عليا تضاهي مدارس الإسلام التاريخية، وقد قال البشير الإبراهيمي في حفل افتتاحها: (لقد حملني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب علي أن أبلغها إليكم وهي أنهم يسلّمون عليكم ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشّرونكم بأنهم شيّدوا للإسلام والعربية معهدًا لم يكن له نظير في تاريخ الجزائر الحديث، كما أنهم يتشوّقون ويتشرّفون أن يكون فتح هذا المعهد لأوّل مرّة بيد علامة الجزائر وزعيم نهضتها الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وهذا المعهد هو مدرسة (دار الحديث)، المسمّاة على دار الحديث الأشرفية التي أسّست منذ قرون في دمشق الشام، تلك المدرسة التاريخية التي تخرّج منها أئمة في العلم وفحول في الأدب، والتي كان من مدرّسيها الإمام الحافظ محي الدين النووي والإمام النظار تقي الدين السبكي)[1]

وأنشأت الجمعية لهذا الغرض كذلك معهد ابن باديس بقسنطينة، وقد دعا إلى تأسيسه الشيخ الإبراهيمي بعد أن أهمه مصيرُ التلاميذ الذين أنهوا مرحلة التعليم الابتدائي بمدارس

[1] انظر: الشهاب، السنة 13، العدد 8، أكتوبر 1937: من افتتاحية (الشهاب) المخصصة للمؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء، عنوانها (في عيد النهضة الجزائرية الحديثة) بقلم فرحات الدراجي، وانظر: آثار الإبراهيمي: 1/306.

الجمعية، ففكر في تأسيس معهد يكون عنوان مرحلـة جديـدة في جهاد الشعب الجزائري الحضـاري، يسـتكمل فيهـا أولئـك التلاميـذ دراستهم.

وقد سعى لربطه بجـامع الزيتونـة، وذلـك لإيجـاد علاقـة ثقافيـة علمية بين المؤسسات العلمية العربية، كما حصل ذلك من إنشــاء الأزهر فرعًا له في لبنـان، وإنشـاء جامعـة القـاهرة فرعًـا لهـا في السودان.

والغـرض الثـاني لهـذا هـو تمكين حـاملي شـهادة المعهـد من الالتحاق بالمؤسسات التعليمية العليا في المشرق العـربي، زذلـك لأنـه كـان ينـوي توجيـه النوابـغ إلى اسـتكمال دراسـتهم في جهـة أخرى غير الزيتونة [1].

وقــد كــان الإبــراهيمي يــولي المعهــد عنايــة خاصــة، ويــزوره باســتمرار، ويســهر على حســن ســيره، ويــذلل مــا يعترضــه من عقبـات، ويـوفر لـه الإمكانـات، ويختـار لـه الكفـاءات، ويكـثر عنـه الكتابات، ولم يكتف بجهـوده الخاصـة؟ فأسـس لـه حركـة سـماها (حماة المعهد)[2]

المطلب الثــالث: الإصــلاح الاجتمــاعي عنــد جمعيــة العلماء

كسـائر الحركـات السـلفية، اعتـبرت جمعيـة العلمـاء الإصـلاح الاجتماعي ركنا من أركان العملية الإصلاحية التي نهضت لها، وقــد عبر الشـيخ الإبـراهيمي في خطبـة مهمـة لـه ألقاهـا في الاجتمـاع العام الخامس لجمعية العلماء المسـلمين الجزائـريين الـذي عُقـد بنادي الترفي بعاصمة الجزائـر في سـبتمبر 1936، وكـان عنوانهـا (الإصلاح الدّيني لا يتمّ إلا بالإصلاح الاجتماعي)[3] عن هـذه المعـاني

[1] انظر مقال (معهد عبد الحميد بن باديس: ما له وما عليه) الذي نشر بالبصائر، العدد 44، السنة الأولى من السلسـلة الثانيـة، 21 جـوان 1948م، وانظـر: آثـار الإمـام محمـد البشـير الإبراهيمي (2/ 214)

[2] العربي التبسي، مقـالات في الـدعوة إلى النهضـة الإسـلامية في الجزائر، جمـع: شـرفي أحمد الرفاعي قسنطينة، دار البعث 1981، ج1 ص:171.

[3] البصائر، السنة الأولى، العدد 37، الجمعة 16 رجب 1355هـ / 2 أكتوبر 1936م، وانظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 281)

وفلسفتها والممارسات العملية التي قامت بها الجمعية لأجل تحقيقها.

وبما أن هذه الخطبة تعرف – على الأقل – بالجانب الاجتماعي في المشروع الإصلاحي للجمعية، فسنجعلها مصدرنا الوحيد في هذا الجانب، أما ما حصل في الواقع العملي، وهل يتناسب مع ما ذكره الشيخ من نجاحات كبرى، فإن ذلك متروك للقراء، من خلال ما يدل عليه الواقع الجزائري قبل الاستقلال وبعده، ومتروك كذلك للباحثين، فالموضوع بحاجة إلى دراسات مستفيضة في بيان مدى ونوع تأثير الجمعية في المجتمع الجزائري بعيدا عن النظرة التقديسية.

بدأ الشيخ الإبراهيمي خطبته ببيان أهمية الجانب الاجتماعي لدى الجمعية، فقال: (أيها الإخوان: من الغلط أن يقال إن جمعية العلماء جمعية دينية يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني بمعناه الذي عرفه الناس، ومن فروع هذا الغلط ما رماها به بعض مرضى العقول وصرعى الجهل من أنها خرجت عن مدارها حين زجّت نفسها في بعض شؤون الحياة غير الدين.. والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني وللإصلاح الاجتماعي، وكل ذلك يسع الإسلام، وكل ذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها)[1]

ثم أخذ يبين المصادر الشرعية التي جعلت الجمعية تختار هذا المنهج، وهو علاقة الجانب الاجتماعي بالدين، (وأن الإسلام دين واجتماع..وأن الإصلاح الديني لا يتمّ إلا بالإصلاح الاجتماعي، ولهذا الارتباط بين القسمين، فإن جمعية العلماء- وهي الجمعية الرشيدة العالمة بحقائق الإسلام- عملت منذ تكوينها في الإصلاحين المتلازمين، وهي تعلم أن المسلم لا يكون مسلمًا حقيقيًا مستقيمًا في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته) [2]

ثم أخذ يسرد ما يتصوره من خصال المسلم الذي استقامت اجتماعيته، فاعتبره ذلك الذي (يحسن إدراكه للأشياء وفهمه

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 283)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 283)

لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظه منها وينضج عقله وتفكيره ويلم بزمانه وأهل زمانه ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية ما يتقاضونه منه من حقوق وواجبات، ويرى لنفسه من العزّة والقوّة ما يرونه لأنفسهم وتربط بينه وبينهم رابطة الأخوة والمساواة والمصلحة لا رابطة السيادة عليه والاستحسار دونه) [1]

انطلاقا من هذه التصورات النظرية أخذ الشيخ الإبراهيمي يعدد المكاسب التي استطاعت الجمعية أن تحققها في تلك الفترة الوجيزة، فترة 5 سنوات، ونستطيع أن نحصر هذه المكاسب – كما ذكرها الإبراهيمي- في النقاط التالية[2]:

1 ـــ نجاح الجمعية إلى حدّ بعيد في إفهام الأمة المعاني الاجتماعية الصحيحة، وتوجيهها إلى مجاراة السابقين، وتهيئتها لأن تكون أمّة عزيزة الجناب مرعية الحقوق ثابتة الكيان محفوظة الكرامة صالحة للحياة مساوية للاحياء.

2 ــ نجاحها في تحقيق العزة في أفراد المجتمع، بحيث أصبحوا لا يلينون لمن يريد استعبادهم، أيا كان ذلك المستعبد، وقد عبر عن غرض الجمعية من تحقيق هذا الهدف، موجه كلمته لمن ينكر على الجمعية اختيارها هذا السبيل: (يا ويح الجاهلين، أيريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل: لا إله إلا الله مذعنًا طائعًا وصلّ لربّك أواهًا خاشعًا، وصم له مبتهلًا ضارعًا، وحج بيت الله أوّابًا راجعًا، ثم كن ما شئت نهبة للناهب، وغنيمة للغاصب، ومطية ذلولًا للراكب، ان كان هذا ما يريدون فلا ولا قرة عين، وإنما نقول للمسلم إذا فصلنا: كن رجلًا عزيزًا قويًا عالمًا هاديًا محسنًا كسوبًا معطيًا من نفسك آخذًا لها عارفًا بالحياة سبّاقًا في ميادينها، صادقًا صابرًا هيّنًا إذا أريد منك الخير، صلبًا إذا أردت على الشر.. ونقول له إذا أجملنا: كن مسلمًا كما يريد منك القرآن وكفى) [3]

ونحسب أن الذين وجه إليهم الإبراهيمي هذا العتاب هم من

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

[3]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

أنكر على الجمعية منهجها في مواجهة الطرق الصوفية وعدم اهتمامها الكبير بإقامة المجتمع لشعائره التعبدية.

3 ـ نجاحها في تصحيح عقائد المجتمع، وقد ذكر الإبراهيمي النسبة الكبيرة من النجاح التي حققتها الجمعية في هذا الجانب، فقال: (ونجحت الجمعية- كذلك- نجاحًا جليًا مشهودًا ظهرت آثاره للعيان وَلَمَسَهُ الموافق والمخالف والمعتدل والمتجانف، في تصحيح عقائد الأمّة الجزائرية وتطهيرها من شوائب الشرك القولي والعملي التي شابتها، فصحّت العقائد وصحّت لصحّتها الإرادات والعزائم)[1]

وذكر نماذج عن هذا النجاح، وهي نفس النماذج التي يذكر الوهابيون عندما يسردون كرامات النجاح العجيبة التي حققها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقال: (أصبح المنتسبون إلى الإصلاح ولو من العامة يخلصون لله في عباداتهم وإيمانهم ونذورهم وأدعيتهم، ونبذوا كل ما كانوا عليه من عقد فاسد أو قول مُفْتَرى أو عمل مبتدع في هذه الأبواب كلها، وأصبحوا يفرقون بين السنّة والبدعة والمشروع وغير المشروع ويعتقدون أن الإنسان مجزي بعمله رهين بكسبه، وليست هذه النتيجة بالأمر اليسير) [2]

ثم بين الوسائل التي استطاعت بواسطة الجمعية تحقيق هذا النجاح، فقال: (الحق أن هذه الآثار الجليلة كلها راجعة إلى المقالات التي نشرتها صحف الإصلاح والدروس والمحاضرات التي ما زال يلقيها دعاة الإصلاح المنتشرون في القطر. ولما كان الحق بينًا في نفسه سهل على الداعين إليه بيانه والاستدلال عليه ونقض الشبهات القائمة حوله وإن اختلفت مراتب المدعوين في سرعة التلقّي بالقبول) [3]

4 ـ نجاحها في توجيه الأمة إلى القرآن الكريم، وحملها على التدبّر في معانيه بعد أن كانت معرضة (مشغولة عنه بما لا يفيد،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

معتقـدة فيـه العقائـد السـخيفة مسـتغنية عن فهمـه بحفظـه مـع تقصــيرها في أداء لفظـــه، مستعيضـــة عن تلاوتـــه بتلاوة الأوراد والأذكار، وعن دراسـته بدراسـة كتب جافّـة من وضـع المخلـوق لا تبعث في النفس نشاطًا ولا تنشر في القلوب حياة ولا تغـرس في الأفئـدة فضـيلة، ولا تقتلـع منهـا رذيلـة، ولا تشـرف على القلـوب المظلمة بنور، ولكنها بدأت اليوم ترجع إلى القرآن وتستجلي أنوار الهداية وأسرار الكائنات من آياته، وتأخذ الحياة قوية من تعاليمــه، وكأنهـا برجوعهـا إلى القـرآن تجـدد نفسـها وتسـتأنف في الحيـاة تاريخهـا، وعسـى أن تنتهي من هـذه الوجهـة الجديـدة إلى غايتهـا، فتنتهي إلى السعادة والخير) [1]

5 ــ نجاحها في توحيد المجتمع وجمع طوائف عظيمة منــه على الحق (بعد أن كـانت كلهـا متفرقـة على الباطـل، واسـتطاعت أن تعلمهم معنى الاجتمـاع على الحـق والخـير وكيفيـة الاجتمـاع على الحـــق والخـــير، وتحبّب إلى نفوســـهم كلمـــة الاجتمـــاع وحضـــور المجتمعات بعد أن كانت لا تجتمع إلا على شر أو مأثم..) [2]

6 – نجاحهـا في غـرس الأخلاق الفاضـلية في (نفـوس الأمـة الجزائرية، فجمعية العلمـاء هي الـتي علمت الأمّـة خلـق التضـحية في الصالح العام، وخلق الصبر عليه ومطاولتـه وخلـق القصـد في الاعتقاد والتفكير وخلق الاعتماد على النفس، وخلق الصـراحة في القول والجرأة في الرأي والكلام إلى مـا يتصـل بهـذه الأخلاق من فروع ولوازم) [3]

المطلب الرابع: الإصلاح السياسي عند جمعية العلماء

مــع أن القـــانون الأساســـي للجمعيـــة ينص على ابتعادهـــا عن السياسة إلا أن ذلـك لم يكن إلا لتمريـر الجمعيـة أمـام السـلطات الفرنسـية، أمـا الحقيقـة الواقعـة فهي أن من أهـداف الجمعيـة الكـبرى تحقيـق مشـاريع ومكاسـب سياسـية مثلمـا حققتهـا في الجوانب الدينية والتربوية والاجتماعية.

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 284)

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 286)

[3]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 286)

وهي تنطلق في هذا من الدين نفسه، وقد عبر ذلك الإبراهيمي، فقـال: (إذا كـان الإسـلام دينًـا وسياسـة، فجمعيـة العلمـاء دينيـة سياسية، قضية مقنعة لا تحتاج إلى سؤال ولا إلى جواب، وجمعيـة العلماء ترى أن العالم الديني إذا لم يكن عالمًا بالسياسة ولا عاملًا لهـا فليس بعـالم، وإذا تخلّى العـالم الـديني عن السياسـة فمن ذا يصـرفها ويـديرها؟ لا شـك أنّـه يتولاهـا الجاهـل المتحلـل فيغـرق السفينة ويشـقي الأمـة، وكثـيرًا مـا غلطنـا الاسـتعمار حين يضـيق ذرعًا بنا، فيقول أنتم علماء دين فما لكم وللسياسة؟ إن الدين في الإسـلام سياسـة، وإن السياسـة دين، فهمـا- في اعتبـاره- شـيئان متلازمان، أو هما شيء واحـد، وقـد جـاراه في النغمـة الممجوجـة بعض ضـعفاء الأمـيين من سماسـرة السياسـة منّـا، والغرضـان متقاريان: فالاسـتعمار يريـد أن يزيحنـا عن طريقـه فـيزيح خصـمًا عنيـدًا يمنعـه العلم أن يخـدع ويمنعـه الـدين أن يسـاوم في حـق قومه، وضعفاء الإيمان من قومنا يريدون أن يخلو لهم الجو فيعبثوا ما شاء لهم العبث ولا علم يصدع ولا دين يردع)[1]

ثم بين أن هذا الذي ذكـره قـد دفـع الجمعيـة إلى دخـول جميـع المجالات السياسـية، فقـال: (لجمعيـة العلمـاء في كـل نقطـة من السياسة الجزائرية رأي أصيل، تجهـر بـه وتـدافع عنـه وتذيعـه في الناس وتخـالف رأي غيرهـا بـدليل، وتوافقـه بـدليل، لأنهـا لا تقبـل التقليد في الدين وكيف تقبله في الدنيا؟)[2]

ثم بين القبلـة الـتي تتوجـه إليهـا جميـع المواقــف السياسـية للجمعيـة، فقـال: (وصـفوة رأي الجمعيـة في السياسـة الجزائريـة تحريـر الجزائـر على أسـاس العروبـة الكاملـة والإسـلام الصـحيح والعلم الحي، وعلى ذلك فهذه الجهود الجبّارة التي تبـذلها جمعيـة العلمــاء في ســبيل العربيــة والإســلام والتعليم كلهــا اســتعداد للاستقلال، وتقريب لأجله، ولكن كثيرًا من قومنـا لا يفقهـون، أو لا يريدون أن يفهموا، ولو أرادوا أن يفهموا لحكموا المحسوس الذي لا يرتابون فيه، وهـو أن جمعيـة العلمـاء حـرّرت العقـول وصـقلت

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 171)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 171)

الأفكار وأيقظت المشاعر. والنتيجة الطبيعية لذلك كله هي تحرير الأبدان، لأن الأول مدرجة إلى الثاني) [1]

ومثل هذا الموقف نجده عند ابن باديس الذي اعتبر أن بوصلة الجمعية متوجهة لخدمة مصالح الهوية الجزائرية، فمن كان في خدمة هذه المصالح كانت الجمعية معه، ومن كان على خلافه كانت على خلافه، يقول عند بيان موقف الجمعية من الأحزاب: (إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة فليس للجمعية إذاً من نسبة إلا إلى الإسلام، وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر، والبلوغ بها - إن شاء الله- إلى أرقى درجات الكمال.. وإلى هذا فنحن نشكر ونعترف بالجميل لكل من يؤيدنا في سيرنا نصرة للمظلوم ومقاومة وخدمة للإنسانية في جميع أجناسها)[2]

وبناء على هذا القانون الذي التزمته الجمعية نبه ابن باديس إلى أن (الجمعية لا توالي حزباً من الأحزاب ولا تعادي حزباً منها، وإنما تنصر الحق والعدل والخير من أي ناحية كان وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى. محتفظة في ذلك كله بشخصيتها ومبادئها محترسة في جميع مواقفها مقدرة للظروف والأحوال بمقاديرها) [3]

وذكر موقفها من المؤتمر الإسلامي، وأنها (أوكلته لمن شاء من رجالها ليحافظ فيه على اللغة والقومية والمطالب الدينية والعلمية، يعمل فيه على مسئوليته لا على مسئوليتها)[4]

أما مواقف مع خصومها السياسيين، فقد ذكر ابن باديس أن

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 171)

[2] آثار ابن باديس (3/ 550)

[3] آثار ابن باديس (3/ 550)

[4] آثار ابن باديس (3/ 550)

(الأمة اليوم تجتاز طوراً من أشق أطوارها وأخطرها فهي تتناسى كل خصومة وتعمل لجمع الكلمة وتوحيد الوجهة ولا تنبذ إلا أولئك الرؤوس رؤوس الباطل) (1)

بعد التعرف على الناحية النظرية في المشروع الإصلاحي للجمعية نحب أن نذكر أنها مارست في الواقع بعض النشاطات السياسية – كما عرفنا ذلك في الفصل الثاني- ومن الأمثلة على هذه النشاطات مشاركتها في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، والذي سبق أن ذكرناه بتفصيل، وذكرنا الانتقادات الموجهة للجمعية بسببه.

بالإضافات إلى نشاطات كثيرة لا يسمح هذا المقام بذكرها، ولكنا مع ذلك نذكر نموذجين مهمين، ربما تكون قد نجحت الجمعية في تحقيقهما بمعونة الكثير من الحريصين على الهوية الجزائرية، بمن فيهم الطرق الصوفية، وهما قضية التجنيس، وقضية الإدماج.

الموقف من التجنيس:

أما **التجنيس**، والذي أصدرت فرنسا قانونه في 14 جوان 1865، وكان من واضعيه والمخططين له الوالي العام **(**موريس فيوليت)، والذي سمحت بموجبه فرنسا للجزائريين الراغبين في الحصول على الجنسية الفرنسية، وكانت فرنسا تدعو بكل الأساليب له، وتدعو معه إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية ونبذ التعصب الديني.

وقد رأت الجمعية خطورة هذا الطرح على الهوية الجزائرية، فلذلك انصبت جهودها على مواجهة التجنيس، ونشر الفتاوى المحرمة له.

بل إن مواجهتها له سبقت تأسيسها، ولعل أشد أعضاء الجمعية لهجة في مواجهة التجنيس رائد الصحافة الإصلاحية أبو اليقظان الذي كتب – قبل تأسيس الجمعية – بجريدة (وادي ميزاب) مقالا تحت عنوان (رأينا في التجنيس) يقول فيه: (كنا نرى أن الكلام في مسألة التجنيس، وبأن فسادها وتطورها من الجهة الدينية والمالية والوطنية، كالكلام عن ظلال الليل ومرارة الحنظل وسم

---

(1) آثار ابن باديس (3/ 550)

العقـرب وفرقعـة الـديناميت.. التجـنيس بـالمعنى الـذي عرفـوه، الاعـتراف بفسـاد الشـريعة الإسـلامية، وعـدم الالـتزام بأحكامهـا والاعتراف بصلاحية التشريع الفرنسي الوضعي، والالتزام بأحكامه وبعمله هذا فقد جني على نفسه وعلى ذريته من بعده) [1]

ومن الفتاوى المهمة في هذا الباب، والتي كـان لهـا تأثيرهـا في المجتمع الجزائري فتوى الشـيخ الطيب العقـبي الـذي كتب مقـالا في جريدة (البصـائر) تحت عنـوان (كلمـتي الصـريحة في التجنس والمتجنسين)، ومما جاء فيه قوله: (التجنس بمعناه المعـروف في شــمال إفريقيــا حــرام، والإقــدام عليــه غــير جــائز وجــه من الوجـوه ،ومن اسـتحل اسـتبدال حكم واحـد من أوضـاع البشـر، وقوانينهم بحكم من غير أحكام الشرع الإسلامي، فهو كـافر مـترد عن دينه بإجماع المسلمين، لا يرجع إلى دائـرة الإسـلام، وحظـيرة الشرع الشريف، حتى يـرفض رفضـا باتـا كـل حكم وكـل شـريعة تحالف حكم الله وشرعه المستبين) [2]

ومن ذلك فتوى الشيخ ابن باديس، والـتي اعتـبر فيهـا المتجنس بالجنسية الفرنسية مرتدا، قال: (التجنيس بجنسـية غـير إسـلامية يقتضي رفض احكام الشـريعة الإسـلامية ومن رفض حكمـا واحـدا من احكام الشـريعة الإسـلامية عـد مرتـدا عن الإسـلام بالإجمـاع، فالمتجنس مرتد بالإجماع) [3]

ويقول: (المتجنس بحكم القانون الفرنسي يجـري تجنسـه على نسـله فيكـون قـد جـنى عليهم بـإخراجهم من حظـيرة الإسـلام، لا وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه وإثمها متجدد عليه ما بقي لــه نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنايته) [4]

ومثل هذا نجده في مقال للشـيخ الأمين العمـودي تحت عنـوان (التجنس والتفرنج) جاء فيه: (إن المسألة لأهميتها الكـبرى ليسـت

---

[1]) وادي ميزاب : العدد 70 بتاريخ 27 / 02 / 1928 م

[2]) البصائر : العدد 77، بتارخ 30/ 07 / 1937 م.

[3]) محمد الطاهر فضلاء : دعـائم النهضـة الوطنيـة الجزائريـة، دار البعث للطباعـة والنشـر، قسنطينة، الجزائر، دت، ص160.

[4]) البصائر : ع 95، بتاريخ 14 / 01 / 1938 م..

من المسائل التي يرجع النظر والحكم فيها لفرد واحد أو لقليل من الأفراد، بل من الأمور التي يجب على جمهور الأمة تدقيق النظر فيها وإناطة الحكم فيها بعهدة عدد وافر من أصحاب العلوم الدينية والعقول المستنيرة والأفكار الراقية والكفاءة التامة...هؤلاء يقتصرون على الحكم في تجنس الأفراد وهذا النوع لا يعم بالخير العاجل ولا الأجل على الأمة، بل يجب عليهم أن يبحثوا في التجنيس ولباقته وحليته وحرمته ومنافعه أو مضاره من حيث تعميمه وتطبيقه على كافة الشعب) [1]

وبفضل هذه الفتاوى وغيرها استطاعت الجمعية أن تحمي الجزائريين من آثار التجنيس، بحيث بقي محصورا في فئة محدودة جدا من المثقفين المتفرنسين، وإذا ما قورنت بجهود الحكومة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية التي بذلت جهدا كبيرا في هذا المجال، فإننا يمكن أن نعتبر هذا نصرا سياسيا للجمعية[2].

الموقف من الإدماج:

ومثل هذا الموقف الصلب أمام التجنيس نجده أمام قضية الإدماج، والتي أثارتها جماعة النخبة الجزائرية المثقفة بالثقافة الفرنسية، والتي رأت أنه لا سبيل للجزائريين للتخلص من السياسة الاستعمارية وقانون الأهالي سوى الاندماج بفرنسا مع الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية العربية، وكان على رأس هؤلاء الدكتور ابن جلول وفرحات عباس وأغلب النواب.

إلا أن علماء الجمعية واجهوا هذه الأفكار الخطيرة، واعتبروها من المخططات الاستعمارية التي تريد أن تشتت المجتمع الجزائري بذوبانه في الكيان الاستعماري.

وقد جعلهم هذا الموقف يقفون في وجه الإدماجيين بكل قوة، ومن الأمثلة على ذلك ردهم على موقف فرحات عباس الذي أنكر وجود جزائر مستقلة، بل أكثر من ذلك راح يقول: (أنا فرنسا)، وقد رد عليه الشيخ ابن باديس في مجلة الشهاب (عدد أفريل 1936م) تحت عنوان: (كلمة صريحة) ابتدأ فيه بالإنكار على من

---

[1]) الاصلاح ،العدد 06، بتاريخ 24 / 09 / 1929 م.

[2]) بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين وعلاقاتها، ص 134.

يتكلمون باسم الأمة دون أن يكون لهم تمثيل حقيقي في وسطها، ومصـرا على مجابهـة أصـحاب هـذه التوجهـات ليشـير بعـدها إلى دعوى فرحات التي رد عليها مؤكدا أصالة الأمة الجزائرية الـتي لم تكن في حاجة إلى الاندماج في فرنسا لتثبت وجودها وقد جاء في هذا المقال كلمته المشهورة التي أصبحت شعارا للجزائـريين: (إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ،ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولــو أرادت) [1]

ومع هذه الصلابة التي أبدتها الجمعية في وجه من يحاول العبث بالهوية الوطنية، إلا أنها لم تؤسـس حركـة سياسـة على غـرار مـا فعله الأمير خالد، ولعلها أرادت من خلال ذلك أن تتفـادى الأخطـاء التي وقع فيها من قاموا بالعمل السياسي المباشر الـذي يمكن أن يعطي للإدارة الفرنسـية الحجج للقمـع والحظـر، وهـو مـا يضـر بالمشاريع الإصلاحية الأخرى.

ولذلك نرى الجمعيـة تسـتعمل مرونـة كبـيرة، ولغـة دبلوماسـية قوية لتحقيق مطالبها السياسية حتى لا تصطدم بالمستعمر، كهذه اللغة التي استعملها الإبراهيمي عندما قال: (يـا حضـرة الاسـتعمار إن جمعية العلمـاء تعمـل للإسـلام بإصـلاح عقائـده وتفهم حقائقـه وإحياء آدابه وتاريخه وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافـه إلى أهلهـا وتطالبـك باسـتقلال قضـائه.. وتطالبـك بحريـة التعليم العـربي... وتعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الدين والدنيا...)[2]

وقد ذكر خير الدين عن ابن باديس ما يشير إلى هذا، فقـد ذكـر أنه في إحدى لقاءات الشـيخ بالشـباب المتحمس للثـورة، والـذين طلبوا منه المطالبة بالاستقلال علنا، فكان جـواب الشـيخ بحكمـة، حين وضح لهم أن هدف الجمعية لا يتم بهـذه الصـورة قـائلا: (هـل رأيتم إنسانا يشـيد سـقفا دون أن يقيم الجـدران؟)، فقـالوا: كلا لا يمكن ذلــك، فقــال: (إذا من أراد أن يبــني داره فعليــه أن يبــني الأسس، ويقيم الجدران ومن أراد أن يبـني شـعبا ويقيم أمـة فإنـه يبدأ من الأسس لا من السقف)

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 309)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 62)

وقـدم لهم الشـيخ أروع مثـل لهـذا، وهـو هـو الاقتـداء بسـيرة الرسول ﷺ الذي بلغ الرسالة في ثلاث عشر سـنة، فبعـد الـدعوة سرا إلى أن اشتد ساعدهم أعلنوها جهرا.

انطلاقا من هـذا بين لهم أنـه لا يكفي طلب الاسـتقلال، فيصـبح الشعب مستقلا، بل وضح لهم أن منهج الجمعية يتم وفق الأسـس التالية:

1 ـ التربية والتعليم اللـذان بهمـا تصـبح الأمـة جـديرة على نيـل حريتها، لأن الاستقلال كما قال لا يتـوجب بـالكلام والشـعارات بـل يفتك فتكا.

2 ـ إعداد المجاهدين ليصبحوا على استعداد للجهاد، بعدها يتجـه لتحقيق الاستقلال[1].

وبناء على هذا، وبسبب الظروف القاسـية الـتي كـانت تمـر بهـا الجزائر لم يكن أعضاء الجمعية يتهورون في التصريح بمشـروعهم السياسي الكبير، بل كانوا يلامسونه كل حين ملامسة خفيفة تؤدي الغرض من غير أن تسبب في أي أذى.

---

[1]) خير الدين، المذكرات، ص 348-349.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ـــ يتفــق معظم الدارســين لجمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائريين على تصنيفها ضمن (الحركات السلفية) التي كانت في ذلـك الحين في أوج نشـاطها، وهـذا التصـنيف ليس قاصـرا على الدراسات الحديثة، بل كل من تحدث عن الجمعية في ذلك الوقت كان يعتـبر توجههـا توجهـا سـلفيا محضـا لا يختلـف عن التوجهـات السلفية في ذلك الحين.

2 ــ مع ورود التصريحات الكثيرة من أعضاء الجمعية تنص على توجههـا السـلفي، بـل وتفتخـر بهـذا التوجـه، وتـدعو إليـه، وتعتـبر الدعوة إليه من صميم أهداف الجمعية الذي أسست لأجله إلا أنهـا لا يمكن من خلالها وحدها أن نتعرف على التوجه الفكري لجمعيــة العلماء المسـلمين، وذلـك لأن أن اسـم السـلفية تتنازعـه تيـارات مختلفة، بل أحيانا متناقضة، بالإضافة إلى هـذا، فقـد ظهـرت على الساحة الإسلامية الكثير من المنـاهج، والـتي تعتـبر نفسـها جميعـا مناهج سلفية على الرغم من التناقضات الكثيرة بينها.

3 ــ أن هناك خلافا شديدا بين الكتـاب المعاصـرين حـول مـدى سـلفية الجمعيـة أو أعضـائها، فبينمـا نجـد بعضـها يحـاول أن يثبت (ســلفية ابن بــاديس) مثلا، نجــد في المقابــل من يكتب الكتب والمقالات المطولـة الـتي لا تمنحـه هـذه النسـبة، ونفس الشـيء يقال عن سائر أعضاء جمعية العلماء إلا من ندر منهم.

4 ــ من خلال أدلة كثيرة رأينا أنه يمكن تحديـد التوجـه الفكـري لأعضاء جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائـريين ضـمن صـنفين من التوجهات كلاهما يطلق عليه - اصطلاحا- (سلفية)، وهما (السـلفية التنويريــة)، و(الســلفية المحافظــة)، فبعض أعضــاء الجمعيــة، وخصوصا ابن بـاديس كـان أميـل إلى السـلفية التنويريـة منـه إلى السلفية المحافظـة، وفي المقابـل نجـد الطيب العقـبي أكـثر ميلا إلى السلفية المحافظة منه إلى السلفية التنويرية.

5 ــ يمكننا - بشيء من التحفظ - أن نذكر بأن جمعية العلمـاء - وخصوصا في موقفها من الطرق الصوفية - حـاولت أن تمـزج بين كلتا السلفيتين، فهي ترد على التخلف الطرقي والخرافة الطرقية باعتبارها سلفية تنويرية، وترد على تفاصيل الممارسـات الطرقيـة بالأدلة التي تراها باعتبارها سلفية محافظـة، ولهـذا نراهـا تسـتعير من رسائل الوهابية وكتبها ما تدعم به مقولاتها.

6 ـ كشأن جميع الحركات الإسلامية، والسلفية منها خصوصا، فإن الإصلاح الديني هو المنطلق الذي تنطلق منه العملية الإصلاحية جملة وتفصيلا، وذلك لاعتقاد المصلحين في هذه التيارات أن الانحراف الديني أو الانحراف عن الدين كلاهما سبب لكل الانحرافات، فالانحراف الديني يعني إيجاد منظومات جديدة مبتدعة تلبس لباس الدين لتنحرف به عن مساره الصحيح، والانحراف عن الدين يعني إيجاد بدائل عن الدين قد تلبس لباس الهوى المجرد، وقد تلبس ألبسة أيديولوجية أخرى شبيهة بالدين.

7 ـ ربما يكون أنجح مشروع للجمعية، بدأت به، وكان أساس انطلاقتها الإصلاحية هو ما بذلته من جهود للإصلاح التربوي، فقد تأسست على أساس أنها جمعية تعليميّة تهذيبيّة، ولذلك فقد ألزمت نفسها - منذ إنشائها - بتعليم الجزائريِّين - صغارا وكبارا - ونشر العلم في جميع ربوع الوطن، وإعدادِ العلماء الذين يقومون بتوجيه الأمَّة في دينها ودنياها، وحفظ مقوِّماتها من لغة ودين وأدب.

8 ـ كسائر الحركات السلفية، اعتبرت جمعية العلماء الإصلاح الاجتماعي ركنا من أركان العملية الإصلاحية التي نهضت لها، ونجاحها في هذا أو عدمه متروك للباحثين، فالموضوع بحاجة إلى دراسات مستفيضة في بيان مدى ونوع تأثير الجمعية في المجتمع الجزائري بعيدا عن النظرة التقديسية.

9 ـ مع أن القانون الأساسي للجمعية ينص على ابتعادها عن السياسة إلا أن ذلك لم يكن إلا لتمرير الجمعية أمام السلطات الفرنسية، أما الحقيقة الواقعة فهي أن من أهداف الجمعية الكبرى تحقيق مشاريع ومكاسب سياسية مثلما حققتها في الجوانب الدينية والتربوية والاجتماعية.

10 ـ مارست الجمعية في الواقع بعض النشاطات السياسية ، ومن ذلك مشاركتها في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، والذي سبق أن ذكرناه بتفصيل، وذكرنا الانتقادات الموجهة للجمعية بسببه، بالإضافات إلى نشاطات كثيرة من أهمها مواجهتها للتجنيس والإدماج.

الفصل الثاني
الاتجاه الفكري للطرق الصوفية ومشروعها الإصلاحي

إن المقارنة العلمية المنهجية بين كلا التيارين: الجمعية والطرق الصوفية، تقتضي منا أن لا نقصر نظرنا على بعض الظواهر السلوكية التي يمارسها بعض الصوفية أو كل الصوفية من غير أن نرجع إلى البحث عن المصادر الفكرية التي أنتجت تلك السلوكات.

وذلك لأنا رأينا أن الكثير من البحوث - مع كونها علمية أكاديمية - إلا أنها تنتقي بعض الظواهر، كالرقص الصوفي مثلا، أو بعض الحركات البهلوانية التي تقوم بها بعض الطرق الصوفية، لتنتج منها فيلما تسيمه (الطرق الصوفية)، من غير أن يكون في ذلك الفيلم أي حوار، لا مع الممثلين، ولا مع من يديرهم، لتعرف سر حركاتهم، أو لتتجاوز حركاتهم إلى المعاني التي يعيشونها أو الأفكار التي يحملونها.

وهذه النظرة – للأسف – هي التي حكمت على عقول المتنورين من أبناء الجمعية، وحجبتهم عن أن يعرفوا جلية ما يمارسه الصوفية، وما يريدون من خلال تلك الممارسات، فهم اكتفوا بما رأوا، وبما اشمأزت له نفوسهم، ولم يتركوا للطرف الآخر الفرصة ليحاورهم[1]، وليحدثهم عن فكره ومشاريعه.

ولا نخفي أن بعض تلك المظاهر سيئ للغاية، تشمئز له النفس، ويأنف منه العقل، ولكن هل يخضع الباحث لاشمئزازه، أم يجعله اشمئزازه يبحث عن الحقيقة.

وأول خطوة يخطوها الباحث عن الحقيقة هو البعد عن التعميم، فليست كل الطرق تمارس تلك الحركات التي تشمئز لها النفس، وليست كل حركة تشمئز لها النفس حركة ممقوتة، حتى أن من غير المسلمين من حجب عن الإسلام، لأن سجود

---

[1]) عرفنا فيما سبق رفض الجمعية للحوار مع الصوفية، وذلك من خلال رفضهم للصلح أو للمناظرة. وسنرى المزيد من الشواهد على هذا في المحال المناسبة.

المسلمين لم يعجبه، أو لأن ذبح المسلمين للحيوان اعتبره قسـوة لا تتناسب مع الدين.

ولهذا، فإن الباحث العلمي المحترم هـو من يتجـاوز نفسـه، بـل يتجـاوز عقلـه البسـيط، ليبحث عن جليـة الأمـر من أهلـه، لا من غـيرهم، وللأسـف نجـد البـاحثين يعرفـون الصـوفية ومنـاهجهم ومسالكهم من خلال كتب إحسان إلهي أو عبد الـرحمن دمشـقية، أو الوكيـــل، أو ابن تيمية، من غـــير أن يفكـــر في الرجـــوع إلى المصادر الأصلية التي يعتمدونها، مع أن تراث الطرق الصوفية في الجزائر خصوصا تراث ضخم، والتراث الذي كتب في عهد الجمعية لا يقل قيمة عن كل ما كتب في غيرها من بلاد العالم الإسلامي.

ولكنا للأسف نجد الباحثين يعرضـون عنهـا، ويتحججـون بحجج لا قيمة علمية لها، يأخذونها من خصـومها ليضـربوها بهـا، وأذكـر أني ذكرت لبعض الباحثين بعض المعاني السـامية الـتي ذكرهـا الشـيخ ابن عليوة في بعض كتبه، فضحك ساخرا، وقال: (ومتى كـان ذلـك الأمي كاتبا؟ لقد كان هناك من يكتب له، وكان هو في نفسه أميا)، وعندما سألته عن الكتب التي كتبت لهـذا الأمي، وشـهرت باسـمه لم يعرف منها أي كتاب مـع كونـه من البـاحثين المهتمين بجمعيـة العلماء، وعندما سألته عن أدلة هذا الموقف جاءني بصفحات ممـا قاله الزاهري والإبراهيمي والمدني وغيرهم..

وهذه للأسف عقبة كبـيرة من عقبـات البحث العلمي المنهجي، يعتمدها التيار السلفي عموما عنـدما يـترك المناقشـة في الفكـرة ليناقش في المفكر.

لقد قلت لصـاحبي ذاك: فلنفـرض أن الكتب كتبت لـه، وهـو لم يكتبهـا، وذلـك غيب لا يعلمـه إلا اللـه، ولكنهـا مـع ذلـك نسـبت لـه ولطائفتـــه، والمنطـــق العلمي يـــدعونا للبحث فيهـــا باعتبارهـــا تصريحات تدل على المواقف.

بناء على هذا التنبيه الذي رأينا ضرورته، نحاول في هذا الفصـل أن نتعـرف على التوجـه الفكـري والمشـروع الإصـلاحي للطـرق الصوفية، مثلما فعلنا ذلك مع الجمعية لتتيسر المقارنة.

وبناء على هذا قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: الاتجاه الفكري للطرق الصوفية

المبحث الأول: الاتجاه الفكري للطرق الصوفية

قد يتبادر إلى الذهن - بادئ الرأي - أنه ليس من الصعب التعرف على الاتجاه الفكري للطرق الصوفية، فالطرق الصوفية تنتسب إلى التصوف، وإذن فإن توجهها توجه صوفي.

وهذا يصح لو كان التصوف شيئا واحدا، أو كان الصوفية أصحاب مدرسة واحدة، والواقع التاريخي يقول خلاف ذلك، فالصوفية مثلهم مثل السلفية ليسوا شيئا واحدا، ولا مدرسة واحدة، بل هم مدارس متعددة، وأحيانا متناقضة، حالهم حال السلفية، وهذا من أسباب تعدد الطرق الصوفية، وكثرة الخلاف بين مدارس الصوفية في كثير من القضايا، وقد يصل الخلاف أحيانا إلى درجة التبديع والتضليل مثلما عرفنا في التوجه السلفي تماما.

وانقسام الصوفية إلى اتجاهات ومدارس هو الاعتقاد السائد عند أكثر الباحثين في التصوف سواء كانوا من المؤيدين له أو المنكرين عليه، وإن كان هناك من يرى الصوفية شيئا واحدا، ومنهم بعض أعضاء جمعية العلماء المسلمين، كما عرفنا ذلك سابقا عند عرضنا لآراء المتشددين.

ولكنا مع ذلك فإنا سنتعامل هنا مع الاعتقاد السائد بتقسيم الصوفية إلى مدارس متعددة، لنرى من خلال ذلك الاتجاه الذي ينتمي إليه صوفية الجزائر الذي تعاملت معهم جمعية العلماء.

ولعل أدق تقسيم قديم للصوفية من المعارضين لها، ومن الذين تبنت المدرسة السلفية منهجهم تقسيم ابن تيمية، فهو يقسم التصوف إلى قسمين كبيرين، ثم يقسم كل قسم منهما إلى ثلاثة أقسام، أما القسم الكبير الأول، فهو من جهة النظر إلى السلوك الصوفي العملي، وينقسم الصوفية فيه ــ بحسب نظر ابن تيمية ــ إلى ثلاثة أقسام، هي: **صوفية الحقائق**، و**صوفية الأرزاق، وصوفية الرسم**.

أما القسم الكبير الثاني، فهو من جهة النظر إلى معتقدات الصوفية النظرية، وينقسم الصوفية فيه إلى ثلاثة أقسام كذلك،

وهي: **السلفية، والأشعرية، والحلولية والاتحادية**(1).

هذا هو المنهج الذي اختاره ابن تيمية والكثير من أتباعه بما فيهم الكثير من أعضاء جمعية العلماء عند الحديث عن التصوف، بينما يرى أكثر الصوفية - المتأخرين منهم خصوصا - أن هذه التقسيمات اعتبارية لا حقيقية، أو كما عبر شاعرهم بقوله:

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِـدٌ وَكُلٌّ إلَى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشيـرُ

أو كما ينقل الشيخ ابن عليوة كل حين(2):

وكم بين حذّاق الجدال تنازع وما بين عشّاق الحبيب تنازع

أو كما عبر الشيخ أحمد زروق في (القاعدة 60)، والتي هي كأصول الفقه عند الصوفية، فقد قال تحت عنوان (تعدد وجوه الحسن، يقضي بتعدد الاستحسان): (تعدد وجوه الحسن، يقضي بتعدد الاستحسان، فمن ثم كان لكل فريق طريق: فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي، ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف رحاه ابن الحاج في مدخله، وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربي في سراجه، وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه، وللمتريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته، وللناسك تصوف حواه القوت والإحياء، وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه، وللطبائعي تصوف جاء به البوني في أسراره. وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه، فليعتبر كل بأصله من محله)(3)

وانطلاقا من هذين التقسيمين، وانطلاقا من صحبتي لبعض الطرق الصوفية، ومشايخها الكبار في الجزائر، وخاصة الشيخ عبد الباقي مفتاح، صاحب المؤلفات الكثيرة في التاريخ الصوفي في الجزائر، بالإضافة إلى كتبه في الفلسفة الصوفية، أرى أنه يمكن أن يقسم التصوف – بحسب وجوده في الواقع- إلى قسمين، أو

---

(1) انظر: : ابن تيمية، الصوفية والفقراء، دار المدني، القاهرة، ص24،25.

(2) ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص21.

(3) الشيخ أحمد زروق، قواعد التصوف، د.ط، ص36.

مدرستين قد تتـداخلان فيمـا بينهمـا، فيكـون الصـوفي الواحـد في القسمين جميعا، ثم إن لكل قسم أنواعه الخاصة به كذلك، وهذان القسمان هما:

التصـوف السـلوكي: وهـو التصـوف الـذي يهتم بالسـلوك والمجاهدات والأذكار ونحوها، ويمكن تقسيمه بحسب الممارسات السلوكية فيه إلى قسمين: قسم متفق على ممارساته السلوكية، وهو يدخل ضمن ما يسمى بالتصوف السـني، وقسـم مختلـف في ممارساته، وهـو الـذي يسـميه أعـداؤه (التصـوف البـدعي)، ونحن نـؤثر تسـميته بــ (التصـوف المختلـف فيـه)، باعتبـار أنـه يسـتدل لممارسـاته باجتهـادات فقهـاء ومحـدثين كبـار من القـدماء والمحدثين، ومثل هذا لا يستعجل فيرمى بالبدعة، وسنرى تفاصيل الخلافـات الـواردة في هـذا النـوع في الفصـل الخـاص بالسـلوك الصوفي.

التصـوف العرفـاني: وهـو الـذي يطلـق عليـه كـذلك لقب (التصوف الفلسفي)، وهو موجود في كل الطـرق الصـوفية، وهـو عـادة تصـوف النخبـة من المثقفين الصـوفيين، لأن فيـه جـوانب فلسـفية لا يطيقهـا العامـة، ولعـل أحسـن من يمثلـه في وقت الجمعيـة الشـيخ ابن عليـوة، كمـا سـنرى، وهـو في الواقـع أيضـا ينقسـم بحسـب المعـارف الـتي يهتم بهـا هـذا النـوع إلى أقسـام كثـيرة، تبـدأ من العرفـان الإلهي، وتنتهي إلى الاهتمـام بالسـحر والشعوذة.

انطلاقا من هذا التقسيم الذي رأيناه نحاول في هذا المبحث أن نبين العلاقة بين الطـرق الصـوفية الجزائريـة المعاصـرة للجمعيـة وبين كلتا المدرستين الكبيرتين، وقبل ذلك نحـاول أن نـبين الصـلة بين الطـرق الصـوفية والتصـوف، لأن هنـاك من يشـكك في هـذه الصلة.

وبناء على هذا قسمنا هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة التصوف وعلاقة الطرق الصوفية به

المطلب الثاني: التصوف السلوكي وعلاقة الطرق الصـوفية به

المطلب الثالث: التصوف العرفاني وعلاقة الطـرق الصـوفية

به

المطلب الأول: حقيقة التصوف وعلاقة الطرق الصوفية به

لقد حصل نوع من الجدل بين الجمعية والطرق الصوفية حول العلاقة بين التصوف والطرق الصوفية، فهناك من الجمعية من يرى الطرق الصوفية شيئا آخر غير التصوف، وهناك من يراهما شيئا واحدا، ويحمل عليهما حملة واحدة، ولهذا فقد آثرنا أن نبدأ الحديث عن التوجه الفكري للطرق الصوفية من خلال تعريف التصوف، وتعريف الطريقة، ثم بيان العلاقة بينهما.

أولا ــ حقيقة التصوف والطرق الصوفية:

لم يحظ مصطلح من المصطلحات بجدل فكري مثلما حظي مصطلح التصوف، حتى أننا نجد سريان هذا الجدل إلى تعريفه اللغوي واشتقاقه ومصدره، أما حقيقته فالجدل فيها لا ينتهي، ولهذا فإن المنهج العلمي يقتضي البحث عن الحدود الضابطة لهذا المصطلح حتى نخرج منه ما ليس منه.

لأن هناك في الواقع الجزائري من لا يفرق بين زوايا الطرق الصوفية التي تنشر الذكر وتربي المريدين عبر مناهج معينة، وبين زوايا المشعوذين والكهان وغيرهم، بحجة أن الجميع يسمي البناء الذي يمارس فيه وظيفته (زاوية)، حتى أن الأمر تعدى إلى الزوايا العلمية، فنسبت هي الأخرى إلى الشعوذة والخرافة بحجة أنها تسمى (زاوية)

ولهذا نحاول هنا أن نضع الحدود الجامعة في تصورنا للتصوف والطرق الصوفية، وذلك عبر بعض البحث في الجدل الذي حام حولها.

1 ــ حقيقة التصوف

لغة:

اختلف الباحثون في أصل كلمة (تصوف)، فمنهم من يذكر أنها مشتقة من (الصفة) أو (صفة المسجد) وهو مكان في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ، كان يجلس إليه المتعبدون والزهاد من فقراء المسلمين، ويرى آخرون أنها مشتقة من (الصف)، ويقصدون به الصف الأول، في إشارة إلى أن الصوفية هم الذين يجلسون في الصف الأول في المسجد أثناء الصلاة، ويرى آخرون أن التصوف نسبة إلى (صفوة) أو (بني صفوة) وهم قوم كانوا في الجاهلية

يخدمون الكعبة ويجهـزون الحجيج، ويقـول أبـو عبيـدة أنهم قبائـل اجتمعوا وتشبكوا كما يتشبك الصوف[1].

والصوفية يميلون إلى أنه مشتق من (الصـفاء) , ويـرددون مـع أبي الفتح البستي[2]:

تنـازع النـاس في الصـوفي واختلفـوا	وظنـه البعض مشـتقا من الصـوف
ولست أمنح هذا الاسـم غـير فـتى	صافي فصـوفي حـتى سـمى الصـوفي

والقول الأشهر والذي رجحه الكثـير، ويـدل عليـه البنـاء اللغـوي للكلمـة هـو اشـتقاقها من (الصـوف)، ويقـول ابن تيمية: (هـؤلاء- الصوفية- نسبوا إلى ظاهر اللبسة وهي لباس الصـوف، فقـد قيـل في احدهم صوفي وليس طريقهم مقيـدا بلبـاس الصـوف، ولا هم أوجبوا ذلـك ولا علقـوا الأمـر بـه ولكن أضـيفوا إليـه لكونـه ظـاهر الحال) [3]

وقد علل ذلك بقوله: (فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصـحاب عبـد الواحـد بن زيـد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكـان في البصـرة من المبالغـة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلـك مـا لم يكن في سـائر أهـل الأمصار؛ ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية)[4]

وكثير من الصوفية يقبلون هذه النسبة، فالسـهروردي الصـوفي ذكر صحة هذه النسبة، واستدل لهـا بأدلـة كثـيرة ليس هـذا محـل ذكرها[5].

---

1) إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف، مصر، 1969، ص09.

2) جبور عبد النور، التصوف عند العرب، بيروت، لبنان، سنة 1938م، ص78.

3) الصوفية والفقراء، ص15..

4) الصوفية والفقراء، ص15..

5) انظر : شهاب الدين أبو حفص بن محمد السهروردى، عـوارف المعـارف، تحقيـق د/عبـد الحليم محمود، مطبعة السعادة القاهرة 1971م ص45 - 49..

وهـذه الأقـوال جميعـا محـل نقـد إمـا بالاعتبـار اللغـوي لبنـاء الكلمة[1]، أو لاعتبار المعنى، فقد يصح البنـاء، ولكن لا يتوافـق مـع المعـنى، وقـد يصـح المعـنى ولا يسـاعد عليـه البنـاء، ولهـذا نجـد محققي الصوفية يرفضونها جميعا، يقول أبو القاسم القشيري في رسالته: (فأما قول من قال:إنه من الصـوف, ولهـذا يقـال:تصـوّف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص, فـذلك وجـه. ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. ومن قـال: إنهم منسـوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ, فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي. ومن قال: إنه مشتق من الصفاء, فاشتقاق الصوفي من الصـفاء بعيـد في مقتضـى اللغـة. ومن قـال:أنـه مشـتق من الصف, فكأنهم في الصـف الأول بقلـوبهم فـالمعنى صـحيح, ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف)[2]

بل إنه يصرح بأنـه (ليس يشـهد لهـذا الاسـم من حيث العربيـة، قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب)[3]

ومثلـه قـال الهجـويري: (واشـتقاق هـذا الاسـم لا يصـح على مقتضى اللغة، من أي معنى؛ لأن هـذا الاسـم أعظم من أن يكـون له جنس يشتق منه، وهم يشتقون الشيء من شيء مجـانس لـه، وكل ما هو كائن ضد الصـفاء، ولا يشـتق الشـيء من ضـده، وهـذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله، ولا يحتاج إلى العبارة)[4]

ولعـل هـذا مـا جعـل البعض يميـل إلى أن الكلمـة غـير عربيـة، ويـدلّل أصـحاب هـذا الـرأي على صـحته بانتشـاره في بغـداد ومـا حولها بعد حركة الترجمة النشطة في القرن الثاني الهجري، بينمـا

---

[1]) ذلك أنه إذا كانت النسبة إلى أهـل الصـفة فإنـه يقـال - لغـة- صُـفِّي، وأمـا إذا كـانت إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى فإنه يقال - لغة- صَفِّي، وأما إذا كـانت نسـبة إلى الصـفوة من خلق الله فإنه يقال - لغة- صَفوِيٌّ (انظر: الصوفية والفقراء لابن تيمية، ص 13 - 14)

[2]) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة 1974م، 2/550.

[3]) القشيري، الرسالة القشيرية،، 2/550-551.

[4]) الهجويري، كشف المحجوب، تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل، طبعة دار النهضـة العربيـة، بيروت 1980م، 1/230.

لم تعرف في نفس الفترة في جنوب وغرب العالم الإسلامي.

ويضاف إلى هذا التشابه في أصل الفكرة عند الصوفية واليونان، حيث أفكار وحدة الوجود والحلول والإشراق والفيض، كما استدلوا على قوة هذا الرأي بما ورد عن كبار الصوفية مثل السهروردي المقتول بقوله: (وأما أنوار السلوك في هذه الأزمنة القريبة فخميرة الفيثاغورثيين وقعت إلى أخي أخميم- ذي النون المصري- ومنه نزلت إلى سيار ستري وشيعته،أي سهل التستري) [1]

ونحب أنشير هنا إلى أن مبارك الميلي، وهو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين انتصر لهذا الرأي، وهو يدل على موقفه الشخصي من جهة، وموقف الجمعية من من التصوف من جهة أخرى، قال في (تاريخ الجزائر في القديم والحديث): (فإن التصوف معرب تيوصوفية (théosophie) يوناني مركب من تيوص بالمعنى الإله وصوفية بمعنى الحكمة... ودخلت لفظة التصوف اليونانية إلى العربية لما ترجمت كتب اليونانية والهند في الدور العباسي رسميا أيام المأمون... فأخذ من التصوف كل فريق حسب استعداده وصورة بما يلائم غايته، واختلفت قواعد (التصوف ونظمه باختلاف جنسية المتصوف وعصره ومصره وميله)[2]

اصطلاحا:

كما اختلفت مواقف الباحثين في الاشتقاق اللغوي لكلمة (التصوف)، فكذلك حصل الاختلاف في تعريفه اصطلاحا اختلافا شديدا، حتى أن بعض العلماء ذكر أن تعريفات التصوف قد تصل إلي الألف[3]، ولا بأس من إيراد بعض التعريفات هنا، ثم نستخلص

---

[1]) نقلا عن: الدكتور صالح الرقب، والدكتور محمود الشوبكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية، الجامعة الإسلامية- غزة، ط1، 1427هـ-2006م، ص8..

[2]) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 2/341.

[3]) انظر: أ. د حسن الشافعي، أ. د أبو اليزيد العجمي; التصوف الإسلامي، دار السلام للطباعة والشر، مصر، ط1،2007، ص 23.

بعدها ما نراه من تعريف جامع لما ذكروه:

عرفه الهجويري بقوله: (الصوفي هو الفاني عن نفسه، والباقي بـالحق، قـد تحـرر من قبضـة الطبـائع، واتصـل بحقيقـة الحقـائق، والمتصوف هو من يطلب هذه الدرجـة بالمجاهـدة، ويقـوم نفسـه في الطلب على معاملاتهم)[1]

وعرفه المحقق الصوفي الكبير محـيي الـدين بن عـربي شـعرا، فقال[2]:

فـاعلم أن التصـوف تشـبيه بخالقنا لأنه خلق فـانظر تـرى عجبا

ومثلـه عرفـه الكاشـاني في (اصـطلاحات الصـوفية)، فقـال: (التصوف: هو التخلق بالأخلاق الإلهية)[3]

وأما السهروردي، فقد أورد باباً خاصاً في كتابه المتداول بكـثرة لدى الصوفية (عوارف المعارف) سماه (الباب الخامس في ماهية التصـوف)، وقـد ذكـر فيـه أن أسـاس التصـوف هـو الفقـر، قـال: (فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو أساسـه وبـه قوامه)، ونقـل أقوالاً كثيرة عن صفة هذا الفقر الصوفي، منهـا: مـا قالـه الشـبلي حين سئل عن حقيقة الفقر فقال: (ألا يستغني بشيء دون الحق)، ونقل عن مظفر القرميسني أنه قـال: (الفقـير الـذي لا يكـون لـه إلي الله حاجة)[4]

بعد هذا فإنا نرى أن سر الاختلاف في تعريف التصوف، وهو مـا نشأ عنه بعد ذلك الاختلاف بين الطرق الصوفية، هـو أن التصـوف ليس شيئا واحدا، بل هو أشياء كثيرة[5]، ومدارس مختلفـة، وأحيانـا متناقضة، ولهذا، فإن الأحرى لمن يريد أن يعـرف ماهيـة التصـوف

---

[1] كشف المحجوب 1/231.

[2] أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي الحاتمي الطائي، الفتوحـات المكيـة في معرفة الأسرار المالكية والملكية، دار صادر، بيروت، (2/ 266)

[3] الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق د/ عبد العـال شـاهين، دار المنـار 1992م ص164.

[4] انظر: عوارف المعارف ص 40-44.

أن يبحث أولا عن الجماعة التي تتبناه، ويحلل معارفها وسلوكها ليستنبط من خلال ذلك التعريف المرتبط بها.

وقد أشار إلى هذا ابن تيمية عندما حلل صوفية عصره، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام، وهي: (صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم)، ثم عرف القسم الأول بأنهم من (عِنْدهم حقائق وأحوال مَعْرُوفَة كَقَوْلِه بَعضهم الصُّوفِي من صفا من الكدر وامتلأ قلبه من الْفِكر واستوى عِنْده الذَّهَب وَالْحجر والتصوف كتمان السِّرّ وَترك الدَّعَاوَى وَهَؤُلَاء يشيرون إِلَى معنى الصدْق)[1]

وعرف القسم الثاني بقوله: (وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز، وأكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط) ثم ذكرها , وهي: (وجود العدالة الشرعية فيهم , والتأدب بآداب الشرع , وألا يكون متمسكاً بفضول الدنيا)[2]

وعرف القسم الثالث بقوله: (وأما صوفية الرسم فهمهم المقتصرون على النسبة، فهمُّم في اللباس والآداب الوصفية ونحو

---

[5]) قد قام إبراهيم البسيوني بتصنيف مجموعة من التعاريف حول التصوف حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعاريف تتحدث عن البداية: التصوف كراهية الدنيا ومحبة المولى عز وجل.

القسم الثاني: يتحدث عن المجاهدات: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء، التصوف أن لا تملك شيئا وأن لايملكك شيء، التصوف هو قلة الطعام والسكون والفقراء من الناس،

القسم الثالث: فيتحدث عن المذاقات: التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة هو استرسال النفس مع الله على ما يربد وتوصل في الأخير إلى أن التصوف تيقظ فطري يوجه النفس الصادقة إلى أن تجاهد حتى تحظى بمذاقات الوصول، فالاتصال بوجود المطلق (انظر: د. إبراهيم البسيوني: نشأة التصوف الإسلامي-دار المعارف-مصر-1969-ص.ص17-24.)

[1]) الصوفية والفقراء ص33.

[2]) الصوفية والفقراء ص33.

ذلك)[1]

وهكـذا الفخـر الـرازي، فقـد أفـرد في كتابـه (اعتقـادات فـرق المسلمين والمشركين) بابا خاصا للصوفية هو (البـاب الثـامن في أحوال الصوفية) وقسمهم إلى[2]:

1 ـ أصـحاب العـادات، وهم قـوم منتهي أمـرهم وغايتـه تـزيين الظاهر كلبس الخرقة وتسوية السجادة.

2 ـ أصحاب العبادات، وهم قوم يشتغلون بالزهـد والعبـادة مـع ترك سائر الأشغال.

3 ـ أصحاب الحقيقة، وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبـادات بـل بـالفكر وتجريـد النفس عن العلائـق البدنية.

4 ـ النوريـة، وهم طائفـة يقولـون أن الحجـاب حجابـان نـوري وناري، فالنوري هو الاشتغال باكتساب الصفات المحمودة كالتوكل والشوق والتسليم والمراقبة والأنس والوجد والحال، وأمـا النـاري فهـو الاشـتغال بالشـهوة والغضـب والحـرص والأمـل لأن هـذه الصفات نارية.

5 ـ الحلولية، وهم طائفة من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون في أنفسهم أحوالا عجيبـة، وليس لهم من العلـوم العقليـة نصـيب وآخر يتهمون أنهم قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد فيدعون دعاوى عظيمة.

6 ـ المباحيـة، وهم قـوم يحفظـون طاعـات لا أصـل لهـا، وتلبيسات في الحقيقة، وهم يدعون محبة الله، ويخالفون الشريعة ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكليف.

وهكـذا، فقـد صـار في الصـوفية أصـناف كثـيرون، هنـاك من يجعلهم جميعا شيئا واحـدا، وهنـاك من يفـرق بينهم، وكمثـال على ذلك التفريق بين الزهد والتصوف، فالبعض يعتـبر الزهـاد صـوفية، والبعض يفرق بينهم، فلا يسم الزهاد باسم الصوفية.

فمن الـذين يفرقـون بين الزهـد والتصـوف شـهاب الـدين السهروردي الذي قال في ذلك: (التصوف غير الفقر، والزهد غـير

---

[1] الصوفية والفقراء ص33.

[2] انظر: فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسـلمين والمشـركين، مراجعـة وتحريـر على سامي النشار، القاهرة 1938، ص 1 – 16.

الفقر، والتصوف غير الزهد، فالتصوف: اسم جامع لمعاني الفقــر، ومعاني الزهد، مع مزيد أوصاف وإضافات، لا يكون بـدونها الرجـل صوفيا، وإن كان زاهدا فقيرا)[1]

ومثلــه ابن الجــوزي، الــذي ذهب إلى أن: (التصــوف مــذهب معروف يزيد على الزهد، ويـدل على الفـرق بينهمـا: أن الزهـد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف)[2]

ومثلهمـا نيكلسـون الـذي قـال: (والصـوفية الأولـون كـانوا في الحقيقة زهادا وادعين، أكثر منهم متصوفة)[3]

وإلى هـذا أيضـا ذهب الـدكتور عبـد الحليم محمـود الـذي قـال: (الزهد في الدنيا شيء، والتصوف شـيء آخـر، ولا يلـزم عن كـون الصوفي زاهدا، أن يكون التصوف هو الزهد)[4]

في مقابــل هــؤلاء نجــد الكثــير من البــاحثين، وخاصــة ممن يعارضون التصوف، يذكرون في معـرض نقـدهم للتصـوف سـلوك بعض الزهــاد الــذي لا يعتــبرهم الصــوفية من طــائفتهم، بــل قــد يعارضونهم وينتقدونهم هم كذلك.

وهذا ما يـبين ضـرورة ضـبط المصـطلح بحسـب الموقـع الـذي يكون فيه الحديث عنه، وبمـا أننـا نتحـدث عن التصـوف الجزائـري الذي عبرت عنه الطرق، فإنه من الضروري الرجــوع إلى أصـحاب هذه الطرق للتعرف على تصـورها للتصـوف، وسـنحاول أن نبحث عن ذلك عند الحديث عن نوع الاتجـاه الصـوفي للطـرق الصـوفية الجزائرية.

2 ــ حقيقة الطرق الصوفية

لغة: تطلــق الطريقــة على مــذهب الشــخص وحالــه. وطريقــة الرجل مذهبه. يقـال: (مـا زال فلان على طريقـة واحـدة أي حالـة

---

1) عوارف المعارف، ملحق بالإحياء، السهروردي، 5/79..

2) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تلـبيس إبليس، دار الفكـر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2001م، ص149.

3) رينولد نيكلسون، الصوفية فى الإسلام، ترجمـة نـور الـدين شـريبة، القـاهرة، 1947، ص 12..

4) الدكتور عبـد الحليم محمـود، قضـية التصـوف المنقـذ من الضـلال، طبعـة دار المعـارف، الطبعة الثانية، القاهرة سنة 1985 م، ص40.

واحدة)[1]

اصطلاحا: يربط الصوفية عادة بين ثلاثة مصطلحات لا يمكن التعرف على حقيقة (الطريقة الصوفية) إلا من خلالها، وهي: الشريعة، والطريقة، والحقيقة، وهم يربطونها بأركان الدين الكبرى (الإسلام، الإيمان، الإحسان) باعتبارها مراحل يسير فيها السالك، أو يعرج من خلالها إلى الله ليتحقق بما وصفه رسول الله ﷺ في قوله في تعريف الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فهو يراك)[2]

وقد وضح الشيخ ابن عجيبة، وهو من مصادر الطرق الصوفية الجزائرية الكبار، وخاصة الفروع المرتبطة بالطريقة الشاذلية، كالطريقة العلاوية، أسرار هذه الأقسام ووجه الحاجة إليها، والمصطلحات المرتبطة بها، فقال: (الأعمال عند أهل الفن – أي الصوفية- على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة، أو تقول عمل الاسلام، وعمل الإيمان، وعمل الأحسان، أو تقول عمل العبادة، وعمل العبوديه، وعمل العبودة، أي الحرية، أو تقول عمل أهل البداية، وعمل أهل الوسط، وعمل أهل النهاية) [3]

بعد أن سرد هذه المصطلحات بين الصوفية للتعبير عن مراحل السير، ذكر التعريفات المرتبطة بها، والتي تدل على المقصد منها، فقال: (فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده، أو تقول الشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر) [4]

ثم فصل الممارسات المرتبطة بكل جهة، فقال: (واصلاح الجوارح بثلاثة أمور بالتوبة والتقوى والاستقامة، واصلاح القلوب بثلاثة أمور بالإخلاص والصدق والطمأنينة، واصلاح السرائر بثلاثة

---

[1] مختار الصحاح للرازي، ص 391.

[2] صحيح البخاري (6/ 144)

[3] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 5.

[4] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.

أمور بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة، أو تقول إصلاح الظواهر باجتناب النواهي وامتثال الأوامر، واصلاح الضمائر بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل، واصلاح السرائر وهي هنا الأرواح بذلها وانكسارها حتى تتهذب وترتاض الأدب والتواضع وحسن الخلق) [1]

ثم بين ارتباط هذه المراحل بعضها ببعض، فقال: (ولا يصح الانتقال إلى مقام حتي يحقق ما قبله، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها بأن يحقق التوبة بشروطها ويحقق التقوي بأركانها ويحقق الاستقامة بأقسامها وهي متابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا تزكي الظاهر وتنور بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة، وهي التصفية من أوصاف البشرية.. فإذا تطهر من أوصاف البشرية تحلى بأوصاف الروحانية، وهي الأدب مع الله في تجلياته التي هي مظاهره) [2]

ونحب أن نبه هنا إلى أن ابن باديس – على حسب ما يبدو- لا ينكر هذا التقسيم، فقد نشر في مقالة الأستاذ البكري في وصيته: (إن أهل الطريق يجب عليهم أن لا يخطوا خطوة ينكرها الشرع عليهم فإن من خالف الشريعة المحمدية تاه وضل عن الطريقة المرضية، فالشريعة أصل والحقيقة فرعها، فمن لم يحكم الأصل لا ينتفع بالفرع)[3]

وبناء على هذا، فإن الطريقة عند الصوفية هي المرحلة الوسطى في السلوك، والتي يخرج بها المريد الصوفي من العموم إلى الخصوص، أو هي المرحلة التي ينتقل فيها المريد من رعاية جوارحه إلى رعاية قلبه، أو هي المرحلة التي لا يكتفي فيها المريد باسم الإسلام، وإنما ينتقل إلى اسم الإيمان، كما أشار إلى

---

[1] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.

[2] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.

[3] انظر: آثار ابن باديس (3/ـ 169) في تقريظ محمد المولود بن الموهوب لرسالة ابن باديس (جواب سؤال)

ذلك قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: 14]

وبناء على هذا يرى الصوفية أنه لا تنافر بين هذه الثلاثة، بل هي مراحل في التعمق في التحقق بالـدين، لا على مسـتوى الجـوارح فقط، بل على مستوى الكيان كله.

وقـد سـئل الشـيخ ابن عليـوة عن معـنى الشـريعة، والطريقـة، والحقيقة، وهل هناك تنافر بينها، وكـان ممـا أجـاب بـه قولـه: (إنّ الشـريعة هي عبـارة عن الأحكـام المنزلـة على سـيدنا محمـد ﷺ المسـتفادة من قولـه تعـالى : {وَمَـا آتَـاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ وَمَـا نَهَـاكُمْ عَنْـهُ فَـانْتَهُوا } [الحشـر: 7] ، والطريقــة هي عبـارة عن تطبيق تلك الأحكام على أعمال المكلّـف، ظـاهرا وباطنـا، تطبيقـا محكمـا، والحقيقـة هي مـا يحصـل للمريـد من المعـارف والعلـوم الناشـئة عن أعمالـه، قـال تعـالى : {واتَّقـوا اللـهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللـهُ } [البقرة: 282]، وإذا لا تنافر بهذا الاعتبار، إنّما هي ألفاظ منهـا مـا وضع لتدل على الأحكام المجرّدة باصطلاح، ومنهـا مـا وضـع لتـدل على العمل بها، ومنها ما وضع لتدلّ على النتائج الحاصلة عن ذلك العمل، وإذا حققت لم تجد هناك إلاّ الشريعة)[1]

فقـال السـائل : ولم سـمينا تطـبيق أوامـر الشـرع على أفعـال المكلّف بالطريقة، وما هي المناسبـــــــــــــــة؟ فأجاب قائلا: (إنّ تطبيقه ذلك يعتبر منه تزحزحا في سبيل القـرب إلى اللـه عـزّ وجلّ، لما في الحديث القدسيّ: (ما تقرّب إليّ عبدي بشـيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه)[2]، فيصح أن يطلق على ذلك العمـل سـيرا وطريقا أيضا)[3]

بعد هذا التوضيح الضروري يمكن تعريف الطريقة الصـوفية بمـا عرفها به الشيخ مولاي التهـامي بقولـه: (الطريقـة عنـد الصـوفية:

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص154.

[2]) صحيح البخاري (8/ 131)

[3]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص155.

هي إقامة ناموس العبودية عبر الرحلة الممتدة من الخلق إلى الحق، وهو السبيل العارج من العالم الفاني إلى حضرة الباقي عز وجل، وقد استخدم القوم لفظة (السلوك) للإشارة إلى الطريق الصوفي لما تحمله من دلالات خاصة بالخروج والدخول معا.. فالطريق خروج من وهمه الغفلة وحب الدنيا ودخول في طاعة المولى وصحبته)[1]

وفي موضع آخر يقول : (الطريقة هي أسلوب عملي يطلق عليها أيضا : المذهب والرعاية والسلوك لإرشاد المريد عن طريق اقتفاء أثر طريقة تفكير وشعور وعمل تؤدي من خلال تعاقب مراحل المقامات في ارتباط متكامل مع النفسية المسماة حالات أو أحوال إلى معايشة تجربة الحقيقة المقدسة.. وكانت الطريقة تعني أولا ببساطة ذلك المنهج التدريجي للتصوف التأملي تحرير الروح) [2]

وبناء على هذا يعرف الطرق الصوفية بأنها (منظمات شعبية يتكون كل منها من شيخ وطائفة من المريدين أو الأتباع، وكل شيخ يحاول قدر طاقته وتوفيقه، وعلى مبلغ إيمانه وإخلاصه أن يوجه مريديه وأتباعه إلى الطريق المستقيم وإلى عبادة الله سبحانه وتعالى وإلى التحلي بالأخلاق الفاضلة عن المراقبة لله والخوف منه في الانفراد والاجتماع)[3]

ويمكن اختصار هذه التعاريف بأن (الطريقة هي المنهج الذي يسلكه المريد ليتحقق بحقيقة الإيمان والإسلام دون الاكتفاء بالظواهر التي جاءت بها الشريعة)

وهي بالتالي تحتاج إلى مرشد وبرنامج، كما يحتاج سالك ظاهر الشريعة إلى فقيه وفقه، وبناء على الاختلاف الذي حصل في الفقه فنشأت المذاهب، حصل الاختلاف في مناهج السلوك،

---

1) الشيخ مولاي التهامي غيتاوي، الرائد في ذكر جملة من حياة وفضائل وكرامات الشيخ سيدي محمد بلقايد، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والإتصال، ص 177.

2) الشيخ مولاي التهامي غيتاوي، الرائد في ذكر جملة من حياة وفضائل وكرامات الشيخ سيدي محمد بلقايد، ص 177.

3) الشيخ مولاي التهامي، المرجع نفسه، ص 178.

فنشأت الطرق الصوفية.
ولتبسيط هذا نضرب مثالا على ذلك بالصلاة، فللصلاة - حسب الصوفية - شريعة وطريقة، أما شريعتها، فأن تؤدى كما ذكر الفقهاء بشروطها وأركانها على حسب آراء المذاهب الفقهية المختلفة، وأما تحولها إلى طريق إلى السلوك إلى الله، فيحتاج إلى أشياء أخرى لا يذكرها الفقهاء، وإنما يذكرها الصوفية، وأهمها الخشوع.

وقد ذكر أبو حامد تقصير الفقهاء في هذا الجانب، وهو ما جعل الصوفية يتولون الحديث عنه، فقال في حديثه عن فتاوى الفقيه المرتبطة بالصلاة: (وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه، ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه)[1]

ومثله الصوم فقد عرفه الشيخ ابن عليوة بأنه مطلق الامساك، و(أنه يأخذ حكمه في المقامات الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، فإذا أكل الصائم بطل صومه في الشريعة، وإذا اغتاب مثلا بطل صومه في الطريقة وإذا أثبت ما سوى الله بطل صومه في الحقيقة)[2]

ويذكر ابن عليوة أن القرآن أشار الى هذه المقامات الثلاث، وقدم أهل الشهادة في قوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: 185]، أي فمن حصل على مقام فليتعين عليه الصوم على الوجه الأكمل، ومن كان مريضا وهو عبارة عن المحجوب المتقاعد عن طلب الله، أو على لسفر أي سائر في الطريق، فعدة من أيام أخر، بمعنى لهم حكم غير حكم أهل

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (1/ 18)

[2] الشيخ ابن عليوة، المنح القدوسية، المطبعة العلاوية، مستغانم، الطبعة الثانية، ص315.

المشاهدة)[1]

وهذا الكلام واضح لمن تأمله، بل هـو يشـير إلى أن الصـوفية لا يرضون من الدين مجرد الحركات الظـاهرة البعيـدة عن المقاصـد التي قصدت لأجلها الشعائر التعبدية، وقد عجبت لما كتبته الباحثـة أنيسة زغدود في رسالة جامعيـة محترمـة عنوانهـا (جهـود جمعيـة العلماء المسلمين الجزائـريين في مقاومـة الانحرافـات الطرقيـة) تسـتنكر هـذا القـول، ثم لا تعتمـد دليلا على هـذا الاسـتنكار سـوى قولهـا: (ونحن نتسـاءل من أين اسـتنبط ابن عليـوة هـذا الحكم الصـوفي، وعلى أي أسـاس قسـم درجـات الصـوم بين الشـريعة والطريقة والحقيقة؟)[2]

مع أن هناك نصوصا كثيرة جدا نقلتها في رسالتها عن الجمعيـة، ولم يـذكروا لهـا أي دليـل، ومـع ذلـك قبلتهـا من غـير أن تطـالبهم بدليل.

بعد هذا التعقيب الـذي رأينـا ضـرورته، ومن خلال الأمثلـة الـتي سقناها وتطبيقاتها نرى الشـريعة محـدودة لا يـزاد فيهـا ولا ينقص، ولا مجـال فيهـا للآراء والتجـارب، بخلاف الطريقـة، فقـد نجـد مثلا شخصـا اسـتطاع ببعض الرياضـة أن يصـير خاشـعا في صـلاته فنستفيد منه في ذلك، وبذلك نشأت الطرق وتعددت.

وبنـاء على مـا ذكرنـا، فـإن القصـد الأول من إطلاق الصـوفية لمصطلح (الطريقة) هو التفريق بينها وبين (الشـريعة)، فالشـريعة تحتـاج إلى نـبي مرسـل معصـوم، بينمـا الطريقـة لا تحتـاج إلا إلى خبير بمسالك النفس يمكنه أن يربي المريدين من خلال تجربته.

ولذلك، فإن الشريعة واحدة بينما الطرق لا حد لهـا، كمـا لا حـد للطبـائع الإنسـانية، أو كمـا قـال الشـيخ محي الـدين بن عـربي: (الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق)[3]

وبذلك فإن الطرق الصوفية مع مشربها الواحـد، وهـو الشـريعة

---

[1]) أحمـد مصـطفى العلاوي، البحـر المسـجور في تفسـير القـرآن بمحض النـور،، المطبعـة العلوية، مستغانم، 2/140.

[2]) أنيسـة زغـدود، جهـود جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين في مقاومـة الانحرافـات الطرقية، راسلة ماجستير بإشراف: د. محمد زرمان، ص196.

[3]) ابن عربي، الفتوحات المكية، 2/317.

إلا أنها تختلف في تطبيقها باعتبارين:

الاعتبار الأول: هو رؤية الشيخ لكيفية التربية، فـالبعض يغلب في تسليكه للمريدين طريقة المجاهدة، وآخرون يستعملون طرقا أخـرى، ومن هنـا نجـد في الطـرق الصـوفية وصـف بعض الطـرق بكونها طريقة مجاهدة، أو طريقة شكر، أو غير ذلك.

الاعتبار الثاني: هو اختلاف طبائع المريدين وحاجـاتهم، وهـذا من يجعل الشيخ يبحث في الشريعة عما يتناسـب مـع حاجـة هـذا المريد أو ذاك، كما عبر عن ذلك الشيخ عبد القادر عيسـى، فقـال عند حديثه عنـد تعـدد الأوراد في الطـرق: (وبمـا أن صـيغ الأذكـار كثـيرة متنوعـة، ولكـل صـيغة تـأثير قلـبي خـاص ومفعـول نفسـي معين، فـإن مرشـدي السـادة الصـوفية - أطبـاء القلـوب ووَرَّاث الرســول الأعظم ﷺ في الــدعوة والتوجيــه والتربيــة - يــأذنون لمريديهم بأذكار معينة تتناسـب مـع أحـوالهم وحاجـاتهم، وتـرقيهم في السـير إلى رضـوان اللـه تعـالى، وذلـك كمـا يعطي الطـبيب الجسماني للمريض أنواعاً من الأدوية والعلاجـات تتلاءم مـع عللـه وأسقامه، ثم يبدل له الدواء حسب تقدمه نحو الشفاء، ولهذا لا بد للمريد السالك أن يكون على صلة بالمرشد، يستشـيره ويـذاكره، ويعرض عليه ما يجده في الذكر من فوائد روحية، وأحـوال قلبيـة، وحظـوظ نفسـية، وبـذلك يـترقى في السـير، ويتـدرج في السـمو الخُلقي والمعـارف الإلهية)[1]، أمـا السـؤال عن كـون بعض هـذه الأذكار أو أعدادها لا يوجد لها أصـل في الشـريعة، فـإن هـذا يعـود للمدرسـة الفقهيـة الـتي تنتمي إليهـا الطـرق الصـوفية، والـتي سنتحدث عنهـا بتفصـيل في البـاب الثـاني من هـذه الرسـالة عنـد عرض مناقشات الجمعية مع الطرق الصوفية.

ثانيا ــ علاقة الطرق الصوفية بالتصوف

بناء على ما ذكرنا في الفصل الثالث من تفريـق المعتـدلين من جمعيـة العلمـاء بين التصـوف والطـرق الصـوفية، فقـد جعـل هـذا الطرق الصوفية - وخصوصا الطريقة العلاوية - تحـاول أن تـبرهن على صلتها بالتصوف، وأنه لا فرق بينها وبين من يجلـه المعتـدلون

[1] الشيخ عبد القادري عيسى، حقـائق عن التصـوف، منشـورات دار العرفـان حلب، سـوريا 2005، ص92.

من علماء الجمعية من مشايخ الصوفية.

وحتى نتعرف على الأمـر من جميـع زوايـاه نحـاول أن لا نقصـر الأمر على الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية، بـل نعممـه إلى الخلاف الفكري في هذه المسألة بين المفكرين المسلمين.

وقــد رأينــا من خلال اســتقراء الاتجاهــات الفكريــة في هــذه المسألة أن هناك رأيان متعارضان أحـدهما يعـارض هـذه العلاقـة، والآخر يؤيدها.

1 ـ الاتجاه المعارض للعلاقـة بين التصـوف والطـرق الصوفية

وهو الذي يعتبر الطرق الصوفية ثمرة خبيثة من ثمار التصــوف، أو تطبيقا خاطئا لـه، أو مرحلـة سـوداء من مراحلـه، وهـو موقـف المعتدلين من جمعية العلماء، وخصوصا مع بعض الطرق الصـوفية كالعلاوية والتيجانية.

وممن أيد هذا الاتجاه الدكتور حسين المروة في كتابه (النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية)، فقد قال: (لكن التصوف أخذ بعد ذلك ليتحول إلى حركـة وحيـدة الجـانب بـدا هـذا التحـول بطغيان الأساليب الآلية الجسدية على أسـاليب النظـر الفلسـفي، ثم انتهى إلى نظم وتقاليـد وطقـوس شـكلية خاصـة، فانقسـمت حركــة التصــوف إلي طــرق و(مشــيخات) على أســاس هــذه الشـكليات البهلوانيـة وحـدها، وبـذلك فـرغت الحركـة نهائيـا من مضمونها الإيديولوجي بل انقلبت إلى حركـة رجعيـة طفيليـة لعبت دورا خطيرا في عملية التخدير الاجتمـاعي وفي خدمـة اديولوجيـة الطبقات الرجعية)[1]

وبـذلك فـإن الطريقـة عنـد الـدكتور حسـين مـروة هي (حركـة رجعية طفيليـة لعبت دورا خطـيرا في عمليـة التخـدير الاجتمـاعي وفي خدمة اديولوجية الطبقات الرجعية)

وقد ذكرنا حديثه مع طوله حتى نبين أن الكـاتب – كشـأن كثـير من الباحثين- يفرق بين التصوف والطرق الصـوفية، فبينمـا يمـدح التصـوف أو على الأقـل يتقبلـه نجـده يـرفض الطريقـة باعتبارهـا

[1] حسين مروة، النزاعات الماديـة في الفلسـفة العربيـة الإسـلامية، بـيروت: دار الفـارابي، الطبعة الثالثةـ 1980، 2/ 315.

انحرافا عن التصوف.

وهذا الموقف هو الموقف الذي وقفه أكثر علماء الجمعية – وخاصة المعتدلون منهم- وذلك من خلال تفريقهم بين متقدمي الصوفي، وبين ما هو عليه رجال الطرق.

فقد اعتبر رجال الجمعية الكثير من مشايخ الصوفية المتقدمين، وأثنوا عليهم، وفرقوا بينهم وبين الطرق الصوفية، ومن ذلك ما عبر به الشيخ العربي التبسي في مقارنة له بين الطرق الصوفية وبين مشايخ الصوفية الأوائل، فقال:(الحق أن متصوفة الزمان ومن تقدمهم بزمن كانوا وصمة عار لا تنمحي، ونقطة سوداء في جبين الإسلام البريء من النقص، والمسلمين الذين فهموا الإسلام كما رأوا صاحبه وأهل التصوف الحقيقي، أمثال : الجنيد والقشيري والمحاسبي، الذين كانوا خلاصة أهل السنة في أيامهم، فانتسبت إليهم هذه النابتة المتأخرة، وصيرت طريقتهم كالملة المستقلة عن ملة الإسلام، وكل أمورهم جاءت على خلاف طريقة القوم، ولم يحتفظوا بغير الاسم، فجاء تصوفهم خلقا جديدا، مشوه الصورة، بشع المنظر، سيء المآل)[1]

ويذكر ابن باديس أنه كان يحاكم صوفية عصره إلى الجنيد الذي هو سيد الطائفة كما يقال، فينكرون تحكيمه، فقد ذكر (أن أحد الشيوخ المنتمين إلى الطريق لما سمعني أستدل بكلام الجنيد على لزوم وزن الأعمال والأقوال والأحوال والفهوم بالكتاب والسنة قال لي: (وما الجنيد إلا واحد من الناس) وما صار الجنيد واحداً من الناس إلا يوم استدللت بكلامه)[2]

ويبدو أن الشيخ البشير الإبراهيمي بالرغم من تشدده مع التصوف والصوفية يحسن الظن بهذا النوع من التصوف، فقد قال عند تأريخه للتنوع الصوفي: (وقد افترق النازعون إلى هذه النزعة من أول خطوة فرقًا. وذهبوا فيها مذاهب، من القصد الذي يمثّله أبو القاسم الجنيد، إلى الغلو الذي يمثّله أبو منصور الحلّاج، إلى ما بين هذين الطرفين، وكانت لأئمة السنّة وحماتها- الواقفين عند حدودها ومقاصدها ومأثوراتها- مواقف مع الحاملين لهذه النزعة، وموازين يزنون بها أعمالهم وآراءهم وما يبدر على ألسنتهم من

[1]) بدعة الطرائق في الإسلام. جريدة الشهاب. السنة 4. عدد 169. 12/جمادى1/1347هـ. الموافق 25/10/1928م. ج 3. ص 6. 7.

[2]) آثار ابن باديس: 4/320.

القـول فيهـا، ولسـان هـذه المـوازين هـو صـريح الكتـاب وصـحيح السنّة، وكانت في أول ظهورها بسيطة تنحصر في الخلوة للعبـادة أو الجلوس لإرشاد وتربية من يشهد مجالسهم، ثم استفحل أمرها فاستحالت علمًا مستقلًا، يشكّل معجمًا كاملًا للاصطلاحات)[1]

ولعل هذا الموقف أخذه علمـاء الجمعيـة من موقـف ابن تيمية أب السلفية بمدارسها المتعددة، فهو يعتـبر السـالكين الأولين من المتصوفة من المستقيمين بخلاف المتأخرين، فيقول فيهم: (فأمـا المستقيمون من السالكين كجمهور مشائخ السلف مثـل الفضـيل بن عياض، وإبـراهيم بن أدهم، وأبي سـليمان الـداراني، ومعـروف الكـرخي، والسـري السـقطي، والجنيـد بن محمـد، وغـيرهم من المتقـدمين، ومثـل الشـيخ عبـد القـادر الجيلاني، والشـيخ حمـاد، والشــيخ أبي البيــان، وغــيرهم من المتــأخرين، فهم لا يســوِّغون للسالك ولو طـار في الهـواء، أو مشـى على المـاء، أن يخـرج عن الأمــر والنهي الشــرعيين، بــل عليــه أن يفعــل المــأمور، ويــدع المحظور إلى أن يموت. وهـذا هـو الحـق الـذي دل عليـه الكتـاب والسنة وإجماع السلف وهذا كثير في كلامهم)[2]

ويصف الجنيد وعبد القدر الجيلاني بأنهم أئمة الصوفية، فيقـول: (وأمـا أئمـة الصـوفية والمشـايخ المشـهورون من القـدماء مثـل الجنيد بن محمد وأتباعه ومثل الشـيخ عبـد القـادر وأمثالـه فهـؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وتوصية بإتباع ذلك , وتحذيرا من المشي مع القدر كما مشى أصاحبهم أولئـك وهـذا هـو الفـرق الثاني الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه , والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على إتباع المأمور وترك المحظور والصبر على المقـدور ولا يثبت طريقــاً تخــالف ذلــك أصــلا, لاهــو ولا عامــة المشــايخ المقبولين عند المسلمين ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بــدون إتباع الأمر والنهي)[3]

بل يصل الأمر بابن تيمية إلى حـد تضـليل من يشـك في إمامـة الجنيد وأمثاله، يقـول في الفتـاوى: (والجنيـد وأمثالـه أئمـة هـدى،

---

[1] آثار محمد البشير الإبراهيمي: 5/142.

[2] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجمـوع الفتـاوى، تحقيـق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة : الثالثة، 1426 هـ / 2005 م، (10/516)

[3] مجموع فتاوي ابن تيمية، (8/369)

ومن خالفه في ذلك فهو ضال. وكذلك غير الجنيد من الشيوخ تكلموا فيما يعرض للسالكين وفيما يرونه في قلوبهم من الأنوار وغير ذلك؛ وحذروهم أن يظنوا أن ذلك هو ذات الله تعالى)[1]

2 ـــ الاتجاه المؤيد للعلاقة بين التصوف والطرق الصوفية

وهو الذي يعتبر الطرق الصوفية ثمرة من ثمار التصوف، أو تطبيقا عمليا له، أو مرحلة من مراحله، وهؤلاء صنفان:

الصنف الأول: وهو من يرفض الجميع: التصوف وطرقه، وهو موقف المتشددين من علماء الجمعية، كما ذكرنا سابقا، ومنهم جل الوهابية المعاصرين، كمحمود عبد الرؤوف القاسم صاحب كتاب (الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ)، والذي يعتبر من أكثر الكتب تحاملا على التصوف وكل ما يرتبط به، فهو يذكر في كتابه هذا إلى أن الطرق الصوفية لا يصلح أن يطلق عليها اسم طرق (وإنما هي مشيخات أخذت أسماءها من أسماء مشايخها الذين كان وما يزالون حولهم المريدين والسالكين ليحصلوا بذلك على المدد، أي: الأموال التي تنهمر عليهم، إما من المريدين مباشرة، أو بسبب هؤلاء المريدين)[2]

وهو كلام ينطبق تماما على الطروحات التي يطرحها التيار المتشدد من أعضاء الجمعية والتي سبق الإشارة إلى بعضها.

الصنف الثاني: وهو من يقبل الجميع، وتمثله الطرق الصوفية التي تعتبر نفسها امتدادا للتصوف، ولذلك تضع الأسانيد التي تربطها بمشايخ الصوفية الأوائل، بل تضع الأسانيد التي تربط برسول الله ﷺ لاعتقادها أن رسول الله ﷺ هو أول من أسس التصوف.

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة في رده على الجمعية الأدلة الكثيرة التي تدل على مدى ارتباط الطرق بالتصوف، ومن ذلك ما كتبه للشيخ (محمد الهلالي) المدّرس بالحرم النبويّ الشريف الذي كتب في مجلة الشهاب مقالا في العدد (172) يحاول أن يفرق

---

[1] مجموع فتاوي ابن تيمية، (5/321)

[2] محمود عبد الرؤوف القاسم. الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، دار الصحابة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ص 353.

فيه بين الصوفية الأوائل والطرق الصوفية المعاصرة له، فرد عليه الشـيخ ابن عليـوة بقولـة: (إلى حضـرة الشـيخ (محمـد الهلالي) المـدرّس بـالحرم النبـويّ الشـريف : أيهـا المحـترم زادكم اللـه احتراما، ووقانا وإيّاكم شرّ ما تنشره الأقلام .. قد كنّا وفقنا أيّها المحترم في العدد (172) من مجلة (الشـهاب) على مقال ينسب لحضرتكم ومن جملة ما ذكرتموه فيه : إنّكم تجلّون رتبـة رجـال التصـوّف المتقـدمين (كالجنيـد، الغـزالي، السنوسي، الجيلاني، وعبـد السـلام الأسـمر، الدسـوقي، ومعـروف الكـرخي، وهلم جرا) وقد ذكرتم أنّكم تعترفون لهم بـأنّهم كـانوا - رضـوان الله عليهم - على جانب عظيم من الزهد والتقـوى.. ولكن لسـت أدري، وغيري لا يدري أيضا - إلاّ أنتم - بماذا أثبتم لهم بـأنّهم كـانوا على جـانب عظيم من الزهـد والتقـوى وغـير ذلـك من الخصـال الشـريفة ؟، وبمـاذا نفيتم أن يوجـد من بين المتـأخرين ولـو رجـل رشـيد حسـبما صـرّحتم بـذلك في مقـالكم الأول ؟، أليس ذلـك – يرحمكم اللـه – مجـرد تحكّم منكم أولا وآخـرا ؟، ومـا هي حجّتكم في الحكم على المتـأخرين بسـلب الرشـد من بينهم، فهـل كنتم المهيمـنين عليهم، فسـبرتم غـور الظـواهر منهم والبـواطن، فلم تجدوا منهم ولو واحدا يصلح أن يرتبط بمن سلف، ولو بشيء في الجملة ؟، فنحن، وأيم اللـه في تشـوّف عظيم، لأن تطلعونـا على المآخذ)[1]

المطلب الثاني: التصـوف السـلوكي وعلاقـة الطـرق الصوفية به

من خلال ما سبق، فإن المراد بالتصوف السلوكي، هو التصوف الذي يهتم بالأعمال والممارسات الـتي يطلب السـالك من ورائهـا أمرين:

الأول: التخلق بما ورد في الشريعة من أخلاق ظاهرة وباطنة.

الثاني: التحقق بالحقائق التي هي المقصـود الأول من السـلوك الصوفي.

وهذا النـوع من التصـوف لا يهتم إلا بممارسـات السـالك سـواء الممارسات الظاهرة أو الباطنة

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص173.

بناء على هذا نحاول في هـذا المطلب أن نتعـرف على المنـاهج السلوكية عند الطـرق الصـوفية الكـبري الـتي عاصـرت الجمعيـة، والتي كان لها بعض التعامل معها، وننبه - كمـا ذكرنـا سـابقا - إلى أننـا في هـذا المطلب نـذكر الممارسـات السـلوكية مبتـورة عن أدلتها، لأننا سنتحدث عن تلك الأدلة بتفصيل في الجزء الثـالث من هذه السلسلة.

أولا ــ تعريف السلوك:

لغة: يراد بالسلوك- لغة - النفاذ فى الطريق والذهاب فيه، وهو يقـال فى المحسوسـات وغيرهـا، فمن الأول قولـه تعـالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْـلُكُوا مِنْهَـا سُـبُلًا فِجَاجًـا (20)} [نوح: 19، 20]، ومن الثاني قوله تعالى: {كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ (38) إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَـاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَـلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ (42)} [المـدثر: 38 - 42][1]

اصطلاحا: عرف الصوفية السـلوك تعريفـات مختلفـة بحسـب الغرض منه، وبحسب الحالة الـتي يريـد السـالك أن يسـلك إليهـا، وهكـذا، وهـذه بعض التعريفـات الدالـة بمجموعهـا على حقيقـة السلوك وأنواعه ومراحله:

عرفـه ابن عـربي بأنـه (تهـذيب الأخلاق والأعمـال والمعـارف، وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والبـاطن. والعبـد في ذلـك مشـغول بنفسه عن ربه، إلا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول)[2]

وعرفـه كمـال الـدين القاشـاني بأنـه (عبـارة عن الـترقي في مقامـات القـرب إلى حضـرات الـرب تعـالى شـأنه، فعلاً وحـالاً، وذلك : بأن يتحـد بـاطن الإنسـان وظـاهره فيمـا هـو بصـدده ممـا يتكلفه من فنون المجاهدات، وما يقاسـيه من مشـاق المكابـدات،

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفـردات، المطبعـة الفنيـة الحديثـة بالقـاهرة، 239، وانظـر لسـان العرب 10/442.

[2] محيى الـدين بن عـربى، المتشـابه الى المحكم من الآيـات القرآنيـة و الأحـاديث النبويـة، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، 2007، ص 25.

بحيث لا يجد في نفسه حرجاً من ذلك)[1]

ومن الباحثين المعاصرين عرفه الدكتور عبد المنعم الحفني بقوله: (السلوك هو تهذيب الأخلاق ليستعد العبد للوصول، بتطهير نفسه عن الأخلاق الذميمة مثل حب الدنيا والجاه، ومثل الحقد والحسد والكبر والبخل والعجب والكذب والغيبة والحرص والظلم ونحوها من المعاصي، وبالنهج على الأخلاق الحميدة، مثل العلم والحلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها)[2]

ثانيا ــ شروط السلوك الصوفي:

تتفق الطرق الصوفية جميعا مهما اختلفت توجهاتها وأساليبها في السلوك على شرطين: الشيخ المرشد، والذكر، وسنتحدث عن كليهما باختصار هنا مرجئين المناقشة الحاصلة بسببهما بين الجمعية والطرق الصوفية إلى الجزء الثالث من هذه السلسلة.

1 ــ الشيخ المرشد:

يتفق الصوفية على اعتبار الشيخ المرشد شرطا في السلوك الخاص، الذي يريد به السالك أن يتحقق بغايات التصوف العرفانية، أما إن لم يرد ذلك، فلا يشترطونه، إلا إذا غلبته نفسه، ولم يستطع رياضتها، فحينئذ يحتاج إلى شيخ عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك – كما قال ابن عاشر-

وقد عبر ابن عباد النفري (ت:792هـ)، وهو من شيوخ صوفية الأندلس الكبار في عصره عن وجه الحاجة إلى الشيخ المرشد، فقال[3]: (المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين : شيخ تعليم وتربية وشيخ تعليم بلا تربية، فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس، وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه،

[1] الشيخ كمال الدين القاشاني، كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، لطائف الاعلام في إشارات أهل الإلهام. صححه وعلق عليه مجيد هادي زاده. الطبعة ١. طهران، ص 330.

[2] د. عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1987 ، ص 133.

[3] وهذا إجابة على سؤال نصه: (هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ لزاما، شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه ؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟)

وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك)[1]

لكن بما أن العادة في السالكين طريق التصوف هـو البحث عن غاياتـه العرفانيـة الوجدانيـة، فـإنهم يتفقـون على لزومـه، بـل لا يعتبرون السالك سالكا من دونه، بل إنه يعتبرونه في هذه النواحي ضروريا كضرورة النبوة نفسها، وقد قال الغزالي مشيرا إلى هـذا، أو مصرحا به: (الشيخ في قومـه كـالنبي في أمته[2]، ومن ليس لـه شيخ فالشيطان شيخه، قال أهل التحقيق : (ومن مات بغير شـيخ فقد مات ميتة الجاهلية)، لأنه يعلمه ويدله ويعرفه طريق الوصول إلى الله تعالى)[3]

بناء على هذا نحاول – هنا باختصار – أن نعرف مرادهم بالشيخ، ثم دوره في الســلوك، أمــا الأدلــة الشــرعية على ضــرورته، فسـنذكرها عنـد مناقشـة جـوانب الخلاف بين الجمعيـة والطـرق الصوفية، فقد كان الخلاف في هذه المسـألة خصوصـا من أمهـات الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية.

1 ــ تعريفه:

لغة: يقال لمن طعن فى السن كقوله تعـالى: {قَالَتَـا لَا نَسْـقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} [القصـص: 23]، وقولـه: {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا } [غافر: 67]، ويقـال لمن يكـثر

---

[1] ابن عباد النفرى، الرسائل الصغرى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1957م، ص106.

[2] يرد الصوفية على من ينكر عليهم مثل هذا التشبيه بأن التشبيه جائز سـواء كـان تشـبيه الأعلى بالأدنى، أو تشبيه الأدنى بالأعلى:

فمن الأول: ورد الكثير من النصوص القرآنية والحديثيـة الـتي تـدل على مشـروعية تشـبيه الأعلى وجـوازه، وهـو الحـق تعـالى بـالأدنى وهـو عـالم الخلـق، ومنهـا تشـبيه نـوره تعـالى بالمشكاة، كما في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ} [النور: 35]

ومن الثاني: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَـايِعُونَ اللَّهَ يَـدُ اللَّهِ فَـوْقَ أَيْـدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْـهُ اللَّهَ فَسَـيُؤْتِيهِ أَجْـرًا عَظِيمًـا} [الفتح: 10]، ففي هذه الآية تشبيه منه تعالى لحضرة الرسـول ﷺ بذاتـه العليـة، وهي تعـني (كأنمـا تبايعون الله) (انظر: الموسوعة الصوفية الكبرى: حرف السين، ص369)

[3] أبو حامد الغزالي، سر العالمين وكشف ما في الدارين، مكتبـة الثقـة الدينيـة في النجـف الاشرف، الطبعة الثانية سنة 1385 هـ – 1965 م ص 144.

علمه شيخ، لما كان من شأن الشيخ أن يكثر تجاربه ومعارفه[1].

اصطلاحا: عرفه الكاشانى بقوله: (الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها، والقيام بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها)[2]

وعرفه الشيخ أبو مدين شيخ مشايخ الطرق المغربية بقوله: (الشيخ هو من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم.. الشيخ : من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه.. الشيخ : من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه)[3]

وعرفه الشيخ أحمد الرفاعي الكبير شيخ الطريقة الرفاعية بقوله: (الشيخ: من إذا نصحك أفهمك، وإذا قادك دلك، وإذا أخذك نهض بك.. الشيخ : هو من يلزمك الكتاب والسنة، ويبعدك عن المحدثة والبدعة.. الشيخ : ظاهره الشرع، وباطنه الشرع، الطريقة والشريعة)[4]

وعرفه شيخ الصوفية الأكبر محيي الدين بن عربي بلغة شاعرية قائلا: (الشيخ يطير بأجنحته إلى عوالم الخلق، يسمعهم نداء الحق ويوقفهم تحت الودق، ويودع فيهم سر الخوف، والطمع بالبرق، فتارة يداوي العليل بالدليل، وتارة يصححه بآيات التنزيل، وتارة يحييهم بالنظر، ومرة يميتهم بالخبر، فهو الذي وصل إليه ميراث الأسماء ووجد مفتاح الدعاء، ودخل باب الاستجابة بحسن القبول والوفاء)[5]

2 ـ دوره في السلوك:

---

[1] لسان العرب 3/31، وكتاب المفردات ص270.

[2] معجم الكاشانى، ص172.

[3] الشيخ ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، دار الكتب الحديثة، مصر، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، ج 2 ص 174.

[4] الشيخ أحمد الرفاعي، الحكم الرفاعية ، إعداد ياسر سعدي إبراهيم، نشر مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1990، ص 7.

[5] ابن عربي، رسائل ابن عربي، رسالة شرح مبتدأ الطوفان ورسائل أخرى، تحقيق: قاسم محمد عباس، حسين محمد عجيل، دار احياء التراث العربي، ص 145 – 147.

اختلفت تعـابير مشـايخ الصـوفية في التعبـير عن دور الشـيخ المربي، فمنهم من يسميه الأسـتاذ، وكأنـه يشـبهه في ذلـك بـدور الأستاذ التعليمي والتربوي، ومن ذلك قول أبي حامـد الغـزالي في بيـان ضـرورة الشـيخ للسـلوك: (يحتـاج المريـد إلى شـيخ وأسـتاذ يقتدي به لا محالة، ليهديـه إلى سـواء السـبيل، فـإن سـبيل الـدين غـامض! وسـبل الشـيطان كثـيرة ظـاهرة، فمن لم يكن لـه شـيخ يهديـه، قـاده الشـيطان إلى طرقـه لا محالـة، فمن سـلك سـبل البوادي المهلكة بغير خفـير، فقـد خـاطر بنفسـه وأهلكهـا، ويكـون المستقل بنفسـه كالشـجرة الـتي تنبت بنفسـها، فإنهـا تجـف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمـر، فمعتصـم المريـد شـيخه فليتمسك به)[1]

وقد ذكر أبو حامد بناء على هذا بعض الممارسات التي يقوم بها الشيخ المربي عند تربيته المريدين، وقدم لذلك بعض التوجيهـات، فذكر أن على (الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضـة والتكـاليف في فن مخصـوص وفي طريـق مخصـوص مـا لم يعـرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطبيب لو عـالج جميـع المرضـى بعلاج واحـد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحـد من الرياضـة أهلكهم وأمـات قلـوبهم، بـل ينبغي أن ينظـر في مـرض المريد وفي حاله وسـنه ومزاجـه ومـا تحتملـه بنيتـه من الرياضـة، ويبني على ذلك رياضته) [2]

ثم ذكر نماذج عما يمارسه الشـيخ المـربي الكامـل مـع تلاميـذه ومريديه فإن (كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشـرع، فيعلمـه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولا بمـال حـرام أو مقارفا لمعصية، فيأمره أولا بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحـه نظـر بقـرائن الأحـوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منـه حـتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكـبر وعـزة النفس غالبـة عليـه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسـؤال فـإن عـزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفـه

---

[1] إحياء علوم الدين (3/56)

[2] إحياء علوم الدين (3/ 61)

المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه.. وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة، فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما، فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه)[1]

وهكذا، بل يذكر أبو حامد – كما يذكر الصوفية جميعا – أن للشيخ المربي أن يستعمل أحيانا من الحيل ما يستطيع أن يهذب به مريديه، فإذا كان المريد – مثلا – (لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها.. فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم، كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة، فلينقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيءالأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه)[2]

وهكذا يذكر الشيخ أبو حامد وهو الفقيه الأصولي أن للشيخ أن يمنع بعض المباحات عن المريد أو يكلفه ببعض ما لم يوجبه الشرع لتستقيم نفسه بذلك، ولعل ما ذكره القرآن الكريم من نهي طالوت لجنده من شرب الماء مع توفره، بل مع كثرته إشارة إلى هذا، قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ

[1] إحياء علوم الدين (3/ 61)

[2] إحياء علوم الدين (3/ 62)

مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ } [البقرة: 249]، وذلك لأن الجندي الذي لا يطيق أن يصبر على الماء لا يمكنه أن يصبر على مواجهة جالوت، وكم في النفس من (جالوت)

ولعله لأجل هذا يقوم مشايخ الطرق الصوفية باختبار المريدين قبل قبولهم في الانضمام للتملذة عليهم، ومن ذلك ما يرويه الشيخ ابن عجيبة عن قصة تلمذة الششتري عند شيخه ابن سبعين[1]، وذلك أن (الششتري كان وزيراً وعالماً، وأبوه كان أميراً، فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: (لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك، وتلبس قشابة، وتأخذ بنديراً، وتدخل السوق)، ففعل جميع ذلك، فقال له: ما تقول في السوق؟ فقال: قل بدأت بذكر الحبيب)، فدخل السوق يضرب بنديره، ويقول: بدأت بذكر الحبيب، فبقي ثلاثة أيام وخرقت له الحجب، فجعل يغني في الأسواق بعلوم الأذواق ومن ذلك قوله:

شويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يغني

اش علي من الناس واش على الناس مني

وقد كانت الطريقة العلاوية كسائر الطرق الصوفية تمارس هذه الأساليب مع المريدين لتختبر طباعهم وتهذبها، فلذلك يلتحق أكثر المريدين بخدمة الزاوية قبل أن يسمح لهم بدخول الخلوة، وقد أنكر الإبراهيمي كسائر رجال الجمعية هذا إنكارا شديدا، وعبر عن ذلك بسخرية قائلا: (..وقد كان قدماؤهم يتخذون من مراحل التربية مدارج للوصول إلى معرفة الله فيما يزعمون وفي ذلك تطويل للمسافة وإشعار بأن المطلوب شاق. حتى جاء الدجال ابن عليوه واتباعه بالخاطئة، فأدخلوا تنقيحات على الطريق ورسومًا أملاها عليهم الشيطان. وكان من تنقيحاتهم المضحكة تحديد مراحل التربية (الخلوية) لمعرفة الله بثلاثة أيام (فقط لا غير)، تتبعها أشهر أو أعوام في الانقطاع لخدمة الشيخ من سقي الشجر، ورعي البقر، وحصاد الزرع وبناء الدور مع الاعتراف باسم الفقير، والاقتصار على كل الشعير، ولئن سألتهم لم نزلتم مدة

---

[1]) أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، المطبعة الجمالية، مصر، 1913 (ص: 20)

الخلوة إلى ثلاثة أيام؟ ليقولن فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر الذي يتطلب السرعة في كل شيء، فقل لهم: قاتلكم الله. ولم نقصتم مدة الخلوة، ولم تنقصوا مدة الخدمة أيها الدجاجلة؟)[1]

وما ذكره الإبراهيمي عن الخدمة وطولها صحيح، ولكن يبدو أن الشيخ لم يكلف نفسه السؤال عن سر تلك الأعمال، والمصالح الناتجة عنها سواء للمريد أو للزاوية، والزاوية لم تكن تعني شخصا، وإنما تعني المصالح العامة، فقد كانت تؤوي الفقراء وأبناء السبيل وتعلم وتمارس كل الوظائف التي سيأتي ذكرها في المبحث الثاني من هذا الفصل.

أما المريد، والذي أسف الإبراهيمي لحاله، فقد كان يستفيد من تلك الخدمة أيما استفادة، سواء من الناحية الدينية أو الناحية الدنيوية:

أما الدينية، فإنه يجد نفسه في الخدمة مع رفقه من المريدين والمقدمين، ويخلطون خدمتهم بالذكر والمذاكرة، وفي تلك المحال (يدلهم الشيخ على الله على الوجه الأكمل ليصل بهم إلى درجة العرفان وسر التحقيق والإيقان وانفتاح البصائر واكتحالها بأثمد التوحيد الخاص والتمتع بالشهود والعيان وإفراد الوجهة القلبية بالتوجه لله سبحانه وتعالى وانقطاعها عما سواه بالكلية. وإخلاصها له بالعبودية ببلوغ مرتبة الإحسان)[2]

أما من الناحية الدنيوية، فقد كان المريدون من أكثر المناطق الجزائرية فقرا، فكان الشيخ يستخدمهم في خدمة المصالح العامة المرتبطة بالزاوية مقابل تلقيهم كل الدعم المادي والمعنوي من الشيخ وإخوانهم في الطريق، فيتبنى الشيخ قضاياهم ويسعى في مصالحهم، ويتكفل بهم وبأسرهم أوقات الشدة والأزمات والاضطرابات والنكبات، فيجدون في مختلف زواياها المأوى والإطعام، وإن تعذر على الزوايا استضافتهم فإنها تؤمن لهم المأوى سواء بالكراء أو عند إخوانهم، كما تتكفل الزاوية بمن تعرض للإفلاس من أتباعها وقد يضمنه الشيخ المدين منهم لدى الدائنين، وقد يقترض لأجلهم[3].

مع العلم أن المريدين كانوا يتنافسون على هذه الخدمة، ولو

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 170)

[2]) الحسن بن عبد العزيز: إرشاد الراغبين لما في الطريقة العلوية من الفتح المبين، دط. ص 17.

كان فيها أي أذى لهم، لما كان ذلك التنافس.

بعد هذا فإن الشيخ ابن عليوة – كما يـذكر جميـع المقـربين لـه- كان أقرب إلى الزهد، ولم يكن لـه أولاد، ووقـف كـل أموالـه على الزاوية.

ولكن الجمعيـة للأسـف لم تكن تنظـر إلى كـل ذلـك، ولم تكن تنظر إلى تلك الخدمة الإجبارية التي يقوم بها شـباب الجزائـر في خدمـة المصـالح الاسـتعمارية، بـل يقـدمون أنفسـهم فـداء لهـا، ويكتفون بالشيخ وبالطرق الصوفية، ولم يكلفوا أنفسم البحث عن سر ذلك.

وبما أن القيام بمثـل هـذه الخـدمات وغيرهـا والصـبر على هـذا النوع من السـلوك يحتـاج من المريـد إلى التسـليم للشـيخ وعـدم الاعتراض عليه، لأنـه لا يمكن أن يشـفى من المـرض من يعـترض على طبيبـه يـذكر الصـوفية أن من آداب المريـد التسـليم للشـيخ وطاعتـه في جميـع أوامـره ونصـائحه، من بـاب التسـليم لـذي الاختصاص والخبرة بعد الإيمان الجازم بمقدمات فكريـة أساسـية، منها التصديق الراسخ بإذنه وأهليته واختصاصه وحكمته وأنـه جمـع بين الشريعة والحقيقة.

ومنها عدم الاعتراض على شيخه في طريقة تربية مريديه، لأنـه مجتهد في هذا الباب عن علم واختصاص وخـبرة، كمـا لا ينبغي أن يفتح على نفسه باب النقد لكل تصرف من تصرفات شيخه، فهـذا من شأنه أن يضعف ثقته به ويحجب عنه خيراً كثيراً ويقطع الصـلة القلبية والمدد الروحي بينه وبين شيخه.

وينقلـون في هـذا عن بعض المشـايخ قولـه: (من فتح بـاب الاعـتراض على المشـايخ والنظـر في أحـوالهم وأفعـالهم والبحث عنها، فإن ذلك علامة حرمانه وسوء عاقبته وإنـه لا ينتج قـط، ومن ثم قالوا: -من قال لشيخه لم؟ لم يفلح أبداً)[1]

وقـد كـانت هـذه المقـولات محـل إنكـار شـديد من الجمعيـة، وسنرى ذلك بتفصيل مـع إجابـات الطـرق عنهـا عنـد الحـديث عن

---

[3]) اتصال هاتفي مع الحـاج مـراد بن تـونس بتـاريخ 3/12/2006، قـامت بـه الباحثـة غزالـة بوغانم، انظر: الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص 121.

[1]) عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص59-89

المناقشات الفكرية بين الطرق والجمعية.

وقد أحسن الشيخ ابن عليوة التعبير عن دور الشيخ، فقد شـبهه بـدور الإمـام في الصـلاة، فقـال في شـرحه الصـوفية لمتن ابن عاشر، عند ذكـره لفـرائض الصلاة وبالضـبط الفريضـة الخامسـة عشرة في المذهب المالكي، وهي (متابعة الإمام)، فقد ربط إمام الصلاة بإمـام التربيـة، فقـال: (متابعـة الإمـام)، وهـو المرشـد في طريق الله الدالّ عليه، فينبغي لصاحب السـير أن يتبـع إمامـه في الإحرام، وهو الدخول إلى حضرة الله إذا أدخله، وكـذلك يتبعـه في السلام وهو الرجوع للخلق، والتمسّك بأذيال الشـريعة المحمديّـة، وإن لم يتبعه بأن زج به في حضـرة الحـقّ، ولم يتبعـه أو خـرج بـه إلى الحضرة المحمديّة، ولم يساعده فصـلاته باطلـة لكن هـذا مـع الشعور وإلاّ فلا تبطل، لأنّ فاقد الشعور صلاته تجـبر)[1]

ومثل ذلك ذكـر في (الفريضـة السادسـة عشـرة) في المـذهب المالكي، وهي (نيّة الاقتداء)، فقد ربطها بسلوك المريد مع شيخه، فقال: (وهـذه النيّـة تطلب من مريـد الـدخول على اللـه أن ينـوي الاقتـداء بإمامـه، وهـو الأسـتاذ الـدّال على اللـه في جميـع الأمـور الدينيّة والدنيويّة بأن لا يعترض عليه بقلبـه ولا بلسـانه، ولا يتهـاون بأمره ويدور معـه من حيث دار ويسـير معـه حيث سـار، ولا ينبغي الانبرام عليه ولو بقدر يسير لكون الإمام شافعا في المقتـدي بـه، ثمّ اعلم أنّ الإمام وهو الدّال كذلك ينوي الإمامة أن ينوي بأنّه دّال على الله وإن لم يجد من يقتـدي بـه ليحصـل لـه فضـل الجماعـة، ويكون يوم القيامة من الداعين إلى الله لكن هذا إن كان لـه إذن من الله ورسوله وهو المعبّر عنـه بإمـام الـراتب، وإن لم يجـد من يتبعه في توجهه إلى الله عزّ وجلّ فعليه أن ينوي الإمامـة ليحصـل له فضل الجماعة، وعلى الله الكمال) [2]

وكما ذكرنا أهمية الشيخ وضرورة التسليم له، فإنا نحب أن ننبه هنا - من باب الحقيقة والواقـع - أن الكثـير من المشـايخ اسـتغلوا هذا التسليم لمصالحهم الشخصية، فأساءوا إلى الإسـلام وأسـاءوا إلى التصوف، ولو أن النقد الموجه من طـرف الجمعيـة ركـز على هؤلاء، ولم يعمم إلى الكل لكـان ذلـك أفضـل من التعميم، فــ {لَا

[1] ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، 259.

[2] ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، 262.

تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام: 164]

2 ـ الذكر:

يمثل الذكر الركن الأساسي في السلوك الصوفي، ولهذا لا نجد طريقة من دون أوراد أو أذكار، بـل إن الاختلاف بين الطـرق يكـاد ينحصر في أنـواع الأذكـار وأعـدادها وهيئاتهـا، وهـو مـا كـان محـل خلاف بينها وبين المخالفين لها كما سنرى في محله.

بناء على هذه الأهمية التي يكتسيها الذكر في السلوك الصوفي نحاول أن نبين هنا – باختصـار – محـل الـذكر وأهميتـه ودوره عنـد السلوكيين من الصوفية، أما ما يتعلق بالخلاف الـذي حصـل حولـه بين الطرق والجمعيـة وأدلـة كـل فريـق، فسـنتركها للبـاب الرابـع المخصص لهذه المناقشات.

تعريفه:

لغة: هـو الحفـظ للشـيء، وجريانـه على اللسـان، وهـو - لغـة- نوعان[1]:

1- ذكـر بـالقلب، ويـراد بـه هيئـة للنفس بهـا يمكن للإنسـان أن يحفظ ما يقتنيـه من المعرفـة، وهـو كالحفـظ إلا أن الحفـظ يقـال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وحضـور الشـيء في القلب ذكـره وتـذكره، بـإرادة أو بغـير إرادة وضـده نسـيانه وتناسيه، بإرادة أيضا أو بغير إرادة، قـال تعـالى: ({ قَـالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)(الكهف: 63)

2- ذكر باللسان سـواء باستحضـار القلب أو غـيره، ومنـه قولـه قـال تعـالى: { يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اذْكُـرُوا اللَّهَ ذِكْـرًا كَثِـيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42)} [الأحزاب: 41، 42]

اصـطلاحا: وردت تعريفـات كثـيرة من الصـوفية المتقـدمين والمتأخرين للذكر، وهي تدل على اختلاف مدلوله عنـدهم بحسـب حال المكلف ومقامه، وقد جمع تلك الأحـوال المختلفـة الكاشـانى (ت:735هـ) حين قسـم الـذكر إلى أنـواع كثـيرة[2] سنشـرحها هنـا

---

[1] محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق : محمود خـاطر، مكتبـة لبنان ناشرون – بيروت، ص 93، وانظر: لسان العرب 4/308، والمفردات ص179.

[2] انظر: كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، لطائف الاعلام في إشارات أهل الإلهام. صححه وعلق عليه مجيد هادي زاده. الطبعة ١. طهران، ص468.

باختصار:

ذكر العامة: وهو ما يتقرب به عامة أهل الإيمان، من ذكر الله تعالى إما بكلمة الشهادة، وإما بغيرها من التسبيحات والأدعية والأذكار.

ذكر الخصوص : وهو الذكر الذى يكون من تلقين الشيخ المرشد كتلقينه كلمة (لا إله إلا الله)، أو (الاسم المفرد) أو غيرها، وهو يختلف باختلاف الطرق الصوفية، والغرض منه إزالة حجاب معين مرشد إلى إزالته شيخ عارف بأدواء.

الذكر الظاهر : ويعنى به ذكر اللسان، الذى بمداومته يحصل الخلاص من الغفلة والنسيان.

الذكر الخفى : وهو الذكر بالجنان مع سكوت اللسان.

ذكر السر : وهو ما يتجلى له من الواردات.

الذكر الشامل : يعنى به استعمال الظاهر والباطن، فيما يقرب من الله تعالى بحيث يكون اللسان مشغولا بالذكر، والجوارح بالطاعات، والقلب بالواردات.

الذكر الأكبر: يعنى به ما وقعت الإشارة إليه، بقوله تعالى: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت: 45]، والمراد به كمال المعرفة والطاعة.

الذكر الأرفع : وهو الذكر الأكبر لأنه أرفع الأذكار، ويسمى الذكر المرفوع أيضا، وإليه الإشارة بقوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: 4]، فإنه تعالى رفعه بذكره وطاعته له، إلى مرتبة في الذكر لا يعلوها غيره من الخلائق.

دوره في السلوك:

يتفق الصوفية على أن الذكر والإكثار منه هو أقرب الطرق إلى الله، بل يرون أنه لا يمكن أن يتحقق للسالك سلوك من دونه، بل إنهم لا يكتفون بتلك الأوراد التي يلزمون بها أنفاسهم، أو يلزمون بها مريديهم، وإنما يحثونهم على أن يذكروا الله بعد الأنفاس، وأن لا تطرق قلوبهم غفلة في لحظة من اللحظات، وهم يرددون في هذا قول شاعرهم[1]:

والذكر أعظم باب أنت داخله ... لله فاجعل له الأنفاس حراساً

[1] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 61 .

وهم يستدلون لهذا بما ورد في النصوص الكثيرة من الحث عليه، بل الحث على المبالغة فيه، وقد ألف الشيخ عدة بن تونس شيخ الطريقة العلاوية رسالة في الذكر ضمنها الكثير من النصوص الدالة على فضله، وعلى عدم تحديده بأي قيد من القيود التي يقيده بها الاتجاه السلفي، وسماها (وقاية الذاكرين من غواية الغافلين)، وهي من خلال عنوانها تدل على انتشار تلك الأطروحات التي بثتها الجمعية من تبديع الطرق، وتبديع ما يأتون به من أذكار حتى لو وردت بها النصوص، لأنهم وقتوا الأذكار أو جهروا بها أو اجتمعوا عليها، كما تنص على ذلك الرسالة التي ألفها الشيخ العربي التبسي (بدعة الطرائق في الإسلام)، والتي سيأتي الحديث عنها وعن أدلته فيها في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

وقد قدم الشيخ عدة بن تونس لرسالته بقوله: (إن الذكر قد وردت به النصوص القرآنية والأحاديث النبوية كلها تحث على الترغيب فيه بعبارة بينة لا يتأولها إلا من اتبع هواه وكان أمره فرطاً)[1]

ومن النصوص التي أوردها، ويوردها الصوفية عموما قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43)} [الأحزاب: 41 - 43]، ثم عقب عليها بقوله: (فتأمل يرحمك الله في صيغة الأمر من قوله اذكروا وسبحوا، فهي وإن لم تفدنا وجوب الذكر على ما جرى عليه بعض الأئمة المجتهدين فلم تخل من إشعار السامع من ترغيب كبير في ملازمة الذكر بكرة وأصيلا وكفى به فضلاً)[2]

ومن الآيات التي استدل بها قوله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)} [آل عمران: 190، 191]

ثم عقب عليها بقوله: (فهي كذلك فيها ما يشعرنا بفضل الذكر والذاكرين حيث عدهم الله تعالى من أولى الألباب، وماذا بعد

---

[1]) الشيخ عدة بن تونس، وقاية الذاكرين من غواية الغافلين، المطبعة العلاوية بمستغانم، ص 3.

[2]) الشيخ عدة بن تونس، وقاية الذاكرين من غواية الغافلين، ص 3.

اللب إلا القشر وأين ذووا القشور من ذوي الألباب الذين يــذكرون اللـه قيامـاً وقعـوداً وعلى جنـوبهم ولا غلـوا إذا قلنـا أنهم الخاصـة العليا من خلق الله بعد الأنبياء والرسل كل ذلك بفضل الذكر الذي لازموه على كل أحيانهم، وهي منقبة شريفة لا يورثها اللــه إلا لمن اختاره واصـطفاه من عبـاده وكفى بـأن الـذاكر جليس اللـه حالـة ذكره)[1]

ومن النصوص التي أوردها مـا ورد في الحـديث المشـهور: (أنـا جليس من ذكرني)[2]، وعقب عليه بقوله: (و كفى بالذكر فضــلاً أن يصير صاحبه جليس الله)

وغيرهـا من النصـوص الـتي عقب عليهـا بقولـه: (وأمثـال هـذه الآيات الدالة على الـترغيب في الـذكر كثـيرة في كتـاب اللـه ولم تذكر أي قربة من القربات بمثل ما ذكر به الذكر وكفى أن الصلاة المكتوبة التي ورد فيها أنها عماد الدين ولكن لم تبلـغ مبلـغ الـذكر في الاعتبار بمـا يرجـع للنهي وقمـع النفس والهـوى عن الفحشـاء والمنكر قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبـوت: 45]، وقـال تعـالى لموسى عليه السـلام: {وَأَقِمِ الصَّـلَاةَ لِـذِكْرِي} [طـه: 14]، وقـال لنبينا محمـد ﷺ : {وَاذْكُـرِ اسْـمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْـهِ تَبْتِيلًا } [المزمـل: 8])[3]

وبناء على هذا، فإن الصـوفية يمنعـون كـل الحـدود الحائلـة بين السالك والذكر:

1 ـــ فهم - مثلا- ينبهـون السـالك إلى ضـرورة الالـتزام بالـذكر حتى لو صاحبه غفلة، وذلـك مـا تنص عليـه حكمـة ابن عطـاء الله المشهورة:(لا تترك الـذكر لعـدم حضـور قلبـك مـع اللـه فيـه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكـر

---

[1]) الشيخ عدة بن تونس، وقاية الذاكرين من غواية الغافلين، ص 3.

[2]) قال عنه محمد بن درويش بن محمد الحوت في (أسنى المطـالب في أحـاديث مختلفـة المراتب دار الكتب العلمية، (ص: 92): (له طرق ضعيفة ومنها حديث أنا مع عبدي ما ذكرني وتحـركت بي شـفتاه وأخرجـه البخـاري في آخـر صـحيحه لكن المعـنى مختلـف بين المعيـة والمجالسة)

[3]) الشيخ عدة بن تونس، وقاية الذاكرين من غواية الغافلين، ص 3.

مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عن ما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزي) [(1)]

وقد علق عليها ابن عجيبة بقوله: (الذكر ركن قوي في طريق القوم، وهو أفضل الأعمال.. ولا مدخل على الله إلا من باب الذكر، فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته، ويبذل فيه جهده، فإن الذكر منشور الولاية، ولا بد منه في البداية والنهاية، فمن أعطي الذكر فقد أعطي المنشور، ومن ترك الذكر فقد عزل) [(2)]

2 ــ وهم يعتبرون الذكر أشمل من أن ينحصر في الألفاظ التي يرددونها، ويكثرون من تردادها، يقول ابن عطاء الله السكندري، وهو قطب من أقطاب الشاذلية، بل هو مرجع لأكثر الصوفية المتأخرين: (الذكر هو ترديد اسم المذكور بالقلب واللسان، وسواء في ذلك ذكر الله أو صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو استدلال على شيء من ذلك، أو دعاء، أو ذكر رسله، أو أنبيائه، أو أوليائه، أو من انتسب إليه، أو تقرب إليه بوجه من الوجوه، أو سبب من الأسباب، أو فعل من الأفعال : بنحو قراءة أو ذكر، أو شعر أو غناء، أو محاضرة أو حكاية)[(3)]

3 ــ وهم يربطون بين عاداتهم والذكر، فيوقظون النائم بالذكر، ويدخلون البيوت بالذكر، وقد كان ذلك محل من الإنكار من الجمعية والاتجاه السلفي، وقد رد الشيخ ابن عليوة على هذا الإنكار في رسالته في مشروعية ذكر الاسم المفرد: (الله) والتي نشرها على صفحات (البلاغ الجزائري)[(4)]، ثم طبعت بعنوان (القول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد)، ومما وصف به الواقع الصوفي في ذلك الحين، والذي صار محل إنكار بعد مجيء الإصلاحيين قوله: (أيها الأخ المحترم، فقد كنتُ تشرفتُ بزيارتكم صحبة صديق الجميع حضرة الشيخ....... وبمناسبة ما دار

---

[1]) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 60 .

[2]) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 61 .

[3]) أحمد بن عطاء الله السكندري، مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1961، ص 4.

[4]) البلاغ الجزائري، عدد 69 و70 و71.

بيننـا من الحـديث، في تلـك السـويعات الـتي رأيتكم فيهـا مـوغر الصدر على إخوانكم العلاويين، حسـبما لاح لي في ذلـك الحين، لا لـذنب ارتكبـوه سـوى أنهم مولعـون بـإجراء الاسـم المفـرد على ألسنتهم، وهو قولهم: (الله). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقول العقاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجون بذكر ذلك الاسم بمناسـبة أو غـير مناسـبة، سـواء عليهم في الأزقـة، أو غيرهـا من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقـول: (الله)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقـول: (اللـه)، وإذا جلس يقول: (الله)، إلى غير ذلك مما جرى به الحديث)[1]

وسـنرى في الجـزء الثـالث من هـذه السلسـلة إجابـات الشـيخ والصوفية على هذا الإنكار، ومثله مـا كـانت تشـيع بـه الجنـائز من الذكر، والذي كان محل إنكار شديد من الجمعية وخصوصـا الشـيخ البشير الإبراهيمي، كما رأينا ذلك في الفصل السابق.

ثالثا ــ ممارسات السلوك الصوفي:

بعد التعـرف على شـروط السـلوك الصـوفي، نتحـدث هنـا عن الممارسات التي تختلف على أساسها الطرق الصوفية، وننبـه هنـا كما نبهنـا سـابقا إلى أنـا سـنذكر التفاصـيل المرتبطـة بالأدلـة في محلها من الجزء الثالث من هذه السلسلة.

1 ــ الورد الصوفي:

تعتبر الأوراد الصوفية ركنـا من أركـان كـل طريقـة، تتمـيز بهـا، وتـربي المريـدين من خلالهـا، وهي أذكـار محـددة بصـيغة خاصـة وبأعداد خاصة، ويضـم إليهـا بعض الصـلوات، والسـور، والمناجـاة، ونحوها، وهم يعلقون سلوك السالك على مقدار التزامه بهـا، كمـا قال القاشاني: (من ازدادت وظائفه ازدادت من الله لطائفه، ومن لا ورد له بظاهره فلا ورد له في باطنه، ومن لا ورد لـه في باطنـه فليس له وجد في سرائره) [2]

وقـال ابن عطـاء الله السـكندري : (إذا رأيت عبـداً أقامـه اللـه تعالى بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الإمداد، فلا تسـتحقرن مـا منحـه مـولاه، لأنـك لم تـر عليـه سـيماء العـارفين ولا بهجـة

[1]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص6.

[2]) الشيخ كمال الدين القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإفهام، ص 197.

المحبين، فلولا وارد ما كان ورد)[1]

وقد كانت هذه الأوراد محل إنكار كبير من الجمعية، كما سـنرى في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

تعريف الورد:

لغة: قال ابن منظور: الورد النصـيب من القـرآن يقـول قـرأت وردي وفي الحديث أن الحسن وابن سيرين كانا يقرآن القرآن من أولـه إلى آخـره ويكرهـان الأوراد الأوراد جمـع ورد بالكسـر وهـو الجزء يقـال قـرأت وردي قـال أبـو عبيـد تأويـل الأوراد أنهم كـانوا أحدثوا أن جعلوا القرآن أجزاء كل جزء منها فيه سور مختلفـة من القرآن على غير التأليف جعلوا السورة الطويلـة مـع أخـرى دونهـا في الطول ثم يزيدون كذلك حتى يعدلوا بين الأجزاء ويتموا الجـزء ولا يكون فيه سورة منقطعة ولكن تكون كلهـا سـورا تامـة وكـانوا يسمونها الأوراد ويقال لفلان كـل ليلـة ورد من القـرآن يقـرؤه أي مقدار معلوم إما سبع أو نصف السبع أو ما أشـبه ذلـك يقـال قـرأ ورده وحزبـه بمعـنى واحـد والـورد الجـزء من الليـل يكـون على الرجل يصليه[2].

اصطلاحا: عرفه أبو طالب المكي بأنه (اسم لوقت من ليل أو نهار، يرد على العبد مكررا، فيقطعه في قربة إلى الله، ويورد فيـه محبوباً يرد عليه في الآخرة)[3]

وعرفه الشيخ سليمان بن يونس الخلـوتي بقولـه: (الـورد : هـو مجموعة أذكار وأدعية يقصد بها، مناجـاة الحـق سـبحانه وتعـالى، والتذلل بين يديه، وفاءً بحق العبودية لله تعالى)[4]

أوراد الطرق الصوفية:

---

[1] عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، دار الحياة، (ص: 67)

[2] لسان العرب (3/ 456)

[3] أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبـوب ووصـف طريـق المريـد إلى مقـام التوحيد، دار صادر، ج 1ص 81..

[4] الشيخ سليمان بن يونس الخلوتي، فيض الملك الحميد وفتح القـدوس المجيـد، المطبعـة الادبية، ط1 – 1315 هـ، ص 113.

تختلـف الطـرق الصـوفية في أورادهـا على حسـب مـا يختـاره شيخها:

فمن أوراد الطريقة التيجانية مثلا ذكـر صـلاة الفـاتح، وهي كمـا يرى أتباع الطريقة أمر إلهي لا مدخل فيه للعقول، يقول عبيدة بن محمد الصغير : (فما توجه متوجه إلى الله تعالى بعمل يبلغهـا وإن كان ما كان، ولا توجه متوجه إلى الله تعالى بعمل أحبـه إليـه منهـا ولا أعظم عنـد اللـه حضـرة منهـا إلا مرتبـة واحـدة مرتبـة الاسـم العظيم الأعظم لا غـير)[1]، وقـد أنكـر ابن بـاديس بشـدة هـذه المقالة، كما سنراه بتفصيل في محله.

ومن أوراد الطريقة العلاويـة: الـورد الخـاص، وهـو ذكـر الاسـم المفرد (الله) فبه – كما يرى العلاوية - يكـون الفتح والوصـول إلى مقام التحقيق [2] وهو متوقف على سر الإذن فيه، وهو (اسم اللـه العظيم الأعظم الجامع لمعاني الأسـماء والصـفات الـذي إذا دعي بـه أجـاب وإذا سـئل بـه أعطى. فمن طلبـه لذاتـه أي لمعرفتـه الخاصة بصفة الذل والانكسار، وإظهار العبودية والافتقار وبالأخص على يد مرشد وجد الإجابة أقرب إليه من كل شيء)[3].

ومن أورادهم العامة أن يقول المريد صباحا ومساء ما يلي[4]:

1. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (مرة)
2. بسم الله الرحمان الرحيم(ثلاثا)
3. ثم يتلو قوله تعالى:{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِـكُمْ مِنْ خَيْـرٍ تَجِـدُوهُ عِنْـدَ اللَّهِ هُـوَ خَيْـرًا وَأَعْظَمَ أَجْـرًا وَاسْـتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ } [المزمل: 20] (مرة)

---

[1] ابن انبوجة التشيتي، ميزاب الرحمة الربانية في التربيـة بالطريقـة التيجانيـة، مصـر ، ص 290)

[2] الحسن بن عبد العزيز، إرشاد الراغبين لمـا في الطريقـة العلويـة من الفتح المـبين، ص 27.

[3] إرشاد الراغبين لما في الطريقة العلوية من الفتح المبين، ص 29.

[4] أحمد بن مصطفى بن عليوة: برهان الخصوصية، المطبة العلاوية، مستغانم، ص 23.

4. استغفر الله (مائة مرة)
5. ثم قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [الأحزاب: 56] (مرة)
6. اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم (مائة) وعلى رأسها يزيد وسلم تسليما.
7. ثم قوله تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [محمد: 19]) (مرة)
8. لا اله إلا الله وحدة لا وحدة لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (مائة)
9. وفي الختام يقرأ سورة الإخلاص (ثلاثا) ثم يدعو الله لنفسه ولشيخه ولأهل سلسلة الطريق ولجميع المسلمين.

بالإضافة إلى هذا هناك ما يسمى الوظيفة اليومية، وتتمثل في قراءة (سورة الواقعة) صباحا ومساء، مع قراءة مزج أبى المواهب التونسي للصلاة المشيشية (مرة) وبعدها قراءة الصلاة الكاملة للشيخ محمد بن الحبيب بن الصديق الفاسي، وهي: (اللهم صل وسلم بأنواع كمالاتك في جميع تجلياتك على سيدنا ومولانا محمد أول الأنوار الفائضة من بحر عظمة الذات. المتحقق في عالمي البطون والظهور بمعاني الأسماء والصفات. فهو أول حامد ومتعبد بأنواع العبادات والقربات والممد في عالمي الأرواح والأشباح لجميع الموجودات. وعلى آله واصحابه صلاة تكشف لنا النقاب عن وجه الكريم في المراءي واليقظات. وتعرفنا بك وبه في جميع المرات وخطرات. واللطف بنا يا مولانا بجاهه في الحركات والسكنات واللحظات والخطرات) (ثلاثا)

ثم قراءة ما ذيل به الشيخ ابن عليوة هذه الوظيفة، وهو: (اللهم يا من جعلت الصلاة على النبي من القربات. اتقرب إليك بكل صلاة صليت عليه من أول النشأة إلى ما لا نهاية للكمالات (ثلاثا) سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1]

بالإضافة إلى مناجاة الشيخ ابن عليوة التي يخير المريد في قراءتها، والتي تبدأ بقوله: (إلهي، أسألك بأعزّ من ناجاك وأفضل من دعاك أن تمطر على قلبي شآبيب عطفك،

---

[1] ابن عليوة: برهان الخصوصية، ص 20.

وسحائب رضاك وتلقي فيه حلاوة ذكرك، وتوقظه من غفلاته حتى لا يشاهد سواك، وتثبته على طاعتك وتقوّيه على تقواك، يا من تحسّنت الأشياء ببهاء جمالك الأقدس، وازدهرت بظهور سناك، ائتنا كفلا من رحمتك وارزقنا نورا نمشي به تنجلي أمامه تكاثف الظلمات، وتتضح به مناهج السعادة وسبل الخيرات، واغفر لنا ما مضى ولإخواننا المؤمنين، ووفقنا فيما هو آت بحقّ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: 1])[1]

أو مناجاة ابن عطاء الله المشهورة، والتي تبدأ بقوله: (إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري ؟ إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي ؟)[2] إلى آخرها، وهي آية من آيات البلاغة والعرفان، بالإضافة إلى كونها رمزا للوحدة الإسلامية، فالشيعة –كأكثر الطرق الصوفية- أيضا يرددونها، وهم ينسبونها للحسين، ولا يهم مصدرها فمعانيها العميقة دليل على أنها صدرت من قلب عارف.

2 ـ الخلوة:

لم يكتف الصوفية بالالتزام بالأذكار والأوراد التي يعمرون بها أكثر أوقاتهم، وإنما ضموا إليها الالتزام بما يسمونه (الخلوة)، إما في أزمنة معينة، أو مدد معينة كالخلوة الأربعينية والخلوة الأسبوعية[3].

وهم يتفقون سلفهم وخلفهم على أهميتها وضرورتها للسلوك،

---

[1]) ابن عليوة، النور الضاوي في الحكم ومناجاة الشيخ العلاوي، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص202.

[2]) شرح الحكم العطائية للشرنوبي، (ص: 195)

[3]) الخلوة الأربعينية هي (الخلوة المنسوبة إلى أربعين يوماً وليلة، وهي – كما يذكر الصوفية- ميقات موسى عليه السلام في مناجاة ربه، ومدة تخمير طينة آدم عليه السلام، حتى استعد لنفخ الروح فيه عن أمر الله تعالى. وهي خلوة مشهورة عند أرباب الطريق، ولها شروط وآداب)، أما الخلوة الأسبوعية، فقد عرفها أبو الهدى الصيادي الرفاعي بقوله: (هي عبارة عن اعتكاف يشتمل على، صيام، وقيام، وتريض في الطعام، واشتغال بذكر الله الملك العلام، وعزلة عن الخلق بصدق الالتجاء إلى الحق) (انظر: السيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي واتباعه الأكابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1980، ص 311)

ويشرطون للمختلي حال خلوته، كما يذكر أبو عثمان المغربى (ت:373هـ) أن (يكون خاليا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخاليا من جميع الإرادات إلا رضا ربه، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية)[1]

وقد كانت الخلوة – خصوصا – محل سخرية ونقد شديد من طرف رجال جمعية العلماء، وخصوصا الخلوة التي كانت تقيمها الطريقة العلاوية، والتي كتب فيها الشيخ العربي التبسي مقالا مشهورا بعنوان: (الخلوة العليوية هل هي من الإسلام)[2]

والعجيب أن هذا المقال صار مرجعا للباحثين في (الخلوة الصوفية)، ومن خلاله، لا من خلال مراجع الصوفية، يحكمون عليها، ويحكمون على أصحابها، مع أن الشيخ العربي التبسي نفسه يقر أو يعتذر بأنه لم يلتزم المنهج العلمي في وصفها أو التعرف عليها، وقد ذكر في المقدمة المقال الذي كتبه عنها قوله: (إن البحث عن ابن عليوة ومكانته ونشأته وتعليمه والوسط الذي ربي فيه وما تقلب فيه من الأدوار في الجزائر وغيرها، ليس مما تتوقف عليه البحوث مادام عندنا ما نستخلص منه الحق، ونصل به إلى ما نريد، ونهتدي به إلى الصواب. كما سنقف عليه إن شاء الله)[3]

ثم يضيف مقرا بفعله ما يخالف المنهج العلمي، ومنهج المحدثين على الخصوص، فقد قال تعقيبا على الكلام السابق: (وأجدني معترفا بأني لا أعرف شخصية هذا الرجل، ولو أن معرفة الشخصيات شرط أو شطر في صلب أو مخ أو أطراف الأنظار العلمية، لسافرت إلى مستغانم ولازمت الرجل حتى أصل إلى ما يتوقف عليه الاجتماع، ولكن النظر العلمي لا يتوقف، إلا على

---

1) الرسالة القشيرية، ص301.

2) نشر هذا المقال في جريدة الشهاب : جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 118، الخميس 20/10/1927م الموافق 23/ربيع الثاني/1346هـ، ص 10 و11 و12.

3) المصدر السابق.

معرفة أصول الدعوة، والأجواء التي تسير فيها)[1]

ولسنا ندري الطريق الذي يصل به إلى الحقيقة إن لم يذهب إليها، ويستفسر عنها، ويرى المبررات التي يضعها أصحابها لها، خاصة في مقامه الذي يريد أن يحكم فيه على أمة عظيمة من الناس[2].

ثم إنه ذكر مرجعه في وصفها وهو مرجع مجهول لم يسمه، ولسنا ندري قيمة هذا السند في علم الحديث، بالإضافة إلى هذا، فقد كان الشيخ العربي التبسي أزهريا، وكان في الأزهر ونواحيه خلوات صوفية لطرق كثيرة، ولم تكن أقل من الخلوة العليوية، أفلم يكن له فرصة للاطلاع عليها، أو البحث في أسبابها؟

بل لم يكن بحاجة إلى هذا كله، فلو أنه قرأ (إحياء علوم الدين)، وهو من الكتب المعروفة التي لا يخلو منها بيت، ولا يكاد يمر عليها طالب علم دون أن يقرأها، لوجد في الإحياء وصفا للخلوة العليوية يغنيه عن ذلك الوصف المجهول السند.

ولم يكن العربي التبسي وحده صاحب هذا المنهج، بل كل أعضاء الجمعية - للأسف- الذين اتخدوا النقد منهجا، من غير أن يؤسسوا نقدهم على الأسس العلمية الصحيحة، وأولها مراجعة أصحاب الشأن للتعرف على الحقيقة من بابها.

وأحب قبل أن نفصل الكلام في تعريف الخلوة وهيأتها والغرض منها أن أذكر أن حديثي فيها ليس نظريا فقط، بل شرفني الله في وقت الشيخ محمد بلقايد رحمه الله شيخ الطريقة الهبرية، والتي هي فرع عن الطريقة الشاذلية الدرقاوية أن أدخل الخلوة، وأرى ما فيها، وهو نفس ما تمارسه الطريقة العلاوية.

---

[1]) المصدر السابق.

[2]) اعتذر الدكتور أحمد عيساوى عن الشيخ العربي التبسي من هذا الموقف، بأنه (لايستطيع الذهاب بنفسه لاعتبارات عديدة: أهمها أن أصحاب الطريقة يعرفونه كخصم لهم، وبالتالي فسوف لن يتعاملوا معه بنفس معاملتهم الطرقية الاعتيادية، ولذا فقد أرسل أحد الأقرباء من عشيرته الذي يثق فيه)، وجوابا على هذا الاعتذار نذكر أن الباحث يحتاج إلى استطلاع أسرار الأمر من أهله، ولا يكفي فيه مجرد الوصف السطحي الظاهري، خاصة وأنه كان للطريقة فقهاء معتبرين، وكان في إمكانهم أن يسألهم، ولكن للأسف وضعت الجمعية قطيعة بينها وبين الطرق، فلذلك سمحت لكل مناوئ أن يصف ما يشاء كيف يشاء (انظر: د. أحمد عيساوي، آثار العربي التبسي، ص166)

وأشهد الله بناء على تلك المعاينة أن تلك الخلوة لم تكن إلا تفرغا لذكر الله، ولم يحدث فيها أي مخالفة شرعية، وقد اكتشفت من خلالها عظم فقه من أسسوها ونظروا لها، فتأثيرها يمتد في النفس إلى أعماق أعماقها، ويبقى تأثيرها وحلاوتها أمدا طويلا.

وكم كنت أتمنى أن الحركة الإسلامية مع اهتمامها بالنشاطات الكشفية والمخيمات الصيفية وغير الصيفية أن تضيف الخلوة الروحية إلى برامج تربيتها عساها تتخلص من تلك السطحية التي يعاني منها الكثير من أتباعها للأسف.

بعد هذا الاستطراد الذي رأينا ضرورته نتحدث هنا عن تعريف الخلوة والغاية منها وكيفيتها، ونترك الحديث عن التفاصيل الشرعية المرتبطة بها إلى الجزء الثالث من هذه السلسلة، لمناقشة أدلة الفريقين الجمعية والطرق الصوفية.

تعريف الخلوة:

لغة: الخلوة : يقصد بالخلوة عدة معان، كلها له علاقة بالمعنى الاصلاحي، منها[1]:

ــ خلا بمعنى انفرد وانتهى إلي خلوة كقوله تعالى : { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ } [يوسف:9]

- خلا بمعنى سبق ومضى، ومنه قوله تعالى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } [الحاقة:24]

- وخليت فلانا تركته، يقال لكل ترك تخلية، نحو قوله تعالى : { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [التوبة: 5]

اصطلاحا: يقصد بالخلوة عند الصوفية عموما ما ورد في المعنى الأول من المعاني اللغوية، وهو الانفراد والوحدة والتخلي لذكر الله، وقد عرفها الكاشاني، فقال: (الخلوة عند الصوفية، محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره، هذا حقيقة الخلوة ومعناها، وأما صورتها فهي ما يتوصل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله والانقطاع عن الغير)[2]

وعرفها الحكيم الترمذي بقوله: (الخلوة: هي انقطاع من الخلق إلى الخالق، لأن سفر النفس إلى القلب، ومن القلب إلى الروح، ومن الروح إلى السر، ومن السر إلى خالق الكل.. ومسافة هذا

---

[1]) لسان العرب 11/218، والمفردات ص158، وكتاب العين 4/306.

[2]) الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص161.

السفر بعيدة جـداً بالنسـبة إلى النفس، وقريبـة جـداً بالنسـبة إلى الله تعالى)[1]

وقــد انتقــل معناهــا من الفعــل إلى المحــل، فيقــال للمكــان المخصص للانفراد خلوة، سـواء كـان المكـان ملحقـا بالمسـجد أو الزاوية أو منفردا عنه.

الغاية منها:

ذكر الشيخ العربي التبسي عند نقده للخلوة العليوية ذلك الولـه الشديد الذي ربط المريدين بالخلوة، وذكر أنه سر انتشار الطريقة في ذلك الحين على مستوى واسع، فقال: (إن الأمـر الـذي نفــخ الشيخ ابن عليوة في أتباعه، وملأ به صدورهم، وكـادوا يجنـون بـه جنونـا، مـا تذيعـه الـدهماء من الخـوارق الـتي تتـنزل عليهم فيمـا يسـميه بـالخلوة، ومـا يرونـه من كشـف الحجب واخـتراق الغيب، والتنقل في مدارج الفناء، وغير ذلك من الألفاظ، التي يعلم الشيخ ابن عليوة قبل سواه أنه لا يعـرف لهـا مغـزى، ولا يهتـدي بهـا إلى مفهوم تطمئن إليه نفسه، ويبيح لـه دين تظلـه العصـمة، ويصـحبه العقل أن يفتن بها أحدا مـادام يـؤمن بصـحة هـذا الـدين، ويصـدق برسـالة صاحبه) [2]

ومـا ذكـره هنـا من اختصـار الطريـق للمريـدين وتـدرجهم فيـه صحيح، بغض النظر عما ذكـره من كـون (الشـيخ ابن عليـوة قبـل سواه لا يعرف لها مغزى، ولا يهتدي بها إلى مفهـوم تطمئن إليـه)، لأن هـذا يحتـاج إلى معاينـة واستفسـار وبحث، وقـد حـال الشـيخ العربي بينه وبين هذا المنهج كما حال جميـع رجـال الجمعيـة بينهم وبينه، واكتفوا بأن الشيخ ابن عليـوة أمي جاهـل يلحن في كلامـه، وليس له تلك الفصاحة والبلاغة التي أوتيها رجال الجمعية.

ولو أن الشيخ العربي ورجال الجمعيـة الـذين جعلـوا من مقالـه هذا مرجعا رجعوا إلى كتاب (إحياء علوم الدين) الـذي لا ينكرونـه، لوجدوه ينص على هذا تماما.

بل إنه حتى لـو لم يتح لهم أن يقـرؤوا الإحيـاء أو كـان مـوقفهم منه كموقف يوسف بن تاشفين، فإنهم لا يجادلون في ابن خلـدون

---

[1]) الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، تحقيق عثمان اسماعيل يحيى، بحـوث ودراسـات معهـد الآداب الشرقية، المطبعة الكاثوليكيبة، بيروت، ص 476.

[2]) جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عـدد 118، الخميس 20/10/1927م الموافـق 23/ربيـع الثاني/1346هـ، ص 10.

– وهو موضع ثقة عندهم فيما نعلم- فقد قال يذكر الخلوة وآثارها: (ثم إِن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراكُ شيء منها؛ والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إِذا رجع عن الحس الظاهر إِلى الباطن، ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغَلَب سلطانه، وتجدد نُشُوؤهُ. وأعان مع ذلك الذكر؛ فإِنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزايد إِلى أن يصير شهوداً، بعد أن كان عِلماً، ويكشف حجاب الحس، ويتم صفاء النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإِدراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإِلهي.. إِلى أن قال: وهذا الكشف كثيراً ما يَعرِض لأهل المجاهدة؛ فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم.. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كثير منها، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت الرسالة القشيرية على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم)[1]

وبما أن المسألة لها أهميتها الكبرى في توضيح غرض الصوفية من الخلوة خصوصا، بل غرضهم من كثير من الوظائف التي ألزموا بها أنفسهم، فسنوضح هنا وجهة نظرهم فيها من خلال كلام أبي حامد الغزالي باعتباره محترما من الجميع، من الجمعية ومن الطرق الصوفية، أو على الأقل تقر له الجمعية بما لا تقر به للصوفية من العلم والتمكن، بالإضافة إلى قدرته في حل الغوامض والمعقدات، بالإضافة إلى أنه ينقل تجربته في هذا.

أما تفاصيل الأدلة المرتبطة بها، فسنذكرها عند الحديث عن المصادر الغيبية التي تعتمدها الطرق الصوفية.

وقد بدأ الغزالي حديثه الذي قدم به للخلوة الصوفية وضرورتها ببيان خصائص القلب الإنساني[2]، وأنه يمكنه أن تتجلى فيه حقائق الأشياء، ولتقريب ذلك شبهه في استعداده لإدراك حقائق الأشياء بالمرآة في إدراكها لصور المتلونات (وكما أن للمتلون صورة

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، 1984، ص 470.

[2] هو لا يعني بالقلب الجارحة المعروفة، وإنما يعني محل الإدراك من الإنسان.

ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب، وتتضح فيها.. وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير، فهي ثلاثة أمور فكذلك ههنا ثلاثة أمور: القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه)[1]

والقلب بهذا الاعتبار هو العالم الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة، والعلم بهذا الاعتبار متوفر حاصل، ولكن الحائل بينه وبين الوصول إلى محال الإدراك في الإنسان هي عدم مد يده إليه، وهو يشبه في ذلك -كما يذكر الغزالي – باليد والسيف، فـ (كما أن القبض مثلا يستدعي قابضا كاليد، ومقبوضا كالسيف، ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف في اليد، ويسمى قبضا، فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا لعدم وقوع السيف في اليد) [2]

والغزالي – كسائر الصوفية- يعود إلى مثال المرآة ليبين من خلاله الأسباب التي تحول دون تمثل حقائق الأشياء في القلب، فيذكر أن (المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور: أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل، والثاني لخنثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل، والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة، والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة، والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها) [3]

ويطبق هذه الأسباب الخمسة على محل الإدراك الروحاني من الإنسان، والذي يعبر عنه بالقلب فيقول: (فكذلك القلب مرآة

---

[1]) إحياء علوم الدين:3/13.

[2]) إحياء علوم الدين:3/13.

[3]) إحياء علوم الدين:3/13.

مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلهـا، وإنمـا خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسـباب الخمسـة: أولهـا نقصـان في ذاتـه كقلب الصـبي فإنـه لا ينجلي لـه المعلومـات لنقصـانه.. والثـاني لكـدورة المعاصـي والخبث الـذي يـتراكم على وجـه القلب من كـثرة الشـهوات، فـإن ذلـك يمنـع صـفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه.. الثالث أن يكـون معدولا به عن جهة الحقيقـة المطلوبـة فـإن قلب المطيـع الصـالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحـق، لأنـه ليس يطلب الحـق وليس محاذيـا بمرآتـه شـطر المطلـوب، بـل ربمـا يكـون متسوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفيـة الإلهيـة، فلا ينكشـف لـه إلا مـا هـو متفكـر فيـه من دقـائق آفـات الأعمـال وخفايـا عيـوب النفس إن كـان متفكـرا فيهـا أو مصـالح المعيشة إن كان متفكرا فيها.. الرابع الحجاب فإن المطيع القـاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قـد لا ينكشـف لـه ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سـبق إليـه منـذ الصـبا على سـبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فـإن ذلـك يحـول بينـه وبين حقيقـة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبـه خلاف مـا تلقفـه من ظـاهر التقليـد.. الخـامس الجهـل بالجهـة الـتي يقـع منهـا العثـور على المطلـوب، فـإن طـالب العلم ليس يمكنـه أن يحصـل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حـتى إذا تـذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصـا يعرفـه العلمـاء بطـرق الاعتبـار، فعنـد ذلـك يكـون قـد عـثر على جهـة المطلـوب فتنجلي حقيقـة المطلـوب لقلبـه فـإن العلـوم المطلوبـة الـتي ليسـت فطريـة لا تقتنص إلا بشبكة العلـوم الحاصـلة، بـل كـل علم لا يحصـل إلا عن علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه مخصـوص فيحصـل من ازدواجهما علم ثالث)[1]

بناء على هذا فإن الصوفية يعتبرون السلوك الصوفي – والخلوة خصوصا- وسيلة لإزاحة الأسباب الحائلة بين القلب وتجلي حقـائق الأشـياء على مرآتـه، وينفـردون بالاهتمـام بهـذا المصـدر من بين سائر الباحثين عن الحقـائق، يقـول الغـزالي: (اعلم أن ميـل أهـل التصوف إلى العلوم الإلهاميـة دون التعليميـة، فلـذلك لم يحرصـوا

[1]) إحياء علوم الدين:3/13، 14.

على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة)[1]

ويبين أن هذا المنهج هو منهج الأنبياء والأولياء الذين (انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له)[2]

وبناء على هذا التقديم ذكر الغزالي كيفية الخلوة، والتي كانت تطبق في ذلك الحين، وهي نفسها التي مارسها الشيخ ابن عليوة.

أما الخوارق التي تحصل، فما الحرج فيها، وهل من هناك من النصوص ما ينكرها، وقد ذكر أبو حامد نفسه – الذي هو ثقة عند الجميع- في كتابه (المنقذ من الضلال) شهادته في هذا بعد أن قضى جزءا مهما من حياته ملتزما بكثير من الخلوات، فقد قال: (.. ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ؛ وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور

---

[1]) إحياء علوم الدين:3/14.

[2]) إحياء علوم الدين:3/14.

النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به)[1]
ثم ذكر أنه (من أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشـاهدات، حـتى أنـهم في يقظتهم يشـاهدون الملائكـة، وأرواح الأنبيـاء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسـون منهم فوائـد. ثم يـترقى الحـال من مشـاهدة الصـور والأمثـال، إلى درجـات يضـيق عنهـا نطـاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشـتمل لفظـه على خطـأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.. وعلى الجملة. ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفـة الوصـول، وكل ذلك خطأ) [2]
ثم بين، وهـو المتكلم الأصـولي الفقيـه الفيلسـوف قيمـة تلـك الخلـوات الإيمانيـة، فقـال: (وبالجملـة، فمن لم يـرزق منـه شـيئاً بالـذوق، فليس يـدرك من حقيقـة النبـوة إلا الاسـم، وكرامـات الأولياء، هي على التحقيق، بـدايات الأنبيـاء، وكـان ذلـك أول حـال رسول الله ﷺ، حين أقبل إلى جبل (حـراء)، حيث كـان يخلـو فيـه بربه ويتعبد، حتى قالت العرب : (إن محمداً عشق ربه!) [3]
ثم ذكـر الغـزالي بعـد هـذا المنهج الصـحيح الـذي نسـتجلي بـه حقيقـة هـذا الأمـر، وهـو التجربـة لا إرسـال الرسـل للتجسـس والاستخبار، فيقـول: (.. وهـذه حالـة، يتحققهـا بالـذوق من يسـلك سبيلها. فمن لم يرزق الذوق، فيتيقنها بالتجربة والتسامع، إن أكـثر معهم الصـحبة، حـتى يفهم ذلـك بقـرائن الأحـوال يقينـاً. ومن جالسهم، استفاد منهم هذا الإيمان. فهم القوم لا يشقى جليسـهم. ومن لم يرزق صحبتهم، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهـان، على ما ذكرناه في كتاب (عجـائب القلب) من كتب (إحيـاء علـوم الدين)، والتحقيق بالبرهـان علم، وملابسـة عين تلـك الحالـة ذوق، والقبـول من التسـامع والتجربـة بحسـن الظن إيمـان، فهـذه ثلاث درجات) [4]

كيفية الخلوة:

ذكر الشيخ العربي التبسي بنـاء على الوصـف الـذي وصـف لـه

---

[1] الغزالي، المنقذ من الضلال، دار الكتب الحديثة، ص32.

[2] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص32.

[3] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص33.

[4] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص33

كيفية الخلـوة، وهـو وصـف صـحيح دقيـق على حسـب مـا يـذكره الصوفية في كتبهم، وعلى حسب ما رأيتها بنفسـي، لكنـه للأسـف كما ذكرنا خلـط السـخرية والنقـد اللاذع لهـا بسـبب وغـير سـبب، وسنذكر هنا ما ذكره من كيفيتها، ونعقب عليه بما نراه مناسبا[1].

يقول الشيخ العـربي التبسي معرفـا بالمصـدر الـذي وصـف لـه الخلـوة: (أضـع بين يـدي القـارىء حكايـة عن هـذه الخلـوة الـتي وصفناها بعض الوصف تلقيتها من أحد الرجال، الذين دخلـوا لهـذه الخلوة، وأقام بها سبعة عشر يومـا. وقـد فتح عليـه كمـا يظن من قبل نفسه، ثم خرج منها للدعاية إلى العليوية)[2]

ولسنا ندري ما المنكر في أن يـدعو للعليويـة في الـوقت الـذي كـان فيـه المبشـرون والملاحـدة ودعـاة الإدمـاج والكـل بمـا فيهم جمعية العلماء يدعون إلى أنفسهم؟

بعد أن نقل هذا السند المجهول، أخذ في وصف المحل والهيئـة ونحوها كما نقلـه المخـبر لـه، فقـال : (إننـا أدخلنـا إلى بيت مربـع ونحن عدد لا يستهان به كثرة، وقد زودنا كلنا وصايا متفقة، وجماع هذه الوصايا أن يذكروا لفظ (اللـــه) ويمدونه مدا ينقضي بانقضاء نفس الإنســان، بلهجــة وانفعــال يتصــنعونه أولا ثم يصــير ملكــة فيهم[3].. يؤكد عليهم جد التوكيد أن تكون حـروف لفـظ اللـه حالـة في قلوبهم، أعني يعتبرون هذه الحروف مكتوبة في قلوبهم، فمن يعرف الكتابة فالأمر عليه سهل، ومن لا يعرفها يتحيلون عليه حتى ينتهوا به إلى أن يضعها في قلبه كما وضعها رفقـاؤه، ثم يغمضـون أعينهم، ويقبلون على ما يسمونه بالذكر، ويـأمرهم أمـرا لا هـوادة فيه، بأن يجمعوا قوى الحواس الظـاهرة إلى البـاطن، ويصـرفونها

---

[1] اخترنا ما ذكره باعتبار صار مرجعا في هذه المسألة عنـد الكثـير من السـلفية المحـدثين، ومقالته منتشرة في نوادي الانترنت بكثرة.

[2] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عـدد 118، الخميس 20/10/1927م الموافـق 23/ربيـع الثاني/1346هـ، ص 10.

[3] وقد عقب الشيخ العـربي التبسي على هـذا بقوله: (ليس في وسـع قلمي أن ينقلـه إلى القراء، وقد طلبت إلى مخبري أن يلهج به أمامي مرات ففعل، فاقشعر جلدي، وملئت حزنـا على ما لحـق الاسـم الأعظم من التحريـف الـذي لا تعرفـه العـرب، لا من آمن منهـا، ولا من كفر)(المصدر السابق)، وسنتحدث عن الإجابة عن هذا في البابـ الرابع.

إلى الحـروف الحالـة في قلـوبهم. ومن ذهـل عن هـذه الحـروف فليفتح عينيه، ويأخذ شكل الحروف إلى قلبه من الشكل المكتوب أمامه، ثم يعود إلى إغماض عينيه وغيره مما قصصناه) [1]

وذكر الشيخ العربي التبسي أنه أثناء الخلوة يلـتزم المريـدون بـ (تحريم أكل اللحوم عليهم أيام إقامتهم بهذا البيت، وتقليل الأغذية من غيرها، حتى أنه لا يأذن لهم في الأكل إلاّ مرة واحدة في اليوم والليلة تمسك عليهم بقيـة من أنفـاس الحيـاة . أمـا النـوم فلا إذن فيه مادام في أحدهم فضل من قوة يكد بها نفسه)

وقد أخبر الشيخ العربي التبسي أنه سأله مخبره عن (الصلوات النوافل التي جعلت قرة عين سيد العبـاد، فأجـاب بأنـه لا يـأمرهم بالنوافل)

ثم ذكر الشيخ أنه استخبر مخبره أن يخبره بما (يرونه في هـذه الخلوة مما يسمونه فتحا أو كشفا أو حالا أو مقاما، فأخذ يـذكر لي من ضروب التخيلات، وأنواع المصطنعات ما يتحاشى أقل مخلـوق يملك حشاشة من حياء أن يرضاه لنفسـه، فضـلا عن أن يعـد هـذا سيما عباد الله المقـربين، ولكن من يهـد اللـه فهـو المهتـدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)[2]

بهذا اكتفى الشيخ، والعجب كل العجب من سخريته من الفتـوح التي فتحت على صاحبه في الخلوة، مع أن المعاني الحاصلة فيهـا معان ذوقية لا يمكن التعبير عنها باللسان، وحـتى المشـاهدات في حال حصولها مشاهدات رمزية لا يمكن وصفها.

وما ذكره الشيخ العربي التبسي وصـفه الشـيخ عـدة بن تـونس في كتابه (الروضة السنيّة في المآثر العلويّة) ناقلا ما كتبـه الشـيخ أحمد بن عليـوة بقلمـه عن كيفيـة تسـليك المريـدين في الخلـوة، فذكر أن (السـير الغـالب الـذي كـان يعتمـده واعتمـده أتباعـه من بعده أيضا، هو أن يكلّف المريد بذكر الاسـم المفـرد مـع تشـخيص حروفـه، حـتى ترتسـم الحـروف في مخيلتـه، ثمّ يـأمره ببسـطها

---

[1] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عـدد 118، الخميس 20/10/1927م الموافـق 23/ربيـع الثاني/1346هـ، ص 10.

[2] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عـدد 118، الخميس 20/10/1927م الموافـق 23/ربيـع الثاني/1346هـ، ص 10.

وتعظيمها إلى أن تملأ الحروف ما بين الخافقين، ويديم الذكر على تلـك الهيئـة إلى أن تنقلب صـفاتها إلى شـبه النـور، ثمّ يشـير لـه بالخروج عن هذا المظهر بكيفيّة يتعذر وصفها، فتنتهي روح المريـد بسرعة مع تلك الإشارة إلى خارج الكون ما لم يكن المريـد قليـل الاستعداد، وإلاّ احتيج إلى تصفية وترويض، وعند تلك الإشـارة يقـع للمريد التميّيز ما بين الإطلاق والتقيّيد، ويظهر له هذا الوجود مثـل الكرة أو القنديل، معلقا في فراغ معدوم البداية والنهاية، ثمّ يصير يضعف في نظره مع ملازمة الذكر، ومصاحبة الفكر، إلى أن يصير أثرا بعد عين، ثمّ يصير أثرا ولا عين، ويبقى على تلك الحالـة حـتى يستغرق المريـد في عـالم الإطلاق، ويتمكّن يقينـه من ذلـك النـور المجـرّد، والشـيخ في جميـع ذلـك يتعاهـده ويسـأله عن أحوالـه، ويقوّيه على الذكر حسب المراتب، حتى ينتهي إلى غاية يشعر بهـا المريد من نفسه، ولا يكتفي منه إلاّ بذلك)[1]، وقد أشار الشـيخ ابن عليوة إلى هذا في ديوانه قائلا[2]:

فتشخيص الحروف تحظى بفضـله	إلى أن تـرى الحـروف في الآفـاق تجلى
وليس لهـــا ظهـــور إلاّ في قلبك	وبتمكن الاســـم ترتحـــل الغفلا
فعظمنّ الحــروف بقــدر وســعكا	وارســـمها على الجميـــع علويـــا وســـــــــــــــــــــــفلا
وبعد تشخيص الاسم تـرقى بنـوره	إلى أن تفنى الأكوان عنـك وتـزولا
لكنّ بـــأمر الشـــيخ تفـــنى فلا بك	فهـــو دليـــل اللـــه فاتخـــذه كفلا
يخرجـك من ضـيق السـجون إلى الفضا	إلى فضاء الفضـاء إلى أول الأولى
إلى أن تـرى العـالم لا شـيء في	أقـــــلّ من القليـــــل في تعظيم

[1]) الشيخ عدة بن تونس، الروضة السنيّة في المآثر العلويّة، ص25.

[2]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص17.

ذاته	المـــــــــــــــــــــــولى
فإن بــرز التعظيم تفـنى في عينيّه	لأنّك لم تكن شـيئا من أوّل الـوهلا
فلم تـــــدر من أنت فكنت ولا أنت	فتبقى بلا أنت لا قـــوى ولا حـــولا
وبعــد فنائــك تــرتقي إلى البقــاء	إلى بقــاء البقــاء إلى منتهى العلا
ألا في شــهود الحــق تــنزل ركابنا	فيــا خيبــة الـذي عن هـذا يتسـلى

فإذا انتهى المريد إلى هـذه الحالـة، يرجـع بـه الشـيخ إلى عـالم الشهادة بعد الخروج عنه، (فينقلب في نظره على خلاف مـا كـان عليه، وما ذلـك إلاّ لإشـراق بصـيرته، وكيفمـا كـان لا يـراه إلاّ نـورا على نــور، وفي هــذا المقــام قــد يختلــط على المريــد (الحابــل بالنابل)، كما وقع لكثير من السائرين، ولكن لا يبعـد صـاحب هـذا المقـام أن يتلـوه التميّـيز بين المشـاهد، فيصـير يعطي المـراتب حقّها، ويوفي المقامات قسطها) [1]

والطريقة التي ذكرها لا تختلف كثيرا عن الطريقة الـتي وصـفها الغزالي للخلوة، فقد قال: (الطريق في ذلك: أولا بانقطـاع علائـق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطـع الهمـة عن الأهـل والمـال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زواية مـع الاقتصـار على الفـرائض والـرواتب ويجلس فـارغ القلب مجمـوع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسـير ولا بكتب حديث ولا غـيره، بـل يجتهـد أن لا يخطـر ببالـه شـيء سـوى اللـه تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قـائلا بلسـانه: (اللـه اللـه) على الدوام مع حضور القلب حـتى ينتهي إلى حالـة يـترك تحريـك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثـره عن اللسـان ويصـادف قلبـه مواظبـا على الـذكر، ثم يــواظب عليــه إلى أن يمحي عن القلب صــورة اللفــظ وحروفــه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنـه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هـذا الحـد واختيـار

---

[1]) الشيخ عدة بن تونس، الروضة السنيّة في المآثر العلويّة، ص26.

في استدامة هـذه الحالـة بـدفع الوسـواس، وليس لـه اختيـار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضـا لنفحـات رحمـة اللـه، فلا يبقى إلا الانتظـار لمـا يفتح اللـه من الرحمـة كمـا فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق) [1]

ثالثا ــ ميسرات السلوك ومنشطاته:

وهو ركن من أركان جميع الطـرق الصـوفية، فهي لا تكتفي بمـا رأينا من ممارسات قد تجلب الملل لمريـديها بسـببها، بـل تضـيف إليها ما يمكن تسميته (الترفيه الديني) الـذي يـدخل فيـه السـياحة والغناء والإنشاد، بل حتى الرقص.

وكما رأينا حرص الصوفية على عـدم الغفلـة في أي لحظـة من اللحظات عن ذكر الله، فقد حرصوا على ربط كل سلوكاتهم بذكر الله حتى الغناء والـرقص ربطـوه بـذكر اللـه، وجعلـوا لـه طقوسـا خاصة كانت محل إنكـار شـديد من الاتجـاه السـلفي، وكـان لـذلك أثره في موقف الجمعية من الطرق الصوفية.

وبناء على هـذا سـنذكر هنـا مظهـرين من مظـاهر هـذا الترفيـه الروحي، تاركين تفاصـيل الأدلـة والمناقشـات الفقهيـة إلى محلهـا من الجزء الثالث من هذه السلسلة.

1 ــ السماع والرقص:

ربما تكون هذه الناحية من التصوف السلوكي هي أكثر النواحي إثـارة للمعـادين للتصـوف، وخصوصـا من أعضـاء جمعيـة العلمـاء المسلمين الجزائريين الذين جعلـوا من الغنـاء والـرقص الطـرقي وخاصـة المنتسـب للطريقـة العلويـة مـادة للتنفـير من التصـوف وطرقه.

فهـذا أحمـد توفيـق المـدني يصـف جمعـا من جمـوع الطريقـة العلاوية في العاصمة مستنكرا لـه، فيقـول: (قـال لي الأخ محمـد رضا الأكحل – وكنا في أواخر شهر تموز/يوليـو (جويليـة) 1925 م

-: لنا اليوم سهرة حافلة بمقـبرة سـيدي محمـد بن عبـد الـرحمن، فلنستعد لها مبكرين حتى نكون في الصفوف الأولى.. وبعـد صـلاة العشاء، التأمت حلقة الذكر، وأخذ الفقـراء يـترنمون بأصـوات هي إلى البشاعة أقـرب منهـا إلى الرخامـة. وطـال ذلـك نحـو سـاعة.

[1] إحياء علوم الدين (3/ 19)

فبعض تلك الأناشيد والأذكار كان مستقيم المعنى صحيح المبنى، فيه الصلاة على النّبي ﷺ، وفيه الموعظة والذكرى، أما بعضها الآخر ففيه إشارات واضحة إلى مذهب (وحدة الوجود) يترنم بها القوم ولا يفهمون لها معنى، وخرجت من هناك آسفا حزينًا وأنا أتساءل : كيف تمكن أحمد بن عليوة المستغانمي من إنشاء طريقة صوفية وهو شبه أمّي؟)[1]

ولكن رغم ذلك، ورغم تلك النظرات القاسية التي ينظر بها المناوئون للطرق الصوفية، فإن هذا النوع من الممارسات هو الأكثر جاذبية بين مختلف أصناف المجتمعات، لأن ما ينشد من القصائد، والألحان المؤداة بها والتي تختلف من بيئة إلى أخرى، والحركات المصاحبة لكل ذلك لها تأثيرها الكبير في الشعور بأحوال روحية يأنس بها من حصلت له، ويشتد حرصه على تحصيلها، ومن ثم يبحث عن الطرق التي توفرها له.

ولعل من الأسباب الكبرى للدور الكبير الذي قام به الصوفية في نشر الإسلام هو استعمالهم لهذا الأسلوب، فالتعلق بالغناء والرقص ونحوهما فطرة بشرية أحسن الصوفية استثمارها.

ويرتبط هذا النوع من الممارسات خصوصا بالأدب، وبالشعر خاصة، لأنه الأداة التي يمكن التعبير بها بكل حرية عن المشاعر والعواطف.

ولهذا نجد أكثر من يمثل الأدب الإسلامي في التاريخ هم الصوفية، لأن من عداهم اهتم بأنواع الأدب الأخرى، والتي لا يمكن إدراجها ضمن الأدب الإسلامي، كالمديح والهجاء والرثاء وغيرها، لافتقارها إلى الكثير من القيم التي دعا الإسلام إليها.

في المقابل نجد الأدب الصوفي ثريا بالمعاني الدينية المهيجة للمشاعر الإيمانية، فمن أغراضه: (الامتداح النبوي - الشوق إلى الأماكن المقدسة - الأحزاب والأوراد - التوسلات - الحكم - الرسائل الصوفية (المكاتبات السنية) - الحكايات الكرمية - شعر

[1]) الشهاب، ج11، م14، محرم 1357 – مارس 1938، ص : 204.

الزهد - شعر التصوف السني - شعر التصوف الفلسفي)[1]

وقد كانت تلك المعاني بجماليتها الروحية سببا مباشرا ومهما في انتشار الفكر والسلوك الصوفي بين الكثير من الفئات الشعبية، بالإضافة إلى أن شعراء الصوفية في كل بلد استعملوا لغة البلد البسيطة، ليفهمهم ويستوعب أغراضهم أكبر عدد من الناس.

ففي الطبقات الشعبية الجزائرية وخاصة في المناطق الغربية - مثلا - نجد أكثر الشعراء ترددا أسماء صوفية، كمصطفى بن إبراهيم، والمنداسي، وابن مسايب، وابن خلوف، وابن سهلة، والزرهوني، وأحمد بن قيطون، وابن يوسف، والخالدي وبطبجي، وابن مصطفى العلاوي، وغيرهم، وكلهم استعملوا الشعر البسيط، والملحون لإرسال رسائلهم لتلك الفئات البسيطة من المجتمع.

بالإضافة إلى هذا اهتم الصوفية بالغناء الذي يسمونه سماعا، واهتموا بوضع الألحان المهيجة للمشاعر.

وفوق هذا كله اهتم هذا النوع من التصوف بالرقص للتعبير عن المواجيد الصوفية، وهم يعتذرون لهذا بما ذكره الشيخ أبو مدين في قوله[2]:

يحرُكنا ذكر الأحاديث عنكمُ	ولولا هواكُم فِي الحشا ما تَحرَّكنا
فقُل لِلَّذي ينهَى عن الوَجد أهلهُ	إذا لَم تذُق معنَى شرابٍ الهَوَى دعنا
إذا اهتزَّت الأرواح شوقاً إِلَى اللقا	ترفصت الأشباح يا جاهلَ المعنَى
أما تنظرُ الطير المقفَّصَ يا فتَى	إذا ذكر الأوطان حنَّ إِلَى المغنَى
يُفَرّجُ بالتغريد ما بِفُؤادهِ	فتضطرِبُ الأعضاءُ فِي الحسّ والمعنَى

[1] نور الهدى الشريف الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، المغرب 2001، ص 19.

[2] أبو مدين شعيب، الديوان، دت. دط.75.

ويرقصُ فِي الأقفاصِ شوقاً إِلَى اللقا   فتهــتزُّ أربــابُ العقــولِ إذا غنَى

كــــــذلكَ أرواحُ المُحبِّينَ يـــــا فَتَى   تَهزِّزها الأشـواقُ للعـالَمِ الأسـنَى

أنلزمُهـــا بالصــــبرِ وهي مشــــوقةٌ   وهـل يسـتطيع الصـبر من شـاهد المعنَى

إذا لَم تـــذُق مـــا ذاقتِ النَّاسُ فِي الهَـــــــــــــــــــــــوَى   فباللـهِ يـا خـالِي الحشـا لا تعنّفنا

وســـلّم لنـــا فيمـــا ادعينـــا لأننا   إذا غلبت أشــواقُنا ربَّمــا صــحنا

وتَهـــــتزُّ عنــــد الإســــتماع قلوبُنا   إذا لَم نَجد كتم المواجيـد صـرّحنا

وفِي الســرِّ أســرارٌ دقــاقٌ لطيفة   تـراقُ دمانـا جهـرةً إن بِهـا مجنا

فيـا حـاديَ العشَّـاقِ قم واحـد قائمـاً   وزمزم لنا باسـم الحـبيب وروحنا

وصــن ســرَّنا فِي ســكرنا عن حودنا   وإن أنكرَت عيناك شيئاً فسامحنا

فإنّــــا إذا طبنــــا وطنب عقولُنا   وخامَرنــا خَمــرُ الغَــرام تَهتَّكنا

فَلا تلم السَّـكران فِي حـالِ سُـكرهِ   فقد رقع التكليف فِي سُـكرِنا عنَّا

وفوق هذا يـرددون أشـعار الفقيـه الصـوفي عـز الـدين بن عبـد السلام الذي اعتذر للرقص الصوفي بقوله[1]:

مــا في التواجــدِ إن حققتَ من حــــــــــــــــــــرجٍ   ولا التمايــلِ إن أخلصــتَ من بـــــــــــــــــــــــاسِ

إن الســـماعَ صـــفاء نـــور صــــــــــــــــــفوتهِ   يخفى ويُحجَبُ عمن قلبــــهُ قاسي

نورٌ لمن قلبُه بالنورِ منشرِحٌ   نــــارٌ لمن صـــدرُه نـــاووسُ

---

(1) لم أجدها فيما لدي من كتبه، وهي متناقلة بكثرة في دواوين الشعر الصوفي.

وســــــــــــــــــواسِ

راحٌ وأكْؤُسُـــها الأرواحُ فهي على
قـدرِ الكـؤوسِ تريـك الصـفوَ في الكـــــــــــــــــاسِ

حـادٍ يـذكّرُكَ العهـدَ القـديمَ
وإن تقادم العهد ما المشتاقُ كالناسي

فليس عارٌ إذا غنّى له طرباً
يئنُ بالنـــاس لا يخشـــى من النـــــــــــــــــاسِ

ولهـذا نجـد أغلب الطـرق الصـوفية[1] تسـتعمل الشـعر والغنـاء المهيج للمواجيد، وتنتهج في توجيهها للمريدين على مبدأ (استبدال العواطف البشرية العادية بالعواطف المتوجهة إما لله، أو لرسـوله أو للأولياء والصالحين)

ولعل خير من يمثل هذا النوع من التصوف في الجزائر الطـرق المرتبطة بالطريقة الشاذلية، وخصوصا الطريقة العلاوية، فالشعر والغناء الصوفي يشكلان عندها ركنا مهما من أركان الطريقة، وقد كان الشيخ العلاوي أحد أقطـاب المتصـوفة الـذين اهتمـوا بـالأدب الصوفي، فله ديوان شعري متوسط الحجم، بلغت عدد صـفحاته (88) صفحة، به (72) قصـيدة صـنفت بحسـب قوالبهـا الشـكلية إلى ثلاثة أقسام: موشحات، أزجال، وقصائد عادية[2].

2 ـ السياحة:

اهتم الصوفية سلفهم وخلفهم بالسياحة[3] اهتمامـا شـديد، وهم يرجعون في الاهتمام بها إلى ما ورد في فضـلها والثنـاء عليهـا في القــرآن الكــريم كقولــه تعــالى : {التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ

---

[1] ما عدا الطريقة التيجانية على حسب ما نعلم.

[2] انظر: الشارف لطروش، الشيخ بن مصطفى العلاوي، رائد الحركـة الصـوفية في القـرن العشرين، جامعة مستغانم، دط. ص7.

[3] السِّيَاحة – في اللغة - : الضرب في الأرض بقصد العبادة أو التنـزُّه أو التفـرُّج (بطـرس البستاني، محيط المحيط، ص 445)

السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِـرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: 112]

وهم يقسمونها إلى قسمين: (سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة النفس، فمن رجع من سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه، ومن رجع من سياحة الآداب والرياضة قام في الخلق يؤدبهم بأخلاقه وشمائله، وسياحة : هي سياحة، للحق، وهي رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم) [1].

وقد كان هذا الاهتمام محل إنكار من الشيخ ابن تيمية خصوصا، ثم من جاء بعده، وبناء عليه ركز على تحريم السياحة لغير المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد النبي ﷺ، ذلك لأن الصوفية كانوا يقصدون من سياحتهم زيارة الصالحين، وأضرحتهم، ويقيمون هناك الكثير من حضرات الذكر التي لا يرضى عنها هذا الاتجاه.

ومع ذلك فقد ساهمت هذه السياحات في خدمة الدعوة الإسلامية، ونشر الإسلام في مناطق لم تصلها جنود المسلمين، والحقائق التاريخية تشهد بأن أكثر من أسلم في إفريقيا وآسيا وحتى أوروبا كان له علاقة بالسياحة الصوفية.

ولذلك كانت الطريقة العلاوية تهتم بالسياحة، وخصوصا في بلاد القبائل بسبب تعرضها الشديد للمبشرين.

وقد كان للشيخ العلاوي خصوصا سياحات يتفقد فيها مختلف الزوايا التي شيدها في الجزائر وخارجها، وكلما زار مدينة من المدن، يستقبله أهلها الفقراء بفرح كبير، ويحتفلون بقدومه ويسهرون معه الليالي بالذكر والمذاكرة، ويعرضون عليه مشاكلهم، وجميع ما أهمهم، ويسألونه عما خفي عليهم من أمور دينهم[2].

يقول الطاهر بن الواضح الزعموشي واصفا ما يحثل في تلك السياحات: (..وقد كنت سحت معه [أي الشيخ] لعاصمة الجزائر

[1] عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم (بهامش جواهر المعاني)، ج 1 ص 17.

[2] الحاج مصطفى العشعاشي، السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، تحقيق وتحرير مصطفى يلس شاوش ابن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر. ص 102،

الجزائر والقطر الزواوي وبلدة البرج، وما رأيت تـذكيره في جميـع ذلك يخرج عن دائرة النصيحة، وهذا من جهة ما يرجع لتعففه عمـا بأيدي الناس) [1]

وكـان الشـيخ ابن عليـوة – على حسـب مـا يشـهد الكثـير من مريديه – يوصي أتباعـه بقصـد الأمـاكن المختلفـة، وخصوصـا تلـك الـتي تتعـرض للانحـراف، لحرصـا منهم على بث الشـرائع الدينيـة والسنن المحمدية[2]، وكان يوصيهم بعدم قبول الزيارة إذا أعطاهـا الناس لهم، وبرفع الهمة ما استطاعوا حـتى عن الأكـل والشـرب، وأن لا يطلبـوا من النـاس إلا المـاء للوضـوء ويقولـون لهم إنمـا قصـدناكم لتأخـذوا منـا الطريـق أو على الأقـل تعاهـدوننا على المواظبة على الصلاة في أوقاتها مع تقوى الله ما أمكن[3].

المطلب الثالث: التصـوف العرفـاني وعلاقـة الطـرق الصوفية به

ذكرنا سابقا أن التصوف العرفاني هـو تصـوف النخبـة لا العـوام لصعوبته، ولافتقاره إلى السلوك الخاص، لعـل أبـرز من مثـل هـذا النوع من التصوف في عهد جمعية العلماء المسـلمين الجزائـريين هو الشيخ ابن عليوة، فقد كانت كتبه وقصائده طافحـة بـالتعبيرات التي لا تختلف كثيرا عن تعبيرات أساتذة هذا النوع من التصوف.

وسـنحاول هنـا أن نـذكر مـدى تطـابق التصـوف العرفـاني مـع تصوف الطرق الصوفية المعاصـرة للجمعيـة، وخصوصـا الطريقـة العلاوية.

أولا ــ استعمال اللغة الرمزية والشاعرية:

بناء على صعوبة التعبير عن المعاني والمعارف التي يتحقق بهـا السالك، فإنه يلجأ إلى اللغة الرمزية أو القصصية أو الشعرية، كما فعل أكثر العرفاء المسـلمون كـابن عـربي وجلال الـدين الـرومي ومثلهما وعلى طريقتهما الأمـير عبـد القـادر، والشـيخ ابن عليـوة، وغيرهما من مشايخ الصوفية.

وسنقتصر هنا من باب الاختصار على شخصيتين كـان لهمـا بـاع

---

[1]) الشهائد والفتاوى فيما صح لدى العلماء من أمـر ؤ الشـيخ العلاوي، جمـع بن عبـد البـاري محمد، ط1، المطبعة التونسية، تونس، 1344 – 1925، ص 179.

[2]) الشهائد والفتاوى، ص 5.

[3]) الشهائد والفتاوى، ص 157.

طويل في هذا الباب، وهما باتفاق الجميع ممن يتبنـون هـذا النـوع من التصوف، بل يعتبرونه حقيقة التصوف وكماله.

أما الأول، فهو الأمير عبد القادر باعتباره شيخا وممثلا للطريقة القادرية، وأما الثاني، فهو الشيخ ابن عليـوة الـذي رأينـا أن معظم حملة جمعية العلماء كانت متوجهة نحوه.

أما الأمير عبد القادر، فقـد كـان متـأثرا بكبـار مشـايخ العرفـان كمحي الدين بن عربي وابن الفارض وغيرهما، وقد تجلى هـذا في كتاباته وأشعاره، وكنموذج على ذلك قصيدته الخمريـة الـتي تشـبه كثيرا قصيدة ابن الفارض، فهو يقول[1]:

هي العلم كل العلم والمركز الـذي	بـه كـل علم حين لـه دور
و لا غبن في الـدنيا ولا من رزيئة	سوى رجـل عن نيلهـا حظـه نـزر
و لا خسر في الـدنيا ولا هـو خاسر	سـوى واللـه والكـف من كأسـها صـفر

ويعبر الأمير عن الثمن الذي يحتاج أن يدفعه من يريـد أن يشـم هذه الخمرة، فيقول[2]:

وفي شـمها- حقـا- بـذلنا نفوسـنا	فهان علينا كل شيء له قـدر
وملنـا عن الأوطـان والأهـل جملة	فلا قاصـرات الطـرف تثـنى ولا القصر
هجرنا لها الأحباب والصحب كلهم	فما عاقنـا زيـد ولا راقنـا بكر
ولا ردنـا عنهـا العـوادي ولا العـدا	و لا هالنا فقـر ولا راعنـا بحر

---

[1]) الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الأمير عبد القادر الجزائـري، شـرح وتحقيـق: ممـدوح حقي، بيروت، دار اليقظة، ط.3، 1965، ص208.

[2]) الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، ص211.

ويذكر الأمير تأثير هذه الخمـرة في شـاربها، وكيـف توصـله إلى الفناء، فيقول[1]:

نرى سائقيها كيـف هـامت عقـــــــــــــــولهم و نازلهم بسط وخامرهم سكر

وتــاهوا فلم يــدروا أليتــه منهم وشـــمس الضـــحى من تحت أقـــــــــــــــدامهم غفر

ثم يصــفا الأمــير تــأثير تلــك الخمــرة الروحيــة في الصــوفية، فيقول[2]:

فمن يـــرجى من الكـــون غيرنا فنحن ملــوك الأرض لا الــبيض ولا الحمر

تميــد بهم كــاس بهــا قــد تولهـــــــــــــــــوا فليس لهم عـــرف وليس لهم نكر

حيـــارى فلا يـــدرون أين توجهـــــــــــــــــوا فليس لهم ذكـــــر وليس لهم فكر

ويتحسر الأمر على المحـرومين الـذين حرمـوا من شـرب هـذه الخمرة المقدسة، فيقول[3]:

فلـــو نظـــر الأملاك ختم إنائها تخلـوا عن الأملاك طوعـا ولا قهر

و لـو شـمت الأعلام في الـدرس ريحها لمـا طـاش عن صـواب لهـا فكر

فيمـا بعـدهم عنهـا- ويـا بئس مـا رضـــــــــــــــوا عقد صـدهم قصـد وسـيرهم وزر

وأما الشخصية الثانية والتي شنت عليها حرب شعواء من طرف

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، ص211.

(2) الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، ص211.

(3) الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، ص211.

الجمعية، فهي شخصية الشيخ ابن عليوة، فهو كالأمير عبد القــادر، وكــابن الفــارض، كغيرهمــا من صــوفية العرفــان يتغــنى بــالخمرة، وصف صفاءها وكؤوسها، وقــدمها وأثرهــا في نفس صــاحبها الــذي ينتهي به إلى السكر أو العربدة، غير أن ذلك – كما هو واضـح- من قبيــل الرمــز ولا علاقــة لــه بــالخمرة الدنيويــة، كقولــه في إحــدى قصائده[1]:

فمــا أحلى شــرب القــوم نخــبر بطعمه ... فلست أعني خمرا ولست أعــني عسلا

شــراب قــديم النعت تعجــز عن وصـــــــــــــــــــــــــــــفه ... فجل في ذاته أن يشاكل الشــكلا

وهذا مألوف في الأدب والشعر خصوصا، بل إن توظيف العلاوي هنــا للخمــرة - كمــا يــذكر أحــد البــاحثين – (يعــبر عن مــدى تعلــق الشاعر بالممدوح، وولعه بعلمه وسعة اطلاعه، ولعل الشاعر بهــذا الرمز يهيم في عالم من الوجد والسكر المعنوي ويسبح في فضاء تتسامى فيــه الــروح لتــترفع عن دنايــا الحيــاة وقيودهــا إلى رحــاب الانطلاق والتحرر من تلك الدنيا)[2]

ومثل ذلك وظف الشيخ – كســائر صــوفية العرفــان - جملــة من الرموز للتعبير عن المعاني الروحية، كاتخاذ اسم ليلى رمزا الذات الإلهية، كما قــال في موشــحة المشــهور والــتي لا تــزال تــردد في الحضرات الصوفية في الجزائر وغيرها (دنوت من حي ليلى) [3]:

دنـــــــــــوت من حي ليلى ... لمــــــا ســــــمعت نــــــداها

يــــا لــــه من صــــوت يحلو ... أود لا يتنــــــــــــــــــاهى

رضــــــت عــــــني جــــــذبتني ... أدخلتـــــــــــــــني لحماها

---

1) ابن عليوة، الديوان: المطبعة العلاوية، مستغانم، ص 43.

2) انظر: الشارف لطروش، الشيخ بن مصطفى العلاوي، رائد الحركــة الصــوفية في القــرن العشرين، جامعة مستغانم، ص7.

3) العلاوي، الديوان، ص 36.

أنســــــتني خـــــاطبتني أجلســــــتني بحـــــــذاها

وليلي عنده ــ كما هي عند غـيره من الصـوفية ـــ رمـز للـذات المقدسة، وكأن العاشق هـو قيس ليصـور لنـا تعلقـه وهيامـه بهـا، بحيث يستحضر القارئ أو المسـتمع صـورة (قيس) ذلـك العاشـق الولهان.

وقد نجح الشيخ ابن عليوة في نقـل هـذه المعـاني الحسـية من الغـزل العـادي إلى الغـزل الإلهي، بحيث أضـحت معـاني روحيـة صرفة، فحب ليلى هو رمز الحضرة الإلهيـة، والقـرب أو الـدنو من ليلى هو القرب من ذات الله تعالى، ورفـع الـرداء رمـز لانكشـاف الحجاب، وكـذا ألفـاظ الأنس والحضـور الغيبيـة، ليسـت إلا رمـوزا تعكس لنا بصدق، شوق الشاعر وتعلقه بالله وحده، وانقطاع قلبـه عن كل شيء إلا عن محبته[1].

بــل إن الصــوفية – وخاصــة صــوفية العرفــان كمــا ســنرى- لا يعتبرون من ليلى ومثيلاتها مجرد رموز، بل إنهم يذكرون أن قيسـا في الحقيقة لم يكن يحب مظهـر ليلى، وإنمـا كـان يحب الحقيقـة المختفية وراءها، أو كما يذكر ابن عربي أن قيسا قـال لليلى لمـا عرضت له: (إليك عني فإن حبك شغلني عنك)[2]

أو كما عبر جلال الدين الرومي عن ذلك بقوله: (إن كل ضروب الرغبة والميل والمحبة والشفقة التي يكنها النـاس لأنـواع الأشـياء تعـد ضـروبا من محبـة الحـق والتـوق إليـه.. وتلـك الأشـياء جميعـا حجب، وعندما يمضي الناس من هذا العالم ويرون ذلك الملك من دون هـذه الحجب يعلمـون أن هـذه الأشـياء جميعـا لم تكن سـوى حجب وأغطية، مطلوبهم على الحقيقة ذلك الأوحد) [3]

وقد أنشأ اعتماد هـذه الرمـوز، وهـذه اللغـة الخاصـة بالصـوفية الحاجة إلى تفسيرها، ونشأ عن ذلـك مـا يسـمى بالموسـوعات أو

---

[1] انظر: الشارف لطروش، الشيخ بن مصطفى العلاوي، رائد الحركـة الصـوفية في القـرن العشرين، ص7.

[2] الفتوحات المكية:2/212.

[3] جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، دمشق: دار الفكر، ص71.

المعاجم الصوفية، وقد كان للشيخ ابن عليوة تواجد كبير في هــذه المعاجم.

وكمثال على ذلك يورده أصحاب الموسوعات الصوفية مصطلح (حضــرة الطمس)، حيث يــذكرون تعريــف ابن عليــوة لهــا بأنهــا (حضرة اجتماع الأسرار، التي لا تكنى بمعنى ولا بحس ولا بنوع ولا بجنس، ولا يطيق اجتماع هذه الحضرة إلا القليل من القليل)[1]

وقــد عرفهــا قبلــه الشــيخ أبــو العبــاس التيجــاني بأنهــا (مرتبــة الأحدية، مرتبة كنه الحق، وهي الذات الساذج التي لا مطمـع لأحـد في نيل الوصول إليها، وتسمى : حضرة العما الذاتي) [2]

ونحب أن نشــير هنــا إلى أنــه قــد وقــع للشــيخ العلاوي بســبب اعتمــاده مــا يعتمــده الصــوفية في أشــعارهم من الرمــز والكنايــة ونحوها حملة كبيرة من الإصــلاحيين قبــل تأســيس الجمعيــة، فقــد قــال أبياتــا يعــبر فيهــا عن شــوقه إلى رســول اللــه ﷺ، كمــا يعــبر الشعراء عادة، فقال، وكأنه يشكو رسول الله ﷺ إلى الله إن مات شوقا إليه، ولم يسعفه بالإجابة، وهذه هي الأبيات:

إنْ مُتّ بالشَّــــــوْق منكد   إن تبـــق في هجـــري زائد

من هـــــو بالملـــــك موحّد   عبس بـــــالقول تســــاعد

مــــــــا عـــــــذر ينجيك   للمــــــولى نـــــــدعيك

ينظــــــــــــــر في أمريك   مـــــــا نرجــــــوه فيك

ولما عوتب في هذا أجاب بأن أَلسُنُ الْمُحِبِّين أعجميــة ! أي أنــه لا يمكن الاعتماد على ظاهر ما تقول.

ومع أننا قد ننكر عليه مثل هذا، ولكن هــذا الإنكــار لا يــرقى إلى الدرجة التي تعامل بها ابن باديس، بل ورجــال الجمعيــة معــه، بــل ضموا إليهم الكثير من شهادات العلماء في الإنكار، وكان من ذلـك

---

[1] ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين بطريــق الصــوفية، ص 207 (بتصرف)

[2] علي حـرازم بن العـربي، جـواهر المعـاني وبلـوغ الأمـاني في فيض سـيدي أبي العبـاس التيجاني،ج 2، ص 38 (بتصرف)

كله رسالة ابن باديس المعروفة بـ (رسالة جواب سؤال عن سوء مقال) التي ذكر فيها النصوص من الكتب والسنة وآثار السلف ما يرد به على ما ذكره الشيخ ابن عليوة، أرسل بها إلى كبار مشايخه بتونس والعلماء والمفتين بالجزائر والمغرب، فقرّظوها، وسنتحدث عنها عند الحديث عن أساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن كثيرا من المحققين الكبار في التصوف كأبي حامد الغزالي ينكرون المبالغة في استعمال مثل هذه الأساليب خاصة بين العوام الذين قد يغلبون طاهر الألفاظ عن المعاني الإشارية التي تشير إليها، يقول أبو حامد: (وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق والمجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس، وقد قال ﷺ : (إن من الشعر لحكمة)[1]، ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى، ولم يكن معهم غيرهم، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه) [2]

ومن هذا الباب أيضا ما ذكره أبو حامد عند حديثه عن الشطح والتهتك الصوفي، فقد اعتبر من أصنافه (كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر،

---

[1]) صحيح البخاري (8/ـ 42)، وانظر: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى، مكتبة الرشد، السعودية/ الرياض، 1422هـ - 2001م، (9/ 206)

[2]) إحياء علوم الدين (1/ 35)

وإما أن تكـون مفهومـة لـه ولكنـه لا يقـدر على تفهيمهـا وإيرادهـا بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمـه طريـق التعبير عن المعاني بالألفـاظ الرشـيقة ولا فائـدة لهـذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلـوب ويـدهش العقـول ويحـير الأذهـان أو يحمل على أن يفهم منهـا معـاني مـا أريـدت بهـا ويكـون فهم كـل واحد على مقتضى هواه وطبعه)[1]

وللأسـف نجـد انتشـار مثـل هـذا في الـدوائر الصـوفية، خاصـة الدوائر التي تهتم بالعرفان، ولكن مشايخ الصوفية عـادة، وخاصـة المحققون منهم يحثون أتباعهم على ترك مثل هذه السلوكات.

ثانيا ــ التفسير الباطن:

من أساسيات التصوف العرفاني القول بالباطن، وأنـه الحقيقـة التي تختفي بجلباب الظاهر، وأن الغرض من الظواهر هـو العـروج منها إلى البواطن، وذلك بناء على فلسفتهم في أن المراد من كل حركـة وسـكون في الكـون هـو التعريـف باللـه، أي أن كـل شـيء عبارة عن رمز يحمل رسالة معينة يسعى الصوفي لفكهـا ليعـرف الحقيقة من خلالها.

وقد أشار الشيخ ابن عليوة إلى هذه الحقيقة الـتي يتفـق عليهـا العرفاء، فقال: (اعلم إنّ القوم لا يفهمون مخاطبة الخلــق لهم إلاّ عن اللـه، وذلـك يقتضـيه مقـامهم لا يسـتعملونه في أنفسـهم، فلا تستغرب يا أخي من فهمهم الكلمة الواحدة الموضوعة على معنى مخصوص آخر، فـإنّ ذلـك عنـدهم من أشـرف المقامـات، وأعظم الدرجات، لكونهم يفهمون الأمـور عن اللـه، وقـد أجمـع أهـل اللـه على أنّ الفهم عن الله على قدر مقام العبد عند الله، ولم يختلفوا في أنّ الكلمة الواحدة الدالّة على معنى مخصوص قـد يفهم منهـا العبد معاني كثيرة لا تحصى، وربّما الكلمـة يكـون ظاهرهـا قبيحـا، ويستفيد منها العارف أمرا مليحا، إمّا على وجه التصريح وإمّا على وجه التلويح، فإنّ القوم وإن اشتركوا مع غيرهم في ظاهر اللفظ، فــإنّهم مختلفــون في القصــد، كمــا أنّهم اشــتركوا في المشــهود واختلفــوا في الشــهود، واشــتركوا في المســموع، واختلفــوا في الأسماع، قال تعالـــــــى : {يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا

[1]) إحياء علوم الدين:1/36.

عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد: 4])[1]

واعتبر القدرة على تحليل الظواهر والعروج منها إلى البواطن هبة واصطفاء إلهيا، فقال: (فسبحان من هداهم وقربهم إليه، واجتباهم حتى صاروا يأخذون أحكامهم وأفعالهم من مولاهم، فسمعوا ما لم يسمعه الخلق، وأبصروا ما لم يبصره الخلق، فأجسامهم عندنا وأرواحهم عند الملك الحقّ، وكما قال بعضهم :

فـؤادي عنـد محبـوبي مقيم يناجيـه وعنـدكم لسـاني

ونقل عن (الجيلي) قوله في (عينيته) المشهورة :

إذا زمـزمت ورقـاء على غصـن بانة وجاوبها قمـريّ على الأيـك ساجع

فأذني لم تسمع سوى نغمـة الهـوى ومنكم فـإنّي لا من الطـير سامع

ثم عقب عليها بقوله: (فإذا كان هؤلاء القـوم يسـتخرجون الجـدّ من الهزل، فكيف لا يستخرجون الجـدّ مـن الجدّ، بل لهم ذلك لكونهم لا يقفون عند ظاهر الألفاظ، وإنّما ينظرون إلى المعاني الدالّة على المراد، ولا يلتفتون للحن ولا للإعراب، بل يأخذون المعاني من حيث وجدوها، فهم ناظرون لإشارة الأرواح، غافلون عما يتلفظ به اللسان، تراهم مع الله في كلّ حال وشأن، مع انّه كلّ يوم هو في شأن، ما اتخذ الله وليّا جاهلا إلاّ علّمه، وابتداء التعليم به ثمّ بأحكامه، وأمّا بقيّة العلوم فليست شرطا في صحّة الولاية وإنّما هي شرط كمال وذلك كالنحو والصرف، والمعاني والبيان، وعلم اللغة، حيث من لم تغنه معرفة الله، فذلك هو الشقي)[2]

ونحب أن ننبه هنا إلى أن هذا الفريق من الصوفية ينبه كل حين إلى أنه عند ذكره للباطن لا يعني ذلك إلغاء للظاهر، وإنما هو مجلى من مجاليه، وأثر من آثاره، وقد أشار ابن عليوة إلى هذا في مقدمة كتابه الذي فسر به الشريعة تفسيرا باطنا، وهو شرحه

---

[1]) ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص23.

[2]) ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص24.

لمتن ابن عاشر، فقال: (أردت أن أبين بعض ما يأخذونه من الفقه وغيره بالإشارة التي تناسبهم مع أخذهم لظاهره والعمل به، والتديّن بأحكامه، ولا نفهم من أخذهم باطن الألفاظ أن يتركوا ما يقتضيه الظاهر حاشاهم من ذلك، بل يأخذون ما لا يقدر أن يأخذ به غيرهم من العزائم وسيرتهم في ذلك مشهورة) [1]

وهو يقر بأن هناك من يتحلل من الشريعة، ولكنه غير معتبر عند الصوفية، يقول في ذلك: (ولا يناقض هذا أقوال بعض أهل الجذب الغالب عليهم الحال، لكونهم ناقصين عن درجات الكمال، وأمّا الكمّل فأقوالهم مشهورة في عدم انفكاك الحقيقة عن الشريعة، أو العكس منها قولهم : (الحقيقة عين، والشريعة أمرها)، ومنها قولهم : (من تحقّق ولم يتشرّع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)، ومنها قولهم : (الحقيقة باطنة في الشريعة كبطون الزبد في اللبن فبمخض اللبن يظهر الزبد)، ويقال : (أنّ الحقيقة شجرة والشريعة أغصانها)، ويكفي في هذا ما قيل : (الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي) [2]

وبناء على هذا يصف الشيخ ابن عليوة الصوفية المحققين بأنهم أولئك الذين (زيّنوا ظاهرهم بالشرع، وجمّلوا باطنهم بالجمع، وأخذوا من الشرع ما لا يقتضيه الطبع، ولا يسبق إليه السمع) [3]

وهو يبين الفرق بين غيرهم، وهو يقصد بلا شك الإصلاحيين الدعاة إلى ظاهر الشريعة، بقوله: (فمن أجل ذلك صار جميع ما يفهمونه عن الله في سائر أحوالهم مأخوذا من الكتاب والسنّة، وقلّما تجد قولا من أقوالهم في الشريعة إلاّ ولهم فيه جميع مراتب الشريعة كالإسلام والإيمان والإحسان.. بخلاف ما عداهم فإنّهم لا يأخذون من القول سوى الظاهر من غير التفات لما له في الباطن من الأسرار القدسيّة والمعاني الغيبيّة) [4]

---

[1] ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص15.

[2] ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص27.

[3] ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص28.

[4] ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص29.

ثالثا ـ حقيقة الكون وعلاقته بالله:

وهذا هو غاية السلوك الصوفي الذي لا يهدف إلا إلى الوصول إلى الله تعالى، ومن خلال معرفة الله يعرف الصوفي الكون، فالكون عنده مظاهر وتجليات للذات التي ليس كمثلها شيء.

وهذه الناحية كذلك هي التي جرت المتاعب على الصوفية، فرموا بالقول بالحلول والاتحاد وغيرها، وقد مر معنا أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت تلقب الشيخ ابن عليوة بشيخ الحلول.

وبما أنا سنتحدث عن وجهة نظر الصوفية في هذه المسألة بتفصيل في الجزء الثالث من هذه السلسلة، فإنا نحب أن نذكر هنا بأن الطرق الصوفية التي عاصرت الجمعية تقول جميعا - على حسب اطلاعي - بما يطلق عليه (وحدة الوجود)، ولكنهم يفرقون بينها وبين وحدة الوجود الفلسفية.

وبما أننا في هذا المحل نقتصر على التعرف على الوجهة الفكرية للطرق الصوفية، فسأنقل هنا بعض النصوص من الشيخ الذي يعتبره الصوفية من وقت الجمعية إلى الآن من كبار العرفاء، وهو الشيخ ابن عليوة، فمقولاته الدالة على قوله بوحدة الوجود كثيرة جدا، منها قوله في حقيقة التوحيد: (فمن لم ير الله قبل كل شيء وبعد كل شيء حتى يبلغ أن يراه ولا شيء فهو قائل بالجهة ولم يشعر، وهو من الظلم في أقصى غايته للتوحيد المحض)[1]

وقوله في تفسير قوله تعالى : {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: 186]: (إن قربه من خلقه كقربه من نفسه هكذا فلتعرف وإلا دع الأمر لأهله) [2]

ويقول في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 163] بأن الآية صريحة في كون المعبود واحدا وإن تعددت المظاهر المقصودة للعبادة، بمعنى وحدة الإله لا تتعدد ولا تقبل الانقسام.. فهويته تعالى قابلة لدخول

---

[1] البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، أحمد بن مصطفى العلاوي، 2/40.

[2] البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، أحمد بن مصطفى العلاوي، 2/144.

سائر الآلهة تحتها فتكون عبادة العابدين راجعة لله بكل اعتبار)[1]

ويقـول عن التوجـه للقبلـة: (في لـزوم السـجود للكعبـة لـزوم سجود الحقـائق لبعضـها والأرواح لنفسـها، بمـا تضـمنه من ظهـور الحق فيها، وذلك يذكر باعتبار لو ارتفعت الكعبـة من بين الحـافين بهـا ثم رفعت أجسـامهم أيضـا فتبقى الحقـائق متوجهـة لبعضـها، والأرواح لنفسـها، فكلهم مصـل ومصـلى لـه على مقتضـى التلازم بين الربوبية والمربوبية)[2]

وفي تفسير سورة الفاتحة يقول: (يفنى ضمير النون من إيـاك نعبـد في ضـمير إيـاك نسـتعين حـتى إذا انحصـرت العبـادة في الاستعانة بقيت الاستعانة والمعين، فأين العبادة والعبد، إن كنت ذا يقين فسره يعبده وحقيقته تشهده مـا عـرف اللـه من قـال: إيـاك نعبد ولا عبده من قال: إياك نستعين) [3]

بل إنه في إعراب (لا إلـه إلا اللـه) في المنح القدوسـية يقـول: (وهذا بعض ما يتعلّق بكلمـتي الشـهادة من حيث المعـنى، أمّـا مـا يتعلق بكلمـة التوحيـد من جهـة الإعـراب تقـول : لا نافيـة للجنس تعمل على أن تنصب اسـم ذاكرهـا على مقتضـى العبوديّـة وترفـع خبره في عـالم الحريّـة، ومعناهـا لا موجـود على الإطلاق إلاّ اللـه، وقولنا نافية للجنس أي للغير، أو تقول لما سوى الله في الجملـة، لأنّ العارفين إذا قال أحدهم لا إله إلاّ الله فلا يجد إلاّ الله حقيقة لا مجازا)[4]

ثم عقب على هـذا بلغـة شـاعرية جميلـة بقولـه: (فـالقوم نفـوا وجود الغير واستراحوا، ودخلـوا حصـن اللـه ومـا برحـوا، وأنت مـا زلت تنفي منذ خلقت إلى أن تموت يمـوت المـرء على مـا عـاش عليه، ولو صـحّ لـك النفي لصـحّ لـك الإثبـات، من أشـرقت بدايتـه أشرقت نهايته، يا هذا ألا تصحب طبيبا يعلّمـك كيفيـة المحـو، لكي تمحو ما سوى الله في الجملة، ثمّ ينهض بـك لحضـرة الصـحو فلا

[1] البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، أحمد بن مصطفى العلاوي، 2/89.

[2] البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، أحمد بن مصطفى العلاوي، 2/67.

[3] البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، أحمد بن مصطفى العلاوي، 1/47.

[4] الشيخ ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، ص82.

تجد إلاّ الله تعالى، فحينئذ تعيش بالله، وتموت بالله، وتحشر مع أحباء الله، وتسكن في مقعد صدق عند مليك مقتدر)[1]

أما ديوانه فممتلئ بالدلالة عليها، وقد نقل الشيخ أحمد حماني الكثير من الأبيات الدالة عليها ليرمي الشيخ من خلالها بالكفر والإلحاد، فمن ذلك قوله[2]:

نـــوديت من أنا	لســت ســواك يــا الله
خــرجت للحس	نفتش عليــك يــا الله
ابتـــديت بنفسي	حصــلت عليــك يــا الله

وقوله[3]:

يـــا مريـــد فـــزت به	بــادر واقصــد من تهــواه
إن أردت تفـــنى فيه	لا تصـــغ لمـــا عـــداه
حضــر قلبــك في اســمه	شخصـــه وافهم معنـــاه
وجـــه وجهـــك لوجهه	واهـــتز اشـــتياقا له
اخفض الطـــرف لديه	وانظــر في ذاتــك تــراه
أين أنت من حســنه	تاللـــه لســـت ســـواه
إن قيـــل من تعـــني به	صـــرح وقـــل هـــو الله

وقد رد الشيخ ابن عليوة على تهم الجمعية له بالقول بالحلول، فقال: : (لا يقعن في وهمك أن هذا القول بالحلول. فالحلول إنما يكون بين وجودين أحدهما حال في الآخر، ونحن نقول : لا وجود

---

[1]) الشيخ ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، ص82.

[2]) ابن عليوة، الديوان، المطبعة العلاوية بمستغانم، 1993، ط5، ص55.

[3]) ابن عليوة، دواوين آيات المحبين، ص 53.

إلا وجوده)[1]

وبما أن مصطلح (وحدة الوجـود) كـان محـل إنكـار من الكثـير، وخاصـة بعـد اختلاطـه بالمصـطلح الفلسـفي، أو فهم الكثـير لـه انطلاقـا من الرؤيـة الفلسـفية، فـإن الشـيخ ابن عليـوة اسـتبدل مصطلح (وحدة الوجود)، بمصطلح (وحدة الشهود)[2]

ففي عـام 1913 كـان قـد نشـر في تـونس رسـالة سـماها (الأنموذج الفريد الموصل لعين التوحيد في شرح النقطة المشيرة إلى الوحدة)، ومما ورد فيها قولـه: (إنمـا هـو ذات في ذات وهاتـه الـذات هي المعـبر عنهـا بوحـدة الوجـود...النقطـة نعـني بهـا عين الذات المقدسة المسماة بوحدة الوجود)[3]، ولكنه حين أعاد طبعها بمستغانم خلال العشرينات غير من عنوان الرسالة ومتنها أيضا.

المبحث الثاني: المشروع الإصلاحي للطرق الصوفية

بعد التعرف على التوجه الفكري للطرق الصوفية الجزائرية في فترة الاستعمار الفرنسـي، وبالضـبط في الفـترة الـتي ظهـر فيهـا نشـاط جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، نحـاول في هـذا المبحث التعرف على المشـروع الإصـلاحي الـذي حـاولت الطـرق الصوفية تحقيقه على أرض الواقع، وذلك لتحصل المقارنـة التامـة بين المدرستين.

وقـد واجهتنـا أثنـاء البحث عن هـذا المشـروع صـعوبات كثـيرة، أهمهـا أن الطـرق الصـوفية، وإن اتفقت في كثـير من شـروط السـلوك أو مراحلـه أو نتائجـه إلا أنهـا تختلـف اختلافـا جـذريا في رؤيتها الإصلاحية، ذلك لأنها عادة ما تكون تابعة لشيخها، فـإن كـان لشيخها نشاط سياسي صارت الطريقة طريقة سياسية واقتحمت الحياة السياسية ومارست السياسة من أوسع أبوابها.

وإن كـان شـيخ الطريقـة مقاومـا عسـكرية، صـارت الطريقـة

---

[1]) ابن عليوة، الناصر معروف، ص 123.

[2]) أحمد بن مصطفى العلاوي: منهل العرفان في تفسير البسملة وسـور من القـرآن، ط 5، المطبعة العلاوية بمستغانم: 1997. ص 21.

[3]) أحمد بن مصطفى بن عليوة: الأنموذج الفريـد الموصـل لعين التوحيـد في شـرح النقطـة المشيرة إلى الوحدة، ص5.

بمريديها ومقدميها وزواياها جنودا لتحقيق غايته، فإن وضع السـلاح وضعت السلاح معه، ثم لا تتحرك بعد ذلك إلا بأمره، وهكذا.

وهـذا من أساسـيات السـلوك الصـوفي كمـا رأينـا، فالصـوفية يقدسون المشايخ، ويرددون في مجالسهم عادة ما ذكره ابن حجر الهيثمي حين قال: (مَنْ فتح باب الاعتراض على المشـايخ والنظـر في أحوالهم وأفعالهم والبحث عنها فإن ذلك علامة حرمانه وسـوء عاقبته، وأنه لا يَنْتُج قط، ومن ثَمَّ قالوا: (من قـال لشـيخه لِم ؟ لَمْ يفلح أبداً)[1]

بغض النظر عن مدى صحة هذا السلوك أو فساده، فإن هذا هو الواقع الصوفي، فالطريقة بشيخها، تحيا بحياته، وتمـوت بموتـه إلا أن يخلفه خليفة له قوة مؤسس الطريقة، وقلما يحصل هذا.

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة مثالا على هذا عندما سئل عن سـبب إقبال الناس عليه على اختلاف نحلهم ومشـاربهم؟ فأجـاب: (مثـل المرشد في القيام بدعوته، كمثل الإمام، إذا أحرم في صلاته فـإن الناس من خلفه كلهم يركعـون بركوعـه ويسـجدون بسـجوده، ولا ينفض عن متابعته أحد، ولكن مادام متوجها إلى اللـه، فـإذا أطلـق السـلام وتوجـه إلى الخلـق مـدبرا عن الحـق، انتشـر كـل منهم لمصـالحه الدنيويـة)، ثم قـال لسـائله: (فأقبـل أنت على اللـه، ولا تطلب إقبال الناس عليك، والله يتولاك)[2]

وقد جعلنا هذا بدل البحث في أسماء الطرق الكثيرة، نبحث عن الطريقة الحية التي كان لها وجـود فاعـل في الواقـع إبـان نشـاط الجمعية، وما أسرع ما وجدنا هذه الطريقة، وقد دلتنا عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين أنفسـهم، فقـد رأيت من خلال تتبـع أحـاديثهم عن التصـوف والطـرق الصـوفية أنهم يركـزون على طريقتين:

---

[1]) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسـلام، أبو العباس، الفتاوى الحديثية، دار الفكر، ص55.

[2]) أحمـد بن مصـطفى العلاوي: أعـذب المناهل، ص 67، نقلا عن: غزالـة بوغـانم، الطريقـة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعـة منتـوري قسـنطينة، قسـم التـاريخ والآثـار، د.ط، د.ت، ص186.

إحـــداهما يقبـــل المعتـــدلون منهم بعض نشـــاطاتها العلميـــة والتربوية، كما يقرون بجهودها في المقاومة العسكرية للمستعمر، وهي الطريقة الرحمانية.

والثانية يتفقون في الإنكار عليها، بل يتفقون في تكفير شـيخها، ومن تبعه، ويسمونه شيخ الحلول، ويرمونه بتهم كثيرة سنراها في الفصل الثالث من هذا الباب.

ولعل سبب احتلال الإنكار على هذه الطريقة خصوصا أكبر حـيز من نشاط جمعية العلماء حول الطرق الصوفية هـو كونهـا طريقـة أسسـها شـيخها ابن عليـوة على تقاليـد عصـرية، مسـتفيدا من الأنظمـة الداخليـة للأحـزاب والهيئـات السياسـية، فوضـع قواعـدا وأصولا لها، ورسخ تقاليد يمضي عليها مريدوه، وذلـك بتنظيم أهـل طريقته، كسن الاجتماعات الأسبوعية التي كـانت تمجـد التصـوف ورجالاته، وتتدارس الفكر الصوفي عامة، والفكر الصوفي العليوي خاصة[1].

ومن تجديداته أنه أسس جريدة تعمل على الدفاع ونشر تعاليم الطريقة، وهي جريدة البلاغ الجزائـري الـتي ظلت في صـراع مـع الجرائد الإصلاحية، وقـد كـانت هـذه المظـاهر العصـرية هي الـتي جعلت (أغسـطين بـيرك) يرفـع ابن عليـوة على درجـات عاليـة، ويجعله من فلاسفة العصر، ويعتبره (مرابطا عصريا)[2]

بالإضافة إلى هذا ذلك الاستفزاز الذي كان يستفز به الشيخ ابن عليوة كل حين أولئك العلماء القادمين من تـونس أو من القـاهرة بشهادات عليا، ليفاجئهم بأنه هـو – لا هم - المرشـد الحي المجـدد لدين الأمة وإيمانها على رأس القرن كمـا يقـول في ديوانـه الـذي كان يحفظه العوام ويرددونه[3]:

ولمـا جـاد الوهـاب عـني بنشـرها   أهلـني للتجريـد من حيث لا أدري

---

[1] عبد المالك مرتاض: ادب المقاومة الوطنية. المرجع السابق. ص 358.

[2] نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينيـة والاجتماعية 1934 – 1909، ص221.

[3] أحمد بن مصطفى بن عليوة، الديوان، ص 55.

وقلـدني سـيف العـزم والصـدق والتقى ومنحني خمـرا فيـا لـه من خمر

فصرت لهـا سـاق وكنت عاصـرها وهل لهـا من سـاق سـواي في ذا العصـــــــــــــــــــــــــــــر؟

وبعـد أن انتشـر أتباعـه في أكـثر الشـمال الجزائـري، بـل صـار المريدون يزورونه من كل النواحي حـتى من خـارج الجزائـر، قـام أعضاء الجمعية قبل تأسيسها وبعدها بحملة للإنكار عليه، كـان قـد بدأها الشيخ عبـد الحميـد بن بـاديس عـام 1922 برسـالة (جـواب سؤال عن سوء مقـال)[1] انتقـد فيهـا أبياتـا في ديـوان ابن عليـوة، ووجه الرسالة إلى كبار علماء تونس والجزائر والمغـرب من أبنـاء المدرسة السلفية، فقرضوها وأيدوا ما جاء فيها.

وقد رد عليها ابن عليوة برسـالة وقرضـها هي الأخـرى بتقاريـظ من المشرق والمغرب ليثبت لهم أن هناك علماء آخـرين يمكن أن يرجع إليهم، وأنهم يتبنون التصوف الذي يتبناه.

وبهـاتين الرسـالتين بـدأ الصـراع يتجسـد على أرض الواقـع بين المدرستين الكبيرتين السلفية والصوفية، كما قدمنا سابقا.

وبذلك أصـبحت الطريقـة العلاويـة في ذلـك الحين هي الممثـل الوحيد للطرق الصـوفية، كمـا كـانت الطريقـة الرحمانية في عهـد الشيخ ابن الحداد هي زعيمة الطرق في حينها، وبفضـلها اسـتطاع أن يجيش الجيوش لمقاومة المستعمر.

لكن الشيخ ابن عليوة فوجئ بالتيار الإصلاحي الذي يقطع عليـه الوصول إلى الزعامة التي وصل إليها الأمـير عبـد القـادر والشـيخ ابن الحداد من قبلـه، مـع أنـه كـان بمـا يكتبـه وينشـره يمثـل دور الزعامة على جميع الطرق الصوفية، بل يقـوم بنفس الـدور الـذي قام به الأمير عبد القادر عنـدما جعـل من طريقتـه القادرية أشـهر طريقة في الجزائر عند قيادته للمقاومة، ونفس الدور الذي قامت به الطريقة الرحمانية بمشايخها المختلفين حين تزعمت المقاومـة على الاستعمار.

ويمكننا بالمقارنة بين رسائل الأمير ورسائل ابن عليـوة أن نجـد صلات كثيرة بينهما، فقد كـان الشـيخ ابن عليـوة يخـاطب مشـايخ

---

[1]) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج 1، ص 71.

الطرق يقول لهم بعتاب ممزوج بألم: (ما كان يجمل بمثلي...أن ينتصب لتذكيركم وأنتم المذكرون، أو ينتدب لوعظكم وأنتم الواعظون...لولا أن في القوم من فشلت عزائمه، وتضعضعت دعائمه، فأصبح يعمل على خلاف ما يطلبه منه المقام الذي لم يكن إلا لمحض التذكير)[1]

ويدعوهم بحكم ما أوتوا من مكانة اجتماعية ودينية أن يمارسوا ما طلب منهم من إصلاح (لتجديد مجد الأمة التي لا مجد للأمة إلا بمجدد دينها، ومن لم يستغل نفوذه لهذه الغاية فلا أبقى الله بيده نفوذا)[2]

ويتعجب من سكوتهم في الوقت الذي أصبح الدين فيه غريبا بين أهله مهددا من أعدائه حتى طمع في تنصير أبنائه المبشرون، وفي تشكيك أفراده الملحدون[3].

بالإضافة إلى هذا كله، فإن البحث عن المشروع الإصلاحي للطرق الصوفية عبر بوابة الطريقتين الرحمانية والعلاوية لا يعني أن هاتين الطريقتين مجرد نموذج للإصلاح، وإنما هما في الحقيقة تعبير ظاهر عن المشاريع الإصلاحية للطرق الصوفية.

وسنرى من خلال عرضنا لهذا المشروع أنه لا يتناقض مع ما تتبناه سائر الطرق الصوفية من مفاهيم تنطلق أولا من قناعاتهم بسبب الفساد وجذوره.

بناء على هذه الاعتبارات نحاول في هذا المبحث – بمثل ما تحدثنا عن المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء – أن نتحدث عن المشروع الإصلاحي للطرق الصوفية، حتى تتيسر علينا المقارنة.

ونحب أن نشير فقط إلى أن بعض الكتب للطريقة العلاوية تكاد تصير في حكم المفقود، ولذلك اعتمدنا في بعض التوثيقات على الدراسة التي أشرنا إليها في مقدمة الرسالة، وهي عبارة عن رسالة (الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية

---

[1]) أضاميم المد الساري لصحيفة البلاغ الجزائري، ج 1، قدم له وحققه: عبد السلام بن أحمد الكنوني، راجعه وأشرف عليه: عدلان خالد بن تونس، ط 1، طنجة، 1406 ه.1986، ج 1، ص 182.

[2]) المصدر نفسه.

[3]) المصدر نفسه. ص 183.

1934 – 1909) للباحثة غزالة بوغانم، وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة منتوري بقسنطينة، قسم التاريخ والآثار.

المطلب الأول: الإصلاح الديني عند الطرق الصوفية

يعتبر الصوفية عموما أن السبب في كل ما يحدث في الواقع من أحداث هو العلاقة مع الله المعبر عنها بالتدين، فبقدر ما تكون العلاقة مع الله متينة صلبة حية، بقدر ما تستقيم الحياة، وبقدر ما تنهار تلك العلاقة تنهار الحياة، ولذلك لا يتشتت أصحاب الطرق في البحث عن أي حل، فالحل عندهم واضح.

وأذكر في هذا أن مشايخ الطرق الصوفية في الجزائر في الوقت الذي حصلت فيه تلك الفتن التي راح عشرات الآلاف ضحية لها، كانوا ينصحون أتباعهم بأوراد معينة، وبذكر كثير، يوحون لهم بأنه كلما كثر الذكر والدعاء والتضرع والقرب، كلما ارتفعت الفتن.

ولذلك فإن الإصلاح الديني بهذا المعنى كان هو الإصلاح الأساسي الذي يمكن أن نقصر عليه دور الطرق الصوفية، ذلك أن دور الشيخ المربي - الذي هو مركز دائرة الطريقة - هو التوجيه الديني لمريديه أو الرقي بهم إلى درجات معينة من سلم الكمال الإيماني حسبما يراه.

وهذا لا يعني أن سائر أنواع الإصلاح مستبعدة من الطريقة أو من شيخها، ولكن المراد هو أن المنطلق في الإصلاح هو الدين، وأما ما عداه من سياسة أو تربية أو مجتمع هو نتيجة حتمية لتحقق التدين بمفهومه الشرعي.

ولهذا نجد الصوفية دائما يرددون في مجالسهم الأثر المعروف : (كما تكونوا يولى عليكم)[1]، أي أن ما يحصل في عالم السياسية من تغيرات ليس سببها الاستبداد الخارجي فقط، وإنما سببها أيضا الانحراف عن المنهج القويم الذي رسمه الدين.

---

[1] قال العجلوني في (كشف الخفاء): (رواه الطبراني عن الحسن البصري أنه سمع رجلا يدعو على الحجاج فقال له لا تفعل أنكم من أنفسكم أوتيتم إنما نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن يتولى عليكم القردة والخنازير فقد روى أن أعمالكم عمالكم وكما تكونوا يولى عليكم) (العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، دار إحياء التراث العربي، (1/ 147)

وهم في يطبقون مفهوم الآية الكريمة: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد: 11]

وقد وصف الشيخ محمد السعيد الزاهري – بعد أن تخلى عن حربه للطريقة العلاوية- الشيخ ابن عليوة بأنه من دعاة الإصلاح الديني الإسلامي، في الوقت الذي يعتبر نفسه ضمن تيار الإصلاح الوطني السياسي[1].

وهذا أيضا ما صرح به محمد العوادي الذي وصف الشيخ ابن عليوة بقوله: (كان الأستاذ العلوي رجلا دينيا محضا، لا يحب من الأحزاب السياسية إلا ما يقرر ترجيح الديانة على السياسة، ولا تربطه به أية رابطة سواها) [2]

ولعل هذا ما جعل الشيخ ابن عليوة يظهر بصورة المدافع عن الاستعمار عندما يعاتب أو يوبخ الشعب الجزائري على تقصيره في الالتزام بالدين، فهو يذكر أن (حالة مسلمي الجزائر الدينية اليوم ليست هي عين حالتهم بالأمس... بل لا يوجد فيما بين الحالتين أدنى شبه إذا قابلنا ما بين مساجدنا الآن، وبين عددها بالأمس.. فعدد مساجد مدينة الجزائر وحدها كان يزيد على المائة مسجد ما بين حنفي ومالكي فضلا عن المدارس والزوايا وعدد مساجدها الآن لا يتجاوز عدد الخمسة) [3]

ثم يعقب على بيان السبب في هذا، وهو عنده ليس المستعمر، بل الشعب نفسه، بل إنه يكيل للمستعمر الثناء في تنوير الشعب، ويلومه في نفس الوقت لأنه لم يفقه الطريق الحقيقية المؤدية إلى الإصلاح، يقول في ذلك: (فكم هذا والقطر الجزائري متسربلا بالراية الفرنسوية متجملا برونقها، والكل يعترف من أنها دولة من أسرع الدول سيرا في سبيل الإصلاح، ومع هذا لم نستفد من ذلك الإصلاح إلا ما نراه كاللازم من عمارة السجون بسفهائنا والطرقات بأبنائنا الفارغين من أعمال الدنيا والآخرة، ومع هذا

[1]) أضاميم المد الساري، ج 2، ص 469.

[2]) محمد العوادي: (جمعية التذكير)، لسان الدين، ع: 35، الجزائر: 30 جمادى الأولى 1356 هـ..

[3]) (مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية)، لسان الدين، ع: 8، الجزائر: 20 فيفري 1923.

فلست بقائل أن الحكومة تعمدت تـرك الإصـلاح، كلا! إنمـا أقـول: جهلت الطريق الموصلة إليه فأتت البيت من غير بابه)[1]

بل إنه فوق هذا يدافع عن فرنسا ضد من يرى بأن (أولي الأمر لا يسمحون بإظهار شعائر الإسلام)، ويستدل لـذلك بـأن الحكومـة الفرنسية هي الأعرق في تقرير حرية الأديان على اختلافها[2].

يقـول معـبرا عن هـذا: (فمـتى اجتمـع المسـلمون على نحـو تأسيس مدرسة علمية، أو جماعـة دينيـة فعارضـتهم الحكومـة في ذلك فما سمعنا به. ولن نسمع به إن شاء الله هل يريد المسلمون أن تأمرهم بنحو ذلك رسميا. كلا! لأن ذلك ليس هـو من وظيفتهـا، فهي لا تأمر أبناء جنسها بمثله، كما أنها لا تنهاهم أيضا عن تعاطيه. فكيـف تريـد أنت أيهـا المسـلم أن تجعـل لـك درسـا تـأمرك فيـه بتأسيس دينك...ألم يكفـك أنهـا حملت على عاتقهـا احـترام دينـك وعوائدك؟)[3]

وخشية أن يساء الفهم من هـذه النصـوص نـذكر أن هـذا الكلام الذي يقال عادة في التقية قد قال مثله كبار رجال الجمعيـة، وقـد سبق ذكر أمثلة عنه.

ولكن المغرضين للأسف يأخذون هذه المقولات، ثم يرمـون بهـا الصوفية بحجة أنهم صنيعة المستعمر، فـإذا مـا ووجهـوا بمثلهـا أو بما هو أشد منها من مقولات الجمعيـة تجـده يعتـذر لهـا، ويبررهـا، ونـرى هـذا من ازدواجيـة المكاييـل الـتي تتنـافى مـع الموضـوعية العلمية.

انطلاقا من هذا ركـزت الطـرق الصـوفية على برنـامج للإصـلاح الديني يصحح الوضع في الجزائـر، بـل يطمح إلى غيرهـا من البلاد كما سنرى.

ويركز هذا البرنامج على نشر القيم الروحية في أوساط العامـة والخاصة، بل والتبشير بها في العالم أجمع، لعـدم اعـتراف رجـال الطرق الصوفية بالحدود الجغرافيـة، ومـا ينبـني عليهـا من قوميـة ووطنيــة، ويمكن تقســيم القيم الروحيــة الــتي دعت إليهــا إلى

---

[1] (كيف نتوخى الإصلاح؟)، لسان الدين، ع: 2، الجزائر: 9 جانفي 1923.

[2] ح. ع: (مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية)، لسان الدين، ع: 5، الجزائر: 30 جانفي 1923.

[3] المصدر السابق.

قسمين:

قسم خاص بالعامة المقصرين في أمور دينهم، وهو دعوتهم إلى ممارسة الشعائر التعبدية الأساسية التي لا يستقيم الدين من دونها.

وقسم خاص بالخاصة، وهو السير بهم عبر السلوك الصوفي إلى مراتب الكمال بحسب المنهج الصوفي، ولهؤلاء سلوكهم الخاص من الأوراد والخلوة وغيرها كما رأينا ذلك في المبحث السابق.

وسنتحدث عن منهج الطريقة العلاوية في تحقيق هذين الهدفين في العنوانين التاليين:

1 ـ الاهتمام بالشعائر التعبدية:

كما رأينا في الباب الأول من هذه الرسالة، فقد كان الواقع الجزائري بكل عناصره في منتهى التدهور والسقوط، ولم يكن الواقع الديني بمنأى عن ذلك، وقد رسم عمر راسم صورة ذلك الواقع المزري فقال::(كيف يكون المسلم مسلما في بلد خلت مساجده من الراكعين الساجدين، وامتلأت شوارعه من اللصوص والفجار والسكيرين؟)[1]

ولذلك فقد رأت الطريقة العلاوية أن الإصلاح الديني لا يتم إلا بإعادة التدين للجماهير التي سلب منها دينها، فوقعت في الانحراف وبعده في الاستعباد.

والتدين – حسب تصور الطريقة العلاوية- لا يعود إلا بإحياء شعائره جميعا، ولا تحيا الشعائر إلا بإظهارها والإعلان بها وملأ المساجد بجميع أنواع الممارسات التعبدية من القرآن والذكر وغيرها، ليجد المنحرف فيها بعد ذلك ضالته الروحية التي تحميه من الانحراف، يذكر هذا ابن عليوة بأسلوبه الخاص الذي يمتزج فيه العتاب بالنصح، فيقول: (المؤذن في بعض المساجد بين الأساطين تحت السقف يسرد جمل الآذان شبه الإقامة تبركا، وكأني بحال الإمام من خلفه يقول له: (اذكر ربك في نفسك فإنك لا تدعو غائبا ولا أصم!!!)...فيا للفضيحة! أيبلغ بنا معشر

[1]) محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها (1903ـ- 1931)، ج 1، ص 79.

الجزائريين التهاون إلى أن نصير لا نستطيع إظهار شعائر ديننا مع أننا مسلمون في بلاد إسلامية وفي حال أن حكومة البلد نفسها تسعى بجهدها في تأسيس مسجد من أعظم المساجد في (باريس) كل ذلك ركونا منها إلى الدين الإسلامي، واستجلابا لعواطف المسلمين)[1]

ولم يكن الاهتمام بهذا قاصرا على المقالات أو بعض الممارسات، وإنما كان يشكل نشاطا مهما لمريدي الطريقة العلاوية، فهم في أثناء سياحاتهم – التي هي جزء من سلوكهم الروحي- يقومون بحث الناس على أداء الصلوات المفروضة في وقتها، ولو لم ينتسبوا لطريقتهم أو يأخذوا عنهم العهد[2].

وكان يأخذ العهد على مريديه على القيام بواجب التذكير والنصيحة في المجتمعات العامة، وأماكن الغفلة، على أن لا يخرجوا في تذكيرهم عن موضوع الصلاة وقواعد الإسلام[3].

وقد كان يخص بهذا الاهتمام المناطق التي تتعرض لضغط المستعمر قصد تغيير هويتها، فكان الشيخ ينشر تلاميذه ورسائله إليهم يتعهدهم كل حين، وكمثال على ذلك هذه الرسالة التي كانت تقرأ في المجالس المختلفة: (إلى حضرات أصدقائنا ببلاد القبائل، ومن حولهم أخصّ بالذكر رؤساءهم وفقهاءهم ومشايخهم، وجماعة المتقدمين، ومن له أدنى ارتباط بنسبتنا واعتماد كلامنا، عليكم جزيل السلام ما دمتم لله ذاكرين، ولشرعه ناصرين. هذا أيّها السادة، ألهمني الله وإيّاكم لما فيه نفع الدارين، وفي يقيني أنّه لا نفع أنفع من اتباع سنّة سيد المرسلين وإحيائها،

---

[1] (مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية)، لسان الدين، ع: 8، الجزائر: 20 فيفري 1923، وقد اهتمت صحيفة لسان الدين بظاهرة عزوف المسلمين عن عمارة المساجد وإقامة الصلاة بإتقان، مع عمارة الأوقات فيها بقراءة القرآن، انظر مثلا: غيور: (نظرة تقتضي الأسف)، لسان الدين، ع: 9، الجزائر: 27 فيفري 1923.، نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص225.

[2] محمد العوادي: جمعية التذكير، لسان الدين، ع: 35، الجزائر: 30 جمادى الأولى 1356 ه..

[3] المصدر السابق.

والعمـل على مقتضـياتها، وبالخصـوص في هـذا الزمـان الصـعب، الذي صار فيه القابض على دينه كالقـابض على الجمـر، كـلّ ذلـك لضعف اليقين، وقلّة المعين، وقد كنّـا نعهـد من أفـرادهم الصـدق، والتبّصـر على نصـرة الحـقّ، ورجـوت اللـه بوجـودكم تحـيى البلاد والعباد، وقد كـان من ذلـك مـا يسـتحق الـذكر والحمـد للـه، حـتى اعترف به العدو والصديق، فشكرنا سعيكم وحمدنا الله لنـا ولكم، غير أنّه في هذا الأخير بلغني ما كدّرني، وللكتابة ألجـأني، وهـو أنّ بعض المساجد في أرضكم تخريب، وهكذا بعض الكتاتيب تعطلت، ولست أدري هل ذلك ثابت أم لا؟ وإن كان ذلك يقع مـع وجـودكم، فوجـودكم إذن والعـدم على السـواء، وأنتم على علم من إنّنـا مـا صحبناكم، وعاهدناكم إلاّ على قيام شرائع الدين، واتباع سـنّة سـيد المرسلين ﷺ لّى، وهذا هو العهد الذي قطعناه وقطعتموه مع اللـه في السـرّ والجهـر، ومن أوفى منكم بعهـده فهنيئـا لـه، ولعشـيرته ودائرته، ومن نكص على عاقبيه، أو خان ما عاهد اللـه عليـه، فـإنّ الله لا يحبّ الخائنين، وإنّه لا ذمّة بيـني وبينـه، بـل بينـه وبين أهـل السلسلة من يومنا هذا إلى رسول اللـه ﷺ إلاّ من تـاب: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } [البقــرة: 222]، وهــذا مــا لم يكن مغلوبا على عقله، وإلاّ فلا يلتفت إليـه، وقـد أخـبرني في هـذا الأخير أحد الأصدقاء، أنّه رأى في منامه أنّ قائلا يقول له : (ها هو ذا كلب أسود يأكل في الدين، قال فخرجت، وإذا بالدين تمثّل لي كأنّه جوف شاة معلّـق على حبـل، وكلب أسـود ينهش فيـه نهشـا، قال : فقمت مرعوبا) فهـذا هـو الزمـان الأسـود، تـرى ينهش في الـدين نهشـا، فهـل يحسـن من أبنـاء الـدين أن ينهشـوا معـه، أم يحـرزوه؟ وبعـد هـذا فـإنّي أحـذركم اللـه، وأحـذر نفسـي معاشـر المسلمين، أن تهملوا كتاب اللـه، وتعطّلـوا مسـاجد اللـه، فيسـرع إليها الخراب مع وجودكم، فإنّ الله تعـالى يقـول في الشـق الأول إخبارا عن نبيّه حيث يقول يوم القيامة: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَـا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30]، وما كتبت هـذا إلاّ تحذيرا وظنّي فيكم جميل، وإن تخلّفتم فإنّي قد أنذرتكم، واللـه

يتولّى إصلاحكم، وهو خير المصلحين)[1]

هذا نموذج من رسائل الشيخ نقلناه كاملا، ومثله كثير، والغرض منه أن يطلع عليه أولئك المتسرعون الذين يرمون الشيخ والطريقة والطرق بالانحلال من الشريعة.

2 ـ نشر السلوك الصوفي:

لا تكتفي الطرق الصوفية بالشعائر التعبدية الواجبة في الدين، بل يضمون إليها ما يعتبر في الأبواب الفقهية من النوافل التي لا حرج على المكلف في تركها، ككثرة الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ والخلوات التعبدية ونحوها، وكل ذلك بصحبة المعاني الروحية الباطنية التي يلقنها الشيخ لمريديه، أو يتذاكرها المريدون فيما بينهم.

وسبب ذلك اعتقادهم أن الممارسات التعبدية الظاهرية لا تكفي وحدها ما لم تصاحبها المعاني الباطنية في عالم الروح، والتي لا تتحقق إلا بالسلوك على يدي الشيخ المربي، الذي من ظفر به ظفر بالإكسير الأحمر.

وقد مر بنا في المبحث السابق الممارسات الخاصة للطرق الصوفية، وسنرى في الجزء الثالث من هذه السلسلة العلل والدوافع التي جعلت أصحاب الطرق يختارون تلك الممارسات.

المطلب الثاني: الإصلاح التربوي عند الطرق الصوفية

إن كان الكثير يحكم على الدور السياسي للطرق الصوفية في الفترة التي تلت المقاومات الشعبية والطرقية للاستعمار بالسلبية، فإن القليل جدا من الباحثين المنصفين من يحكم على دورهم التربوي والتعليمي بذلك، فقد كانت الزوايا ـ مهما اختلفت الطرق التي تنتمي إليها ـ تمارس هذا الدور بفاعلية في المدن والأرياف، وفي أي محل يكون لها وجود فيه.

ولهذا لم تنكر الجمعية ما تقوم به الزوايا والطرق الصوفية من أدوار في هذا الاتجاه، وإنما تنكر عليها بعض ما يطرح في تلك المؤسسات من أفكار لا تتفق معها الجمعية.

وقد شهد أحمد توفيق المدني للطرق بدورها الكبير في هذا الجانب، فقال في (كتاب الجزائر): (لا زال للطرق الصوفية بقطر

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص178.

الجزائر حظوة كـبرى ونفـوذ عظيم... إن لبعض الطـرق الصـوفية بقطرنا هذا مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكـابر، تلـك هي أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل رجالها الأولـون على تأسـيس الزوايـا، يرجعـون فيهـا الضـالين إلى سـواء السـبيل ويقومـون بتعليم الناشـئة وبث العلم في صدور الرجال ولولا تلـك الجهـود العظيمـة الـتى بـذلوها والتي نقف أمامها موقف المعترف لما كنا نجد السـاعة في بلادنـا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين)[1]

ونفس الأمـر يشـهد بـه البشـير الإبـراهيمي، ولكنـه كمـا ذكرنـا لشدته في هذا الباب كان ينظر إليه نظرة مخالفة مع إقـراره بـأن هناك زوايا كثيرة، وأن هناك تعليما فيها، وهذا الذي يهمنـا في هـذا المحل، فقد قال: (.. والكثرة الغالبة في علماء الجزائر قبل اليـوم تعلمت بالزوايـا أو علمت العلم في الزوايـا، فمن الزوايـا المبـدأ وإليها المصير. وزوايا الطرق في باب العلم كمـدارس الحكومـات هذه معامل لتخريج المـوظفين، وتلـك معامـل لتخـريج المسـبحين بحمد الزوايا والمقدسين. أما العلم وحقيقته وصراحته وحريتـه فلا رائحة لها في هذه ولا في تلك)[2]

وما يقوله الإبراهيمي في هذا عجيب، لأن للزوايا الصـوفية منـة في عنـق الكثـير من رجـال الجمعيـة بمن فيهم هـو نفسـه، فعلى الرغم من انتمائه إلى أسرة علمية، إلا أنه لم يسـتغن عن الانتمـاء للزوايا، فقد ذكر في ترجمته أنه تلقى تعليمـه الأول على يـد أبيـه، ثم في زاوية (ابن علي الشـريف) في (شـلاطة) بجبـال القبائل[3]، وهي – كما هو معلوم- من زوايا الطريقة الرحمانية التعليمية.

ومثله الشيخ العربي التبسي، فقد ذكر الـدكتور أحمـد عيسـاوي في كتابــه (جهــود الشــيخ العــربي التبسي الإصــلاحية) أن أهم المدارس التي انطلق منها الشيخ العربي التبسي هي الزوايا الـتي

---

[1] المدني، الجزائر،، ص 375.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 186)

[3] انظر عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت : 1980 م، ص 13.

تنتمي إلى الطريقة الرحمانية، فقد بدأ حياته العلمية بعد الكتاب في زاوية أولاد رشاش بالزوي، ومكث فيها سنتين وبضعة شهور، وحفظ فيها القرآن الكريم، ثم انتقل إلى (خنقة سيدي ناجي)[1]، ومكث فيها ست سنوات أتقن حفظ القرآن بالقراءة المغربية وتعلم مبادئ العلوم العربية والدينية، ثم انتقل إلى زاوية سيدي مصطفى بن عزوز النفطي الجريدي الرحماني[2] سنة 1910م بالجريد التونسي جنوبا، وبها حفظ متون العقيدة وعلم الكلام والمنطق والفقه وعلم الأصول واللغة العربية والأدب شعره ونره وبلاغته.. فأتقن متونها من المكودي، والأجرومي، وابن عاشر، ومتن سيدي خليل، ومكث بها ثلاث سنوات وبضعة شهور، ليعود بعدها إلى دوار اسطح في صيف سنة 1912م منتزعا توصية من شيوخه في الزاوية تزكيه للالتحاق بالجامعة الزيتونية[3].

وهكذا عندما ندرس البداية التعليمية لأكثر مشايخ الجمعية نجد أن لهم صلة قريبة أو بعيدة بالزوايا أو الطرق الصوفية.

وسر ذلك بسيط، وهو أن زمام التعليم العربي والديني في ذلك الوقت كان بيد الزوايا والطرق الصوفية، وقد كانت تمارس فيه الطريقة التقليدية التي كانت متبعة في جميع بلاد العالم الإسلامي، بل في مؤسساته التعليمية الكبرى كالأزهر والزيتونة وغيرها.

وسنحاول هنا باختصار أن نذكر المؤسسات التي كانت تمارس الطرق الصوفية وظيفتها التربوية من خلالها، ثم نتحدث عن المقررات الدراسية، والتجديد الذي حصل فيها من طرف الطرق الصوفية إما من تلقاء ذاتهم أو مواجهة للتجديد الذي جاءت به الجمعية، وحصل مثله في العالم الإسلامي.

أولا ـ المؤسسات التعليمية للطرق الصوفية:

يطلق على المؤسسات التعليمية الخاصة بالطرق الصوفية

---

[1]) سيأتي الحديث عنها وعن دورها.

[2]) نسبة إلى الشيخ مصطفى بن محمد(1288هـ - 1866م) شيخ الطريقة الرحمانية بتونس، والتي جاءها قاصدا من بسكرة لنشرها بنفطة بالجريد التونسي. محمد محفوظ. تراجم المؤلفين التونسيين. ج 3. ص 379.. 381.

[3]) انظر: الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص285.

اسـم الزوايـا، وهي تصـنف ضـمن المرحلـة الثانيـة للتعليم بعـد الكتـاب[1]، وتتمـيز بـأن دورهـا لا ينحصـر في التعليم فقـط، بـل بالإضـافة إلى ذلـك كـانت محلا للتوجيـه والتربيـة ودارا للقضـاء والفتـوى، ومقـرا للتواصـل الاجتمـاعي بين أهـل المنطقـة، أو بين المناطق المخلفة.

وبذلك فإن الطالب الدارس فيها يكتسـب بالإضـافة إلى العلـوم والمعارف الخبرة بالواقع الاجتماعي والسياسي، وذلك ممـا يـدعم تكوينه العلمي.

وقـد كـان في الجزائـر ابتـداء من العهـد العثمـاني وفي خلال الاحتلال الفرنسي زوايا كثيرة، فحسب إحصاء (1871) كـان عـدد الزوايـا 2000 زاويـة موزعـة على كـل القطـر الجزائـري شـمالا وجنوبا، وقد قامت بتعليم 28.000 تلميذ تقريبا، فكـانت توجـد في قسـنطينة 90 مدرسـة تحتـوي على 14.000 تلميـذ سـنة 1873، وكان في نواحي تلمسان حوالي 40 زاوية، وفي الجزائر العاصـمة 1000 مدرسة لتعليم القراءة والكتابة والحساب[2].

وقـد كـانت هـذه الزوايـا -كمـا يظهـر من تواريخهـا التفصـيلية - تتنافس في الحصول على أفضل الأسـاتذة والمدرسـين، لأن عـدد طلبتها وشهرتها والدعم المادي الذي تتلقـاه من الأهـالي يتناسـب طرديا مع ذلك.

---

[1] **الكتاتيب:** وهي المدارس الابتدائية التي يبدأ بها المتعلم تكوينـه، وهي مخصصـة عـادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال، وكان يركـز فيهـا على قـراءة القرآن وكتابته ولفظه واستظهاره على ألواح الخشـب، ولم تكن هنـاك طريقـة تـدريس غـير الاسـتظهار، كمـا لم تكن هنـاك مـواقيت محـددة للتعليم أي (اسـتعمال الـزمن) وإنمـا الطالب(المعلم) هو الذي يحدد وقت التدريس، وكان التلاميذ الذين يلتحقـون بالكتـاب صـغار تتراوح أعمارهم عموما بين 6 و10 سنوات.

ومما يميز كثرة الإقبال على هذه المؤسسة التعليمية هو مكانتهـا الاجتماعيـة ومـا حظيت بـه من احترام وتقدير من طرف الشعب الجزائري بحيث كان لهـا دور فعـال متمثـل في التعليم الديني للأطفال الصغار والحرص على حفظ القرآن، ولها وظيفة أخلاقية وعلمية (انظر: آسيا بلحسين رحوي، (وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي)، دراسات نفسية وتربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، عدد 7، ديسمبر 2011، ص74)

[2] الطاهر زرهوني، 1993، ص14.

وكمثال على ذلك ما ورد في ترجمة العلامة الشيخ أبي حفص الزمّوري[1] ورحلته العلمية بين الزوايا المختلفة، وكيف كان يستقبل فيها، ويلتف حوله طلبة العلم ومشايخه، فقد ذكر مؤلف (مشائخ خالدون وعلماء عاملون) كيف خرج الشيخ من وادي زناتي وكيف استقبل بعدها في عين الفكرون بولاية أم البواقي، قال: (انتقل الشيخ إلى جامع (عين الفكرون) في جو احتفالي بهيج أقامه أعيان وادي زناتي على شرفه اعترافا بما قدمه لسكان الجهة من العلم والمحبة الصادقة، ورافقوه إلى عين الفكرون حيث استقبله أعيانها وسكانها الطيبون استقبالا كبيرا قوامه الحفاوة البالغة، والترحاب الكريم، اعترافا منهم بمكانته العلمية والدينية تعبيرا صادقا على قبوله دعوتهم للتدريس والإمامة بمسجد مدينتهم)[2]

وقد بلغ عدد المؤسسات التي تدرس القرآن الكريم للأطفال في الأوراس حوالي 68 مدرسة خصصت لهم أقسام لذلك، بحيث لا يقل عددهم عن 10 في كل قسم، وهذه المدارس عامرة طول السنة خاصة في فصل الشتاء، أما في فصل الصيف فيتوجه معظمهم إلى الحقول والمزارع لمساعدة ذويهم في الحصاد والدرس، وقد بلغ عددهم في مطلع القرن 19 حوالي 2400 تلميذ، وحسب صرير المقاطعة الإدارية الفرنسية (أن عدد التلاميذ الذين يتابعون دروسهم لدى مختلف الأساتذة يتضاعف بشكل معتبر كل سنة خاصة في أولاد عبدي ومنعة وأولاد داوود ومدوكال

---

[1]) ولد سنة 1913 وتوفي سنة 1990، مارس التدريس والإمامة بعدة زوايا ومساجد عبر التراب الوطني، منها زاويته العامرة بزمورة الغراء، مرورا بزاوية الجعافرة ببرج بوعريريج إلى مسجد تيوريرين ببني عيذل بالقرب من تامقرة ببجاية إلى زاوية الشيخ الحاج الطرابلسي بعنابة إلى زاوية شلاطة الشهيرة والعظيمة ثم زاوية سيدي موسى في تينبذار ببجاية إلى وادي زناتي بقالمة، ثم عين فكرون بأم البواقي ثم زاوية أجداده بزمورة ليتوقف أخيرا بمسجد سيدي رمضان بحي القصبة بمدينة الجزائر المحروسة من سنة 1965 إلى غاية وفاته في 10 ماي 1990، انظر ترجمته المفصلة في: مشائخ خالدون وعلماء عاملون: ص60 فما بعدها.

[2]) انظر: مشائخ خالدون وعلماء عاملون: ص62.

وتبرماسين وقد مس حتى الكبار لضرورة العبادة)[1]

ولو أعطينا أمثلة عن ذلك، فإننا نجد الزاوية المختارية بأولاد جلال قد سطرت لنفسها برنامجا علميا ثريا بمختلف المواد، وكان هدفها الأساسي هو تحفيظ القرآن وتدريس العلوم الأخرى كالفقه والتفسير والحديث والأصول والنحو والبلاغة والعروض والمنطق والفلك، وقد كان الطلاب يأتونها من كل حدب وصوب (الزيبان، الجلفة، الحضنة...) ففي عهد شيخها الأول وصل عدد الطلبة إلى نحو 700 تلميذ، فخرجت بذلك أجيالا من رجال العلم والفقه والإصلاح[2] .

أما زاوية آل دردور فقد اهتمت كذلك بتعليم القرآن وأصول الدين وقواعده، وقد كان شيخها الهاشمي بن علي دردور يقوم بتدريس المواد الدينية، كالفقه والسيرة النبوية والتربية وكذلك علوم اللغة العربية كالنحو والصرف، وكان يلقن قصائد المبشرات، وهي من تأليفه في التربية ومدح الرسول ﷺ وسيرته ويقول أنه ربى بهذه الطريقة 400 رجل و100 امرأة[3] .

أما الزاوية العثمانية بطولقة فقد اهتمت هي الأخرى بتحفيظ القرآن للقادمين إليها من كل المناطق، وما زالت إلى يومنا هذا تقوم بهذا الدور، وكذلك مبادئ اللغة العربية والفقه، وتتكفل الزاوية بالمأكل والمرقد مجانا، ومن العلماء الذين درسوا بهذه الزاوية الشيخ أبو القاسم الديسى والمدني عثماني ومحمد الدراجي وعبد الله لخذاري وأحمد بن مسعود القنطري، بالإضافة إلى الذين كانوا يترددون على الزاوية، فهم كثيرين نذكر منهم أحمد الأمين بن محمد، المدنى بن عزوز، محمد الأخضر

---

1) عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية (1937 ـ 1939)، ترجمة الحاج مسعود، ج2، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، ط1،2005، ج 1، ص 359.

2) صلاح مؤيد: الطبق الصوفية والزوايا في الجزائر، ص 390..

3) علي عزوزي: زاوية آل دردور بالأوراس، الملتقى الأول حول الأمير عبد القادر وأعلام من الأوراس، مؤسسة الأمير عبد القادر، باتنة 2003، ص 34.

الحسين[1].

وأشهر العلماء الذين تخرجوا من هذه الزاوية الشيخ الأخضر بن عمر الطـولقي، ثم الشـيخ الغسـيري ومحمـد خـير الـدين، وعمـر دردور وموسى وعبد القادر بن الموهوب الدوكالي الأزهري[2].

وقد وصل تأثير الزاوية إلى مجال جغرافي واسع داخـل الـوطن وخارجه، فظهرت زوايا على طريقتها وكأنها فروع لهـا مثـل زاويـة الشــيخ عبــد الحفيــظ الخنقي وســيدي ســالم في وادي ســوف، والشـيخ الخيـاري وزاويـة الهامـل، وزاويـة بن عبـد اللـه الصـدقي بالأوراس وهي امتدادات لها[3].

وكــذلك كــانت زاويــة منعــة القادرية من مراكــز تعليم القــرآن والعلوم الدينية واللغوية ومن الشيوخ الذين عملوا بالزاوية محمــد الصغير بن عباس، ومحمد بن محمد بن عباس، ومن أبنائها الــذين تخرجوا شها، الشيخ ابن عباس زين العابدين، والشيخ ابن العبـاس بن محمد الصغير، وقد بلغ عدد الطلبة بهـا 300 طـالب، بالإضـافة إلى جملة من المشايخ الذين درسوا في هـذه الزاويـة فيمـا بين (1760 إلى سنة 2004)

ونفس الشيء بالنسبة لزاويـة الشـيخ عبـد الصـمد، فقـد كـانت تنظم فيهــا منــاظرات علميــة وأدبيــة بين العلمــاء بقريــة عيــون العصافير، وقد برز في هذا المجال الشيخ محمد بن عبـداش، كمـا تقوم بإحياء المناسبات الدينية.

واهتمت زاوية مول القرقـور في نشـر العلم بمنطقـة سـريانة وما جاورها بفضـل شـيوخ الزاويـة وعلمـاء آخـرين، وقـد ضـايقتها السلطات الفرنسية مرات عديدة لتحد من نشاطها العلمي.

وإذا اتجهنـا إلى الجنـوب الشـرقي للأوراس، نجـد زاويـة خنقـة سيدي ناجي، فإنها كانت من أكثر الزوايا اهتماما بـالعلم والعلمـاء، ولعل الدور يعود فيها إلى المسـجد الـذي بـني على منـوال جـامع الزيتونة بتونس.

وكانت الزاوية الناصرية بجامعهـا الكبـير ومدرسـتها قـد أشـعت الناحية بالعلم والمعرفة طيلـة قـرنين من الـزمن، فكـانت مقصـد

---

[1] عبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية، ص 160.

[2] صلاح مؤيد: الصوفية ووالزوايا في الجزائر، ص407.

[3] الدكتور عوني: فهرس مخطوطات زاوية مول القرقور، ص 66.

لعلماء الـزاب والصـحراء والأوراس وقسـنطينة وحـتى من تـونس وليبيـا، ومن العلمـاء الـذين درسـوا في هـذه الزاويـة بن صـديق ومحمد بن نروق والعربي التبسي.

أما منطقة (زواوة)، فقد اشتهرت بكثرة الزوايا التعليميـة حـتى وصلت إلى اثنتين وأربعين زاوية، وانتشرت الزوايا بالخصـوص في سـهل وادي مسـعود (الصـومام) وفي النـواحي المجـاورة، ولم يقتصـر إنشـاء الزوايـا التعليميـة على أهـل الطـرق الصـوفية أو المرابطين، بل على بعض الفئات الاجتماعية الـتي أنشـأت الزوايـا لنشـر العلم والمحافظـة على الـدين ومن أبـرز زوايـا زواوة الـتي اهتمت بـالتعليم **زاويـة شـلاطة بــ(أقبـو)**[1]**،** فهي من أقـدم الزوايا التعليمية في المنطقـة، ولـو أنهـا فقـدت بالتـدريج مكانتهـا العلميـة في العهـد الفرنسـي نظـرا لقبـول رئيسـها عندئـذ محمـد السعيد بن على الشـريف الوظيـف الرسـمي من الفرنسـيين مـع ذلك بقيت الزاوية تؤدي مهمة التعليم في العهد الفرنسي ووظيفة صــاحب الزاويــة قــد حمت معلميهــا وطلابهــا من شــر الإدارة الفرنسية، وقد درس فيهـا عـدد من العلمـاء ومنهم الشـيخ محمـد البشــير الإبــراهيمي قبــل هجرتــه إلى المشــرق، وقــد عــرفت بتخصصها في حفـظ القـرآن وقراءتـه وتفسـيره، وكـانت مدرسـة لعلوم الدين والفلك والحسـاب والنحـو وعن مشـايخ هـذه الزاويـة نذكر الشيخ الكتاني، الشـيخ دحمـان بن السنوسي، الشـيخ محمـد بن عبد الرحمن وغيرهم.

ومنها **الزاوية السـحنونية،** ومؤسسـها هـو عمـرو الشـريف، ومن أبرز رجال هذه الزوايا محمد السعيد السحنوني، وقد ظهرت أيـام ضـعف التعليم العـربي الإسـلامي في الجزائـر توغـل الإدارة الفرنسية في نواحي البلاد سيما منذ ثورة 1871، أمـا مـا تمـيزت به فهو إرسال البعثـات من التلاميـذ إلى تـونس للتعلم واسـتقبالها للتلاميـذ من البلـدان المجـاورة في إطـار تشـجيع الحصـول على العلوم الإسلامية خاصة باللغة العربيـة من البلـدان المجـاورة، ولم تكتف الزاوية بإرسال التلاميذ بل إنها جلبت إليها بعض الشيوخ من تونس للتدريس فيها أمثال الشيخ إبراهيم جمادح وقد كـثر الطلبـة

---

[1]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 184.

بالزاوية حتى بلغ نحو 300 طالب[1]

وقد نشطت الزاوية في عهد الشيخ محمد السعيد ومحمد الشريف الأول، وكان للشيح محمد السعيد تلاميذ نذكر منهم ابن طعيوج، محمد أمزيان بودريو، أما من تلاميذ الشيخ محمد الشيخ محمد الشريف فنذكر الشيخان البارزان في جمعية العلماء أحمد حسين وعبد الرحمن شيبان[2]

أما في الجنوب الجزائري، فمن أشهر الزوايا **زاوية طولقة** التي أسسها الشيخ ابن عمر، فقد تطور نشاطها التعليمي وبذلت جهدا كبيرا في نشر التعليم العربي والعلوم الإسلامية، وقد اشتهرت بالخصوص في عهد علي بن عثمان الذي طال عهده (1842-1896)، فتحت أبواب الزوايا للتلاميذ من مختلف النواحي، ويروي المؤرخون أن والد الشيخ الحفناوي مؤلف (تعريف الخلف) قد تولى التدريس بالزاوية فكانت تضم ما بين 40 و50 تلميذا بالإضافة إلى جمع غفير من العامة يضاف لهم جامع الزاوية، كما استقبلت عددا من التلاميذ الذين برزوا في ميادين أخرى منهم بعض أعضاء جمعية العلماء فيما بعد[3].

ثانيا ـ المقررات الدراسية:

لقد كانت المقررات الدراسية - على حسب ما يبدو من مناهج الزوايا المختلفة - تخضع للظروف التي تمر بها الزاوية من كثرة الطلبة ونوعيتهم ونحو ذلك، بالإضافة إلى توفر الأساتذة في المادة التي يراد تدريسها، وهذا عادة ما يكون فيما يرتبط بالتعليم العالي، أما التعليم العادي، فكان لا يخلو من هذه المواد:

القرآن الكريم: لا تختلف الطرق الصوفية عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الاهتمام بالقرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للإسلام، ويتجلى هذا التعظيم من خلال الاهتمام بتخريج حفاظ القرآن، وهو جهد لم تستطع الجمعية ولا غيرها تحقيقه، ولا يزال للزوايا دور كبير في هذا الباب.

---

[1]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 198.

[2]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 3، ط. 1، ص 202.

[3]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 3، ط. 1، ص 215.

الحديث الشريف: وقد كان هذا خاصا ببعض الزوايا لا بها جميعا، فقد كان الطلبة يستمعون لصحيح البخاري وموطأ مالك في زوايا منطقة توات[1].

وربما يكون لعلاقة الشيخ عبد الحي الكتاني بالطرق الصوفية في الجزائر تأثيره الكبير في توجيههم إلى الاهتمام بدراسة الحديث وعلومه، فقد كان الشيخ أحد أبرز العلماء الموسوعيين في الفقه والأصول والتفسير والحديث والتصوف والتاريخ واللغة والبيان وغيرها، ومؤلفاته التي تربو على المائتين في مختلف العلوم شاهدة له بذلك، بالإضافة إلى هذا فهو يعتبر من كبار المحدثين في هذا العصر.

وبما أن هذا مما يتصور بعض أعضاء الجمعية أنه من اختصاصهم، وأن الجديد الذي جاءوا به للجزائر هو علم الحديث، فقد كان هذا داعية لهم لانتقاد الشيخ عبد الحي الكتاني، لجمعه بين الحديث والتصوف، وكأن الحديث لا يهتم به أو لا يتعلمه إلا من كان سلفيا، فقد قال الشيخ الإبراهيمي في مقال له بعنوان (عبد الحي الكتاني: ما هو؟ وما شأنه؟)، وهو مقال يغلب عليه الأدب أكثر من العلم، ومما جاء فيه قوله منتقدا تحركات عبد الحي الكتاني التوجيهية للطرق الصوفية، والتي اعتبرها تحركات مشبوهة: (كان عبد الحي فيما مضى يزور هذا الوطن داعيًا لنفسه أو مدعوًّا من أصدقائه، وهم طائفة مخصوصة، فكنّا نولّيه ما تولّى، ولا نأبه له، وكانت تبلغنا عنه هنات كاختصاصه بالجهّال وهو عالم، وانتصاره للطرقية وهو محدّث، إلى هنات كلها تمسّ شرف العلم وكرامة العالم، فكنّا نحمّله ما تحمّل ولا نبالي به، وكان يزور لمامًا، ويقيم أيامًا، ولكنه- في هذه المرّة- جاء ليتمّم خطّة، ودخل الباب ولم يقل حطّة، وصاغ في الجزائر حلقات من تلك السلسلة التي بدأ صنعها في المغرب، دلّتنا على ذلك شواهد الأفعال والأقوال والملابسات والظروف)[2]

---

[1] أحميدة بن زيطة، الهيكل التنظيمي والوظيفي للزوايا بمنطقة توات، الملتقى الوطني الأول للزوايا، الجزائر، وزارة الثقافة، مديرة الثقافة لولاية ادرار، أيام:1، 2، 3ماي 2000م، ص12.

[2] آثار البشير الإبراهيمي: 3/543.

ثم ذكر سر هذا الموقف من رحلة عبد الحي وأنه عائـد إلى (أن الحكومة أحسّت بإعراض من رجال الزوايا، وانصراف عمـا تريـده منهم بطرقها القديمة، فأرادت أن تؤيّد قـوّة القهـر بقـوّة السـحر، فكان عبد الحيّ الساحر العليم) [1]

بغض النظر عما تحمله هذه الكلمات من تجريح للشيخ الحافـظ الفقيه عبد الحي الكتاني، إلا أن الإبراهيمي في ضمن كلامه شــهد بالدور التوجيهي العلمي الذي قام به الشيخ عبد الحي الكتاني بين الطـرق الجزائريـة، فقـد قـال في نفس المقـال: (ثم نسـأل عبـد الحي: لماذا لم يفعل في المغـرب مـا فعلـه في الجزائـر، فيجمـع الزوايا على الدعوة إلى التعليم؟ إنـه لم يفعـل لأنـه لا يـرى زاويـة قائمة إلا زاويته، وكلّ ما عداها فمنفرجة أو حادّة كما يقول علمــاء الهندسة، ونسأل رجال الزوايا: لماذا لم يجتمعـوا لمـؤتمرهم قبـل مجيء عبـد الحي؟ وهـل هم في حاجـة إلى التـذكير بلـزوم العلم والتعليم حتى يأتيهم عبد الحي بشيء جديد في الموضوع؟ يا قوم، إن الأمر لمدبَّر، إن الأمر لمدبّر علمـه مَن علِمـه منكم وجهِلـه مَن جهِله، وما نحن بمتزيّدين ولا متخرّصين)[2]

ونحن نتعجب من هذه الشدة التي لا نرى لها مبررا، فما الحـرج في أن يخص الشيخ عبد الحي الجزائريين بدعوته، خاصة إن قصر المغاربــة في الاســتجابة لــه؟ ثم أين هــذا من دعوتــه للوحــدة الإسلامية، أم أن ذلك مجرد شعارات؟

الفقه: ويبــدأ عــادة باســتظهار بعض المتــون الفقهيــة على المذهب المالكي كمتن ابن عاشر ومتن الأخضـري والرسـالة لأبي زيد القيرواني وأسهل المسالك ومختصر خليل وتحفة الحكام لابن عاصم، وأثناء الحفظ يقوم الشيخ بشرحها بالوقفة – أي يشرح كل يوم أجـزاء من فصـول متفرقـة - يأخـذ كـل تلميـذ واحـدة حسـب مستواه، ويقوم هو بدوره بحفظها واستظهارها، كما يقـوم الشـيخ في جلساته العامة وهيئـة التـدريس في الحصـص الخاصـة بشـرح ذلك وإجراء التطبيقات العملية عليه.

---

[1] آثار البشير الإبراهيمي: 3/543.

[2] آثار البشير الإبراهيمي: 3/544.

علم التوحيد: ويتم بحفــظ المتــون المتضــمنة لــذلك (كمتن السنوســية والجــوهرة)، وكلاهمــا من متــون المدرســة الأشــعرية العقدية، وشرحها في دروس خاصة وعامة، إضافة إلى ما يتعــرض لــه الشــيخ أثنــاء شــرحه للمتــون الفقهيــة في الأبــواب المتعلقــة بالتوحيد.

قواعـد اللغـة العربية: ومن أهم المتـون المعتمـدة في هـذا المجال متن الأجرومية، وملحة الإعـراب وألفيـة ابن مالـك وقطـر الندى، والدراسة تكون بنفس الطريقة السـابقة الـتي تـدرس بهـا المتـون الفقهيـة، وهي تعتمـد في التمثيـل على القـرآن والحـديث وشواهد من كلام العرب.

بالإضافة إلى هذا فقد كان للزوايا الـتي يكـون فيهـا علمـاء لغـة نشاط علمي أكثر كثافة وعمقا، ومن الأمثلة على ذلـك أن الشـيخ أبا حفص الزموري الذي سبق الحديث عنه كان يدرس في الزاوية العلاوية بعناية علم البلاغة من خلال كتـاب (الجـوهر المكنـون في البلاغة لعبد الرحمـان الأخضـري)، ويـدرس النحـو من خلال كتـاب (شذور الذهب في النحو لابن هشام)، ويـدرس علم العـروض من خلال كتاب (الصّبّان في علم العروض والقوافي)[1]

العلــوم الاجتماعيــة والعقليــة: كــالفرائض، والحســاب، والتـاريخ والجغرافيـا، والمنطـق، فقـد أولت بعض الزوايـا الكـبرى عناية كبيرة لهـذه العلـوم، فجلسـوا لتدريسـها ونشـرها بين طلبـة المنطقــة، وقــاموا بشــرح مصــنفاتها والتعليــق عليهــا، وتبســيط محتواها، حتى يسهل فهمها، خاصة إذا علمنا أن أكثر هـذه العلـوم تحتاج إلى التبسيط والشرح، كعلم الفرائض والحساب والمنطق.

ومن الزوايــا الكــبرى الــتي اهتمت بهــذه العلــوم زاويــة قمــار التيجانية، وهي من كبار الزوايا الجزائرية، وربما يكـون لقربهـا من تونس دور في اهتمامها بهذه العلوم.

المطلب الثــالث: الإصــلاح الاجتمــاعي عنــد الطــرق الصوفية

مما لا خلاف فيه بين الباحثين هو أن الطرق الصوفية ظلت إلى فترة طويلة منذ العهد العثماني في الجزائــر هي الأكــثر تغلغلا في

---
[1]) انظر: مشايخ خالدون: 61.

المجتمع من بين جميع التيارات الفكرية الأخرى، ولذلك نـرى الكم الكبـير من الزوايـا في المـدن والأريـاف وغيرهـا، والـتي مارسـت الطرق الصوفية من خلالهـا جميـع الوظـائف الاجتماعيـة بالإضـافة إلى وظائفهـا الدينيـة والتربويـة، وسـنذكر هنـا باختصـار بعض الوظائف الاجتماعية الـتي قـامت بهـا زوايـا الطـرق الصـوفية في المجتمع الجزائري إبان الاستعمار.

أولا ـ تحقيق الوحدة الاجتماعية:

ونريـد بهـذه الوظيفـة مـا تقـوم بـه الطـرق الصـوفية من نشـر للأفكار والقيم الـتي تحقـق الوحـدة بين أفـراد المجتمـع وطبقاتـه المختلفة، وهي وظيفة يشـهد لهـا واقـع الزوايـا الـتي تضـم جميـع أصـناف النـاس مهمـا اختلفت مـراتبهم أو لغـاتهم أو وظـائفهم أو ألوانهم، بل حتى الحدود الجغرافية لم تكن تحول بينهم وبين إقامة هـذه العلاقـات الاجتماعيـة القويـة، فالعلاقـة الـتي تربـط المريـد الصوفي بشيخه وبطريقتـه أكـبر من العلاقـة الـتي تربطـه بوطنـه وقومه.

وهـذه مفـاهيم صـوفية متفـق عليهـا، وقـد فلسـفها الشـيخ ابن عليـوة عنـد شـرحه للحـديث الـذي يصـف فيـه رسـول اللـه ﷺ المؤمـنين بـأنهم (كالجسـد الواحد)[1] بـأن رسـول اللـه ﷺ اعتـبر المجتمع بمثابة الجسد وأفراده أعضاء ذاك الجسـد، ومن المعلـوم أن أعضـاء الجسـد تختلـف فيمـا بينهـا من حيث طبيعتهـا وقيمتهـا ووظيفتها، ومع ذلك لا يستغنى عن عضو بعدمـه أو بوجـود مـا هـو أشرف منه، فكل مـا يحتـاج إليـه شـريف مـادام محققـا لحاجـات الجسد، كذلك أفراد المجتمع مختلفون وكـل ميسـر لمـا خلـق لـه (فليكتف من الأعمال بما يراه مرتكزا في فطرتـه، وليتوسـع فيـه بقدر استطاعته فإنه أوفق لـه وأنفـع لأبنـاء نوعـه، لأن الحقـائق لا تنعكس وإن مع المحاولة، فالسمع في البدن لا يتأتى منه أن يكون بصرا، واليد لا يمكن لهـا أن تكـون لسـانا وقس على ذلـك، وليس على جارحة في البدن أن تقوم بأكثر مما خلقت لأجله)[2]

وانطلاقـا من هـذا فقيمـة الفـرد عنـد الشـيخ ـــ كمـا هي عنـد

[1] نص الحديث: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثـل الجسـد إذا اشـتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) صحيح مسلم (8/ 20)

الصــوفية ـــ هي مــا يحســنه، وإن تفــاوت الأفــراد في المكانــة والشـرف، (فمرتبـة العين في البـدن ليسـت كمرتبـة الجفن مثلا، لكن كما أن لكل عضو فائـدة تتحقـق بأدائـه لوظيفتـه فإنـه إن لم يفعل يكـون بمثابـة العضـو الأشـل مهمـا كـانت طبيعتـه وأهميتـه، وعليه لا يوجد دور هين فيحتقـر وآخـر شـريف يـؤدي إلى التعـالي والتكبر، وإنما على كـل أن يمـارس صـلاحياته في نطـاق وظيفتـه وطبقته)[1]

وهذا التفسير الذي ذكره الشيخ ابن عليوة ـ كما ذكرنا ـ متفق عليه عند الصـوفية سـواء كـانوا من مدرسـة السـلوك أو مدرسـة العرفـان، وقـد فلسـف ابن عـربي ذلـك من الوجهـة العرفانيـة، فقال[2]:

لا تحقـرن عبـاد اللـه إن لهم	قـــدرا ولـــو جمعت لـــك المقامـــــــــــــات
أليس أسماؤه تبدي حقائقهم	ولـو تـولتهم فيهـا الجهـالات

وعبر عن ذلك في وصية له يقـول فيهـا: (وعليـك بمراعـاة كـل مسلم من حيث هو مسلم، وسـاو بينهم كمـا سـوى الإسـلام بينهم في أعيانهم، ولا تقل هذا ذو سلطان وجاه ومال وكبير وهذا صـغير وفقير وحقير ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا في ذمتـه، واجعـل الإسـلام كلـه كالشـخص الواحـد، والمسـلمين كالأعضـاء لـذلك الشـخص، وكذلك هو الأمر فإن الإسلام ما لـه وجـود إلا بالمسـلمين، كمـا إن الإنسان ما له وجود إلا بأعضـائه وجميـع قـواه الظـاهرة والباطنـة وهذا الذي ذكرناه هو الذي راعاه رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه من قوله في ذلك (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بـذمتهم أدنـاهم،

---

[2] أحمد بن مصـطفى العلاوي: الأبحـاث العلاويـة في الفلسـفة الإسـلامية، أحبـاب الإسـلام، باريس، 1984. ص 10.

[1] المصدر نفسه.

[2] الفتوحات المكية، 3/527.

وهم يد واحدة على من سواهم) [1][2]

ولكن هذا لا يعني خرق المـراتب وعـدم حفظهـا، فـ (كمـا أنـك تعامل كل عضو منك بما يليق به ومـا خلـق لـه فتغض بصـرك عن أمــر لا يعطيــه الســمع، وتفتح ســمعك لشــيء لا يعطيــه البصــر وتصرف يدك في أمر لا يكون لرجلـك وهكـذا جميـع قـواك فتـنزل كل عضو منك فيمـا خلـق لـه كـذلك وإن اشـترك المسـلمون في الإسلام وساويت بينهم فأعـط العـالم حقـه من التعظيم والإصـغاء إلى ما يأتي به وأعط الجاهـل حقـه من تـذكرك إيـاه وتنبيهـه على طلب العلم والسـعادة وأعـط الغافـل حقـه بـأن توقظـه من نـوم غفلته بالتذكر لما غفل عنه مما هو عالم بـه غـير مسـتعمل علمـه وكذلك الطائع والمخالف)[3]

وبناء على هذا قسم الشيخ ابن عليوة النـاس إلى ثلاث طبقـات بحسـب حركـاتهم الفكريـة والبدنيـة، فـأعلى طبقـة على مسـتوى الحركة الفكرية هم العلمـاء من رجـال الـدين، أمـا أعلى مسـتوى الحركة البدنية فيمثلها ذوي النفوذ السياسي والمالي والجاه[4].

ثانيا ـ إزالة الفوارق الاجتماعية

ومن هنــا ســعت إلى إزالــة الفــوارق الاجتماعيــة بين الفئــات والشرائح المختلفة فقربت بين الفقراء والأغنياء والعلماء والأميين والشرفاء وغيرهم، وحصرتهم جميعا في بوتقة واحدة.

ثالثا ـ الصلح بين المتخاصمين

وهذه من وظائف الزوايا في جميع بلاد العالم الإسلامي، فمكانة الشيخ الروحية في المجتمع تجعل له من السلطة مـا يسـتطيع بـه أن يتوسط بين المتخاصـمين، ويفـرض مـا يـراه حلا سـليما بينهم،

---

1) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السـنن الصـغير، تحقيـق: عبـد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي ـ باكستان، لطبعة الأولى1410هــ ، 1989م (3/ 206)

2) الفتوحات المكية (4/ 464)

3) الفتوحات المكية: 4/464.

4) ساعد خميسي: ابن عليوة والفلسفة، ص 221، نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص168.

سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو القبائل أو حتى مــع ممثلي السلطة(1).

بل في بعض الحالات يتدخل شـيخ الزاويـة لتحقيـق الصـلح بين المتنازعين على السلطة، وهو بذلك بشـكل عامـل اسـتقرار وأمن لأنه يطفئ نار الفتن والحروب الأهليـة ويحقن الـدماء ويؤلـف بين القلوب المتنافرة والاتجاهات المتصارعة(2).

وكمثال على ذلك ما قامت به زاوية قمـار بقيـادة شـيخها الأول علي التماسيني من دور في اسـتقرار منطقـة وادي سـوف. حيث تمكن من إخماد فتن قديمة وصرا عات مميتة بين قبائل المنطقــة بقوله: (لقد حفرنا حفرة الأحقاد القديمة ودفناها، ومن أخرجها فلا يلومن إلا نفسه)، وعمل خلفاؤه على نهجه في إصـلاح ذات الـبين وتهدئة النفوس(3).

وكانت زاوية عبد الصمد تقوم بإصلاح ذات الـبين بين الأعـراش والقبائل في المنطقة التي كانت تتولى قيادتهـا، وبـذلك مثلت دور الحاكم، وتمتـع المجتمـع بالاسـتقرار النفسـي والخلقي واتخـذ من شيوخ هذه الطـرق الصـوفية قـادة لـه بـدلا من الحكـام المـدنيين وقضاتهم الرسميين(4).

بالإضافة إلى هـذا، فإنـه بسـبب اسـتبدال السـلطات الفرنسـية القوانين الإسلامية في المجال القضائي، بالقوانين الفرنسية، ففي 18 فيفــري 1841، صــدر أمــر من الســلطات يتضــمن التنظيم القضائي في الجزائر، انتزعوا بموجبه من القضاة المسلمين البت في الأمور الجزائية، وأصبح القضاء الإسلامي مقتصر على الأحوال الشخصــية، وحــتى هــذه الأخــيرة حــاولت الســلطات الفرنســية إخضاعها للقوانين الفرنسية وإلغاء الاحتكام للشريعة الإسلامية.

---

[1]) جمـال الـدين القـادري بودشـيش، مؤسسـة الزاويـة بـالمغرب بين الأصـالة والمعاصـرة، دكتوراه الدولة، د/ عبد السلام الإدغيري، المملكة المغربية.، ص 383.

[2]) محمد مفتاح، الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية، دار الرشاد الحديثة تــاريخ النشر: 1997 الطبعة: 1، ص 5.

[3]) بن سالم بلهادف: الزاوية التيجانية بقمار، ص 46..

[4]) يحي بوعزيز: ثورات القرن 19و20، ص346.

أمام هذا الوضع وفي ظل هذه الظروف أصبحت الزوايا ملجأ للسكان من أجل فك نزاعاتهم وحل خصوماتهم، سواء كانت بين الأفراد أو بين القبائل والأعراش، حيث يذكر أن قضايا الأحوال الشخصية أو قضايا الجنايات والخلافات على الأراضي، كان يفصل فيها بالزاوية، ويحتكم فيها إلى شيخ الزاوية، وأصبحت الزاوية المرجع الأعلى في القضايا والمحكمة العليا بالنسبة للأفراد والقبائل في تلك الفترة، وهو الأمر الذي لفت انتباه الكاتب الفرنسي Lehraux Leon، خلال زيارته إلى الجزائر حيث يقول: (تعتبر الزاوية مقرّا للقضاء، فهي تختصّ بالفصل في القضايا المدنيّة والجنائيّة، حيث كانت تحلّ من قبل الشيخ بحكم مكانته العلميّة والاجتماعيّة وما هو مشهود عنه من عدل وحكمة وعلم، ويكون فصله إمّا بالصلح والتراضي، أو بالتعويض، أو الفدية، فالقضايا المدنيّة متمحورة في النزاعات حول الأراضي، والمباني أو الميراث، والقضايا الجنائيّة تتمثّل في جرائم القتل وتدخّل الأعراش للثأر. كما تعتبر الزاوية مقرا لعقد القران، والتعاقد بين الأفراد[1]

رابعا ـ التكافل الاجتماعي:

والمتمثل في الإيواء والإطعام ونحو ذلك، فالزوايا الصوفية مارست هذا الدور، ولا تزال تمارسه في كثير من المناطق، وليس هذا خاصا بالزوايا الجزائرية، بل إن الزوايا ـ مهما اختلف اسمها، وفي أي منطقة من العالم ـ كانت تعتني بهذه الناحية

وقد كان لهذه الوظيفة الاجتماعية تأثيرها في جذب عدد كبير من الناس إلى الطرق الصوفية، لأنهم كانوا يضمون إلى الإطعام والإيواء الطقوس الصوفية التي تتوفر على جاذبية خاصة تجعل من المتكفل بهم مريدين شعروا أو لم يشعروا، كما ورد في هذه الرواية: (تساءل بعض الطلبة في فاس عن كيفية قضاء ليلتهم،

[1] نقلا عن: حنفوق إسماعيل، الطرق الصوفية في الأوراس، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، تخصص تاريخ الأوراس، إشراف الدكتور صالح فركوس، سنة2010، ص150.ـ وانظر: مقال بعنوان: (عن التصوف والصوفية في الجزائر)، التاريخ: 14-9-1427 هـ، الشهاب الثقافي، عبد المنعم القاسمي الحسني، الرابط: موقع الشهاب للإعلام، www.chihab.net

فقال بعضهم: هل لكم في المبيت معهم (المريـدين) فتتفـرج في حضرتهم، أي السماع، ونشبع من الكسكس)[1]

وقد ذكر الـدكتور عبـد اللطيـف الشـاذلي العلاقـة القديمـة بين التصـوف والتكافـل الاجتمـاعي، فقـال: (تمثـل عمليـات الإيـواء والإطعام عنصرا أساسيا في الجهاز الصوفي.. وهو نظام تطـوعي تكافلي مبني على التعامل بالمثـل بكيفيـة تـوفر لكـل مسـافر من الصوفية إمكانية الاسـتفادة من بنيـة اسـتقبال في أي مكـان ذهب إليه)[2]

ولا حاجـة لنـا إلى الأمثلـة عن دور الزوايـا الجزائريـة في هـذا الجانب، فهو معروف مشتهر، فالزوايا تقوم باستقبال كـل أصـناف النـاس حـتى المجـانين منهم، لتكفلهم، أو تسـخرهم في أعمـال الزاوية الكثيرة، أو ليصبحوا بعد ذلك مريدين للطريقة الـتي تنتمي إليها.

أما المصادر التي تؤهل الزاوية للقيـام بهـذه الوظيفـة، فتتمثـل في الاشتراك الذي يقدم من طرف المريدين، والذي يطلـق عليـه في مصطلح الطرق الصـوفية (الزيـارة)، ويعطى عـادة للشـيخ أو أحد مقدميه، تعبيرا عن الولاء والطاعة، وهـو عبـارة عن عطـاءات عينية ونقدية، وهي واجبة ومحددة، وعادة يرسل المقدم الشاوش إلى من تخلف من الأتباع في دفعها لتحصيلها، ولكن غالبا ما كانت عمليـة الـدفع تتم عن طيب خـاطر[3]، وهي بـذلك لا تختلـف عن الاشتراك الذي يقدم في التنظيمات الحزبية أو النقابية.

بالإضافة إلى أموال الزكاة، والـتي كـانت من المصـادر المهمـة لمـداخيل الزوايـا، وقـد كـان هـذا من مواضـع الخلاف بين جمعيـة العلماء والطرق الصوفية، فقد كان الإصلاحيون يـرون حرمـة أخـذ الزوايا للزكاة باعتبارهم ليسوا من الأصناف الثمانية الذين شرعت لأجلهم الزكاة، وكما هو معلوم، فقـد كـان مقصـودهم الأكـبر بهـذا

---

[1]) الفاسي، محمد المهدي، ممتع الأسماع في ذكـر الجـزولي والتبـاع ومـا لهمـا من الأتبـاع، طبعة المغرب 1994، ص 98.

[2]) د. الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع نموذج القرن العاشر الهجري، مطبعة سـلا ، 1989، منشورة جامعة الحسن الثاني، ص، 134.

[3]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، المرجع السابق. ص 20.

الشيخ ابن عليوة. وقد نشرت جريدة النجاح مقالا يتساءل فيه صاحبه عما يدفع من الأموال لأرباب الزوايا أو يستجلبونه بواسطة المقدمين بقصد الزكاة هل هو مجزي أم لا؟

فكتب ابن عليوة لجريدة النجاح يقول: (إن صرف الزكاة لغير الأصناف الثمانية لا يحتمل الجواز لأنها فريضة من الله، ولكن لا يمتنع أن يكون في أرباب الزوايا من يصدق عليه الوصف بعينه، كأن يكون مسكينا أو مدينا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يحتمل أيضا أن يوجد من أرباب الزوايا من يأخذها ليصرفها في أبوابها. لذا أقر بأن دفعها له غير سديد، ولكنه لم يمنع إرسالها إليه، الشيخ ألح فقط على من أراد بإحسانه دفع زكاة أمواله- وأراد أن يتم صرف تلك الأموال بواسطته- أن يبين للشيخ أنها زكاة ليصرف ذلك المال في وجوهه الشرعية)[1]

بالإضافة إلى هذا كله كان هناك المتجردون الذين يقومون بالخدمة دون أجرة مقابل عملهم، وقد كان هذا من الأمور التي أنكرتها الجمعية على الطرق الصوفية، وخصوصا الطريقة العلاوية، فقد جاء في مقال للشيخ البشير الإبراهيمي منتقدا فيه إصلاحات الطريقة العلاوية قوله: (وكان من تنقيحاتهم المضحكة تحديد مراحل التربية (الخلوية) لمعرفة الله بثلاثة أيام (فقط لا غير)، تتبعها أشهر أو أعوام في الانقطاع لخدمة الشيخ من سقي الشجر، ورعي البقر، وحصاد الزرع، وبناء الدور مع الاعتراف باسم الفقير، والاقتصار على كل الشعير، ولئن سألتهم لم نزلتم مدة الخلوة إلى ثلاثة أيام؟ ليقولن فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر الذي يتطلب السرعة في كل شيء، فقل لهم: قاتلكم الله. ولم نقصتم مدة الخلوة، ولم تنقصوا مدة الخدمة أيها الدجاجلة؟)[2]

خامسا ـ مواجهة الانحرافات الاجتماعية:

وهذا يظهر من خلال اهتمام الطرق الصوفية بالشريعة، من

---

[1]) أحمد بن مصطفى العلاوي : أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل،ص 18، نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص 154.

[2]) آثار الإبراهيمي: 1/171.

تحريم الحرام، وتحليل الحلال، وأداء الواجبات، فالشريعة –كما يتفق كل مشايخ الصوفية- هي البوابة للسلوك الصوفي.

ومن هذا المنطلق دعت الطريقة العلاوية المنكرين عليها من أعضاء جمعية العلماء إلى الاهتمام بمواجهة الرذائل الاجتماعية التي تريد أن تنحرف بالمجتمع الجزائري عن هويته بدل الاهتمام بالجزئيات المرتبطة بالطرق الصوفية، يقول الشيخ ابن عليوة في هذا بلغته البسيطة والعميقة: (دائرة الإسلام أوسع من أن تضيق بمذاهبه، إنما تضيق بارتكاب الرذائل والموبقات التي أراها الآن على تم (كذا) انتشار.. الأمر الذي يقضي على الدين، والمروءة والأخلاق.. إذا فلم لا نتضامن على حطم ما يرى عند الجميع منكرا)[1]

ولانشغال التيارات الوطنية في ذلك الحين بالعمل الحزبي، فقد دعا الشيخ ابن عليوة إلى تشكيل حزب ديني لحفظ دين الأمة وهويتها، واقترح في صحيفة (البلاغ الجزائري) إحياء العمل بنظام الحسبة في الإسلام بإنشاء جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لصيانة الأخلاق ومحاربة المنكرات، بواسطة رجال الحكومة ونواب الأمة[2].

المطلب الرابع: الإصلاح السياسي عند الطرق الصوفية

نحب قبل أن نتحدث عن تصور الطرق الصوفية للإصلاح السياسي أن نذكر أن من الحقائق التاريخية التي لا يجادل فيها أحد أن أول وأقوى من واجه المستعمر الفرنسي عند احتلاله الجزائر هم الصوفية، ابتداء من الأمير عبد القادر الذي كان صوفيا عرفانيا بامتياز، وانتهاء بالمقاومات المتفرقة التي قامت بها الطريقة الرحمانية بفروعها المختلفة.

وهكذا جرت حروب كثيرة أدرك بعدها الجزائريون - بما فيهم

---

[1] البلاغ: (إلى كتاب أمتنا ومفكريها)، البلاغ الجزائري، ع: 34، مستغانم: 27 صفر 1346- 26 أوت 1927..

[2] محمد عوادي، إرشاد النبيل لمقالات الأستاذ الجليل، مخطوط بأرشيف المطبعة العلاوية بمستغانم ص 217، وص 166، نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص215.

الصوفية - أن الوقت لم يكن في صالح هذه المقاومات المتفرقة، وأن العدة والعدد والظروف الدولية وأشياء أخرى كثيرة تحول دون نجاح الجزائريين في طرد المستعمر من بلادهم.

وقد اختلف الجزائريون حينذاك في النهج السلمي الذي يختارونه، كما هو معروف في تاريخ الحركة الوطنية، وقد رأت الطرق الصوفية أن كل تلك الحلول غير مجدية، فلذلك عارضت الحزبية بكل قوة، بل عارضت دعاة الوطنية والقومية أيضا، لأن طروح هؤلاء ستغذي من العصبيات ما يحول دون المشروع الذي هو في صميم منهجهم، والذي انتهجه من قبلهم الذين استطاعوا أن يحولوا التتار من عدو إلى صديق.

وهذه السياسة التي انتهجوها أساء خصومهم - للأسف- فهمها، فاعتبروا هذه الطرق صديق فرنسا الصدوق، وأنهم صنيعة الاستعمار، وأشياء كثيرة لا زالوا يرمونهم بها، وهي التي جعلت بعد ذلك من الدولة الجزائرية تقوم بتعتيم كبير على الطرق الصوفية وعلى الجهود الإصلاحية التي قاموا بها.

وسنحاول هنا باختصار أن نذكر أسس مشروع الإصلاح السياسي كما تتصوره الطرق الصوفية، وخاصة أنشط الطرق في ذلك الحين الطريقة العلاوية.

أولا ــ تجنب المواجهة المباشرة مع الاستعمار:

وهذا الأساس يشكل الأرضية لما بعده، فقد كان الاحتلال الفرنسي ينقض على كل مجاهر بالعداوة له، ليحول بينه وبين الظهور على الساحة أولا، ثم على تفعيل ما يريد تحقيقه من أغراض ثانيا، وهذا ما جعل الجمعية – على الرغم من توجهها الإصلاحي- تجامل الاستعمار في محال كثيرة كما سبق ذكره.

بالإضافة إلى هذا يذكر الباحثون المذهب العقدي الذي ينتمي إليه صوفية الجزائر، وهو المذهب الأشعري، الذي يسوغ الخضوع للإمام الجائر إذا اشتدت وطأته، ولم يمكن مواجهته.

بالإضافة إلى هذين العاملين العامل المميز للصوفية، وهو التصوف نفسه، فالصوفي ابن وقته، وهو يتجنب المواجهة مع الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وخاصة المواجهة التي تكون نتائجها سلبية.

بالإضافة إلى هذا كله ربما يكون ما يسمى بـ (مراعاة المصالح)، وهو مبدأ فقهي اتفقت عليه جميع الأمة هو السبب الأكبر في هذا، فقد كانت جميع المصالح بيد فرنسا، ولم تكن

الظروف لتسمح لأي طرف بانفراده أن يتمرد عليها، ولذلك كان الأصلح في مثل هذه الأحوال أن تداهن لينال منها كل طرف ما يخدم مصالح الأمة، ولهذا آثرت الجمعية هذا التوجه، واستطاعت من خلاله أن تجني الكثير من النتائج الإيجابية.

ثانيا ــ المحافظة على الشخصية الجزائرية:

كان الشيخ ابن عليوة يرى – كما يرى غيره من مشايخ الصوفية- أن المشكلة في الجزائر ليست مشكلة سياسية، ولا مشكلة استعمار، وإنما هي مشكلة دين، فعندما هزل التدين في الجزائريين صارت لهم القابلية للاستعمار، وإذا رفع هذا الهزال بعودة الدين إلى المجتمع، فإن المصيبة لا محالة ترتفع، فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

وقد كان يخاطب الجزائريين بهذا، فيذكر لهم أن الغرب وإن كان أستاذ العالم في الماديات، لكن العالم الإسلامي جدير بأن يكون أستاذا للغرب أخلاقيا وعقائديا، (فلو اهتدينا بهدي ديننا، وعملنا بتعاليمه وتعاونا على تبليغه لاستفاد العالم الغربي من أخلاقنا ومعتقداتنا فيصبح العالم الإسلامي أستاذا للعالم الغربي في الأدبيات، كما أضحى هو أستاذ العالم الشرقي في الماديات، ولكن أين العاملون؟)[1]

ولهذا ابتعد الشيخ وأتباعه عن الممارسات السياسة التي كانت تمارسها بعض الحركات الوطنية في ذلك الحين، واقتصروا على تعميق الدين في المجتمع بإحياء الشعائر التعبدية ومقاومة الانحرافات الخلقية، وقد وصف الشيخ محمد السعيد الزاهري – بعد أن تخلى عن حربه للطريقة العلاوية- الشيخ ابن عليوة بأنه من دعاة الإصلاح الديني الإسلامي، في الوقت الذي يعتبر نفسه ضمن تيار الإصلاح الوطني السياسي[2].

وهذا أيضا ما صرح به محمد العوادي الذي وصف الشيخ ابن عليوة بقوله: (كان الأستاذ العلوي رجلا دينيا محضا، لا يحب من

[1]) أضاميم المد الساري لصحيفة البلاغ الجزائري، ج 1، قدم له وحققه: عبد السلام بن أحمد الكنوني، راجعه وأشرف عليه: عدلان خالد بن تونس، ط 1، طنجة، 1406 ه.1986، ص 179.

[2]) أضاميم المد الساري لصحيفة البلاغ الجزائري، ج 2، ص 469.

الأحزاب السياسية إلا ما يقرر ترجيح الديانة على السياسة، ولا تربطه به أية رابطة سواها) [1]

ولعل هذا ما جعل الشيخ ابن عليوة يظهر بصورة المدافع عن الاستعمار عندما يعاتب أو يوبخ الشعب الجزائري على تقصيره في الالتزام بالدين، فهو يذكر أن (حالة مسلمي الجزائر الدينية اليوم ليست هي عين حالتهم بالأمس.. بل لا يوجد فيما بين الحالتين أدنى شبه إذا قابلنا ما بين مساجدنا الآن، وبين عددها بالأمس.. فعدد مساجد مدينة الجزائر وحدها كان يزيد على المائة مسجد ما بين حنفي ومالكي فضلا عن المدارس والزوايا وعدد مساجدها الآن لا يتجاوز عدد الخمسة) [2]

ثم يعقب على بيان السبب في هذا، وهو عنده ليس المستعمر، بل الشعب نفسه، بل إنه يكيل للمستعمر الثناء في تنوير الشعب[3]، ويلومه في نفس الوقت لأنه لم يفقه الطريق الحقيقية المؤدية إلى الإصلاح، يقول في ذلك: (فكم هذا والقطر الجزائري متسربلا بالراية الفرنسوية متجملا برونقها، والكل يعترف من أنها دولة من أسرع الدول سيرا في سبيل الإصلاح، ومع هذا لم نستفد من ذلك الإصلاح إلا ما نراه كاللازم من عمارة السجون بسفهائنا والطرقات بأبنائنا الفارغين من أعمال الدنيا والآخرة، ومع هذا فلست بقائل أن الحكومة تعمدت ترك الإصلاح، كلا! إنما أقول: جهلت الطريق الموصلة إليه فأتت البيت من غير بابه)[4]

بل إنه فوق هذا يدافع عن فرنسا ضد من يرى بأن (أولي الأمر لا يسمحون بإظهار شعائر الإسلام)، ويستدل لذلك بأن الحكومة

---

[1] محمد العوادي: (جمعية التذكير)، لسان الدين، ع: 35، الجزائر: 30 جمادى الأولى 1356 ه..

[2] (مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية)، لسان الدين، ع: 8، الجزائر: 20 فيفري 1923.

[3] نحب أن ننبه هنا إلى أن ما اقتبسناه من نصوص عن ثناء ابن عليوة على الاستعمار والتي كانت من باب المجاملات التي تستخدم لتحقيق المصالح العامة، قد ورد مثلها كثير عن كثير من الحركات الوطنية، بما فيها جمعية العلماء المسلمين أنفسهم.

[4] (كيف نتوخى الإصلاح؟)، لسان الدين، ع: 2، الجزائر: 9 جانفي 1923.

الفرنسية هي الأعرق في تقرير حرية الأديان على اختلافها[1].

يقول معبرا عن هذا: (فمتى اجتمع المسلمون على نحو تأسيس مدرسة علمية، أو جماعة دينية فعارضتهم الحكومة في ذلك فما سمعنا به. ولن نسمع به إن شاء الله هل يريد المسلمون أن تأمرهم بنحو ذلك رسميا. كلا! لأن ذلك ليس هو من وظيفتها، فهي لا تأمر أبناء جنسها بمثله، كما أنها لا تنهاهم أيضا عن تعاطيه. فكيف تريد أنت أيها المسلم أن تجعل لك درسا تأمرك فيه بتأسيس دينك...ألم يكفك أنها حملت على عاتقها احترام دينك وعوائدك؟)[2]

انطلاقا من هذا ركزت الطريقة العلاوية بقيادة شيخها على برنامج للإصلاح الديني يصحح الوضع في الجزائر، من غير أن يصطدم في ذلك مع الاستعمار، فساهمت في بناء الزوايا التعليمة والتربوية الكثيرة، بل ذهبت إلى المناطق التي قصدت من طرف المبشرين كبلاد القبائل، فقامت بجهود كبيرة لحمايتها من غير أن تصطدم مع المستعمر، وقد نقلت البلاغ الجزائري عن صحيفة النجاح قولها: (إن الشيخ ابن عليوة أنقذ مئات الآلاف من القبائل الذين استحوذت عليهم جمعية الآباء البيض في زواوة والحمامات وغيرهما) [3]

وهذا يرد على تلك الاتهامات التي وجهت للشيخ وطريقته من أنهم كانوا يدعمون التبشير، حتى أن صاحب صحيفة (المرصاد) نعته ب (الكاردينال المتروي)[4]، وبمثل ذلك اتهم سعيد الزاهري الشيخ وطائفته بالدعوة المسيحية الإسلامية وأنه بين المسلمين مبشرا من (المبشرين بالمسيح)[5]

وهذا كله بسبب سوء الفهم من كيفية التعامل في ذلك الوضع الخاص الذي تعيشه الجزائر من جهة، وعن تأثير التسامح في

[1] ح. ع: (مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية)، لسان الدين، ع: 5، الجزائر: 30 جانفي 1923.

[2] ح. ع: (مسلمو الجزائر وحالتهم الدينية)، لسان الدين، ع: 5، الجزائر: 30 جانفي 1923.

[3] أضاميم المد الساري، ج 1، ص 372، 1349.

[4] أحمد توفيق، حياة كفاح، ص 224.

[5] أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج 1، ص 297.

التغلب على الخصم الذي يملك من أدوات القوة ما لا يستطيع أن يواجه بمثلها.

ثالثا ــ تقريب المستعمر من الإسلام:

وهو منهج استعمله الصوفية قديما مع التتر ومع غيرهم، أي أن (يدخل الغالب في دين المغلوب)، والفلسفة التي ينطلق منها هذا المنهج بسيطة، وهي أنه عندما يصبح للمغلوب من القوة الروحانية والإيمانية ما يستطيع أن يقهر به غالبه، فلابد أن يستسلم له أخيرا حتى لو كان منتصرا عليه بالقوة المادية، لأن القوة الروحية أقوى من القوة المادية.

وقد عبر ابن عليوة عن هذا بقوله: (لو أن الإسلام ظهر بتعاليمه الحقيقية على الأسلوب الملائم للعصر الحاضر، لوجد من الأنصار في أهل أوربا، أكثر مما وجدته المسيحية في إفريقيا الشمالية وغيرها من الأنصار، على أن أنصار التعاليم الإسلامية يعتبرون من الطبقة العالية بين أهل العصر الحاضر....لو كان في الأمة من يقوم بهذه الدعوة الجليلة القدر بانتظام وحسن دراية، لكان الإسلام يعمل بسهولة في أواخر القوم أكثر مما عمل في أولهم...وعلى الأقل...لحسن ثقة الأجانب بتعاليم دينه، الذين (كذا) هم يتخيلونه الآن أشبه شيء بشبح مبهم...)[1]

وقد رأى أن تقريب المستعمر من الإسلام عبر هذا الأسلوب يستدعي أمرين:

الأول: أن يتحول الجزائريون إلى مستوى ديني وأخلاقي صالح لأن يجعلهم نموذجا صالحا لتمثيل الإسلام.

والثاني: هو الدعاية التبشيرية للإسلام باللغة التي يفهمها الغرب، والتي يرى أنه بحاجة إليها، وفي هذه الحالة ينظر رجال الطرق إلى المستعمر لا كمحارب، وإنما كإنسان يملك عقلا وقلبا وروحا، وبذلك يمكن مخاطبة هذه اللطائف فيه، واستعمالها في إصلاحه، أو على الأقل التخفيف من حدة عدوانه.

ولهذا كان الشيخ ابن عليوة يرى أن الدعوة للإسلام في الغرب ممكنة، وأنه يمكن تحويل الغرب إلى مسلمين إذا انتهجنا منهج الحكمة والموعظة الحسنة ونشر الكتب والمجلات والمحاضرات

---

[1]) البلاغ الجزائري، ع: 5. مستغانم: 5 جانفي 1927.

والمسامرات[1].

ولهذا كان يرى أن تعرض تعاليم الإسلام بما يتناسب مع العقل الأوروبي، وخاصة العقل الجاف البعيد عن الروحانية، ولهذا حاول أن يفسر سورة النجم بما يتناسب مع العقل الأوروبي المسيحي ليقرب له بذلك الإسلام.

وقد لقيت هذه المحاولة إنكارا وطعنا شديدا من بعض أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى درجة أن سعيد الزاهري أرسل سؤلا إلى جريدة البلاغ على صفحات جريدة الشهاب يسألها: (لماذا فسر شيخها العلوي سورة والنجم بتعاليم يسوع المسيح عليه الصلاة والسلام، وبما جاء في الإنجيل؟)[2]، فلم يتلق جوابا فعلق موضحا هدفه من السؤال بقوله: (سألتها هذا السؤال لأني أعتقد أن مبشرا مسيحيا...قد كتب هذا التفسير ثم أخرجه للناس باسم الشيخ ابن عليوة)[3] موحيا بأن القس الكاثوليكي بالجلفة الأب جياكوبيتي الذي يدير نشريه الاتحاد الكاثوليكي الأهلي هو صاحب التفسير، لكن الرسالة في طبعتها الأولى كانت قد صدرت عام 1916، أي قبل التقائه بالأب جياكوبيتي بعشر سنوات.

وكان هذا الموقف من الزاهري من الأمور التي أنكرها عليها ابن باديس بعد ذلك، لما يعرفه عن جهود الشيخ ابن عليوة في إنقاذ المسلمين من الوقوع في حبائل المبشرين[4].

---

[1] البلاغ: (إننا لمحتاجون لبث دعاية إسلامية)، البلاغ الجزائري، ع: 150، الجزائر: 2 شعبان 1348،. أضاميم المد الساري، ج 1، ص 178..

[2] أحمد حماني: الصراع بين السنة والبدعة، ج 1، ص 297.

[3] المصدر نفسه.

[4] من ذلك إنقاذه لجماعة من المسلمين من أيدي (جمعية الميتوديست البروتستانتية) وقد غطت صحيفة البلاغ الجزائري الحدث وأشركت معها أهل الأريحية من رجال قسنطينة لمساعدة المجموعة العائدة إلى دائرة الإسلام، بعد أن طردت جمعية الميتوديست من كفالتها مبارك بن سليمان السوفي القماري، مع بعض الفتيات حين كاتب الأستاذ العلوي الشيخ ابن باديس في الموضوع فسر بالعمل وأعانهم ماديا انظر: (استلفات لأهل الأريحية من رجال قسنطينة أضاميم المد الساري، ج 1، ص 144.

ولم يكتـف الشـيخ ابن عليـوة بجهـوده الفرديـة، بـل دعـا إلى تأسيس مؤسسة في الغـرب تقـوم بـالتعريف بالإسـلام والتحـبيب فيه، وقد عبر عن هذه الرغبة بقوله: (سـأكون سـعيدا، إذا تمكنت في يــوم مــا أن أكــون جماعــة تكــون لي ترجمانــا بين أوروبــا والمسلمين، لأنني متيقن من أنه إلى حد الآن لا تزال أوربـا تجهـل خصوصيات الإسلام، إذا أمكننـا تأسـيس هـذه النـواة القـادرة على إيصال مقاصد الإسلام، لا أشك لحظـة واحـدة في زوال المسـائل التي تفرقنا)[1]

وقد بدأت نواة هذه الجمعية، والتي سميت بـ (أحباب الإسلام)[2] في عهد الشيخ من طرف بعض الفرنسيين الذين أسلموا، وكـانت لهم بهم علاقـة روحيـة، ولعـل أهمهم (شـارل طـابيي) الـذي كـان سبب شروعه في تحريـر كتـاب الأجوبـة العشـرة، و(عبـد الكـريم جوصو)، بالإضافة إلى الفيلسوف الفرنسي الكبير (روني قينــون)، والذين كان يوجه الأوربيين الذين دخلوا الإسـلام لسـلوك الطريـق على يدي الشيخ ابن عليوة.

---

1) نقلا عن: El morchid, n° 48, 4e Année, Mostaganem :1 er Redjeb 1370- 8 avril 1951.p 6
غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص 261.

2) جمعية أحباب الإسلام: أنشأها الشيخ عدة بن تونس ومقاصدها: التبشـير بالـدين الإسـلام وبث تعاليمه بين المسلمين وغيرهم من مختلف الأديان والأجنـاس، وإعطـاء صـورة صـحيحة عن الإسلام وتاريخـه المجيـد بعـد أن شـوهه كتـاب مغرضـون، ولم شـعث الأوربيـون الـذين اعتنقوا الإسلام على يد الطائفة العلاوية ومـدها بـأنواع الإرشـاد والتوجيـه الـديني، وتطـورت هذه الجمعية وصارت لها هياكلها، وندواتها وإصداراتها لتقوم بعملها الدعوي في الخـارج وفي الجزائر أيضا. عدة بن تونس: تنبيـه القـراء إلى كفـاح مجلـة المرشـد الغـراء، ج 1.149- ص 147.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل ما يلي:

1 ـ أن انقسام الصوفية إلى اتجاهات ومدارس هو الاعتقاد السائد عند أكثر الباحثين في التصوف سواء كانوا من المؤيدين له أو المنكرين عليه، وإن كان هناك من يرى الصوفية شيئا واحدا، ومنهم بعض أعضاء جمعية العلماء المسلمين، وقد تعاملنا مع الاعتقاد السائد بتقسيم الصوفية إلى مدارس متعددة، لنرى من خلال ذلك الاتجاه الذي ينتمي إليه صوفية الجزائر الذين تعاملت معهم جمعية العلماء.

2 ـ رأينا أنه يمكن أن يقسم التصوف – بحسب وجوده في الواقع- إلى قسمين، أو مدرستين قد تتداخلان فيما بينهما، فيكون الصوفي الواحد في القسمين جميعا، ثم إن لكل قسم أنواعه الخاصة به كذلك، وهذان القسمان هما: التصوف السلوكي، والتصوف العرفاني.

3 ـ التصوف السلوكي هو التصوف الذي يهتم بالسلوك والمجاهدات والأذكار ونحوها، ويمكن تقسيمه بحسب الممارسات السلوكية فيه إلى قسمين: قسم متفق على ممارساته السلوكية، وهو يدخل ضمن ما يسمى بالتصوف السني، وقسم مختلف في ممارساته، وهو الذي يسميه أعداؤه (التصوف البدعي)، ونحن نؤثر تسميته بـ (التصوف المختلف فيه)، باعتبار أنه يستدل لممارساته باجتهادات فقهاء ومحدثين كبار من القدماء والمحدثين، ومثل هذا لا يستعجل فيرمى بالبدعة، وسنرى تفاصيل الخلافات الواردة في هذا النوع في الفصل الخاص بالسلوك الصوفي الظاهري.

4 ـ التصوف العرفاني هو الذي يطلق عليه كذلك

لقب (التصوف الفلسفي)، وهو موجود في كـل الطـرق الصــوفية، وهــو عــادة تصــوف النخبــة من المثقفين الصوفيين، لأن فيـه جـوانب فلسـفية لا يطيقهـا العامـة، ولعـل أحسـن من يمثلـه في وقت الجمعيـة الشـيخ ابن عليوة، وهو في الواقع أيضـا ينقسـم بحسـب المعـارف الـتي يهتم بهـا هـذا النـوع إلى أقسـام كثـيرة، تبـدأ من العرفـــان الإلهي، وتنتهي إلى الاهتمـــام بالســـحر والشعوذة.

5 ــ حصـل نـوع من الجـدل بين الجمعيـة والطـرق الصوفية حول العلاقة بين التصـوف والطـرق الصـوفية، فهناك من الجمعية من يرى الطرق الصوفية شـيئا آخـر غير التصـوف، وهنـاك من يراهمـا شـيئا واحـدا، ويحمـل عليهما حملة واحدة.

6 ــ رأينا أن هناك في الواقـع الجزائـري من لا يفـرق بين زوايـا الطـرق الصـوفية الـتي تنشـر الـذكر وتـربي المريـدين عـبر منـاهج معينـة، وبين زوايـا المشـعوذين والكهان وغيرهم، بحجة أن الجميـع يسـمي البنـاء الـذي يمارس فيه وظيفته (زاويـة)، حـتى أن الأمـر تعـدى إلى الزوايــا العلميــة، فنســبت هي الأخــرى إلى الشــعوذة والخرافة بحجة أنها تسمى (زاوية)

7 ــ تتفــق الطــرق الصــوفية جميعــا مهمــا اختلفت توجهاتها وأسـاليبها في السـلوك على شـرطين: الشـيخ المرشد، والذكر.

8 ــ رأينا أن الطـرق الصـوفية، وإن اتفقت في كثـير من شروط السلوك أو مراحله أو نتائجه إلا أنهـا تختلـف اختلافا جذريا في رؤيتها الإصلاحية، ذلـك لأنهـا عـادة مـا تكون تابعة لشيخها، فإن كـان لشـيخها نشـاط سياسـي صــارت الطريقــة طريقــة سياســية واقتحمت الحيــاة السياسية ومارست السياسة من أوسع أبوابها، وإن كان شــيخ الطريقــة مقاومــا عســكرية، صــارت الطريقــة

بمريديها ومقدميها وزواياها جنودا لتحقيق غايته، فإن وضع السلاح وضعت السلاح معه، ثم لا تتحرك بعد ذلك إلا بأمره، وهكذا.

9 ـ يعتبر الصوفية عموما أن السبب في كل ما يحدث في الواقع من أحداث هو العلاقة مع الله المعبر عنها بالتدين، فبقدر ما تكون العلاقة مع الله متينة صلبة حية، بقدر ما تستقيم الحياة، وبقدر ما تنهار تلك العلاقة تنهار الحياة، ولذلك لا يتشتت أصحاب الطرق في البحث عن أي حل، فالحل عندهم واضح.

10 ـــ يعتبر الإصلاح الديني هو الإصلاح الأساسي الذي يمكن أن نقصر عليه دور الطرق الصوفية، ذلك أن دور الشيخ المربي - الذي هو مركز دائرة الطريقة - هو التوجيه الديني لمريديه أو الرقي بهم إلى درجات معينة من سلم الكمال الإيماني حسبما يراه، وهذا لا يعني أن سائر أنواع الإصلاح مستبعدة من الطريقة أو من شيخها، ولكن المراد هو أن المنطلق في الإصلاح هو الدين، وأما ما عداه من سياسة أو تربية أو مجتمع هو نتيجة حتمية لتحقق التدين بمفهومه الشرعي.

11 ـــ إن كان الكثير يحكم على الدور السياسي للطرق الصوفية في الفترة التي تلت المقاومات الشعبية والطرقية للاستعمار بالسلبية، فإن القليل جدا من الباحثين المنصفين من يحكم على دورهم التربوي والتعليمي بذلك، فقد كانت الزوايا ـــ مهما اختلفت الطرق التي تنتمي إليها ـ تمارس هذا الدور بفاعلية في المدن والأرياف، وفي أي محل يكون لها وجود فيه، ولهذا لم تنكر الجمعية ما تقوم به الزوايا والطرق الصوفية من أدوار في هذا الاتجاه، وإنما تنكر عليها بعض ما يطرح في تلك المؤسسات من أفكار لا تتفق

معها الجمعية.

الفصل الثالث
آثار التوجهات الفكرية على العلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية

بعـد أن تعرفنـا على التوجهـات الفكريـة والمشـاريع الإصلاحية لجمعية العلماء والطرق الصوفية، نحـاول في هـذا الفصـل أن نبحث عن آثـار تلـك التوجهـات على العلاقة بين الطرفين.

ونحب قبـــل أن نبحث في هـــذا أن نـــذكر بعض الملاحظات المنهجية:

1 ــ بما أن كلا من الجمعية والطـرق الصـوفية تنتمي إلى مدارس خاصة لهـا امتـدادها في العـالم الإسـلامي، فإن المنهج العلمي دعانا إلى عـدم الاكتفـاء بمـا ذكرتـه الجمعية، أو بما ذكره رجال الطرق الصـوفية الجزائريـة من تصريحات ومواقف، وإنما نضم إليها ما ذكره غيرهم لبيان أثر التوجه الفكري في المواقف والعلاقات.

2 ـــ أنـــا حاولنـــا أن نســتقرئ التهم المتبادلـــة بين الطرفين، ونؤرخ لهـا، وهـو مـا جعلنـا نعـود إلى الجـذور الفكريـــة الـــتي ينتمي إليهـــا كلا من الجمعيـــة والطـــرق الصوفية.

3 ــ أنا لم نكتف بسرد التهم، وذكر التصريحات الدالة عليهـا، وإنمـا حاولنـا أن نبحث عن العلـل الداعيـة لهـا، ومناقشتها.

4 ــ أنـا – كمـا فعلنـا في سـائر فصـول الرسـالة- لم نكتف بالوصف أو السرد، وإنما تدخلنا بالنقد العلمي في حال الحاجة إلى ذلك، لاعتقادنا أن السـكوت عن البيـان وقت الحاجة لا يجوز.

بعد هـذه الملاحظـات، فقـد قسـمنا هـذا الفصـل إلى

مبحثين:

تناولنا في المبحث الأول: التهم الموجهة من جمعية العلماء للطرق الصوفية.

وتناولنا في المبحث الثاني: التهم الموجهة من الطرق الصوفية لجمعية العلماء.

المبحث الأول

التهم الموجهة من جمعية العلماء للطرق الصوفية

كما عرفنا سابقا، وفي مواضع مختلفة أن من الأهداف الأساسية التي أسست لأجلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بل أسس لأجلها التيار السلفي بنوعيه، هو مواجهة الطرق الصوفية والرد عليها ومحاربتها بكل الوسائل.

وقد ذكرنا الأدلة الكثيرة الدالة على هذا، سواء من الناحية الرسمية المتمثلة في قانون الجمعية، أو من خلال تصريحات أعضاء الجمعية، وقد عرفنا أن الخلاف بين أعضاء الجمعية في هذا ليس إلا في طريقة التعامل مع المخالف أو في بعض القضايا الفرعية.

بناء على هذا، فإنا سنحاول في هذا المبحث أن نطرح التهم التي على أساسها قررت الجمعية إعلان الحرب على الطرق الصوفية، بل تقديم الحرب عليها على حرب الاستعمار نفسه.

وقد عبرنا عن هذه المواقف بكونها (تهما) بناء على التصريحات التي بثها رجال الجمعية، وهي تهم من جهة أنها تفتقر إلى الدليل، أو أن الدليل قد يختلف فيه، وبالتالي تبقى تهما مهما كان، خلافا لبعض الباحثين الذين يتصورون أن ما تقوله الجمعية حقائق لا انفكاك

عنهــا، والأمــر ليس كــذلك، كمــا أن الأمــر بالنســبة للمخالفين ليس كذلك.

وكمثال بسيط على ذلك أن الكثـير من المواقـف من الطرق الصوفية يعتمـد فيهـا هـؤلاء البـاحثون على عـدو الطـرق الأكـبر الشـيخ الزاهـري، فـإذا اعتـبر الزاهـري الشيخ ابن عليوة أميا قبلوه ونشـروا أقوالـه واعتبروهـا، لكنه إن تكلم عن الشيخ الإبراهيمي، ووصفه بأدنى ممـا وصف ابن عليوة، نجدهم يستنكرون موقفـه، ويعتبرونـه عميلا وخائنا وأوصاف كثيرة.

ونحن نقول لهؤلاء (الباحثين): حددوا مـوقفكم بدقـة، فإن كان الزاهري خائنـا، فلا تجـوز شـهادته، لا على ابن عليوة، ولا على الإبراهيمي، وإن لم يكن خائنا، فلمـاذا لا تقبلـون شـهادته في الإبـراهيمي كمـا قبلتموهـا في ابن عليوة.. أما إن قلتم: إنه كان مخلصا في وقت انضـمامه للجمعية خائنا بعـد خروجـه منهـا، فهـذا يفتقـر إلى أدلـة كثيرة لا يمكن لبشر أن يأتي بها، لأنها تتعلـق بالسـرائر، ولا يعلم السرائر إلا الله.

بناء على هذا، فقد رأينـا، ومن خلال اسـتقراء أصـول التهم التي وجهتها الجمعية للطـرق الصـوفية انحصـارها فيما يلي:

1 ــ تهمة البدعة والخرافة

2 ــ تهمة الكفر والشرك

3 ــ تهمة ابتزاز الأموال

4 ــ تهمة مداهنة الاستعمار

ولكل تهمة من هذه التهم فروعها المرتبطة بها.

وقد حاولنا في هذا المبحث أن نــذكر التهم، ونربطهـا بالتوجه الفكري للجمعية، مع ذكر الأدلة الدالة عليهـا، أو

الأدلـة الناقضـة لهـا في حـال كـون الاتهـام بـاطلا في تصورنا.

وقد وضعنا لكل تهمة مطلبا خاصا بها.

المطلب الأول: تهمة التعبد بالبدعة والخرافة

وهي أشهر التهم، وأكثرها طرحا، حتى صـارت لفظـة (الطرق) لا تذكر إلا مقرونة بكلمة البدع، وهي من التهم التي اتفق عليها المعتدل والمتشدد من أعضاء الجمعية، وليس الفـــرق بينهمـــا إلا في التعميم، فبينمـــا نـــرى المتشددون يرمون كل أفعل الطرق بالبدعـة والخرافـة ومـا يسـتتبع ذلـك من البعـد عن الكتـاب والسـنة، نـرى المعتـدلين أقـل حـدة في هـذه الجـوانب، فلا يعممـون أحكامهم.

وبما أنا سنتناول بتفصيل الفروع المرتبطة بما تعتـبره الجمعية بدعة أو خرافة من سلوك الصوفية أو عرفانهـا، فإنـــا سنقتصـــر هنـــا على التصـــريحات الرســـمية أو الشخصية الدالة على هاتين التهمتين:

أولا ـ البدعة:

صـرحت الجمعيـة عنـد بيانهـا لأهـدافها وغاياتهـا من حركتها الإصلاحية أن من لب أهدافها مواجهة ما تسـميه ببدعـة الطـرق الصـوفية، فقـد نصـت المـادة السادسـة عشـــر على أن (الأوضـــاع الطرقيـــة بدعـــة لم يعرفهـــا السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنـاك من استغلال ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور)[1]

ومن خلال تتبع منهج الجمعية في تعاملها مـع الطـرق

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 131)

الصـــوفية في هـــذا الجـــانب يمكن أن نلاحـــظ بعض الملاحظات:

1 ــ انعدام الطرح العلمي:

فمع أن علماء الجمعية اعتبروا الممارسـات الطرقيـة بدعـة إلا أني لم أجـد طرحـا علميـا، يصـنف الأوضـاع الطرقيـــة واحـــدا واحـــدا، ويتكلم عنهـــا وعن أحكامهـــا بطريقـة الفقهـاء المعتـبرين، ليكـون في ذلـك فرصـة لاطلاع المخالف، أو رده عليها، ليقوم على أسـاس ذلـك الإصلاح.

لا نستثني من ذلـك إلا رسـالتين قصـيرتين سـنتحدث عن منهجهمـا في الطـرح عنـد الحـديث عن وسـائل الجمعية في تعاملها مع الطرق الصـوفية، وهمـا رسـالة (بدعـــة الطرائـــق في الإســـلام)، ورســـالة (الشـــرك ومظاهره)، وكلاهما أقل من جميـع من النـواحي من أن تستطيع أداء ما تتصور الجمعية أنها تواجهه من البدع.

وللأســف – بــدل أن تتوجــه الجمعيــة للنقــد بهــذا الأسلوب- اختارت المنهج الخطابي، أو – أحيانـا كثـيرة – منهج السـخرية والبـذاءة، ولا يمكن بهـذا الطريـق أن يتحقــق الإصــلاح، لأن العــامي، وإن اقتنــع بمــا ذكــرت الجمعية، فسخر من الطرق، وسـقطت من عينـه، فإنـه سيسخر أيضا من الجمعية، وتسقط من عينـه، وبالتـالي لا يبقى أي ممثل للإسلام.

وهـذا الـذي وقـع في الجزائـر للأسـف، ولهـذا ولت الجزائر قبلتها بعد الاسـتقلال للعلمـانيين وغـيرهم، لأنهـا لم تجد من يستطيع بنزاهة وعلم وخلق وكفاءة أن يمثل الدين.

2 ــ إعطاء المختلف فيه حكم البدعة:

والأمثلة على ذلـك كثـيرة منهـا حـديثهم عن السـبحة وقراءة القرآن الكريم جماعـة والـذكر الجمـاعي وبعض العادات المرتبطة بالجنائز من الـذكر والقـراءة ونحوهـا

مما سنراه بتفصيل في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

3 ــ التركيز على قضايا فرعية جدا:

وهذا ما نعتبره خطـأ منهجيـا خطـيرا حيث نلاحـظ أن الجمعية ركزت عند ذكر البدع على قضـايا فرعيـة جـدا، وخلافية جدا، وحتى لـو سـلمنا بأنهـا من المجمـع عليـه، فلم تكن لهــا في ذلــك الحين الأولويــة، ولا أن تــزاحم قضايا أخرى أكثر خطرا، وسـنرى الأمثلـة على ذلـك في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

4 ـــ تقـديمها لمواجهـة البـدع على مواجهـة الاستعمار والتبشير:

والتصريحات الدالة على هذا كثيرة جدا، وقد صـــدرت للأسـف من أركـان الجمعيـة الكبـار، وخصوصـا الشـيخ الإبراهيمي، وقد سبق ذكر بعض ذلك، ونضيف إليــه هنــا مقالـة نشـرت في الشـريعة، الـتي كـانت حينهـا لسـان جمعيـة العلمـاء كتبهـا (محمـد جـير فـودة) تحت عنـوان (الدّين الإسلامي بين المبشرين والمبتدعين)[1]

وقد عقد في هذا المقال الخطير مقارنة بين ما تقـوم بـه الطـرق الصـوفية من بـدع حسـب تصـوره، وبين مـا يقــوم بــه المبشــرون، وخلص إلى نتيجــة فضــل فيهــا المبشرين على الطرقيين.

وسر تفضيله – كما يذكر – هو (أن جماعة المبشــرين إنما يـدعون إلى الخـروج على الـدين إطلاقـا ويروجـون لاعتناق دين غيره، وتلك دعوة ينبـني على مجـرد الجهـر بها النفور عنها، اللهم إلا عند نفر قليـل تـدفعهم الحاجـة إلى الاستسـلام وتغـريهم الفاقـة بالاسـتكانة, وهـؤلاء لا يلبثون أن يصدوا عن الدعوة ويرجعوا إلى الهدى عنــدما

[1]) جريدة الشريعة النّبويّة، العـدد السّـادس , الصّـادر يـوم الاثـنين 29 ربيـع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933 للميلاد.

يــرون بــأعينهم أن المنشــآت الــتي أعــدت لهم بين أهــل دينهم ستغنيهم عن التردد على أماكن المبشرين فتكتب لهم النجاة من المهاوي السحيقة التي كانوا على وشــك الـــتردي فيهـــا, ولكن مـــا ظنـــك بجماعـــة ليســـوا من المبشـــرين حـــتى نجتنبهم, ولا يـــدعون للخـــروج على الإســـلام حـــتى نتحاشـــاهم, وإنمـــا هم مســـلمون أولا, يلبسون لباس الإسلام, ويتزيون بزيه وجاءوا تحت ســتار لباسهم الزائــف يجتــذبون نفــرا من المســلمين, ينفثــون فيهم ســموم خرافــات وأوهــام مــا أنــزل اللــه بهــا من سلطان بدعوى أن تلك الخرافات من الدين وأن من لم يتبعها وينسج على منــوالهم فيهــا يبــوء بغضــب من اللــه ورسوله ويكون من الكافرين) [1]

وقد أجاب عن هذا التساؤل بقوله: (لا شك أن هؤلاء أشد ضررا على الإسلام من المبشرين الــذين قــدمنا أن معالجة أمرهم باتت وشــيكة النجــاح, وأن دعــوتهم عنــد الكثيرين لا تصادف ما قدر لها من رواج) [2]

وعنــدما عــاد للحــديث عن التفاصــيل الــتي جعلت من الطـــرق شـــرا من المبشـــرين، لم يجـــد إلا أن (أربـــاب الطــرق الــذين يزعمــون أنهم ينتســبون إلى (الصــوفية) يصرفون جهدهم في إفهام عامــة الشــعب أن طــريقتهم هي المثلى وأن خطتهم هي القويمة, وأن من لم يخضــع لتقاليدهم لا يزكيه الله يوم القيامــة ولا ينظــر إليــه, وهم

---

[1]) جريدة الشريعة النّبويّة، العــدد السّــادس , الصّــادر يــوم الاثــنين 29 ربيــع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933 للميلاد.

[2]) جريدة الشريعة النّبويّة، العــدد السّــادس , الصّــادر يــوم الاثــنين 29 ربيــع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933 للميلاد.

في هذا المضمار يتسابقون ويتنافسون, كل يرمي الآخر بالمروق والزندقة, وكل يدعي لنفسه السـبق والتفـوق)[1]

ولم يــذكر هــو الآخــر مصــدره على هــذه الــدعوى الخطــيرة، وغيرهــا من الــدعاوى، لأن رجــال الجمعيــة للأســف لم يعــودوا كتــابهم أن يلــتزموا المنهج العلمي، وإنمــا عــودوهم أن يكتبــوا المقــالات الإنشــائية الــتي لا يستقيم جمالها إلا بقدر ما تحمله من أصناف المبالغات.
وقــد خلص في الأخــير إلى نتيجــة عمليــة عــبر عنهــا بقولــه: (من أجــل هــذا كــان حقــا على من يهمهم أمــر الدين ويعنون بشؤون المسلمين أن يعملوا على تطهيره من أمثــال هــذه البــدع وأن يضــربوا بيــد من حديــد على رؤوس الــذين يتخــذون الــدين ســتارا يخفــون وراءه أغراضهم ومآربهم)[2]

عنــدما قــرأت هــذا المقــال، وخاصــة من شخصــية لم أستطع أن أظفــر بترجمتهــا لم أشــك في أن الاســتعمار اخــترق الجمعيــة عــبر أمثــال هــؤلاء، وعــبر أمثــال هــذه المقالات، فإذا أقنعهم بأن المبشــرين أفضــل من رجــال الطرق، أقنعهم بعدها بأن الاستعمار أفضل من الأتراك، لأن الأتراك كانوا يشــجعون رجــال الطــرق، والاســتعمار يشجع المبشرين، بل هذا ما كــاد يصــرح بــه ابن بــاديس كما ذكرنا ذلك سابقا عند تمجيــده للكمــاليين، حــتى في إلغائهم الخلافة، لسـبب بسـيط، وهـو أن الخلافـة كـانت

[1] جريدة الشريعة النّبويّة، العـدد السّـادس , الصّـادر يـوم الاثـنين 29 ربيـع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933 للميلاد.
[2] جريدة الشريعة النّبويّة، العـدد السّـادس , الصّـادر يـوم الاثـنين 29 ربيـع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933 للميلاد.

ملاذا وحضنا للطرق الصوفية.

ثانيا ـ الخرافة:

ولعل أشد الألسنة لهجا بهذه التهمة، بل تكاد تكون تهمته الكبرى لهم هو الشيخ البشير الإبراهيمي، وذلك باعتباره – بالإضافة إلى ميله إلى الاتجاه السلفي المحافظ- يميل إلى التنويريين، وهم لا يريدون أن يظهر المسلم بتلك الصورة التي يظهر بها رجال الطرق الصوفية.

وقد كتب في خصوص هذا مقالات طويلة تحت عنوان (تعالوا نسائلكم)[1]، وقد صدر هذه المقالات بيان دافعه إليها، وهو ما عبر عنه بقوله: (الشعب الجزائري المسلم بفطرته، الكريم في عنصره، الجاهل بحقائق دينه- في أكثريته- واقع اليوم بين قوّتين تتجاذبانه: قوّة العلماء المصلحين الداعين إلى الله وإلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ لا يبغون على ذلك جزاء ولا شكورًا، وقوة الشيوخ الطرقيين الذين وقفوا- إلا أقلّهم- سدًا حائلًا بين العلماء وبين أتباعهم من عامّة الأمة.. فكان من واجب النصح للعامة أن تعرّف بحقيقة هؤلاء الشيوخ تعريفًا يتركهم أمام الأمة على حقيقة حالهم دون أي زيادة عليهم ولا تنقيص لشخصياتهم، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } [الأنفال: 42])[2]

---

[1]) مقال متسلسل نشره الشيخ تباعًا باسم (كاتب نقّاد) من أعضاء جمعية العلماء.

المقال الأول: العدد (7) من جريدة "السنّة"، 22 ماي 1933م.

المقال الثاني: العدد (9) من نفس الجريدة، في 5 جوان 1933م.

المقال الثالث: العدد (11) من نفس الجريدة، في 19 جوان 1933م.

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 113)

وهـذه المقـالات من حيث أسـلوبها وقوتهـا وتأثيرهـا جيدة جـدا، وهي تـدل على بعض مـا يحصـل في الواقـع الجزائري في ذلك الحين، ولكن الإبـراهيمي– للأسـف – في قضايا خطيرة مثل هـذه يغلب الخطـاب الأدبي على الخطـاب العلمي، فيطـرح تهمـه وأدلتـه عليهـا من غـير تحقيق ولا توثيق إلا ما يسمعه، أو مـا يتمكن من رؤيتـه، ثم يعمم ذلك تعميما.

فقد اعتبر الإبراهيمي دليله على رمي الطـرق جميعـا هـو ذلـك التسـليم المطلـق الـذي يقـوم العـوام حـول المشايخ والصالحين، بل منهم من يعتقد فيهم مـا يعتقـد في اللـه نفسـه، وقـد عـبر الإبـراهيمي عن هـذا الـدليل بقوله: (نريد لهذا العامي أن يـؤمن باللـه ربًـا وبالإسـلام دينًا.. وتريدون منه أن يؤمن مع ذلك أو قبل ذلك أو بعـد ذلك بأنكم أوليـاء اللـه، وإن اسـتبحتم الحرمـات وركبتم المحرمات، وأن يشرككم مع الله في الدعاء أو يدعوكم من دونه وأن يلتجئ إليكم حـتى فيمـا هـو من خصـائص الألوهية، وأن يشـدّ الرحـال لـبيوتكم كمـا يشـدّها لـبيت الله، فاجبهونا بالتكذيب إن استطعتم)[1]

ثم خاطبهم بحـدة قـائلا: (أليس فيكم من يـبيع الأولاد للعقيم ويـبيع الراحـة للسـقيم؟.. أليس فيكم من يهـدّد المسـلم بخـراب الـبيت ومـوت الأولاد وهلاك الحـرث والماشـية إذا هـو قطـع عـادة أو قصـر في شـيء من رسوم الخدمة؟.. أليس فيكم من يقول في صراحة إِنــه يتصرّف في الوجود ويعطي من يشاء، ويمنـع من يشـاء ثم ينحل هذا التصرف غيره لتكون له أسـوة؟ إن وجـودًا يكله الله لتصرّفكم لأهون وجـود، وهـل بلـغ هـذا الكـون

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 116)

البديع من الهوان على الله أن يكله إلى تدبيركم أيها الحمقى ونحن نراكم أعجز الناس عن تدبير (خبزة) فلا تبلغونها إلا بدفع دينكم ثمنًا لها)[1]

وما ذكره الإبراهيمي من هذا الدليل – كما ذكرنا سابقا – يفتقر إلى تحديد وجهة الخطاب بدقة حتى لا يدخل البريء في التهمة، وذلك لا يكون إلا بحصر الطرق الصوفية، ثم بيان القائل منهم بهذا، ثم تبيين المحل الذي يدل على هذا.

هذا هو المنهج العلمي الذي نراه في تقرير التهم، وخاصة تهمة خطيرة كهذه، أما استناده للعوام في تقرير التهم، فهو كاستناد من يريد اتهام أستاذ من الأساتذة بما كتبه تلميذه، مع أن التلميذ قد يكون بليدا، أو كتب ما لم يمله أستاذه عليه.

وهذا للأسف هو الوصف الصحيح لما تتعامل به الجمعية مع الطرق الصوفية في تقرير تهمها، فهي لا تلجأ لصاحب الشأن، وإنما تلجأ للعامة، ثم تختار من العامة أكثرهم بلادة لتصوره بصورة تلميذ الطرق النجيب.

والأمر في هذا الباب ليس كذلك، بل إن مشايخ الطرق، وخاصة أولئك المشايخ الكبار الذين عاصروا الجمعية وسردنا سيرهم كانوا أبعد الناس عن مثل هذه الدعاوى.

نعم، لهذا الدليل وجه صحيح، ولكن لا يمثله رجال الطرق الصوفية، وإنما يمثله أولئك المشعوذون والعرافون الذين يسمون المحال التي يمارسون فيها شعوذتهم زوايا، والاتفاق في الاسم لا يدل على الاتفاق

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 116)

في المسمى.

بـل إن الشـيخ الإبـراهيمي يكـاد ينطـق بهـذا الـذي ذكرناه، فهو يقر بأن فيهم من ينكر هـذا من غـير تحديـد من هو، وكم يشـكل في عـالم الطـرق، ولكنـه لا يكتفي منـه بـذلك، بـل يريـده أن يسـتعمل نفس المنهج الحـاد الذي يستعمله الإبراهيمي، يقول في ذلـك: (وإننـا لنعلم أن منكم من ينكر هذا في نفسه ويبرأ منـه، ولكن لمـاذا لا يمدّ يده إلينا ويرفع صوته معنا بالإنكار لهذه الشناعات التي صارت لكم سمة ونعتًا وعرفتم بهـا وعـرفت بكم؟ لماذا لا ينضمّ إلينا فيكون لنا من بعضـكم الصـالح عـون على بعضـكم الطـالح لـولا أنكم تتقارضـون سـكوتًا بسكوت لأن ضلالكم (مصلحي) والمصلحة أنواع) [1]

ولسـنا نـدري هـل نسـي الإبـراهيمي أم تناسـى تلـك الدعوات الكثـيرة الـتي وجههـا رجـال الطـرق للجمعيـة للصلح، بل للتعاون في المتفق عليه، وهـذا من المتفـق عليه، لكن الجمعية رفضت، بل تشددت في رفضها كمـا رأينا ذلك سابقا.

وعلى نمط الإبـراهيمي نجـد الشـيخ مبـارك الميلي لا يعمـد إلى مؤلفـات الطـرق الصـوفية الكثـيرة، ولا إلى مشايخهم ليستفسرهم، وإنما يعمد لبعض العوام يسـمع منهم حكايات لا يدري ما زادوا فيها ولا مـا أنقصـوا، بـل يعمد إلى الكهان، ويعمم حكمهم على الطرق الصـوفية، ومن الحكايـات الـتي حدثـه بـه من لم يسـمه، قـال: (حدثني بقرية أبي سعادة من حضـر مجلسـاً فيـه كـاهن سـكير ممن يعرفـون في العـرف بـالمرابطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولداً ذكراً، فأعطاه إياه، وعيَّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وضع بهـا،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 117)

فهو مني، وإن خلا منها؛ فهو من الله!!)[1]

وذكـر حادثـة أخـرى، فقـال: (وقـد كنت سـنة أربـع وأربعين مـع فقيـه ميلي بمقهى في قسـنطينة، فقص علينا رجل مصيبة أيس من السلامة منهـا، ثم حصـل لـه الفـرج، فعـبر عن خطورتهـا قـائلًا: لـو مـا النـاس الصالحين... فقال له صـاحبي مرشـداً أو منكتـاً: وربي؟ فأجابه: ربي والناس الصالحين. فقـال لـه: وربي وحـده. فلم يجاره، وقال له: هكذا سمعنا الناس يقولون)[2]

ويذكر تحت عنوان (كلاب ابن الحملاوي) قوله: (فقـد تـواتر أن كلاب عبـد الـرحمن بن الحملاوي هـامت ذات سنة في عـدة جهـات، فكـان النـاس يكرمونهـا بالـذبائح والضـيافات، ولكنهم يؤلمونهـا بـانتزاع شـعورها تبركـاً وزلفى)[3]

وقد عمم بناء على هذه الحكايات وغيرها حكمـه على الطـرق الصـوفية بـذكر أنهم يعتمـدون (في دينهم على الخرافـات والمنامـات ومـا يـربي هيبتهم في قلـوب مريـديهم من حكايـات، ولا يتصـلون بالعلمـاء إلا بمن أعـانهم على اسـتعباد الـدهماء، والـرد على المرشـدين النصحاء؛ بتأويل مـا هـو حجـة عليهم، وتصـحيح الحـديث الموضوع إذا كان فيه حجة لهم) [4]

وتحدث تحت عنوان (تبليه الطرقيين للناس) عن دور الطرق في (بث الجمود في النـاس، وتلقيح غفلتهم، ثم حثهم على زيـارتهم والرحلـة إليهم لاسـتدرار أمـوالهم ولاسـتغلال جمـودهم وغفلتهم.. فمن أقـوالهم الجاريـة: سلم تسلم، سلم للرجال في كل حال، اعتقد ولا تنتقـد،

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 194)

[2] رسالة الشرك ومظاهره، ص194

[3] رسالة الشرك ومظاهره، ص441.

[4] رسالة الشرك ومظاهره، ص442.

زوروا تنوروا!! ومـرادهم من الرجـال الـذين يسـلم لهم ويعتقد فيهم من كان على مثل حـالهم- لا علمـاء الـدين ومن كان من أهل الغيرة الناصحين) [1]

إلى آخر الحكايـات والأحكـام الكثـيرة المرتبطـة بهـا، ونحن من باب الحقائق العلمية لا يمكن أن ننكر هذا، بل إن مشايخ الطرق أنفسـهم لم ينكـروا وجـود المخـرفين والمشعوذين بينهم، وإنما الإشكال في التعميم.

وكمثال يضاف إلى ما ذكره الشيخ مبـارك الميلي من أمثلـة مـا ذكـره الشـيخ ابن عليـوة عن نفسـه قبـل أن يهتدي للشيخ المربي، وكيف وقع فريسة بين أيدي بعض الطرق التي تميل إلى الخرافة، بل تمارس الخرافـة من أوسع أبوابها.

فقد حدث أنه في أول اهتمامه بالتصوف كان منجــذبا لتلك الخوارق التي تمارسها الطريقة العيساوية، فقــال: (أول ميـل كـان وقـع لي لأهـل النسـبة على الإجمـال، تعلقي بأحد الرجال من السـادات العيسـاوية، كنت أراه متعففا يظهر عليه أثر الصلاح، وبعـد ذلـك اشـتغلت بمـا تقتضيه تلك النسبة اشتغالاً كُلياً، وأعانني على ذلك حالة الصِّبا، وما عليه الطبع الفطري من جهة ميله للخــوارق، وقد مهرت في ذلـك وكـانت لي حظـوة بين رجـال تلـك النسبة، وكانت عقيدتي فيما أتعاطاه إلا التقرب إلى الله عز وجل جهلاً منّي، ولما أراد اللـه أن يُلهمـني، كنـا ذات يوم ببعض اجتماعاتنا فرفعت نظري إلى ورقة كانت في حائط ذلك المنزل، فوقع بصري اتفاقاً على كلام ينسـبه صاحبه حديثاً، فاستفدت منه مـا ألزمـني بـترك مـا كنت أتعاطاه من الخـوارق، وألـزمت نفسـي على أن أقتصـر في تلك النسبة على مـا كـان من قبـل الأوراد والأدعيـة والأحــزاب، ومن ذلــك الحين أخــذت أتنصــل وأعتــل للجماعــة، إلى أن تــركت جميــع ذلــك، وكنت أُريــد أن

[1] رسالة الشرك ومظاهره، ص442.

أزحــزح الجماعــة بتمامهــا، ولكنــه لم يتيســر. أمــا أنــا فتنصلت كما كانت نيـتي، ولم يبـق لي من ذلـك إلا أخـذ الحية، فقد استمريت على أخذها بانفرادي، أو مـع بعض الأحباب)[1]

ثم ذكر كيف استغل الشيخ المربي ذلك الحال ليوجــه الشـيخ ابن عليـوة من خلالـه، فقـال: (إلى أن اجتمعت بالأسـتاذ الشـيخ سـيدي محمـد البوزيـدي رضـوان اللـه عليه. فقال لي ذات يوم وهو عنـدنا بـدكاننا: إنـه بلغـني أنك تأخذ الحية ولا تخشـى من لسـعها. فقلتُ لـه : نعم، كذلك كنت. فقال لي : هل يمكنك الآن أن تأتينا بواحــدة فتأخذها بحصورنا؟ فقلت له : مُتيسر. وذهبت من حيـني إلى خارج البلد، وبعد ما مر علي نصـف يـوم لم أجـد إلا واحدة صغيرة يقرب طولهـا من نصـف ذراع، فجئت بهـا ثم وضعتها بين يديه، وأخذت أقلب فيها كما هي عـادتي، وهو ينظر رضي اللـه عنـه إلى ذلـك، ثم قـال لي : هـل تستطيع أن تأخذ أكبر من هذه الحية مما هـو أكـبر منهـا جرما؟ فقلت له : إنها عندي على السواء، فقال لي : ها أنا أدلك على واحدة أكبر وأشد منها بأساً، فإن أمسكتها وتصــرفت فيهــا فــأنت الحكيم. فقلت لــه : فــأين هي؟ فقال : نفسك التي بين جنبيك، فإن سمها أشد من ســم الحية، فـإن أمسـكتها وتصـرفت فيهـا فـأنت الحكيم. ثم قـال لي : اذهب وافعـل بهاتـه الحيـة مـا هـو عادتـك أن تفعل بها ولا تعُـد لمثـل ذلـك. فخـرجت من عنـده، وأنـا أتخيل في شأن النفس وكيف يكون سمها أشد بأساً من سم الحية)[2]

وهكــذا اســتطاع الشــيخ محمــد البوزيــدي، وهــو من مشـايخ الطريقـة الدرقاوية الكبـار أن يوجـه الشـيخ ابن

---

[1] الشيخ عدة بن تونس، الروضة السنية، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص21.

[2] الشيخ عدة بن تونس، الروضة السنية، ص22

عليوة إلى الطريق الصحيح في السلوك، وقد استفاد منه كثيرا، بل تحول تحولا جذريا.

ولهذا كان من مقتضى ما ذكره الإبراهيمي أن لا يكتفي بما تفعله العيساوية، بل يعلم أن في الطرق الصوفية رجالا كثيرين مثل الشيخ محمد البوزيدي، وأنه لا يصح لذلك التعميم.

أما تعظيم المشايخ والتأدب معهم، والذي اعتبره الإبراهيمي وغيره من الخرافة، فليس كذلك، بل إنه لولا تعظيم الطرق الصوفية لمشايخهم لما استطاع رجال المقاومة أن يجندوا تلك الآلاف المؤلفة في حرب المستعمر.

بل إن من النتائج الخطيرة التي أفرزها التوجه السلفي وتوجه الجمعية بناء عليه هو عدم احترام العلماء والصالحين، وذلك أدى إلى عدم احترام الدين نفسه، لأن أول من يمثل الدين هم العلماء والصالحون.

المطلب الثاني: الوقوع في الكفر والشرك

وهذه التهمة الخطيرة التي لم تصب على مشايخ الطرق الصوفية فقط، وإنما صبت على العوام أيضا هي نتيجة حتمية للتأثر المبالغ فيه من طرف علماء الجمعية بالتيار الوهابي الجارف، والذي لم يستنكف عن تكفير العوام بحجة أنهم – لزيارتهم الأضرحة أو تعلقهم بالصالحين – قد وقعوا في الشرك الجلي، وقد كان دليل الجمعية أو المتشددين من أعضائها على رمي الطرق الصوفية بهذا الأدلة التالية:

الأول: زيارة الأضرحة وإقامة الموالد

والاهتمام بهذه الناحية يدل على مدى الصلة بين الجمعية والوهابية التي قصرت نشاطها الدعوي على مواجهة مثل هذه الأمور الفرعية الخلافية.

ومما يدل على هذه الصلة هذا الخطاب الذي وجهه الميلي لزوار الأضرحة وغيرهم مشبها لهم بعباد الأوثان،

فقد جاء فيه: (أين أنتم من هذا يا من اتخذتم من القبور والمزارات أوثانا مودة بينكم في الحياة الـدنيا، وشـيدتم عليهـا القصـور، ورفعتم القبـاب، وأشـركتموها بـرب الأرباب وجاوزتم ذلـك تكثـيرا لمظـاهر الشـرك؛ فبـنيتم على القبور، واتخذتم من شجر البطم والسدر وغيرهمـا ذات أنواط تعلقون به الخـرق والخيـوط، وتسـرجون لـه الأضواء، وتعطرونه بالمباخير والرياحين، وجـاوزتم ذلـك إغراقـا في الشـرك إلى الصـخور الضـخمة والأوديـة الموحشة، واستبدلتم بالتبرك المسنون تبرككم المبتـدع المأفون؟! ها قد أوضحنا لكم مـا في الزيـارة من رشـد وغي؛ فكونـوا من عبـاد اللـه الـذين يسـتمعون القـول فيتبعون أحسنه، ولا تكونوا ممن حقت عليهم كلمة الله: {سَأَصْـرِفُ عَنْ آَيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَـرَوْا كُـلَّ آَيَـةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الرُّشْـدِ لَا يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلًا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلًا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ } [الأعراف: 146])[1]

وعلى نفس المنهاج كتب ابن باديس شـارحا لمـا ورد في قولـه ﷺ: (لا تقـوم السـاعة حـتى تلحـق قبائـل من أمتي بالمشركين، وحـتى يعبـدوا الأوثـان، وإنـه سـيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنـه نـبي وأنـا خـاتم النبيين لا نبي بعدي)[2]، فقال: (من اعتقد مثل عقيـدتهم أو فعل مثل أفعالهم أو قال مثل أقوالهم فقد لحق بهم، وقد يكون اللحوق تاما مخرجـا عن أصـل الإسـلام، وقـد يكـون دون ذلـك. فأصـل عقيـدة الشـرك عنـد عـرب الجاهلية أنهم يعلمون أن اللـه هـو خلقهم وهـو يـرزقهم

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 364)

[2] سنن الترمذي، (4/ 499)، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح)

وهـو المالـك لجميـع مخلوقاتـه، ولكنهم كـانوا يجعلـون توجههم وتقربهم وتضرعهم لآلهتهم على اعتقاد أنها هي تقربهم إلى الله. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشـوع تـامين وتتضـرع وتنـاديهم على اعتقـاد أنهم يقربونها إلى اللـه ويتوسـطون لهـا إليـه. ويزيـدون أنهم يتصـرفون لهـا بقضـاء الحـوائج وجلب الرغـائب ودفـع المصـائب. ومن أعمـال المشـركين في الجاهليـة أنهم يسوقون الأنعـام لطـواغيتهم فينحرونهـا عنـدها طـالبين رضاها ومعونتها. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاءً لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفـع أو دفعت من ضر.. ومن أقوال المشركين في الجاهليـة حلفهم بطواغيتهم تعظيما لها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون باللـه فيكـذبون ويحلفـون بمن يعظمونـه من الأحيـاء أو الأمـوات فلا يكـذبون. فهـذه الطوائـف الكثيرة كما قد لحقت بالمشركين وصـدق رسـول اللـه- صلى الله عليه وآله وسلم- في قوله: (لا تقـوم السـاعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين)[1]

ونلاحـظ من خلال المقارنـة بين موقـف الجمعيـة من هـذه المسـائل وموقـف الوهابيـة الاشـتراك التـام في أصـول هـذه المسـائل وفروعهـا، وبالتـالي يمكن اعتبـار الجمعية في هذا المحل خصوصا وهابية صرفة، وسننقل هنا لمن يشاء المقارنة بعض مقولات الوهابيـة في هـذا، ونرى ردود الطـرق الصـوفية عليهـا في المبحث الثـاني من هذا الفصل.

فحد الشرك الأكبر الذي يجمع أنواعه وأفراده – عنـد الوهابية أو السلفية المحافظة – هـو: (أن يصـرف العبـد

[1] آثار ابن باديس: (2/237)

نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله.. فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع، فصرفه لله وحـده توحيـد وإيمـان وإخلاص، وصـرفه لغـيره شـرك وكفر) [1]

ومما تضمنه (البيان المفيد) لعقائد الوهابيـة: (ونعتقـد أن عبادة غير الله شـرك أكـبر، وأن دعـاء غـير اللـه من الأموات والغائبين وحبه كحب الله، وخوفه ورجائه، ونحو ذلـك شـرك أكـبر، وسـواء دعـاه عبـادة، أو دعـاه دعـاء استعانة في شدة أو رخاء، فإن الـدعاء مخ العبـادة، وأن اعتقاد أن لشيء من الأشياء سلطاناً على مـا خـرج عن قدرة المخلـوقين شـرك أكـبر، وأن من عظّم غـير اللـه مستعيناً به فيمـا لا يقـدر عليـه إلا اللـه كالاستنصـار في الحروب بغير قوة الجيـوش.. والاسـتعانة على السـعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسـنن الـتي شـرعها الله لنا، يكون مشركاً شركاً أكبر)[2]

وهم يتفقون في جزء من هـذا مـع سـائر المسـلمين، بمن فيهم الصوفية، فالصوفية – كما سـنرى – يعتقـدون شركية مثل هذه الأفعال، ولكنهم يعتبرونهـا من الشـرك الخفي بخلاف الوهابية الذين يعتقـدون أنهـا شـرك جلي مخرج عن الملة، ومبيح لدم معتقـده، وهم لـذلك يـرون أنــه إذا ثبت أن الــذبح للــه من أجــل العبــادات وأكــبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخـرج عن دائـرة الإسلام[3].

---

[1] عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (القول السديد في مقاصد التوحيد)، مكتبة المعارف، الرياض، ص43.

[2] البيان المفيد فيما اتفق عليه علماء مكة ونجد من عقائد التوحيد، ص 6.

[3] البيان المفيد فيما اتفق عليه علماء مكة ونجد من عقائد التوحيد، ص42 .

وهكذا يرون بما أن النذر عبادة، لمـدح اللـه المـوفين بـه، وأمـر النـبي ﷺ بالوفـاء بـه، فـإن صـرفه لغـير اللـه شرك[1].

وقـد أورد الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب في جوابـه على ردود ابن سحيم عليه في مسألة (النذر لغير اللـه)، وأنـه (حـرام ليس بشـرك)، فقـال مخاطبـاً ابن سـحيم: (فـدليلك قـولهم أن النـذر لغـير اللـه حـرام بالإجمـاع، فاستدللت بقولهم حرام على أنه ليس بشرك، فإن كان هذا قدر عقلك فكيف تدعي المعرفة؟ يا ويلك مـا تصـنع بقول الله تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَـا حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } [الأنعـام: 151] فهـذا يـدل على أن الشـرك حـرام ليس بكفـر يـا هـذا الجاهل الجهل المركب، ما تصنع بقول الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَأَنْ تُشْـرِكُوا بِاللَّهِ مَـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُلْطَانًا } [الأعراف: 33] هل يدل هذا التحريم على أنه لا يكفر صاحبه ؟ يا ويلك في أي كتـاب وجدتـه، إذا قيـل لك هذا حرام، أنه ليس بكفر، فقولـك أن ظـاهر كلامهم أنه ليس بكفر، كذب وافتراء على أهـل العلم، بـل يقـال ذكر أنه حرام، وأمـا كونـه كفـر فيحتـاج إلى دليـل آخـر، والدليل عليه أنه مصـرح في (الإقنـاع) أن النـذر عبـادة، ومعلوم أن لا إله إلا الله معناها لا يعبد إلا الله، فإذا كان النذر عبادة وجعلتها لغيره كيف لا يكون شركاً) [2]

ويذكر الشيخ ابن عبد الوهاب قاعدته في هذا، فيقول مخاطبا ابن سحيم: (فاعرف قاعدة أهملها أهل زمانـك،

---

[1] البيان المفيد فيما اتفق عليه علماء مكة ونجد من عقائـد التوحيـد، ص 47، 48.

[2] محمـد بن عبـد الوهـاب، مجموعـة مؤلفـات الشـيخ، مكتبـة ابن تيمية، 5/229.

وهي أن لفـظ (التحـريم) و(الكراهـة) وقولـه (لا ينبغي) ألفاظ عامة تستعمل في المكفّرات، والمحرّمـات الـتي هي دون الكفـــر، وفي كراهـــة التنزيـــه الـــتي هي دون الحرام، مثل استعمالها في المكفرات: قـولهم لا إلـه إلا الذي لا تنبغي العبادة إلا له. وقوله:{وَمَا يَنْبَغِي لِلـرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مـريم: 92] ولفـظ التحـريم مثـل قولـه تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْـرِكُوا بِهِ شَيْئًا } [الأنعـام: 151]، وكلام العلمـاء لا ينحصـر في قولهم (يحرم كذا) لما صرحوا في مواضع أخر أنه كفـر، وقولهم (يكره) كقوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: 23] إلى قوله: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } [الإسـراء: 38]، وأمـا كلام الإمـام أحمد في قوله: (أكره كذا) فهو عند أصحابه على التحريم، إذا فهمت هــذا، فهم صــرحوا أن الــذبح للجن ردة تخـــرج وقالوا: الذبيحة حرام ولو سمى عليها) [1]

الثاني: القول بالحلول والاتحاد

بالإضافة إلى اتهام الجمعية للطرق الصوفية بـالوقوع في الشرك، والذي شمل العوام والخواص، فقد اتهموها أيضا بالقول بـالحلول والاتحـاد، وهـو لاشـك من العقائـد المكفرة، والشواهد الدالة على اتهـام الجمعيـة للطـرق الصـوفية بهـذا لا تكـاد تحصـر، وسـنكتفي هنـا باقتبـاس بعض النماذج من مقالات مختلفة من صـحيفة الشـريعة النبوية:

فقد جاء في العدد الرابع من صحيفة الشريعة النبوية تحت عنوان (بلاد القبائل والطريقة الحلولية، جواب عن كتــاب (إلى أهــالي زواوة): (قرأنــا في عــدد أخــير من جريدة (السنة النبوية الغراء) ما كتبـه الأسـتاذ الزاهـري ووجهه إلى بلاد القبائل تحت عنـوان (إلى أهـالي زواوة) كسؤال لنا معاشر أهالي هذه البلاد عن صحة ما زعمتـه

[1]) مجموعة مؤلفات الشيخ، 3/ 66.

الطريقة الحلولية المخذولـة، ونشـرته للنـاس في بعض الأعداد الأخـيرة من ورقتهـا الضـالة المـزورة وهـو كلـه افتراء للكذب على المسلمين وزور وبهتان كمـا سـيأتي في البيـان والجـواب.. وقبـل أن نجيب عن هـذا الـزعم الباطل وهذا الادعـاء الفـارغ نقـول: إن ورقـة أو طائفـة تـدعي في أهـالي (اليمن) حيث ذلـك الإمـام المصـلح العظيم مـا ادعتـه وزعمتـه من ذلـك النفـوذ المـوهم لا يعسر عليها أن تـأتي بمـا هـو أشـنع منـه في بلادنـا.. ثم الذي نقوله هذا باختصار كجواب عن أسـئلة الأخ الشـيخ السـعيد الزاهـري الـذي نشـكره دائمـا على اهتمامـه بشؤون الإسلام في سـائر البلاد الإسـلامية والـذي يغـار على الحقائق أن تشوه وتداس بالأقدام تحت ستار تلـك المزاعم الباطلة هو أن أهالي (زواوة) ما كانوا يعرفـون عن هـذا الشـيخ الحلـولي الـذي يقـود هـذه الطائفـة الشريرة إلى التعـدي على الأشـخاص والأعـراض وهتـك الحرمـات إلا أنـه واحـد من هـؤلاء الـذين زعم أنـه أنقـذ مئـات الآلاف من أيـديهم وأسـلم على يـده الكثـير.فلا يكادون يجدون أدنى فرق بين أخطار تبشيرهم وتبشيره الحلـولي فـذاك يلتقـط الصـغار من اليتـامى فيشـملهم بعطفـه وحنانـه وهـذا يلتقـط الكبـار فيشـملهم بعفـوه وإنقاذه ويغدق عليهم من نعمه ودراهمه وكلاهما مضـمر للشر على قاعدة تسمين الكبش..) [1]

وفي الصفحة التالية نجد أمثال هـذه العبـارات: (فقـد قالوا أخيرا في ورقتهم الضالة أنهم أسسوا مدرسـة في مجاهل فلسطين وزارها اثنان منهم فكان ما سمعاه من تلاميذ هذه المدرسة الـتي لا وجـود لهـا إلا في سـطرين من ورقتهم هذه ... أناشيد حلولية لا يبعـد أن تكـون من أحسن وأبلغ ما لم يقـل وأفصـح مـا ضـمه ديـوان شـيخ

[1] الشريعة النبوية المحمدية، العدد4، ص7.

الحلول المشهور الذي تحسده دواوين غـير الشـعر على رواجه حتى أنه لو طبع ألف مـرة لمـا بقيت منـه نسـخة مادام حلولي يمشي فوق الثرى ومادامت بلاد (ناطحات السحاب) تهـيئ مدارسـها من يفهمـه ويغـوص في بحـر لآليه لاستخراج أسراره وأحجاره.. على أن هذا الــديوان قد سد فراغا عظيما من الأدب الحلولي وولد كتبا كثيرة كلهـا تبحث في محاسـن الحلـول ولا يفهمهـا إلا علامـة المعقول والمنقول! (وأنا لو كنت أضرب بسهم في علم الحلول وكان لي بعض إلمام بتطـبيق قواعـده المقـررة لاقتـنيت البعض منهـا للإحـراق) وهكـذا كـانوا يطـيرون بمفترياتهم وأضـاليلهم من مركـزهم فيـنزلون بهـا مـرة (بنيويورك) ومـرة (بلنـدن) أو (بـاريس) ثم يعلنـون على رواجها فوق ورقتهم الحلولية حيثمـا وقعـوا وطـاروا وإن كان الواقع يكذبهم حيثما حلوا وارتحلوا، وقد راموا هــذه المـرة أن يطـيروا ويسـقطوا ببلاد القبائـل كمـا يسـقط الــذباب على الطعــام وينصــبوا ظــل أخــبيتهم هنــاك فسقطوا ووقعوا في بعض الأودية التي لم يجدوا فيها إلا مخلوقا أو مخلوقين من أمثـالهم (والطيـور على أمثالهـا تقع)[1]

وهكذا لا تكاد تمر بصفحة في هذه الصحيفة إلا وتجــد فيهـا هـذه التهمـة، وهي طبعـا من التهم الـتي حفظهـا رجال الجمعية من ابن تيمية والوهابيـة مـع أن الصـوفية في كل الأزمنة يصيحون بإنكـارهم الحلـول وردهم عليـه كما سنرى في الجزء الثالث من هذه السلسلة.

الثالث: بعض الفروع الفقهية

مع اتفاق العلماء على عدم التكفير بـالفروع الفقهيـة إلا أنا للأسـف نجـد من الجمعيـة من راح يكفـر بسـببها، وقد سبق ذكر بعض الأمثلة على ذلك كالزيارات والــذبح

[1] الشريعة النبوية المحمدية، العدد4، ص7.

والتوسل وغيرها، ونضيف إليها هنا تهمة الكفر بسبب الرقص الصوفي، وقد استدل بعضهم بتكفير من يستحلّ الرقص مطلقا بقول ابن وهبان حيث قال : (ومن يستحل الرقص قالوا بكفره ولا سيما بالدف يلهو ويزمر) [1]

وقد رد الشيخ ابن عليوة على هذا التكفير المبالغ فيه بقوله: (ألا ترى أنّه تقرّر لديك أنّ مستحل الرقص قالوا بكفره، فكيف بك إذا بلغك أنّ الحبشة دخلوا مسجد النبّي ﷺ يوم العيد على هيئتهم المعروفة من الرقص ونحوه) [2]

الرابع: بعض الدعاوى:

وأهم نموذج على هذا ما كتبه ابن باديس في فتواه المتعلقة بصلاة الفاتح[3] التي يرددها التيجانيون، ويعتقدون لها فضلا خاصا، كما رأينا ذلك سابقا.

وهي فتوى لا تزال تجد صداها مع خطورتها، ولذلك نرى أن ندرسها على ما يقتضيه المنهج العلمي، وخاصة أن لازم قوله فيها كفر أكبر تجمع إسلامي في العالم، وهو التجمع التيجاني المنتشر في جميع أنحاء العالم، وخاصة إفريقيا.

---

[1]) الشيخ عثمان بن المكي التوزري الزبيدي، المرآة لإظهار الضلالات، دار الوطن للنشر، السعودين، ص14.

[2]) الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، المطبعة العلاوية، مستغانم، الطبعة الثانية، ص81.

[3]) نص صلاة الفاتح هي: (اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره) (أحمد محمد الحافظ التيجاني، أحزاب وأوراد القطب الرباني والعارف الصمداني، دار الحسام، الطبعة رقم 1، ص 12)

ونص السؤال هو حكم بعض الدعاوى المنسوبة للتيجانية، وهي أنهم:

1- يعتقدون أن قراءة (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن.

2- أن (صلاة الفاتح) من كلام الله القديم، ولا يترتب عليها ثوابها إلا لمن اعتقد ذلك.

3- وأن (صلاة الفاتح) علمها النبي ﷺ لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره.

4- وأن مؤسس الطريقة التيجانية أفضل الأولياء.

5- وأن من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب وتغفر ذنوبه الصغار والكبار، حتى التبعات.

ومع خطورة المسألة، ومع الانتشار الكثيف للتيجانية في الجزائر، وخصوصا الجنوب الجزائري، لم يتحرز ابن باديس، ولم يستفسر عن مدى صحة هذه الدعاوى، بل راح يطلق الأحكام التي يخرج منها قارئها لا بتصديق الاتهامات فقط، وإنما بكفر معتقدها أيضا.

وسنذكر هنا باختصار بعض ما أجاب به، وما يستنتج منه الحكم بالكفر:

1 ـــ القرآن كلام الله و(صلاة الفاتح) من كلام المخلوق ومن اعتقد أن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر، ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله فقد كفر بجعله لله نداً فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق.. هذا إذا كانت الأفضلية في الذات فأما إذا كانت الأفضلية في النفع فإن الأدلة النظرية والأثرية قاضية بأفضلية القرآن على جميع الأذكار وهو مذهب الأئمة من السلف والخلف[1].

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 143)

2- أن من زعم - متأولا لتلك الأفضلية الباطلـة – بـأن (صلاة الفـاتح) خـير لعامـة النـاس من تلاوة القـرآن لأن ثوابهـا محقــق ولا يلحــق فاعلهــا إثم والقــرآن إذا تلاه العاصـي كـانت تلاوتـه عليـه إثمـاً لمخالفتـه لمـا يتلـوه، واسـتدلوا على هـذا بقـول أنس الـذي تحسـبه العامـة حديثاً: (رب تال للقرآن والقرآن يلعنه)[1] فهو زعم باطل لأنه مخالف لما قاله أئمة السف والخلف من أن القرآن أفضل الأذكار، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة ولا بين مطيع وعـاص، ومخـالف لمقاصـد الشـرع من تلاوة القرآن[2].

3- ليس عندنا من كلام اللـه إلا القـرآن العظيم، هـذا إجماع المسلمين حتى أن ما يلقيه جبريل - عليه السلام - في روع النـبي ﷺ سـماه الأئمـة بالحـديث القدسـي، وفرقوا بينـه وبين القـرآن العظيم ولم يقولـوا فيـه كلام اللـه، ومن الضـروري عنـد المسـلمين أن كلام اللـه هـو القرآن وآيات القرآن، فمن اعتقد أن (صلاة الفـاتح) من كلام الله فقد خالف الإجماع في أمر ضروري من الدين وذلك موجب للتكفير[3].

4- أن النبي ﷺ بعث معلما، وعاش معلما آخر لحظــة من حياتــه، وقــد أدى الرســالة، وبلــغ الأمانــة، وانقطــع

---

[1] ذكـره الغـزالي في الإحيـاء(1/324) بـدون سـند، وذكـر نحـوه عن بعض السلف، وأقرب ما حديث إليـه مـا رواه ابن أبي حـاتم في تفسـيره (ج:6 ص: 2017) عن ميمون بن مهران قال: إن الرجل ليصلي ويلعن نفسه في قراءتـه فيقول({أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18]) وإنه لظالم.

[2] آثار ابن باديس (3/ 144)

[3] آثار ابن باديس (3/ 146)

الـوحي وانتهى التبليـغ والتعليم، وهـذا كلـه مجمـع عنـد المسـلمين، وقطعي في الـدين، فمن زعم أن محمـداً مات وقـد بقي شـيء لم يعلمـه للنـاس في حياتـه فقـد أعظم على الله الفرية وقدح في تبليـغ الرسـالة، وذلـك كفـر، فمن اعتقـد أن (صـلاة الفـاتح) علمهـا النـبي ﷺ لصـاحب الطريقـة التيجانيـة دون غـيره، كـان مقتضـى اعتقاده هذا أنه مات ولم يبلغ وذلك كفر، فـإن زعم أنـه علمه إياها في المنام فالإجماع على أنـه لا يؤخـذ شـيء من الدين في المنام مع ما فيه من الكتم وعـدم التبليـغ المتقدم[1].

ومن مقتضى الاعتقاد الباطل المتقدم أنه ﷺ كتم عن أفضل أمته ما هو الأفضل وحرم منه قرونا من أمته وهو الأمين على الوحي وتبليغه، الحريص على هدايـة الخلـق وتمكينهم من كل كمال وخير، فمن قال عليه ما يقتضي خلاف هذا فقد كذب عليه وكذب مـا جـاء بـه، ومن رجح صلاته على ما علمه هو ﷺ لأصحابه - رضي اللـه عنهم - بوحي من الله واختيار منـه تعـالى فقـد دخـل في وعـد: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:36].

5- لا تثبت الأفضلية الشرعية إلا بـدليل شـرعي ومن أدعاها لشيء بدون دليل فقـد تجـرأ على اللـه وقفـا مـا ليس بـه علم وقـد أجمعت الأمـة على تفضـيل القـرون المشـهود لهـا بالخيريـة من الصـادق المصـدوق عليـه الصـلاة والسـلام فاعتقـاد أفضـلية صـاحب الطريقـة التيجانيـة تزكيـة على اللـه بغـير علم وخـرق للإجمـاع،

---

[1]) آثار ابن باديس (3/ 147)

موجب للتبديع والتضليل[1].

6- عقيدة الحساب والجزاء على الأعمال قطيعة الثبوت ضرورية العلم، فمن اعتقد أنه يدخل الجنة بغير حساب فقد كفر[2].

وبناء على هذه الأدلة التي ساقها ابن باديس، خرج بنتيجة عبر عنها بقوله: (فالمندمج في الطريقة التيجانية على هذه العقائد ضال كافر، والمندمج فيها دون هذا العقائد عليه أثم من كثر سواد البدعة والضلال) [3]

ثم نقل من كلام الأستاذ محمد بن الحسن الحجوي وزير معارف الحكومة المغربية مقرا له قوله: (لهذه وغيره نقول أن الطريقة التيجانية ليست كسائر الطرق في بدعها.. بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الإسلام) [4]

وقد علق ابن باديس على هذا بذكر مضار هذه الطريقة، والتي تؤهلها كما يرى لكفر المنتسب لها، فقال: (فبهذا صارت الطريقة التيجانية في نظر أهل العلم بالسنة والكتاب كأنها مسجد الضرر ضد الإسلام، فالله يقول في نبيه خاتم النبيين، وهو يقولون في الشيخ التيجاني هو الختم وهو لبنة التمام للأولياء فحجروا على الله ملكه وقطعوا المدد المحمدي وهم لا يبالون أو لا يشعرون، وحتى إن شعروا فالمقصد يبرر الواسطة، وإذا سمعوا أن النبي أفضل النبيين قالوا إن

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 147)

[2] آثار ابن باديس (3/ 148)

[3] آثار ابن باديس (3/ 148)

[4] آثار ابن باديس (3/ 148)

التيجـاني رجلـه على رقبـة كـل ولي للـه، بهـذه العبـارة الجافة من كل أدب الجارحـة لعواطـف كـل مسـلم لأن الولي في عرفهم يشمل النبي إذ يقولون أن ولاية النبي أفضل من نبوته، ولا يبالون أن يكون أصابهم أفضـل من أبي بكر وعمر والعشرة المبشـرين بالجنـة الـذين كـانوا يخافون الحسـاب ولا يـأمنون العقـاب، ولم يكن عنـدهم بشـارة بالنجـاة منهمـا، إذ لا يـأمن مكـر اللـه إلا القـوم الخاسرون.. دعـاء الإسـلام إلى الجـد ومحاسـبة النفس والعمل على الخوف والرجـاء في جميـع نـواحي الحيـاة الدنيا على أن يكون ذلك على السـداد والإخلاص ليكـون ذخـراً لسـعادة الأخـرى فجـاءت عقيـدة ضـمان الشـيخ ودخول الجنة بلا حساب) [1]

هذا ما ذكره وما نقله ابن باديس في فتواه، ولم ينقل أي نص من كتب التيجانيـة المعتمـدة، أو من شـيوخهم المعتبرين في ذلك الحين، والذين زار بعضـهم الجزائـر، وصرح بخلاف التصريحات التي نقلت لابن باديس.

بل إن الدليل الذي ذكره هو ما تعـود رجـال الجمعيـة على الاستدلال بـه من الحكايـات والقصـص، فقـد حكى عن الحجوري قوله: (حكي لي بعض القضـاة قـال: كـان في محكمـتي تسـعون عـدلا في الباديـة، وقـد تقصـيت أخبار الصالح والطالح منهم لأعلم مقـدار ثقـتي بهم في حقوق المسـلمين فوجـدت عشـرين منهم متسـاهلين لا يؤتمنون على الحقوق، وحين دققت النظـر في السـبب تـبين لي أنهم جميعـاً تيجـانيون، فبقيت متحـيرا حـتى انكشف لي أن السبب هو اتكالهم على أنه لا حساب ولا

[1] آثار ابن باديس (3/ 149)

عقاب يترصدهم فانتزع الخوف من صدورهم) [1]

وقد علق ابن باديس على هذه الحكاية بقوله: (هذا في العدول وهم من أهل العلم فكيف بالعامة؟ فهذه الطريقة ما وضعت إلا لهدم الإسلام، ولا أجزم بأن صاحبها هو الذي وضعها هذا الوضع فقد يكون فيمن أتصل به من كاد هذا الكيد، ودسّ، وليس مثل هذا الكيد جديداً على الإسلام)[2]

ثم ختم فتواه بهذه الرسالة التي وجهها إلى العلماء، وفي مقدمتهم صديقه العلامة الأستاذ البشير النيفر التونسي، قال فيها: (إنني ادعوا كل عالم تيجاني إلى النظر في فصول السؤال والجواب فإن اقروا ما أنكرناه فليعلنوا إقرارهم له، وإذا أنكروا ما أنكرناه فليعلنوا إنكارهم له، يصرحوا:

1- بأن (صلاة الفاتح) ليست من كلام الله.
2- وأنها ليست مثل الصلاة الإبراهيمية.
3- وأن النبي ﷺ لم يعلمها لصاحب طريقتهم.
4- وأن لا فضل له ولا لاتباعه إلا بتقوى الله.
5- وأن المنتسب إلى طريقتهم لا يمتاز من المسلمين عن غير المنتسب إليها.

ثم ختم هذا الإعلان بقوله: (ومن لم يصرح بهذا باء بوزره ووزر الهالكين من الجاهلين وكان عليه أثم الكاتمين من العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل) [3]

انطلاقا مما ذكرناه، فإن المنهج العلمي السليم الذي نراه ليس هو أن نكتب مثل هذه الإعلانات، ثم نختمها بتلك الخاتمة المستفزة، لأن أي إنسان يربأ أن تلصق به

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 149)

[2] آثار ابن باديس (3/ 150)

[3] آثار ابن باديس (3/ 150)

التهم قبل أن يحقق معه.

ولـذلك فـإن الفقهـاء يعتـبرون المسـائل المرتبطـة بـالتكفير مسـائل قضـائية لمـا يـترتب عليهـا من أحكـام شرعية كثـيرة، ذلـك أن من مقتضـى فتـوى ابن بـاديس هذه أنه لا يجـوز الـزواج من المـرأة التيجانيـة، والمـرأة التي تكون في ذمة تيجاني يفسخ زواجها منه، ولا يصلى على تيجـاني، ولا يصـلى خلفـه، ولا يـدفن في مقـابر المسلمين.. وغير ذلك كثير.

وكان الأجدى بابن بـاديس مـع مكانتـه الاجتماعيـة أن يتصـل بمشـايخ وعلمـاء التيجانيـة الكثـيرين، ليستوضـح منهم حقيقـة مـا ينسـب إليهم، ولا يرجـع في ذلـك إلى اسـتفتاء أو إلى كتب لا نـدري من طبعهـا، خاصـة إذا أنكرها علماء التيجانية[1]، وتبرأوا مما فيها.

المطلب الثالث: تهمة ابتزاز الأموال

وهذه من أكثر التهم ورودا عند أعضاء الجمعية جميعا – على حسب ما نعلم- لأنهم يعتبرون الهـدف الأساسـي من الطـرق هـو اسـتغلال أمـوال المريـدين لمصـالحهم الشخصية، بل يعتـبرون أنـه لـولا مـا يـدر بـه المريـدون والعـوام من أمـوال على الزوايـا ومشـايخ الطـرق لمـا بقيت هذه الطرق.

ونحب قبل أن نتحدث عن هـذه التهمـة الـتي وجهتهـا الجميعة للطرق الصـوفية، وخصوصـا الطريقـة العلاويـة أن نذكر المصادر الماليـة لهـذه الطريقـة، بنـاء على مـا أوردته الدراسة المهمة التي أشـرنا إليهـا سـابقا، والـتي تحمل عنـوان (الطريقـة العلاويـة في الجزائـر ومكانتهـا الدينيـة والاجتماعية 1934 – 1909) للباحثـة غزالـة بوغانم.

فقد ذكرت في دراستها أن الشـيخ ابن عليـوة عنـدما

[1] سنرى الوثائق الدالة على إنكار التيجانية لمثل هذه العقائد في محلها.

تصدر للإرشاد كـان ينفـق على من يقصـده من الفقـراء مما كان بين يديـه من الأمـوال حـتى اضـطر لـبيع أثـاث مترلـه، واسـتمرت الضـائقة الماليـة حـتى بعـد الحـرب العالمية الأولى. ويذكر الشـيخ أن نفسـه لم تكن تسـمح له بالأخذ من الفقراء.

وحتى بعد أن اشتهر أمـره وكـثر المتجـردون للخدمـة في الزاوية ومرافقها وكثر أتباعه، كـان ممـا يوصـي بـه الشــيخ ابن عليــوة المــذكرين الــذين يوجــه وفــودهم السياحية لمختلف المناطق لتذكير النـاس، بعـدم النظـر لما بأيدي الناس، ويأمرهم بأن لا يسألوا الناس شــيئا إلا الماء للوضوء[1].

وتنقل عن بروباست بيرابـان بـأن الشـيخ لم يفـرض على أتباعه أي اشتراك سنوي بل ورفض عطاياهم، وأنه لم يستغل أبدا فقراءه ولم يغتن على حسابهم، وهـو مـا أكده الفرنسي الذي اعتنق الإسـلام عبـد الكـريم جوصو أيضا، لكنه بعد أن كثر أتباعه، وكـثرت حاجـات الزاويـة، وأصبح صاحب مشروع إصـلاحي نهضـوي تغـير موقفـه، وصار يقبـل مـا يسـمى في عـرف الزوايـا (الزيـارة)[2]، وهي عادة عبارة عن عطاءات عينية ونقدية، وهي واجبة ومحددة، وعادة يرسل المقدم الشاوش إلى من تخلــف من الأتبـاع في دفعهـا لتحصـيلها، ولكن غالبـا مـا كـانت عمليـة الـدفع تتم عن طيب خـاطر[3]، وهي بـذلك كمن يدفع الاشتراك للتنظيم الحـزبي أو النقـابي الـذي ينتمي

---

[1]) غزالة بوغانم، الطريقة العلاويـة في الجزائـر ومكانتهـا الدينيـة والاجتماعية 1934 – 1909، ص 151.

[2]) غزالة بوغانم، الطريقة العلاويـة في الجزائـر ومكانتهـا الدينيـة والاجتماعية 1934 – 1909، ص151.

إليه.

ويذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن هذه الزيارات أصبحت المفتاح الذي تتحكم به السلطات الفرنسية في الطرق الصوفية، فمن شاءت وفرتها له وسمحت له بها فاستغنى وتنفذ وسكت، ومن شاءت منعتها عنه فغلب على أمره ولجأ إلى حيل أخرى أو افتقر[1].

بالإضافة إلى الزيارة كان من مصادر الدخل في الزاوية العلاوية بفروعها المختلفة عمل المتجردين من الخدمة في ممتلكات الشيخ دون أجرة، ومقابل عملهم يوفرون إنتاجا دون مصاريف تقريبا، حيث تقتصر مصاريفهم على تأمين المأوى لهم وكذا الأكل والشرب، فكانت عائدات الأراضي الفلاحية وإيرادات المحلات التجارية التي يعمل بها المتجردون، تستعمل للإنفاق على الزاوية الكبرى بمستغانم ومرافقها المختلفة.

كما كان الشيخ ابن عليوة يتلقى صدقات الأتباع حتى من الخارج، مما أثار ضده ضجة وأنه يأكل أموال الزكاة وهو ليس من مستحقيها، فطلب من مرسلي الصدقات إليه توضيح طبيعتها لينفق ما كان منها زكاة في وجوهها الشرعية[2].

بالإضافة إلى هذا كان من مصادر الزاوية المالية جمع الإعانات والتبرعات، حيث كانت الزاوية ترسل لجمع التبرعات والإعانات كلما همت بإنجاز مشروع، وتخصص وفودا تقوم بالسياحة لهذا الغرض، أعلنت عنها لسان

---

[1]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، المصدر السابق. ص 20.

[2]) أحمد بن مصطفى العلاوي : أعذب المناهل، ص 180، نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص153.

الــدين الثانيــة، ولم أجــد في البلاغ- فيمــا بين يــدي من أعداده- مثـل ذلـك لكن جريـدة البلاغ الجزائـري نظمت حملة لجمع التبرعات لتأمين صـدورها المنتظم. بعـد أن مرت بأزمة مالية اضـطرتها للتوقـف عن الصـدور بعض الـوقت، وقـد نشـرت الصـحيفة قـوائم المتـبرعين لهـا والمبالغ المتبرع بها.

بالإضافة إلى هذا كله شـكلت أمـوال الزكـاة مصـدرا هاما لمداخيل الزاوية، لـذا شـن المصـلحون حملـة على مشايخ الزوايـا الـذين يتمعشـون من أخـذ الزكـاة، وهي محرمة عليهم، لكون أصحاب الزوايا إما من أهل البيت، أو ليسـوا من الأصـناف الثمانيـة الـذين شـرعت لأجلهم الزكـاة وقصـدوا بحملتهم هـذه بوجـه خـاص الشـيخ ابن عليوة. وقـد نشـرت جريـدة النجـاح مقـالا يتسـاءل فيـه صــاحبه عمــا يــدفع من الأمــوال لأربــاب الزوايــا أو يسـتجلبونه بواسـطة المقـدمين بقصـد الزكـاة هـل هـو مجزي أم لا؟

فكتب ابن عليـوة لجريـدة النجـاح يقـول: أن صـرف الزكـاة لغـير الأصـناف الثمانيـة لا يحتمـل الجـواز لأنهـا فريضــة من اللــه، ولكن لا يمتنــع أن يكــون في أربــاب الزوايا من يصدق عليه الوصف بعينه، كأن يكون مسكينا أو مدينا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يحتمل أيضا أن يوجد من أرباب الزوايا من يأخذها ليصـرفها في أبوابهـا. لذا أقر بأن دفعها له غير سديد، ولكنه لم يمنـع إرسـالها إليه، الشيخ ألح فقط على من أراد بإحسـانه دفـع زكـاة أمواله- وأراد أن يتم صرف تلـك الأمـوال بواسـطته- أن يبين للشيخ أنها زكـاة ليصـرف ذلـك المـال في وجوهـه الشرعية[1].

---

[1] أحمـد بن مصـطفى العلاوي : أعـذب المناهل في الأجوبـة والرسـائل، ص 18، نقلا عن: غزالـة بوغـانم، الطريقـة العلاويـة في الجزائـر ومكانتهـا الدينيـة

بناء على هذا الواقع، فقد وقفت الجمعية سلبيا من هذه المصادر التي تمون بها الزوايا، من الملاحظات التي يمكن توجيهها للجمعية بسبب هذه التهمة:

الملاحظة الأولى:

أن حاجة الزوايا للمال لا تختلف عن حاجة الجمعية باعتبارها تمارس ما تمارس الجمعية من التربية والتعليم وتحفيظ القرآن، بل تمارس فوق ذلك دور الكفالة الاجتماعية، ونحوها مما سبق الحديث عنه عند ذكرنا لمشروع الطرق الصوفية الإصلاحي، وهو مما لا يختلف فيه، بل تقر الجمعية به، بل إن أكثر علماء الجمعية درس في تلك الزوايا.

وهذه المدارس- باتفاق الجميع - نظامها داخلي، وهي لذلك تتكفل بكل حاجات الطلاب، بل تتكفل الفقراء منهم تكفلا تاما.

وهذا يدعو إلى التساؤل عن الكيفية التي تمون بها هذه الزوايا إن قطع عنها المدد المالي الذي ينفقه المرتبطون بها من العوام أو المريدين.

ولسنا ندري كيف تنكر الجمعية هذا، وقد أفتى شيخ الفتوى فيها الشيخ العربي التبسي بأحقية المؤسسات التي تهدف إلى حفظ الدين والعلم في أخذ أموال الزكاة، فقال[1]: (الزكاة مشروعة لنشر الإسلام وإقامته ولسد حاجات الفقير المسلم. ذلك هو المقصد المستفاد من أصناف مصارف الزكاة التي منها سبيل الله. والفقهاء إذا اختلفوا قديما في جواز صرف أموال

والاجتماعية 1934 – 1909، ص154.

[1]) نشرت هذه الفتوى في جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثالثة، عدد 119، الإثنين 15/ماي/1950م الموافق 28/رجب/1369هـ، ص 2.

الزكاة لبناء المسجد مثلا إنما كـان ذلـك أيـام كـان بنـاء المساجد من واجبات الحكومة الإسلامية. أمـا الآن وقـد عدمنا حكومة إسلامية فلا يعقل أن يقال ببقاء الأمة في مـدنها وقراهـا من غـير مسـاجد ولا مـدارس. لأن منـع صرف صرف الزكاة في هذه المصالح الدينية يؤدي إلى ذهاب الإسلام بعباداته ومظاهره الاجتماعيـة كالجماعـة والجمعة، وإلى موت لغة الإسلام بين المسلمين)

وبين وجه الاستدلال في هذا ممـا ينطبـق على الزويـا انطباقا تاما، فقـال: (ونحن اليـوم في وطننـا هنـا إن لم نسـتعن بالزكـاة لبنـاء المسـاجد والمـدارس بقينـا بلا مسـاجد ولا مـدارس. وهـذا يـؤدي إلى ضـياع الإسـلام شـعائره ومظـاهره ولغتـه. وإن اسـتعنا بهـا في بنـاء المسـاجد، وإقامـة الشـعائر الدينيـة، وتعليم الإسـلام، وصـلنا إلى المحافظـة على مسـاجدنا وعلى مظاهرنـا الاجتماعية، وتربى أبناؤنا على مـا يجب أن تـتربى عليـه الناشـئة الإسـلامية في علومهـا وآدابهـا ولغتهـا. فصـار صرف الزكاة لبناء المساجد والمدارس وسـيلة مباشـرة لبناء المساجد والمدارس والمدارس اللذين لا إسلام ولا دين ولا عربية بعدمهما. وشاهد ذلك ما وصلت إليه الأمة يـوم أضـاعت التعليم بسـبب فقرهـا وانتشـار جماعتهـا، وجمـود فقهائهـا اللـذين بـاتت فتـاويهم حجـر عـثرة في طريق الإسلام وتعليم الأمة، وتبين أن صرف الزكاة في ذلك وسيلة لأداء هذا الواجب، ووسيلة الواجب واجبة)

والخلاصة الـتي خلص إليهـا من فتـواه هي (أن الـذي نـدين اللـه بـه هـو جـواز صـرف الزكـاة للمسـاجد بنـاء وتعميرا، وللمدارس بناء وتسييرا)

ولا نرى فرقـا بين زاويـة التعليم ومـدارس التعليم إلا في الأسماء، والأسماء لا تؤثر في المعاني والحقائق.

بعـد هـذا فـإن الجمعيـة لـو أنهـا - عنـد نقـدها لهـذا السلوك الـذي تمارسـه الزوايـا - كـانت عفيفـة زاهـدة،

تنشئ المدارس من أموال أعضائها واشـتراكاتهم لربمـا عذرناها في ذلك، ولكنها تتبع نفس الأسلوب الذي تتبعـه الطرق الصوفية، بل إنها تكاد تستجدي الناس استجداء، حتى صارت تلقب كما عرفنا سابقا (جمعية العشور)

ونحن لا نلومهـا في هـذا لأن المهـام الخطـيرة الـتي نذرت نفسها لها تستدعي ذلـك، ولكن نلومهـا للمكاييـل المزودجــة.، أو كمــا قــالت العــرب: (رمتــني بــدائها وانسـلت)، أو كمـا ورد في الحـديث (يبصـر القـذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه)[1]

وحتى لا يكون حديثنا مجرد دعوى، فإنا سـيؤيده بهـذا الاقتباس من محاضرة طويلـة ألقاهـا الإبـراهيمي بنـادي الترفي بالعاصمة عام 1929 م[2] في الفـترة الـتي كـان يحضـر فيهـا لتأسـيس الجمعيـة، وقـد كـان كـل جهـد الإبــراهيمي في هــذه المحاضــرة بيــان الحاجــة للمــال لتأسيس الجمعية، فقد قال بعد أن بين الأهداف الكـبرى التي تريـد الجمعيـة تحقيقهـا: (ودوننـا في الوصـول إلى القـدر الصـالح منـه عقبـات أكبرهـا فقـدان المـال، فلـو اجتمعنا وتظاهرنا وملأنا الدنيا أقوالا لما أفادنـا ذلـك من العلم قليلا ولا كثـيرا بـدون مـال.. إذن فـالواجب على

[1] قال عنـه العجلـوني، إسـماعيل بن محمـد الجـراحي في (كشـف الخفـاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، دار إحيـاء الـتراث العربي، (2/ـ 388): (رواه أحمد عن أبي هريرة، وابن أبي الـدنيا في المـداراة عن بكر بن عبد الله المزني قال إذا رأيتم الرجـل مـوكلا بـذنوب النـاس ناسـيا لذنبه فاعلموا أنه قد مكر به، وروى الديلمي عن أنس طوبى لمن شـغله عيبـه عن عيوب الناس)

[2] مجلة الشهاب (الأجزاء5،ـ 6،ـ 7) المجلد الخـامس، جـوان، جويليـه، أوت 1929.

هيئاتنا المجتمعة محاربة الجهـل بـالعلم، ولا يتم ذلـك إلا بالمال وأين المال وما أقل ما يكفي منه)[1]

ثم ذكـر العقبـات المرتبطـة بهـذا الجـانب، فقـال: (لا ننكـر أن عنـد أغنيائنـا مـالا يكفي لبعض الـواجب، ولكن يحول دون إخراجه في المشـاريع النافعـة أسـباب: شـح مطاع في البعض وجهل بطرق النفـع العـام في البعض، وأخــرى نشــكو منهــا إلى اللــه وهي عــدم ثقــة بعضــنا بالبعض، هذا الخلق المشؤوم الذي أصبح خلقا ذاتيا فينـا ولا نبحث عن أسبابه في هذا الحديث) [2]

ولست أدري لم يعتبره خلقـا مشـؤوما، وهـو قبـل أن يحاضر هذه المحاضرة كـان يحـذر النـاس من إعطـائهم المال لرجال الزوايا، ويقـول لهم: إنهم يبـتزونكم، وأنهم ليسوا بأهل لإعطائهم أموالكم.

والناس عندما يسـمعون هـذا قـد يكفـون عن إعطـاء أموالهم للزوايا ورجالها، ولكنهم أيضا لا يعطون أموالهم للجمعيــة، فمن يضــمن أن تصــرف تلــك الأمــوال في محالها الصحيحة؟

ثم فوق ذلك كيـف يـتركون معلومـا واضـحا أمـامهم، وهو الزوايا وما قامت به من أدوار فاعلـة إلى جمعيـة لا يدرون مصيرها، ومصير أموالهم معها.

وقـد ذكـر الإبـراهيمي، أنـه وجـد في هـذا القطـر في عهـده الأخـير جماعـة من أبنائـه الـبررة حـاولوا التعليم بأســلوب قــريب وطريقــة منظمــة، كــل في دائــرة اختصاصـه، وجعلـوا أعمـالهم وأوقـاتهم تضـحية وطنيـة متكلين على التضحية الوطنية من جانب الأغنيـاء، لكنهم

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 53)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 53)

– كما يذكر الإبراهيمي – (ما جاوزوا مبادئ العمل حتى أعوزهم المال وأخطأ الاتكال، هنا وقعت المشادة الكبرى- قالوا للأغنياء: هاتوا المال، فقال بعضهم: هاتوا الثقة، وقال البعض: هاتوا الثبات، وقال بعضهم: لا أدفع مالي في غير ما يخص أهلي وعيالي.. أما الفريق الثالث فقد عذرناه لأنه مخلص لشحه وأنانيته، وأما الفريقان قبله فهما تحت رجم الظنون. وكانت خلاصة هذه المشادة أن تعطلت تلك المؤسسات العلمية النافعة في أول نشأتها وحرم الوطن من فوائدها وخرج الفريقان بالأعذار الباردة كل يتنصل من العهدة والعهدة على الجميع) [1]

وبناء على هذا الطرح المنطقي ذكر الإبراهيمي أنه لو وجدت (جمعيات منظمة تقوم بهذا العمل لما كنا نحرم هذا الحرمان المؤلم ولشدت عضد هؤلاء المجاهدين، ولكان لها من مكانتها شفيع عند الأغنياء يقطع عذر المعتذر منهم ويخفف عاطفة الشح من الشحيح)[2]

ويتحدث الإبراهيمي – على حسب ما فقهه من مدرسة التنوير- عن تأثير المال وكونه عصب الحياة، (وأن مكان المال من الحياة مكان الوريد من البدن، وأن الزمان قد دار دورته وقضى الله أن يصبح المال والعدم سلاحين لا يطمع طامع في الحياة بدونهما فلننظر مكاننا منهما ومكانهما منا)[3]

هذا هو موقف الإبراهيمي من ضرورة المال في أي

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 53)

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 53)

[3]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 55)

مشـروع، وخاصـة المشـاريع الخيريـة، ولسـنا نـدري لم يمنـع الطـرق الصـوفية باعتبارهـا جمعيـة خيريـة في أن يكون لها حظ من هذا المال لتؤدي به رسالتها.

ولم يقف الأمر بالنسبة للجمعية عند حد المحاضـرات والخطب، بل كانت تسعى بكل الوسائل لتحصيل المال، وكانت تمد يدها كل حين للمجتمع ليمـدها بمـا تقـوم بـه مشاريعها، فهذا الإبراهيمي في افتتاحـه لمعهـد سـطيف يخاطب الحضور قائلا: (إن الجمعية الدينية تفخر بمــا تم على يدها من هذا المشروع الواسع وتعـترف بأنهـا إنمـا قـامت ببعض الـواجب، وهي سـاعية بتوفيــق اللــه في إتمام بقية هـذا الـواجب وهي المـدارس القرآنيـة.. ومـا وسائل التعمير إلا المال الذي يرصد لتكون حياة الجـامع مضمونة وحياة هذه المؤسسات مضمونة. ومـا التعمـير الحقيقي إلا العلم والتعليم)[1]

وبنـاء على هـذا طلب (من المحسـنين أن يتعاهـدوها بالإحسان ويمدوها بالمال فلا بقاء لهـذه المؤسسـات إلا بالإحسان المتواصل والمدد المتوالي.. وإنها تعـد نفسـها قائمة بواجب كفائي لا ترجو عليه من المخلوق جزاء ولا شكورا وقد أحسن إليها قوم وأساء إليها آخرون، فقالت للمحسنين أحسنتم وللمسـيئين هـداكم اللـه، عالمـة أن من أسـاء اليـوم سيحسـن غـدا إذا ظهـر الحـق واتضـح السـبيل، فهي تقابـل الإسـاءة بالعـذر تمهيـدًا لمقابلـة إحسانه بالشكر)[2]

ولســنا نــدري ســر هــذه التفرقــة العنصــرية بين مؤسسات الجمعية ومؤسسات الزوايا، ولسنا ندري سر حاجة مؤسسـات الجمعيـة ومراكـز تعليمهـا إلى المـال، بينما لا تحتاج الزوايـا إلى المـال، والأخطـر من ذلـك أن

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 95)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 95)

يعبر عن إعطاء المال لمدارس الجمعية بكونه إحسانا، بينما يعبر عن إعطاء المال لأختها من زوايا الطرق الصوفية ومدارسها بكونه بلاهة، ويعبر عن مستجدي المال لمؤسسات الجمعية من كونه داعية ومصلحا، ويعبر عن مستجدي المال للزوايا بكونه محتالا نصابا.

الملاحظة الثانية:

قد يقر البعض بما ذكرنا، ولكنه يعتذر لذلك بأن في الجمعية ثقاة محترمون، بخلاف الزوايا والطرق الصوفية، وإثبات هذا صعب جدا من الناحية الواقعية لأن المتعاملين مع الزوايا ومع الجمعية كلاهما بشر، وكلاهما يحب المال، وكلاهما يخطئ ويصيب، وكلاهما قد يخطئ فيمد يده لما لا يحل له، وما دام الأمر كذلك، فلم نصف الجمعية بالعصمة المطلقة، ونصف الزوايا بالخطأ المطلق؟

ولا حاجة لنا لإثبات ذلك، فالزاهري الذي كان محل احترام عظيم من الجمعية، بل رأس صحفها، صار بعد ذلك عميلا، بل صار متهما في أمانته، وقد نقلنا موقف الإبراهيمي منه، وحديثه عن خيانته المالية.

بناء على كل هذا نقول بأن الانحراف في التعامل مع الأموال، واستغلالها للمصالح الشخصية موجود في الزوايا – كما ذكر علماء الجمعية- ولكن لا يوجد فيها وحدها، بل في كل المحال، والمصلح هو الذي يتعامل مع الأصل، لا مع الانحراف.

بل إنا نرى أن الجمعية لا تقل في هذا السلوك عن الزوايا، بل الأخطر من ذلك أن نرى تشريع ابتزاز الأموال عبر فتاوى لا نرى لها أي دليل عليها، وفي حال وجود الدليل عليها من الصعب تحقيق مناطها.

فقد قال الشيخ العربي التبسي في فتواه السابقة: (والموضوع لست بمحتاج في إلى الاستشهاد بنصوص العلماء في جواز دفع الزكاة للفقهاء ولو كانوا أغنياء.

لأن العلــة في ذلــك هي اليــوم في تعليم الأمــة وبنــاء المعاهد والمدارس أبين منها في الفقهاء. ولســت أيضــا في حاجة إلى نقل كلام الأئمة في نقل حق من لم يبــق من الأصناف الثمانية إلى من يشبههم في المعنى الذي اسـتحقوا من أجلـه الزكـاة مـادامت المسـألة في بيـان حكم فقهي إلى العامـة الـتي لا تطالبنـا بالـدليل. ونحن نوافـق فتـوى أخـذ الفقهـاء من الزكـاة إذا كـان أولئـك الفقهاء قد حبسـوا جهـودهم وعلـومهم وحيـاتهم للجهـاد في سـبيل الإسـلام، ونشـره، والـدفاع عنـه. أمـا فقهـاء السـوء طلاب الـدنيا فإننـا لا نقـول بجـواز أخـذهم من الزكاة)[1]

ولسنا ندري كيـف يعـرف العامـة الفـرق بين الفقهـاء الصالحين وفقهاء السوء، لأن ذلـك يسـتدعي البحث في النيات، والنيات محلهـا القلب، والقلب لا يطلـع عليـه إلا ربه.

بل إن الشيخ العربي التبسي بهـذه الفتـوى الخطـيرة أعطى الرخصة لأي طويلب علم أن يبتز أمـوال النـاس، بل زكواتهم، ثم يصرفها لنفسه حتى لو كان غنيـا بحجـة أنه فقيه، وأنه صالح.

بـل إني أرى على وزارة شـؤون الـدنيا أن تمنـع من تسرب هـذه الفتـوى للأئمـة والمشـرفين على صـناديق الزكاة وإلا فلن يرى الفقراء منها لا قليلا ولا كثيرا.

المطلب الرابع: مداهنة الاستعمار

وهي من التهم المشتهرة، والتي لا تزال تتـداول على الرغم من أن أكثر المقاومات كـانت من رجـال الطـرق

---

[1]) جريـدة البصـائر، السلسـلة الثانيـة، السـنة الثالثـة، عـدد 119، 15/مـاي/1950م الموافق 28/رجب/1369هـ، ص 2.

الصوفية، ولكن ذلك – مع ذلك- لا يشـفع لهم عنـد أكـثر الباحثين، نظرا لبعض التصريحات التي أدلوا بهـا، والـتي تنسخ جميع ما قـاموا بـه من أعمـال تـدل على غـيرتهم على وطنهم.

مع أن الكثير من أمثال تلـك التصـريحات صـدرت من رجال الجمعية، ووجدت التبريرات التي تسيغها، وكأمثلة على ذلـك نـذكر بعض مواقـف ابن بـاديس من أحـداث متفرقة، وكيف كان يتعامل معها بلغـة دبلوماسـية قويـة تجمع بين المطالبة والاحتجـاج مـع الحكمـة الـتي تبعـده وتبعد جمعيته عن التعرض لأي ضغوط من المستعمر:

ففي التقرير الأدبي الذي ألقاه الشيخ ابن باديس في افتتـاح اجتمـاع الجمعيـة السـنوي سـنة 1935م صـور طريقـة الجمعيـة في معالجـة القضـايا السياسـية، وهي طريقـة تحـاول أن تجمـع بين الاحتجـاج وإظهـار الثقـة، فمما جاء فيه قوله: (لقد أبدت الجمعية ألم الأمة وألمها من ناحيتها الخاصـة بهـا بمـا نشـر لهـا وبمـا أبـرقت من برقيات وما أرسلت من كتب، وقد أبدت ما لها من أمـل يوم قابل رجالها وزير فرنسا (م. ريفي) وسمعت منه ما قوى ذلك الأمل.. وكم كـان يسـرني- وأنـا رجـل مسـلم طبعتـني تربيـتي الإسـلامية على الاعـتراف بالجميـل- أو استطعت أن أذكر لكم اليوم شيئا من تحقق ذلك الأمل. لكن بغايـة الأسـف لا أسـتطيع أن أقـول لكم إلا أنـه لم يتحقق شيء منه، فالمساجد ما تـزال موصـدة الأبـواب في وجـوه الوعـاظ والمرشـدين والمكـاتب العربيـة مـا زالت تلقى العراقيـل الشـديدة، وصـحيفة الجمعيـة مـا تـزال في نطـاق المنـع والتحجـير ومـا يـزال رجـال من أشخاص الجمعيـة البـارزين تحت الرقابـة والشـدة بغـير

ذنب، غير أننا لا نقطع حبل الرجاء ما دام على رأس الإدارة رجل عالم خبير يقدر العلم وأهله ربما انفسح أمامه المجال للعمل في عهد الولاية الجديدة، ومع ذلك فإنني إبقاء لصوت الحق أرفع باسم جمعكم هذا إلى المراجع العليا الاحتجاج على بقاء هاته الحالة التي يحال فيها بين علماء الإسلام ومساجد الإسلام، ويحال فيها بين الأمة وتعلم دينها في أماكن دينها ويعرقل فيها المسلمون على تعليم أبنائهم، لغة وعقائد وآداب دينهم. ويخنق فيها صوت جمعية دينية علمية فيحال بينها وبين الصحافة التي هي الأداة المشروعة المعترف بها لكل جمعية لنشر دعوتها والدفاع عن نفسها)[1]

وفي خطبة ألقاها الشيخ ابن باديس بقصر الجمعيات الفرنسية بتونس، نرى التكتيك الذي كانت تمارسه الجمعية في تعاملها مع الشؤون السياسية، فمما جاء فيها قوله: (كانت مطالب الجزائر قبل انعقاد المؤتمر الجزائري الشهير مطالب متفرقة يقوم بها أفراد موزعون، ولما تأسس المؤتمر الجزائري في السنة الفارطة توجهت الأمة بمطالب عامة- سياسية، اقتصادية، علمية، عربية قومية- ومطالب الجزائر لا تزال في حيز الانتظار إلى الآن كما لا تزال مطالب تونس في حيز الانتظار.. وقد حدث شيء بعد ذلك وهو مشروع فيوليت الذي هو شيء واحد من المطالب التي قدمناها، وهو يعطى حق الانتخاب لعشرين ألف وبضعة آلاف وحق التصوت في جملة الفرنسويين.. ولقد صعب تنفيذ هذا المشروع لما اشترطه المؤتمر من المحافظة

---

[1]) سجل مؤتمر العلماء المسلمين الجزائريين ص 74 - 76/ـ 16 جمادى الأخيرة 1354هـ - 15 سبتمبر 1935م.

على الصفة الشخصية الإسـلامية العربيـة، وهـا هـو الآن في مهب الـــريح يمكن أن يتم ويمكن أن لا يتم.. وقـــد قبلت أكثرية الأمـة مشـروع فيـوليت بالشـرط المـذكور وباعتبـاره أقـل المطـالب، أمـا الأقليـة فقـد أبت قبولـه تمامـا لأنهـا تخشـى بعض الألاعيب الـتي لا تـدري مـتى تكون.. ونحن نحترم رأي هذه الأقلية ونؤمل بقاءها على رأيها، وهي تطـالب بالاسـتقلال وأي إنسـان يـا سـادة لا يحب الاسـتقلال؟ إن البهيمـة تحن إلى الاسـتقلال الـذي هو أمر طبيعي في وضعية الأمم.. أمـا موقـف الحكومـة التي أعطيناهـا ثقتنـا من أول يـوم فهـو موقـف الـتريث والتردد، تشاهد المعارضة من الرجعيين أصـحاب المـال الأقوياء، ونشاهد مطالب الجزائريين الضعفاء فتارة تعـد كما قال م. فيانو وتـارة تتوعـد كمـا قـال م. أوبـو الـذي يقـــول إذا أردنـــا الاحتفـــاظ على الشـــمال الإفـــريقي فلنحافـظ على القـوة وقـد أخطـأ في ذلـك، ولـو كـانت الحكومـة تقبـل نصـيحتي كإنسـان لنصـحتها باسـتعمال الإحسان، الذي يمكنها بـه المحافظـة على صـداقة هـذا الشمال الإفريقي)[1]

وقد حاول أحد أنصار ابن باديس أن يفرق بين ما كان يقوم به الشيخ ابن باديس باسم الجمعية وما كان يقـوم به باسمه الشخصي، فهو في الحالة الأولى كان لا يخرج عن دائرة القوانين والتشـريعات الجاريـة عندئـذ، ولكنـه في الحالة الثانية كان لا يتردد في استعمال لهجة العنف والاحتجاج ضد الإدارة الفرنسية[2].

---

[1]) آثار ابن باديس: 4/333، وانظر: البصائر: السنة الثانية العدد 71 الجمعة 9 ربيع الثانى 1356ه 18 جوان 1937م. ص4، ع 1 و2 و3 وص 5، ع 1 و2.

[2]) بوكوشة، (المعرفة) الجزائرية، أبريل 1964، ص17.

ولكن هـذا - كمـا يـذكر د. سـعد الله – ليس صـحيحا دائما، ففي (الشهاب) التي كانت تمثـل وجهـة نظـر ابن باديس الشخصـية أكـثر من وجهـة نظـر الجمعيـة كـانت كثـيرا مـا تحتـوي على مجـاملات قـد ينظـر إليهـا غـير المعاصـرين على أنهـا مفرطـة في المجاملـة، من ذلـك نشرها لصور الوالي العام وتهنئته وتعزيته ووصـف بعض رجال الإدارة بالعلم والخبرة ونحو ذلك[1].

ومن ذلـــك – وهـــو أخطـــر من مجـــرد المجـــاملات- استدعاء ابن باديس للشرطة عند وقوع الهرج في نادي الترقي للمحافظة على الأمن، وقد انتقـد في ذلـك نقـدا لاذعـا وليم على اسـتدعاء الشـرطة (الفرنسـية طبعـا) لفض تنازع العلماء، لكن ابن باديس دافـع عن الشـرطة بحرارة[2].

وقد دافع سعد الله عن هذا الموقف الحرج الذي وقع فيـه ابن بـاديس والجمعيـة، فقـال: (ومن هنـا يتضـح أن موقف العلمـاء لم يكن سـهلا، فقـد كـانوا يمشـون على الـبيض كمـا يقـول المثـل الأجنـبي، فهم من جهـة كـانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشـروعة، ومن جهـة أخـرى كـانوا واقعين تحت طائلـة إجـراءات اسـتثنائية مسـتعدة لعرقلـة سـيرهم، بـل وضـعهم في قفص الاتهام، لذلك كـانوا ينـاورون مـا وسـعتهم الحيلـة والمنـاورة ويجـاملون ولكنهم لا يتنـازلون عن مبـادئهم، ومن أجل ذلك اصطدموا مرات بالإدارة)[3]

---

[1] الحركة الوطنية: 3/92.

[2] انظر: الشهاب: ج 8، م 8، ص 401 - 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

المبحث الثاني: التهم الموجهة من الطرق الصوفية لجمعية العلماء

تنطلق الطرق الصوفية في تعاملها مع جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين من وصـف يتكـرر كثـيرا، ويعتـبر بوابة لكل التهم التابعـة لـه، وهي كـون جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين ليسـت سـوى فـرع من فـروع الوهابية في الجزائر، وقـد ذكرنـا في الفصـول السـابقة أسباب هذه التهمة، وما يصح منها، وما لا يصح.

وهذا الاسم الذي أعطته الطرق الصوفية للجمعية هو الذي يسر عليها إسداء ما تشاء من التهم إليها، ذلـك أن الشيخ محمدا بن عبد الوهاب وأتباعه قد لقوا من العالم الإسلامي منذ ظهـور حـركتهم حربـا شـعواء، وألفت في الرد عليه وعليهم المصنفات الكثيرة، والـتي كـان يصـل أكثرهـا إلى زوايـا الطـرق الصـوفية[1]، فيجـدون فيهـا القواسم الكثـيرة المشـتركة بين كلتـا الحركـتين، ولعـل هذا ما يسر لظهور المؤلفات الكثـيرة في الـرد على مـا تطرحـه الجمعيـة على الطـرق الصـوفية من إشـكالات وتهم.

بناء على هذا نحاول في هذا المبحث أن نذكر أصــول التهم التي وجهتها الطرق الصوفية إلى الجمعية، ونــذكر علاقتهـا بـالتهم الموجهـة للحركـة الوهابيـة، وذلـك لمـا ذكرناه سابقا من ضرورة العودة إلى جذور الخلاف.

وقد رأينا من خلال استقراء التهم الموجهة من طرف الطرق الصوفية للجمعية، أو للحركة الوهابيـة أنهـا أربـع تهم كبرى، هي:

التهمة الأولى: تهمة الجهل والغرور

---

[3]) الحركة الوطنية: 3/93.

[1]) سنرى بعض تلك المصنفات عند الحديث عن مؤلفات الطرق الصوفية في الرد على الجمعية.

التهمة الثانية: تهمة المسارعة إلى التكفير
التهمة الثالثة: تهمة إنكار الولاية وما يترتب عليها
التهمة الرابع: تهمة العنف في التعامل مع الآخر
وقد خصصنا كل تهمة منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: تهمة الجهل والغرور

ويعتبرها الصوفية أساس جميع الأخطاء التي تتصور أن الطرف الآخر وقع فيها، ولهذا كثيرا ما نجد الشيخ ابن عليوة على الخصوص يوجه المخالفين له إلى المطالعة والبحث، أو يتهمهم في كونهم لم يبذلوا جهدهم في البحث في المسائل التي يطرحونها، وكمثال على ذلك قوله للمخالف مخاطبا له: (.. قبّح الله الجهل وما في معناه، وأنّ تقصير المعارض في طريقة القوم فهو أشهر من أن يستدل عليه، لأنّه لو تكرّر على مسمعه من اصطلاحاتهم، وتمكّنت من قلبه بعض عباراتهم، وعلم أنّ ألفاظهم أقرب إلى المجاز منه إلى الحقيقة، لوجد في ذلك مجالا أوسع من أن يضيق من أقوالنا، وبالأقل كان يحمل ما في (المنح القدوسيّة) من قوله (تطور في أطوار شتى لتظهر عظمته) على المجاز بالحذف، لأنّ من أنواعه ما يدلّ العقل على حذفه كقوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22]، فدلّ العقل على أنّ فاعل جاء محذوفا، لاستحالة تصوّر المجيء من الحقّ، ولم لا يقدر هذا المعارض محذوفا، إذا علم أنّ التطوّر لا يصحّ من الحقّ، ويقول تطور سرّه أو نوره وما هو من هذا القبيل، ولكن التعصّب يعمي ويصم)[1]

وختم هذا الوصف بقوله: (لأنّ عقل العموم أضعف

---

1) ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص21.

من أن يتوّصل لعلم القوم)[1]

ومثـل ذلـك كتب للشـيخ (محمـد الهلالي) المـدّرس بالحرم النبويّ الشريف يقول لـه: (أمّـا أنـا فلا أراكم إلاّ أنّكم قستم من تعرفونهم على من لا تعرفونهم، حكمتم على الجنس بحكم النوع، وهو لا شكّ حكم تفتخرون بــه بين المناطقة، وتصـولون بمثلـه على الأصـوليين !، أيّهـا الشيخ، أليس يكفيـك أن تقـوم بتـدريس مـا تعرفـه من ضروريات الدين، وتتجنب ما لا تعرفه، حـتى تكـون على بينة ويقين ؟ ألم يبلغك: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْـئُولًا} [الإسـراء: 36]، فـالأحرى بنـا وبكم أيّهـا الشـيخ أن لا نحكم بالسـلب أو الإيجـاب، إلاّ على ما نعرفـه من نفوسـنا، وإن كـان ولا بـدّ، فعلى مـا نعرفه ونتحقّقه في بعض أبناء جنسنا، أمّـا مـا غـاب عنّـا وعنكم من أسرار الخلق، فتكل أمره للملك الحقّ، وهذا ما عن لنا نصحناك به لوجه اللـه تعـالى، وعلينـا وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) [2]

وهكذا يخاطب الشيخ عثمان ابن المكي بقوله: (وكلّ ذلك أصابك ولعلّه من عـدم الفقـه في دين اللـه، ولهـذا اشترط عليه الصلاة والسلام في حـق الآمـر بـالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون فقيها فيما يـأمر بـه فقيهـا فيما ينهى عنه، لئلا يأمر بمنكر وينهى عن معروف، ومن أجل ذلك تـورّع أكـابر العلمـاء عن القـول في دين اللـه بغير نصّ صريح، أو مـا هـو كالصـريح.. فـإنّ من الحـق عليك أن تنكـر مـا علمت إنكـاره من الـدين بالضـرورة،

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص21.

[2] ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص173.

وتـــأمر بمـــا تحققت معروفيتــه من الـــدين بالضـــرورة، وتحسن الظنّ فيما تفرّع عن اجتهاد المجتهدين من أئمة الدين من الصوفيّة وغيرهم، أو ليس في علمك قد يوجد من المشتبه ما ثبت حرمته في مذهب وإباحته في آخر، أو ندبه في مذهب، وكراهيته في الآخـــــر ؟)[1]

بل دله فوق ذلك على المراجع الـتي يرجـع إليهـا في ثبوت هذه المسائل، بل ذكر لـه المراجـع الـتي تتناسـب مـع توجهـه المـالكي المتشـدد في موقفـه من البدعـة، فقال: (وإن أردت الاستطلاع على ذلـك والتتبـع لفتـاوى الفقهاء الماهرين والأئمة العاملين في ذلك، فـانظر مـا على هـامش رائيــة الشريشي فقــد جمــع من فتــاوى الفقهاء قديما وحـديثا مـا يتعـذّر عليّ نقلـه، ولا تظنّ أنّ المـــومى إليهم هم من أطـــراف الفقهـــاء، أو هم ممن اشتهروا بالتصوّف حـتى تطـرقهم التهمـة، لأنّ المـذهب عنـدك متهم، إنّمـا هم من محقّقي مـذهب الإمـام مالك كالشـــبرخيتي، وأضـــرابه، ومن محقّقي مـــذهب الإمـــام الشـــافعي كجلال الـــدين الســـيوطي وأصـــحابه، ومن محقّقي مـــذهب أبـــو حنيفة كالفيروزبـــادي صـــاحب (القاموس) وأمثاله، ومن هذه الطبقة جماعة)[2]

وبهـذا يوقـف الشـيخ ابن عليـوة المخـالفين لـه في موقــف حــرج، بــل يثبت لهم أنهم لا يطــالعون، بــل لا يطالعون كتب المذهب المـالكي الـذي يـدعون نسـبتهم إليه، وسنرى عند الحديث عن فتـاوى الجمعيـة، وفتـاوى الاتجاه السلفي عموما انتقائية عجيبة في التعامل سواء مـع النصـوص، أو مـع أقـوال العلمـاء عنـد الحـديث عن

[1]) ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص193.

[2]) ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص202.

أساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

وأمثال هذا كثير في رسائله، كما هي في رسائل غيره من الصوفية، وهم في هذه التهمة مقلدون للعلماء الذين اتهموا الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحركته، والتي لم تكن الطرق الصوفية ترى أي فرق بينهما.

ومن المؤلفات التي ألفت في هذا ما كتبه الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، وهو أحد شيوخ محمد بن عبد الوهاب في الإحساء، فقد كتب رسالة يرمي فيها الشيخ بالجهل بعنوان (سيف الجهاد لمدعي الاجتهاد)

كما ألفّ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق رسالة وجهها إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان عنوانها (تهكم المقلدين في مدعي تجديد الدين)، وقد تضمنت هذه الرسالة أسئلة علمية طلب من الشيخ أن يجيب عنها، ومما ورد فيها قوله: (وبعد فأسألك عن قوله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ} [العاديات: 1] إلى آخر السورة هي من قصار المفصل كم فيها من حقيقة شرعية وحقيقة لغوية وحقيقة عرفية، وكم فيها من مجاز مرسل ومجاز مركب، واستعارة تحقيقية، واستعارة وثاقية واستعارة عنادية واستعارة عامية واستعارة خاصية واستعارة أصلية واستعارة تبعية واستعارة مطلقة واستعارة مجردة واستعارة مرشحة وموضع الترشيح والتجريد فيها وموضع الاستعارة بالكناية والاستعارة التخيلية وما فيها من التشبيه الملفوف والمفروق والمفرد والمركب

والتشبيه المجمل والمفصل. إلى آخر هذه الأسئلة)[1]

بالإضـافة إلى الجهـل، فقـد اتهمت الطـرق الصـوفية الجمعية بالغرور، واهتمامها بصناعة الألفاظ دون الغوص في المعاني، وأنها لا تبحث في الحقائق بقـدر بحثهـا في الألفاظ.

ومن أمثلة ذلك ما رد بـه الشـيخ ابن عليـوة على من تستعبدهم الألفاظ ولا تروقهم المعاني، فقال عند حديثة عن العلم الباطن عند الصوفية: (فإذا كان هـؤلاء القـوم يسـتخرجون الجـدّ من الهـزل، فكيـف لا يسـتخرجون الجـــدّ مـــن الجدّ، بل لهم ذلك لكونهم لا يقفون عنـد ظاهر الألفاظ، وإنّما ينظـرون إلى المعـاني الدالّـة على المـراد، ولا يلتفتـون للحن ولا للإعـراب، بـل يأخـذون المعـــاني من حيث وجـــدوها، فهم نـــاظرون لإشـــارة الأرواح، غافلون عما يتلفظ به اللسان، تـراهم مـع اللـه في كلّ حال وشأن، مع انّه كـلّ يـوم هـو في شـأن، مـا اتخـذ اللـه وليّـا جـاهلا إلاّ علّمـه، وابتـداء التعليم بـه ثمّ بأحكامه، وأمّـا بقيّـة العلـوم فليسـت شـرطا في صـحّة الولاية وإنّما هي شرط كمـال وذلـك كـالنحو والصـرف، والمعاني والبيان، وعلم اللغة، حيث من لم تغنه معرفـة الله، فذلك هو الشقي)[2]

وفيما ذكره الشيخ تلميح إلى تلك السخرية التي كـان

---

[1] (تهكم المقلدين)، ق5، نقلا عن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهـاب عـرض ونقض، وقد ذكر أن هذه الرسالة لا تـزال مخطوطـة في مكتبـة الجامعـة الملكيـة في تبونجن بألمانيا.

[2] ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، ص24.

يعاني منها من أعضاء جمعية العلماء لكون لغته بسيطة ولا تجاري لغتهم القوية، ولكونها بعد ذلك ممتلئة باللحن، ومخالفة لقواعد اللغة من النحو والصرف.

ولهذا ينقل عن (أحمد بن عجيبة) قوله في هذا المقام: (إصلاح اللسان دون إصلاح القلب فسق وضلال، وإصلاح القلب دون إصلاح اللسان كمال دون كمال، وإصلاح القلب واللسان كمال الكمال)[1]

وينقل عن الفقيه (ميمون) قوله: (أقبح كلّ قبيح أن يتعلّم الإنسان نحو اللسان ويعلّمه، ولا يتعلّم نحو القلب ويعلّمه، مع أنّه محلّ نظر الربّ، فإذا كان نحو اللسان مع نحو الجنان كان صاحبهما في أمان، ولا يخشى عليه الخسارة والخذلان، يوم وقوفه بين يدي الرحمن، لأنّ الله تبارك وتعالى لا يثيب العباد على إعرابهم، وإنّما يثيبهم على قلوبهم) [2]

وينقل عن الشيخ العربي الدرقاوي قوله: (ما عرفنا من النحو إلاّ إعراب قوله تعالى : {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النور: 32]، إنّ حرف شرط، ويغنهم جواب الشرط، والمقصود بالغنى الغنى الأكبر فيكون خطابه للمتوجهين على طريق أهل الإشارة) [3]

---

[1] النص كما وجدته في إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: 190) هو قوله: (كان شيخ شيخنا رضي الله عنه إذا ذكر من تقدم له في العربية يقول له أنت اترك شيئاً من عربيتك وأنا أترك شيئاً من جبليتي، يعني من اللغة الجبلية، ونلتفت للطريق، والحاصل أن من اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال فهو كمال الكمال، وذلك لأنه ينتفع بكلامه بعدموته كالغزالي والشترى والشاذلي والمرسي والشيخ رضي الله عنهم، فقد عظم النفع بكلامهم)

[2] ابن عليوة، المنح القدوسية، ص20.

[3] ابن عليوة، المنح القدوسية، ص21.

بالإضافة إلى هذا نجده في مناقشاته مـع الجمعيـة أو مع الاتجاه السلفي يرشدهم إلى المراجع التي يحتاجون إلى الرجوع إليها للتعـرف على الحقـائق، وسـيأتي ذكـر الأمثلة على هذا عنـد الحـديث عن المناقشـات الفقهيـة بين الجمعيـة والطـرق الصـوفية في الجـزء الثـالث من هذه السلسلة.

المطلب الثاني: تهمة المسارعة إلى التكفير

وهي من التهم الـتي وجههـا رجـال الطـرق الصـوفية إلى الجمعيــة بنــاء على مــا ذكرنــاه ســابقا من اتهــام الجمعية للطرق الصوفية بالكفر والشـرك، ولـو لأبسـط الأسباب، وقـد كتبت في هـذا الإطـار (البلاغ الجزائـري) رسالة مفتوحة للشيخ ابن باديس تقول له فيهـا:(نحن لا يســوؤنا أيهــا الأخ أن تختــار ذلــك لنفســك لعلمنــا بــأن الإنسان أحرص على نجاة نفسه من حرص غـيره عليـه، إنما يسوؤنا أن تحمل الناس عليه، في حال أنه لم يتضح دليلـــه للســـابقين الأولين، فهـــو بـــالأحرى يخفى على الآخرين؟...وها هي كتب الأئمة الأربعـة فهـل رأيت فيهـا من ذكــر في بــاب الــردة أن من زار قــبرا على قصــد التبرك أو التوسل بصاحبه إلى الله في قضاء حاجته فقد أشرك بالله أو ارتد عن دينه والعياذ بالله)[1]

وهـذه التهمـة لا يمكن دفعهـا، ذلـك أن الجمعيـة بمـا كانت تنشره في صحفها كاف لإثبـات التهمـة، فهي تتهم كل مخالف لهـا من رجـال الطـرق الصـوفية إمـا بكونـه شيخ حلول، أو كونه عابـد وثن، ونحـو ذلـك ممـا مـر بنـا

---

[1] (نصـيحة ثمينــة وموعظــة عظيمــة إليكم يــا حضــرة ابن بــاديس)، البلاغ الجزائـري، ع: 301، السـنة الثامنـة، الجزائـر: 28 ربيـع الأول. 1352 ه، 21 جويلية 1933.

ذكره، وضرب الأمثلة عليه.

هـذا هـو المـبرر الأول، أمـا المـبرر الثـاني فهـو أنهم يجـدون (الوهابيـة) الـتي دافعت عنهـا الجمعيـة دفاعـا مسـتميتا من أكـثر الجماعـات الإسـلامية مسـارعة إلى تكفـير المخـالف، حـتى أن مصـطلح (نـواقض الإسـلام) يعتبر ابتكاراً وهابياً، فقد وضع مؤسـس الوهابيـة الشـيخ محمــد بن عبــد الوهــاب رســالة في مصــنّفه (كتــاب التوحيد) بعنوان (نواقض الإسـلام)، وحـدّدها في عشـرة نواقض على النحو التالي:

1 ـ الشرك في عبادة اللـه تعـالى، قـال اللـه تعـالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَنْ يَشَــاءُ وَمَنْ يُشْــرِكْ بِاللَّهِ فَقَــدِ افْتَــرَى إِثْمًــا عَظِيمًــا} [النساء: 48]، ومنه الذبح لغير الله، كمن يــذبح للجن أو للقبر، أو للقباب.

2ـ من جعل بينه وبين الله وسائط يـدعوهم ويسـألهم الشفاعة ويتوكّل عليهم كفر إجماعا.

3ـــ من لم يكفّــر المشــركين أو شــك في كفــرهم أو صحح مذهبهم كفر.

4ـ من اعتقد أن غير هدى النـبي ﷺ أكمـل من هديـه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالـذي يفضّـل حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر.

5 ـ من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمــل به كفر.

6 ـ من استهزأ بشـيء من دين الرسـول ﷺ أو ثـواب الله أو عقابه كفر..

7 ـــ السـحر ومنـه الصـرف والعطـف فمن فعلـه أو رضي به كفر.

8 ـ مظـاهرة المشـركين ومعـاونتهم على المسـلمين والدليل قوله تعـالى: {وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة: 51]

9 ــ من اعتقـد أن بعض النـاس يسـعه الخـروج من شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضـر الخـروج من شـريعة موسى عليه السلام فهو كافر.

10ـ الإعراض عن دين الله تعالى لا يتعلّمـه ولا يعمـل به، والـدليل قولـه تعـالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَـاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْـــرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْـــرِمِينَ مُنْتَقِمُــــونَ} [السجدة: 22]

ثم يختم بالقول: (لا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره. وكلها من أعظم مــا يكون خطراً، ومن أكثر ما يكون وقوعاً)[1]

فهذا ما يتصوره الشيخ ابن عبـد الوهـاب وأتباعـه من نواقض الإسلام، ولعلها كانت مرجعـا للجمعيـة في كثـير من أحكامها التكفيرية، كما عرفنا ذلك سابقا.

والأخطر مما ذكرنا من المكفرات هو ما ورد فيها من عبارات غامضة وأحكام مطلقة، تجعل لكل من يشاء أن يكفـر أحـدا أن يسـتخدمها بسـهولة، ولعلـه لأجـل هـذا خرجت الحركات التكفيرية من رحم الوهابية.

وكمثال على ذلك نرى الشيخ ابن عبد الوهـاب يربــط بين الذبح الذي لا يقصد به إشـراك أحـد في عبـادة غـير الله، بالشرك بالله مع أنه قد يكون عادة جرت أن يــذبح في مكـــان ولي للبركـــة، وليس للتعبـــد، ثم يـــوزع لحم

---

[1] الشيخ محمـد بن عبـد الوهـاب، مجموعـة رسـائل في التوحيـد والإيمـان، الرسالة التاسعة، (نواقض الإسلام)، موسوعة مؤلفـات الشـيخ محمـد بن عبـد الوهاب، ص 385 ـ 387.

الذبيحة على الفقراء، وهذا ما جرى به العمل في العالم الإسلامي، بما فيها الجزائر، والتي كانت تسـمى (زردة)، ولقبها علماء الجمعية بـ (أعراس الشيطان)

وهكذا الأمر بالنسبة لما ذكره في الناقض الثاني، فهو يعتبر (الواسطيّة) وكأنها شرك يزاحم الله تعالى، مع أن المسلم إنما يرجو نيل شفاعة نبيه ﷺ، كما في أحــاديث مستفيضة عن شفاعته ﷺ للعصاة من أمته يوم القيامة، وكقولـه تعـالى: {وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَحِيمًـا } [النسـاء: 64]، فالآيـة الكريمـة لا تقـف عنـد المعنى الظاهر في {وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُـولُ} [النسـاء: 64]، لوجود آية أخرى صـريحة: {وَمَنْ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ } [آل عمران: 135]، ولكن ضمّ استغفار الرســول ﷺ للقـوم الـذين أرادوا التوبـة رجـاء لقبولهـا من اللـه. وهناك مواقـف عديـدة لجـأ فيهـا الصـحابة لبعضـهم في مواقف شديدة طلباً لتحقيق أمر أو نزول بركة أو رحمة من الله، وكما فُعل مع العباس عم النبي ﷺ .

وقد رد الصوفية مـدافعين عن أنفسـهم منـذ ظهـرت هذه المقولات عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه في العـالم الإسـلامي، وتركـزت ردودهم على تفنيـد مـا يزعمه الوهـابيون من أن تعظيم الصـوفية للصـالحين أو لأضرحتهم أو توسلهم بهم إلى الله لا يعـني الشـرك، ولا علاقة له بما كان يفعله أهل الجاهلية.

فهذا الشيخ القباني يخاطب الشيخ ابن عبد الوهـاب قائلا: (فهل سمعت عن أحد من المسـتغيثين أنـه يعتقـد في الرسول ﷺ، أو في الولي المستغاث به أنه إلـه مـع اللــه تعــالى يضــر وينفــع، ويشــفع بذاتــه كمــا يعتقــد

المشركون فيمن عبدوه..)[1]

ويذكر (الحداد) عن أتباعه أنهم (مهما عظموا الأنبياء والأولياء، فإنهم لا يعتقدون فيهم ما يعتقدون في جناب الحق تبارك وتعالى من الخلق الحقيقي التام العام، وإنما يعتقدون الوجاهة لهم عند الله في أمر جزئي، وينسبونه لهم مجازاً، ويعتقدون أن الأصل والفعل لله سبحانه)[2]

ويقرر (دحلان) ما قرره سائر المسلمون في جميع العصور قبل مجيئ الوهابية، وهو أن الشرك في حقيقته ليس سوى اعتقاد التأثير لغير الله، وليس هناك مسلم يعتقد التأثير لغير الله، يقول في ذلك: (فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله سبحانه، أو اعتقاد التأثير لغير الله.. ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى، ولا تأثير أحد سوى الله تعالى)[3]

وهذا نرى (الزهاوي) يؤكد مثل من سبقه على أن المشركين الأولين كانوا يعتقدون لأصنامهم أنها تنفع وتضر بذواتها فيقول: (إن المشركين إنما كفروا بسبب اعتقادهم في الملائكة والأنبياء والأولياء أنهم آلهة مع

---

[1] الشيخ القباني، فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب، ق61 (نقلا عن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص233)

[2] (مصباح الأنام)، ص5. (نقلا عن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص156)

[3] المرجع السابق، ص 234.

الله يضرون وينفعون بذواتهم)[1]

ويرد (العاملي) على ابن عبـد الوهـاب في ادعائـه أن مشركي العرب ينكرون ربوبية الله - كما ذكـر ذلـك ابن عبـد الوهـاب في رسـالتيه: (كشـف الشـبهات)، و(أربـع قواعـــد) – فيقـــول: (لا شـــيء يـــدلنا على أنهم – أي مشـــركي العـــرب – لا يعتقـــدون في الأصـــنام والأوثـــان ومعبوداتهم أنه لا تأثير لها في الكون، وأن التأثير وحـــده لله تعالى وهي شافعة فقط، إذ يجوز أن يعتقدوا أن لهـا تأثير بنفسها بغير ما في الآيات المستشهد بها، فتشـــفي المرض وتكشف الضر)[2]

ويـذكر الشـطي في معتقـد الوهابيـة في الاسـتغاثة، فيقـول: (فـإنهم يصـرحون بـأن من يسـتغيث بالرسـول عليه السلام، أو غيره، في حاجـة من حوائجـه، أو يطلب منه أو يناديه في مطالبه ومقاصده، ولو بيا رسول اللـه، أو اعتقد على نبي أو ولي ميت وجعله واسطة بينه وبين الله في حوائجه فهو مشرك حلال الدم والمال ...)[3]

ويرد على ذلك بأن ما يفعله العوام لا يرقى إلى هـذه الدرجة، فبذكر حكايـة مهمـة لجـده تـبين دوافـع العـوام

---

[1] الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق، ص 51 باختصار (نقلا عن: الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعـاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص2346)

[2] كشف الارتياب، ص 170. (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمـد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص235)

[3] الشيخ القباني، فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب، ق61. (نقلا عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمـد بن عبـد الوهـاب عـرض ونقض، ص 237)

فيما يفعلونه من التعلق بالأولياء والصالحين، فقال: (ومرة دخل جدي جامع بني أمية في الشام، فسمع عجوزاً تقول: يا سيدي يحيى عاف لي بنتي، فوجد هذا اللفظ بظاهره مشكلاً، وغير لائق بالأدب الإلهي، فأمرها بالمعروف، وقال لها: يا أختي قولي بجاه سيدي يحيى عاف لي بنتي، فقالت له: أعرف أعرف، ولكن هو أقرب مني إلى الله تعالى، فأفصحت عن صحة عقيدتها من أن الفعال هو الله تعالى، وإنما صدر هذا القول منها على وجه التوسل والتوسط إلى الله تعالى، بحصول مطلوبها منه)[1]

ويرد ابن عفالق على كل ما يذكره الوهابية من مكفرات، بل يعتبر أنها في أشد أحوالها ليست سوى ذنوب ومعاص لا ترقى لحد الكفر، فقد قال – في معرض نفيه أن يكون الذبح والنذر لغير الله شركاً -: (فاجتمعت الأمة على أن الذبح والنذر لغير الله حرام، ومن فعلها فهو عاص لله ورسوله.. والذي منع العلماء من تكفيرهم أنهم لم يفعلوا ذلك باعتقاد أنها أنداد لله)[2]

بل إن الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، وهو الأخ الشقيق لمحمد بن عبد الوهاب يستنكر استنكارا شديدا موقف أخيه من تكفير من ذبح أو نذر لغير الله، ويستغرب من تكفير من دعا غير الله فيقول: (من أين لكم أن المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إذا دعا غائباً أو ميتاً أو نذر له، أو ذبح لغير

[1] النقول الشرعية، ص 100. (نقلا عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص234)

[2] جواب ابن عفالق على رسالة ابن معمر، ق60. (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص234)

اللـه، أن هـذا هـو الشـرك الأكـبر الـذي من فعلـه حبـط عمله وحل ماله ودمه)[1]

ويضـيف في موضـع آخـر: (لم يقـل أهـل العلم من طلب من غير الله فهـو مرتـد ولم يقولـوا من ذبح لغـير الله فهو مرتد..)[2]

وهكذا بالنسـبة للاسـتغاثة، فالشـيخ محمـد بن محمـد القـادري لا يـرى في الاسـتغاثة بغـير اللـه - مـا دام أن المستغيث بغير الله، لا يعتقد أن غـير اللـه هـو الموجـد، وأنه لا تأثير إلا لله وحده شركا - يقول في تقريـر ذلـك: (وقول يا سيدي أحمد أو شـيخ فلان ليس من الإشـراك؛ لأن القصد التوسل والاستغاثة.. ولا يشك في مسـلم أن يعتقد في سيدي أحمد أو غيره من الأولياء أن لـه إيجـاد شــيء من قضــاء مصــلحة أو غيرهــا إلا بــإرادة اللــه وقدرته..)[3]

ومثـل ذلـك النـذر للأوليـاء، فهـو عنـدهم من الشـرك الذي لم ينص عليه غير الوهابية، فيقول:

(وأمـا نص النجـدي بمنـع النـذر مطلقـاً للأكـابر، فمن

---

[1] الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، ص 6. (نقلا عن: دعاوى المنـاوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص237)

[2] المرجع السابق، ص 7. (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص237)

[3] الشيخ القباني، فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب، ق61. (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبـد الوهـاب عـرض ونقض، ص 237)

افترائه على كتب الشريعة وجهله المركب)[1]

وبناء على هذه فإن هذه النواقض العشرة التي تبناها الوهابية، وتبناها أتباعهم في العالم الإسلامي تعتبر – كما يذكر بعض الباحثين- (المدخل الذي يرد منه كل من أراد الترويج لثقافة التكفير، على قاعدة أن من لم يكفّر كافراً فهو كافر، ومن شكّ في كفره فهو كافر، الأمر الذي يشجّع الناس على الإنغماس في عقائد بعضهم، فيخرجون من يشاءون من الدين ويدخلون إليه من يشاءون، ويعقدون نادياً للتداول فيما انعقدت عليه قلوب المؤمنين، فهذا مؤمن، وذاك كافر، وذلك منافق، وقد يصدرون أحكاماً بقتل فلان بتهمة الردّة عن الدين، لمجرد أنه يختلف مع المذهب الرسمي، وتطال آخر تهمة الإنحراف عن العقيدة، والضلال، ويتكفّل رسل الموت من أهل الدعوة بإيصال رسائل التهديد للكتّاب كما فعل الفوزان)[2]

وكمثال على هذه النزعة التكفيرية ما نشأ من حركات متطرفة كثيرة لا تزال تنشر سمومها في المجتمع الإسلامي لتشوة الإسلام وتشوه السلام الذي جاء به، ولعل من أشد تلك الحركات سرعة إلى التكفير (جماعة الهجرة والتكفير)، والتي انطلقت في أحكامها المتسرعة من كونها (جماعة المسلمين)، وأن الخارج

---

[1]) مصباح الأنام، ص 44. (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص237)

[2]) سعد الشريف، الوهابيّة: مذهب الكراهية، مشايخ التكفير، الجزء الخامس ـ 2، مجلة الحجاز الإلكترونية على هذا الرابط (http://www.alhejazi.net/qadaya/0310802.htm)

عليها ضال مضل إلى أوصاف كثيرة تزعمها لنفسها.

وللأسف نجد مثل هذه النزعة عند الجمعية في تعاملها مع المخالف، فهي تتصور أنها الحق المطلق، والآخر هو الشر المطلق، وقد مضى ذكر الكثير من الأمثلة على هذا، ونضيف إليه ما صرح به الشيخ التبسي - بمناسبة سقوط الخلافة الإسلامية – فقد كتب مقالا مطولا، حاول أن يبرهن فيه على أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي (الطائفة التي توفرت فيها أوصاف جماعة المسلمين الشرعية)[1] التي لا ينبغي التعامل معها إلا بالطاعة المطلقة.

ومن ضمن ما جاء في مقاله قوله: (وقد وجب على كل مسلم في الجزائر أن يعترف بأن جماعة المسلمين في الجزائر هي جمعية العلماء لا ينازع في ذلك إلا من أضله الله على علم أو جهل، أو كان من الذين سبقت عليهم الشقوة، فأنساهم الشيطان والهوى وحظوظ أنفسهم القيام بالقسط والشهادة ولو على أنفسهم)[2]

ثم ذكر المبررات التي تصور من خلالها أحقية الجمعية لهذا اللقب العظيم، فقال مخاطبا الجزائريين: (فيا أيها المسلمون الجزائريون: اعلموا أنه إذا كانت جماعة المسلمين بالعلم، فأكثر علماء الجزائر في هذه الجمعية، وإذا كانت الدعوة إلى الله فهي الجماعة المخلصة المؤمنة المجاهدة التي عاهدت ربها، وكتبت ميثاقا على نفسها، أنها الداعية بجماعتها وأفرادها إلى

---

[1] نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص93..

[2] المرجع السابق، ص93.

دين اللـه، وإلى كتابـه، وسـنة نبيـه، وإذا كـانت بالعمـل لتـوريث الجيـل الجديـد المـيراث الإسـلامي الأخلاقي والأدبي بما فيه من علوم، ومن مآثر رجـال وشخصـيات تاريخية، وما في الإسلام من فضل على الإنسـانية، ومـا في ظهوره يوم ظهر من هداية وسـعادة. فـإن الجمعيـة بدروس رجالها وبمدارسها تقوم بنقل هـذا المـيراث إلى الأحداث والجيل الجديد حتى يعرف نفسه ويعمـل بدينـه ويرتبط بتاريخه، وحتى يمتد الإسلام إلى من يأتي بعـدنا، وإذا كانت باعتراف الأمة الإسـلامية، وبالأهليـة الدينية والعلميـة والتضـحيات المبذولـة عن طيب نفس. فـإن الأمـة الجزائريـة تعـترف بـذلك لجمعيـة العلمـاء، وترجع إليها في دينها وعلومها. تسلم إليها أبناءها ليتلقوا الإسلام وعلومه على يد هذه الجمعية)[1]

ولسنا ندري بعد هذا كيف نرد على هذه التهمـة، وقـد ثبتها رجال الجمعية بما لا مزيد عليه، فلم تجـرؤ جماعـة في يوم من الأيام – عدا جماعة الهجـرة والتكفـير – أن تعتبر نفسها (جماعة المسلمين)، وأنهـا الحـق المطلـق، لأن الحـق المطلـق ليس إلا عنـد المعصـوم، أمـا سـائر الناس، فيصيب ويخطئ.

المطلب الثـالث: تهمـة مخالفـة جمـاهير العلماء

وهي من التهم الكبرى الـتي تخفي خلفهـا الكثـير من ألوان التهم الفرعية، وقد ذكر الإبراهيمي اتهـام الطـرق له وللجمعية بهذه التهمة، فقـال: (إن الجـزء الأخـير من كلامك مقتبس مما يشنع به علينا خصـوم الإصـلاح، وهـو أننـا ننبش القبـور ولا نحـترم الأمـوات، وننكـر كرامـات

---

[1]) المرجع السابق، ص94.

الأوليـاء ومـراتبهم (من غوثيـة وقطبانيـة) إلى أكـاذيب يلفقونها وأراجيف يتناقلونها عنّا)[1]

وهو يقرر أن مـا يـذكره رجـال الطـرق الصـوفية من الخلاف في ذلك، وأن من العلماء الكبار من يؤديهم فيـه صحيح، ولكن الحـق أحـق أن يتبـع، وأن (حجـة الإسـلام قائمـة، وميزانـه منصـوب، وآدابـه متمثلـة في سـيرة الصحابة والتابعين، واننا لا نعرف في الإسلام بعد قرونـه الثلاثة الفاضلة ميزة لقديم على محـدث، ولا لميت على حي، وإنمـا هـو الهـدى أو الضـلال، والاتبـاع أو الابتـداع، وليست التركة التي ورثناهـا الإسـلام عبـارة عن أسـماء تطفو بالشهرة وترسب بـالخمول ويقتتـل النـاس حولهـا كالأعلام، أو يفتنون بهـا كالأصـنام. وإنمـا ورثنـا الحكمـة الأبدية والأعمال الناشئة عن الإرادة، والعلم المبني على الدليل)[2]

بناء على هذا الإقرار على مصداقية هذه التهمة يـذكر الصوفية مخالفة الجمعية لما عليه جماهير العلماء قديما وحديثا، يقول الشيخ ابن عليوة: (أما جمهور الأمة وأكابر الملـة فجميعهم مطبقـون على أن التصـوف هـو زبـدة الدين والغاية القصوى من سنن الموحدين، وكفاه فضلاً أنه عبارة عن السير في مقامات الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة المصرح بها في حديث جبريـل عليـه السلام.. وماذا عسى تقوله الأئمـة ومن لهم اطلاع على أحوال قوم وهبوا أنفسهم لله وبذلوا جهـدهم في طاعـة الله، وأسسوا قوائم مجدهم على تقوى من الله إلى أن عرفوا بين الخصوص والعموم بأنهم أهـل اللـه وخاصـته من خلقه، دانوا لله بخـالص التوجـه، فـدانت لهم العبـاد

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 173)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 173)

وأشرقت بأنوار هداهم النواحي والبلاد)[1]

بـل إن الشـيخ ابن عليـوة – كسـائر علمـاء الطـرق الصوفية- يقتبس من كلام جماهير العلماء، بـل من كلام العلماء الذين تزعم الجمعية أنها تسـتند إليهم سـواء من علماء السلفية المحافظة، أو السلفية التنويرية، ما يبين مخالفة الجمعية لهم.

وسـنذكر هنـا - باختصـار- بعض مـا ذكـره الشـيخ في معرض رده على علماء الجمعية من بيان أن من يسـتند إليهم علمـاء الجمعيـة سـواء كـانوا من أئمـة المـذاهب الأربعـة ومن تبعهم من الفقهـاء الكثـيرين، أو من أئمـة السلفية المحافظة كـابن القيم وابن تيميـة، أو من أئمـة السلفية التنويرية كمحمد عبده والأفغاني ورشيد رضا لا يرون رأيهم.

أولا ـــ مخالفـة الجمعيـة لفقهـاء المـذاهب الأربعة:

يذكر الشيخ ابن عليوة مخالفـة الجمعيـة في موقفهـا من التصوف والطرق الصوفية لما عليه أئمـة المـذاهب الأربعة، فيقول: (إن الأئمة المجتهدين رضي اللـه عنهم كـانوا في عصـرهم أحـرص النـاس على متابعـة السـنة واجتناب المبتدعات ومذهب التصوف كـان في عصـرهم شائعاً ذائعاً وإذاً فلم لم ينقل عنهم التنبيه عنه والتحـذير منـه لـو كـان مخالفـاً للـدين أو جـاء على غـير سـنن الموحدين؟ وكنا إذاً نجده في كتبهم ونرويه عن أتبـاعهم بـالتواتر، وبكـل صـراحة كمـا بلغنـا عنهم التحـذير من الخوض في علم الكلام وغير ذلك ممـا لم يكن الخـوض فيه مأثوراً عن الصدر الأول، إذ لا مذهب إلا وتجده يعلن

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص21.

التحذير من ذلك بكل صراحة)[1]

وبناء على هذا ينقل الأدلة من المصادر المالكية على مخالفة الجمعية لمذهب مالك، فيقول: (وأما ما جاء صريحاً عن الإمام مالك في هذا الباب ونقل عنه في غير ما كتاب قوله: (من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) نقله التتائي في شرحه على مقدمة ابن رشد، وكذلك الشيخ زروق في القاعدة الرابعة من قواعده، ونحن حيث تلقينا هاته القولة عن الإمام من أوثق المصادر اتضح عندنا يقيناً أنه رحمه الله كان صوفياً، لا محباً للصوفية فقط، وإلا لزم تسلط الحكم عليه المستفاد من صريح قوله (فقد تفسق) برأه الله من ذلك) [2]

ثم يستخلص من تلك المقولة المنسوبة لمالك ما يحاول به أن يجعل منه صوفيا كسائر الصوفية، فيقول: (وهذه الصراحة من الإمام كافية في إعظامه لمذهب التصوف، وكفى أنه جعله قريناً للفقه بدونه عاطل كما أن التصوف بدون الفقه باطل، وخلاصة القول أن الإمام رضي الله عنه كان جامعاً بين التصوف والفقه، وهذا لا يستبعد من الإمام ما دام التصوف عبارة عن صدق التوجه إلى الله عز وجل)[3]

وأجاب على الشبهة التي يوردها بعضهم، وهي أن مالك لو كان صوفيا أو له علاقة بالتصوف لاشتهر ذلك عنه أو لألف فيه كما فعل المشتهرون بالتصوف ممن هم في طبقته كالحارث المحاسبي وغيره، فقال: (إن عذر الإمام (يعني الإمام مالك) في ذلك هو قيامه بما

---

[1]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص21.

[2]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص25.

[3]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص25.

دعت إليه الضرورة من لزوم حفظ القواعد الفقهية وضبط النقول الشرعية خصوصاً وهو يرى من نفسه الكفاءة للأمر الذي لم يتوفر لغيره غالباً، وكل ذلك لا يمنع أن يختص الإمام في خاصته وحد ذاته بما اختص به غيره من خاصة المتصوفة بأن تكون له المشاركة في علمهم ودقائق أسرارهم التي أمروا بعدم إفشائها لغير أهلها)[1]

ويستدل لهذا بما نقله عن الشاطبي في كتاب الموافقات من قوله: (وأخبر مالك عن نفسه أنه عنده أحاديث وعلوم ما تكلم فيها ولا حدث بها) [2]

ثم علق على ذلك بقوله: (وعليه، فهل ترى أيها الأخ أن هذا العلم المخبر عنه هو من مدخول الفقه ؟ فما أظن. إذ لو كان كذلك لما ساغ له كتمانه لما أن الفقه في الدين يشترك في لزوم معرفته جميع المكلفين ويجل عن كتمانه العلماء الأعلام لما في آية الكتمان وحديث الإلجام، ولكنك تستبعد أن يكون لما لك من العلوم الموروثة عن النبي ﷺ غير ما دونه للعموم، وهذا الاستبعاد إنما يتصور مع عدم الاطلاع على ما اشتملت عليه دفاتر السنة من النصوص المثبتة لنظير ذلك)[3]

ثم استدل لهذا بما ورد في الحديث عن أبي هريرة قال: (حفظت عن رسول الله ﷺ وعائين من العلم أما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم مني هذا

---

[1]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص74.

[2]) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م، (5/ـ 171)، وانظر: ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص26.

[3]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص26.

البلعوم)[1]

أما ما يستند إليه المخالفون مما رواه عنه عبد الملك بن زياد قال: كنا عند مالك فذكرت له صوفية بلادنا، فقلت له: يلبسون فواخر ثياب اليمن ويفعلون كذا وكذا فقال: ويحك أوهم مسلمون؟)[2]

وقد رد الشيخ ابن عليوة على هذا الاستدلال بمحاولة فهمه على عكس قصد الجمعية، فذكر بأنه (إذا حددنا النظر في مضمون هذا النقل على فرض صحته لابد أن نستخلص منه مسائل)، وهذه المسائل – كما ذكرها الشيخ ابن عليوة – هي[3]:

1 ــ ما أوردوه من قول مالك - على فرض صحته - دليل على (أن مذهب القوم ثابت الدعائم من عصر التابعين، لأن مالك كان من معاصريهم)[4]

2 ــ أن المذهب كان في نظرهم في غاية الإعظام لأن السائل لم يسأل الإمام على المذهب، ولا الإمام أخبر على فساده، (وإنما السؤال يفيدنا أن هناك جماعة انتسبت للتصوف مع أنها تفعل كذا وكذا، فكان جواب الإمام يفيد استبعاد أن يكون أولئك من عامة المسلمين، فضلاً على أن ينتسبوا للتصوف الذي هو عبارة عن السير في مراتب الإحسان، وهذا ما تعطيه العبارة عن مضمون السؤال) [5]

وبمثل هذا المنهج يذكر مخالفة الجمعية للشافعي، فينقل النصوص الدالة على احترامه للصوفية ومجالسته

---

[1] صحيح البخاري (1/ 41)

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص9.

[3] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص10.

[4] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص10.

[5] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص10.

لهم، ويعقب عليها بقوله: (ونحن إذا نظرنا إلى انتماء الإمام للصالحين وحبه للمتصوفة وكثرة مجالسته لهم لا تستبعد أن يكون له نصيب من المشاركة في علومهم حسبما تقدم عن الإمام مالك)[1]

ويرد على ما يورده المخالفون من أن الشافعي قال: (لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي عليه الظهر حتى يصير أحمق) بقوله: (ونحن إذا استخلصنا من أقوال الإمام ما به الحاجة بعد فرض ثبوتها عنه فنجد الأمر منحصراً في إثبات الحمق لمن ينتسب إلى المتصوفة لا غير مع أننا لا ندري هل إثبات الحمق لهم إنما هو في نظر من سواهم كما سيأتي أم هو ثابت في نفس الأمر؟ فإن قلنا بالأخير فلابد أن يكون مطرداً في عموم أفراد المتصوفة وعليه فإن يكن الأول فالأمر محتمل وإن يكن الثاني فالواقع يجري على خلافه بدليل المشاهدة.. ولا أراني متغالياً يا حضرة الأخ إن قلت لكم أنه قد يوجد في رجال التصوف من يكاد عقله يرجح بعقول سائر كتاب عصرنا، وإن كنت أنا وأنت من أفرادهم.. وهب أنه يثبت عنهم نوع من الطيش في طباعهم فهل يصح أن يكون عنواناً على فساد العقيدة ؟ فيبعد يا حضرة الأخ أن نستخلص من ذلك النقل ما نحتج به لأنك بصدد إثبات فساد المذهب لا بصدد إثبات تفاوت العقول ورجحانها، وزيادة أنك تعلم من أن رجحان العقل في مرتبة يعتبر نقصاناً في الأخرى، ألا ترى أن العاقل بين أهل الدنيا يعتبر أحمق عند أهل الآخرة) [2]

وهكذا نقل عن الإمامين أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، ثم عقب على ذلك بقوله: (وإلى هنا ينتهي بنا ما وعدنا

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص29.

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص11.

بنقله عن الأئمة الأربعة، وفي ظني أنه يعتبر كافياً في نقض ما حاولتم إثباته عنهم من كونهم كانوا برأهم الله لا يقيمون وزناً للتصوف وأهله اعتماداً منكم على مجرد ما وقع بأيديكم من كتاب (تلبيس إبليس) قاطعين النظر عما وراء ذلك مما حوته كتب الفروع والأصول وفي ظني أن هذا مما يعتبر شبه خيانة في النقل لفاعله وتدليساً في الرواية وشأن الناقل أن يكون أميناً) [1]

ثانيا ــ مخالفة الجمعية لأئمة السلفية المحافظة:

لم يكتف الشيخ ابن عليوة ببيان مخالفة الجمعية للأئمة الأربعة في موقفها من التصوف، بل بين مخالفتها لأئمة السلفية الكبار وخصوصا لابن تيمية وابن القيم.

حيث يذكر الشيخ ابن عليوة مخالفة الجمعية لابن القيم، فيقول: (أما ابن قيم الجوزية رحمه الله فقد ينقل عنه أكثر بكثير مما ينقل عن غيره من جهة ما يرجع لاحترام مذهب التصوف ورجاله ولو لم يوجد عنه إلا هاته الفقرة الآتية لكانت كافية في الموضوع)[2]

ثم ينقل قول ابن القيم: (الصوفية ثلاثة أقسام: صوفية الأرزاق وصوفية الرسوم وصوفية الحقائق وبدع الفريقين المقلدين يعرفها كل من له إلمام بالسنة والفقه وإنما الصوفية صوفية الحقائق الذين خضعت لهم رؤوس الفقهاء والمتكلمين فهم في الحقيقة علماء حكماء)[3]

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص32.

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص59.

[3] لم أجد النص في كتب ابن القيم كما ذكر الشيخ، ووجدته في مجموع الفتاوى لابن تيمية، (انظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن

ويعلق عليه بقوله: (فتأمل قوله يرحمـك اللـه : (فهم في الحقيقة علماء حكماء، خضـعت لهم رؤوس الفقهـاء والمتكلمين)، أليست هذه قولة شـافية وصـراحة كافيـة في إثبـــات شـــرف القـــوم على غـــيرهم من الفقهـــاء خصوصاً، وقد قالها ابن القيم الـذي لا يفـوتكم مالـه من حدة الانتقاد، والذي ترجون أن يكـون لكم أكـبر صـاعقة على المتصوفة، لولا أن النتيجة جاءت عن خلاف مـا في الآمال)[1]

ولا يكتفي الشـيخ ابن عليـوة بهـذا الاقتبـاس من ابن القيم الدال على احترامه للصوفية، وإنما ينقـل عنـه مـا هو أخطر من ذلك، وهو تقريره لما يذكره الصـوفية من العرفـان، أو مـا يعـبر عنـه الشـيخ ابن عليـوة بغـوامض التصوف، كما سنرى ذلك عند الحديث في الجزء الثالث من هذه السلسلة عند الحديث عن العرفان الصوفي.

وينقـــل عنـــه حديثـــه عن الشـــطحات الصـــادرة من الصوفية، والتي تحكم الجمعية كالتيار السلفي المتشـدد على الواقعين فيها بالكفر، بل بأبشع أنواع الكفـر، بينمـا يتحـدث ابن القيم عن بلغـة علميـة مهذبـة، فيـذكر أنهـا (أوجبت فتنة على طائفتين من الناس أحـدهما : أحجبت عن محاسن الطائفة ولطف نفوسهم وصـدق معـاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشـطحات وأنكروهـا غايـة الإنكـار وأساؤوا الظن بها مطلقاً، وهـذا عـدوان وإسـراف، فلـو كـان من أخطـأ أو غلـط تـرك جملـة وأهـدرت محاسـنه لفسدت العلوم والصـناعات والحكم وتعطلت معاملتهـا،

تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز - عامر الجـزار، دار الوفـاء، الطبعة : الثالثة، 1426 هـ / 2005 م، (11/ 19)

[1]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص59.

والثانيـة : حجبـوا بمـا رأوه من محاسـن القـوم وصـفاء قلوبهم وصـحة عـزائمهم وحسـن معـاملتهم عن عيـوب شـطحاتهم ونقصـانها فسـحبوا عليهـا ذيـل المحاسـن، وأجـروا عليهـا حكم القبـول والانتصـار وهـؤلاء مقتـدون مفرطون، والطائفة الثالثـة وهم أهـل العـدل والإنصـاف وهم الـذين أعطـوا كـل ذي حـق حقـه وأنزلـوا كـل ذي منزلة منزلته فلم يحكموا على الصـحيح بحكم المعلـول ولا على المعلول السقيم بحكم الصحيح)[1]

وبعد أن نقل هذا النص بطوله قال مخاطبـا المخـالف له ومن وقف موقفه من أصحاب الاتجاه السلفي: (ومـا كان بودي أن نبعثك ايها الأخ على مطالعة هاته النقـول، ولا نبعث غــيرك لــولا مــا فاجأتمونــا بــه من نقــولكم المتضـمنة كـون الجنيد وعصـباته كـانوا أحـط درجـة من الخوارج في نظر كثير من الأئمة) [2]

ويرد على هذه الدعوى المتشددة بذكر ما كـان عليـه ابن القيم من احــترام للجنيــد وغــيرهم من الصــوفية، فيقول: (وذلـك هـو الأمـر الـذي بعثنـا على الاسـتغراب، ولربما يبعث الغير عن تصديقكم مهما كان خالي الـذهن مما ينقل عن الأئمة على أن ابن القيم رحمه الله ينقــل عنه في الجنيد وعصابته خلاف ما حكيتموه أنتم)[3]

وبعــد أن نقــل الشـيخ ابن عليـوة للجمعيـة وللاتجـاه السـلفي المتشـدد مـا نقلـه عن ابن القيم ذكـر لهم مـا

---

[1]) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منـازل إيـاك نعبـد وإياك نسـتعين، تحقيـق : محمـد حامـد الفقي، دار الكتـاب العـربي – بـيروت، الطبعة الثانية، 1393 – 1973، (1/ 225)

[2]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص62.

[3]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص62.

يقوله ابن تيمية، والذي يتصورون أنهم منتهجون لنهجــه، فقال: (ولا شك أنكم تعتبرون هاته النقول عن ابن القيم من الغرابة بمكان، ولكن الأغرب من ذلك أن الكثير من أبناء العصر يعتقدون في الإمام ابن تيمية أنــه على أبلـغ مـا يكـون في تخطئـة القـوم وتسـفيه أحكـامهم، وهـذا الزعم الفاسد هـو الـذي دفعهم إلى المشـي في الأرض مرحاً، حتى إذا أوقفت أحدهم على مـا صـح من النقـول عن الإمام المذكور، أو عـثر هـو بنفسـه على شـيء من ذلك مما يخالف ظنه وزعمـه على خـط مسـتقيم، رجـع مبهوتاً خجلا من سوء ظنه وفهمه، وكان حينئـذٍ مضـطراً لأحد أمرين: إما الرجوع عما كان يعتقده، واما ظنه بــأن النقل قد اختلف عن الإمام المذكور)[1]

ثم دعــا إلى العــودة إلى تــراث ابن تيمية ودراســته للتأكد والتثبت من موقفه، فقال: (وإني أرجوك أيها الأخ أن تعطي هاته النقول حقها من الاهتمام رجاء أن تكـون هي الباعث على تحويل معتقداتكم في رجـال التصـوف على أن الرجــــوع إلى الحـــق أولى من التمــــادي على الباطل وهذا مقرر عند العقلاء بإجماع)[2]

بعد هذا التقرير ذكر الشيخ ابن عليوة منهج ابن تيمية في التعامـل مـع الصـوفية والتصـوف، فقـال: (إن ابن تيمية رحمه الله ما كان من عادتـه أن يجـر ذيـل الإنكـار على مــذهب التصــوف برمتــه، ولا عــرف بنظــير مــا تظـاهرتم بـه أنتم ومن تقاسـمكم في غلطكم، انمـا في غلطكم إنمــــا ينتقــــد بعض كلمــــات على جماعــــة مخصوصـين، ومـع ذلـك تجـده يلتمس مـا يسـتطاع من

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص62.

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص63.

الأعذار لرجال التصوف، وهكذا تجده يحـرص جهـده في طريق حمل مـا يصـدر عن القـوم من الألفـاظ المبهمـة والمتشابهة على ما ينبغي حمله عليه)[1]

ثم نقل عنه بعض النصوص التي عذر فيهـا من وقعـوا في بعض الشـــطحات أو الألفـــاظ الموهمـــة للحلـــول والاتحاد من الصوفية، كما سنراه في الجـزء الثـالث من هذه السلسلة، ثم علق عليه بقوله: (وأطال النفس في ذلك كثيراً، وهذا شـأنه في التمـاس المخـارج للسـادات الصـوفية وكثـيراً مـا يشـاركهم في أذواقهم ومشـاربهم العذبة) [2]

ونقل عنه موقفه من المصـادر الغيبيـة الـتي يعتمـدها الصوفية كالكشف وغيره، وهو قولـه: (وأمـا حجـة أهـل الذوق والوجد والمكاشـفة والمخاطبـة فـإن أهـل الحـق من هـــؤلاء لهم إلهامـــات صـــحيحة مطابقـــة كمـــا في الصـحيحين عن النـبي ﷺ أنـه قـال: (قـد كـان في الأمم محدَّثون فإن يكن في الأمـة أحـد فعمـر)[3]، وكـان عمـر يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين فإنها تجلى لهم أمـور صادقة) [4]

بل ينقـل عنـه مـا توجـه إليـه علمـاء الجمعيـة بالنقـد الشديد، وهـو (مجـالس الـذكر المعهـودة عن الصـوفية، واعتباره لها من السنة بمكان) [5]، كمـا سـنرى ذلـك في

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص63.

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص65.

[3] صحيح البخاري (4/ 211)

[4] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص65.

[5] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص65.

الجزء الثالث من هذه السلسلة.

وما ذكره الشيخ ابن عليوة من مخالفة الجمعية لابن تيمية وابن القيم ذكر مثله الكثير من الذين اهتموا بالرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه في هذه المسائل أو غيرها، ولعل الشيخ اقتبس منهم ذلك، فقد كانت كتب الرد على الوهابية منتشرة في الزوايا، وكان الحجاج – قبل احتلال الوهابية للحجاز – يأتون بها، كما يأتون بها من تركيا وغيرها.

فابن عفالق ينقل كلام لابن تيمية في الاستغاثة بالرسول ﷺ جاء فيه: (فإن كان الاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ﷺ ما هو اللايق لا ينازع فيها مسلم، ومن نازع في هذا المعنى فهو كافر إن أنكر ما يكفر، وإما مخطيء ضال)[1]

وعقب ابن عفالق على هذ النص بقوله: (فانظر هذا الكلام النفيس، وتأمل قوله: (فإن كان الاستغاثة..)، فهذا حال المنكر للتوسل به ﷺ يدور بين الكفر والضلال، فكيف بمن أنكرها، وقال من قال: يا رسول الله فهو كافر، ومن لم يكفره فهو كافر ...)[2]

وفي موضع آخر بين كيفية تعامل ابن عبد الوهاب مع كتب ابن القيم، فقال: (والذي أوقع هذا الرجل في هذه الورطة العظيمة أنه ينظر في كتب ابن القيم فيأخذ منها ما وافق هواه، ويترك ما خالفه، ويأخذ من

---

[1] رسالة ابن عفالق لابن معمر ق 45، 46 (هكذا نقل ابن عفالق العبارة)، (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص249)

[2] رسالة ابن عفالق لابن معمر ق 45، ، (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص249)

أول الفصل ويترك آخره ...)[1]

ويذكر ابن عفالق قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم

والذي اعتبره ابن عبد الوهاب وأتباعه نوعا من الشرك الأكبر، فيقول: (وهو كذب صراح إن كان ينقله عن العلماء، وإلا فهو افتراء منه وبهت، فإن ابن القيم مع تعصبه وخلافه لجميع الأمة في مثل هذا الباب عدّ هذا من الشرك الأصغر.. انظروا كتبه كـ (شرح المنازل) في باب الشرك الأصغر، و(إغاثة اللهفان) [2]

وهكذا نجد منهج سليمان بن عبد الوهاب في رسالته التي رد بها على أخيه فقد كان يذكر له كل حين ما كتبه ابن تيمية وابن القيم، ثم يعقب عليها بما يدل على قصور أخيه عن فهمها أو عن الاطلاع عليها.

وكمثال على ذلك ما نقله عن ابن تيمية من قوله: (النذر للقبور، ولأهل القبور، كالنذر لإبراهيم الخليل عليه السلام، أو الشيخ فلان نذر معصية لا يجوز الوفاء به وإن تصدق بما نذر من ذلك على من يستحقه من الفقراء أو الصالحين كان خيراً له عند الله وأنفع)[3]

---

[1] المرجع السابق ق 46ـ ، (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص249)

[2] المرجع السابق ق 52 ـ ، (نقلا عن: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص250)

[3] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1408هـ - 1987م، (2/ 448)

ثم عقب على هذا بقوله: (فلوا كان الناذر كافراً عنده لم يأمره بالصدقة؛ لأن الصدقة لا تقبل من كافر، بل يأمره بتجديد إسلامه، ويقول له خرجت من الإسلام بالنذر لغير الله)

ومثل ذلك ما نقله عنه من قوله: (من نذر إسراج بئر أو مقبرة أو جبل أو شجرة أو نذر له أو لسكانه لم يجز، ولا يجوز الوفاء به، ويصرف في المصالح ما لم يعرف ربه)

ثم عقب عليه بقوله: (فلو كان الناذر كافراً لم يأمره برد نذره إليه، بل أمر بقتله)

وبعد إيراده مثل هذه النصوص عن ابن تيمية قال: (فانظر كلامه هذا، وتأمله، هل كفّر فاعل هذا، أو كفّر من لم يكفره، أو عد هذا في المكفرات هو أو غيره من أهل العلم كما قلتم أنتم)

ونفس الشيء ذكره عن ابن القيم، (الذي ذكر النذر لغير الله في فصل الشرك الأصغر من (المدارج)، واستدل بالحديث الذي رواه أحمد عن النبي ﷺ: (النذر حلفة)[1]، وذكر غيره من جميع من تسمونه شركاً وتكفرون به في فصل الشرك الأصغر، وأما الذبح لغير الله، فقد ذكره في المحرمات ولم يذكره في المكفرات، إلا أن ذبح للأصنام، أو لما عبد من دون الله كالشمس والكواكب، وعدّه الشيخ تقي الدين في المحرمات الملعون صاحبها كمن غيّر منار الأرض، وقال الشيخ تقي الدين: كما يفعله الجاهلون بمكة شرفها الله تعالى وغيرها من بلاد المسلمين من الذبح للجن، ولذلك نهى النبي ﷺ عن ذبائح للجن.. ولم يقل الشيخ من فعل

[1] ذكر ابن القيم هذا الحديث في (مدارج السالكين)، وعزاه إلى السنن من حديث عقبة بن عامر. انظر: (مدارج السالكين) 1/345، ولم أجده .

هذا فهو كافر، ومن لم يكفره فهو كـافر كمـا قلتم أنتم) [1]

بـــل إن داود بن جـــرجيس كتب كتابـــا في مخالفـــة الوهابيــة للشــيخين ابن تيمية وابن القيم سـماه (صـلح الإخوان من أهـل الإيمـان وبيـان الـدين القيم في تبرئـة ابن تيمية وابن القيم)

ثالثـا ـــ مخالفـة الجمعيـة لأئمـة السـلفية التنويرية:

من باب إدراك الشيخ ابن عليوة لقيمة أئمة السـلفية التنويريـة بالنسـبة للجمعيـة، فإنـه ينبههم إلى مـواقفهم المعتدلة من التصوف مقارنة بمواقف الجمعية.

وقد أشاد في ذلك بكتاب (النصرة النبوية) الذي جمـع فيـه صـاحبه (جملاً كافيـة ونقـولاً كثـيرة من ذلـك النـوع تختص بعلماء مصر ونواحيهـا، وكـذلك علمـاء تـونس لم يشتهر عنهم إلا الذب عن مذهب التصـوف بكـل مـا في استطاعتهم كبيرهم وصـغيرهم، ويكفينـا دليلاً على ذلـك ما كتبوه في هـذا العصـر الأخـير من تقريظـاتهم لكتـاب (السـيف الربـاني) لخـير المتـأخرين الشـيخ (المكي بن عـزوز) رحمـه اللــه الـذي كـان ينـافح فيـه عن الإمـام الجيلاني رداً على من كـــان يحـــاول تنقيصـــه من جهـــة النسب والمشرب، وقد توفر عدد الكتـاب في ذلـك إلى مـــا يزيـــد عن الأربعين عالمـــاً ممـــا يرجـــع إيلهم في المعضلات من علماء تونس جزاهم الله خيراً) [2]

وبناء على إدراكه لأهمية الشيخ محمد عبـده خصوصـا عند الجمعية، فإنه يـذكره ويـذكر مواقفـه من التصـوف

---

[1] (الصواعق الإلهيـة في الـرد على الوهابيـة) ص 8، 9 ، (نقلا عن: دعـاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، ص156)

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص76.

كلما اقتضى المقام ذكره ليبين لهم أنهم مـع احـترامهم له يخالفونه فيما يرتبط بالتصوف، وكأنـه بـذلك يريـد أن ينفي صلتهم به ليؤكد صلتهم بالوهابية.

فقد جاء في معرض رده على ما تبثه الجمعية وغيرها من المواقــف ضــد التصــوف - بعــد إيــراده للنصــوص المنقولة عن كثـير من العلمـاء المتقـدمين -: (ظهـر لي أن أزيدكم نافلـة ممـا ينقـل عن نقـاد المتـأخرين وممن اشتهر بالـذكر في الخـافقين خصوصـاً بين أبنـاء العصـر الآخر كجناب الشيخ محمد عبده رحمه الله، وها أنـا الآن أتكلم فيما يخص جنابه، لا من ناحيـة كونـه كـان صـوفياً بأتم معنى الكلمة) [1]

وقد بدأ حديثه عنه، وبيان مخالفة الجمعيـة لـه، ببيـان علاقته القديمة بالصوفية، ونقل من ذلك ما ذكره الشيخ رشـيد رضا – الـذي كـان من أخص أتبـاع الشـيخ محمـد عبــده ـــ وســنرى ذلــك في الجــزء الثــالث من هــذه السلسلة عند بيان موقف الطرق الصـوفية من ضـرورة الشيخ المربي.

وبعد أن نقل ذلـك قـال: (وفي ظـني أن هـذا النقـل كاف في صحة ما أثبتناه من كون الأستاذ المـذكور كـان صوفياً حقيقياً، أو تقول كان صوفياً بكل معنى الكلمة) [2]

بـل إنـه ذكـر أن الشـيخ محمـد عبـده لم يكن صـوفيا سلوكيا فقط، بل كان فوق ذلـك صـوفيا عرفانيـا، يقـول الشـيخ ابن عليـوة: (أمـا معلوماتـه في مشـرب القـوم الصوفية فهي تبرهن بنفسـها على أن لـه قـدماً راسـخةً في معلوماتهم رضي الله عنهم وإن شـئت قلت: رحمـه

---

[1]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص67.

[2]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص69.

الله من المتغالين في إثبات وحدة الوجود على ما يشبه مشرب (ابن العربي الحاتمي) حسبما قدمناه)[1]

وما ذكره الشيخ ابن عليوة صحيح، بل إن الوهابية المعاصرة تكفر الشيخ محمد عبده، وتتهمه بالقول بوحدة الوجود؟

وهكذا نقل موقفه من الصوفية الذين يتعامل معهم الكثير من علماء الجمعية بشدة وقسوة، بينما كان الشيخ محمد عبده على عكس ذلك تماما، يقول الشيخ ابن عليوة: (أما ما يرجع لأفراد المتصوفة في نظر هذا الإمام يتضح لكم بما ذكره في شرحه على مقامات (بديع الزمان الهمذاني) عند قول المصنف: (فلما تجلينا وأخبرنا بحالنا أسفرت القصة عن أصل كوفي ومذهب صوفي)[2]

ثم نقل ما قاله الشيخ محمد عبده، وهو قوله: (والصوفي نسبة إلى الصوفية وهم طائفة من المسلمين همهم من العمل إصلاح القلوب وتصفية السرائر والاستقبال بالأرواح وجهة الحق الأعلى جل شأنه حتى تأخذهم الجذبات لله عمن سواه وتفنى ذواتهم في ذاته وصفاتهم في صفاته، والعارفون منهم البالغون إلى الغاية من سيرهم في أعلى مرتبة من الكمال البشري بعد النبوة)[3]

ثم عقب عليه بقوله: (فلتتأمل يا حضرة الأخ قوله: في درجات الكمال البشري بعد النبوة)[4]

بل إنه فوق ذلك ينقل عن الشيخ محمد عبده نصا

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص69.

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص71.

[3] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص72.

مهمـا يعـبر عن منهج إصـلاحي ذكـره الشـيخ يـدل على مدى اهتمامه بالتصوف، ومدى تعلقه بـه، وهـو مـا ذكـره تلميذه العلامة رشيد رضا قال: (قـال لي يعـني (الشـيخ محمد عبده) مرة أخـرى: إن بقـاء الأزهـر متـداعياً على حاله في هذا العصر محال، فهـو إمـا أن يعمـر، وإمـا أن يتم خرابـه، وإني أبـذل الجهـد المسـتطاع في عمرانـه، فإذا دفعتني الصوارف إلى الإياس من إصـلاحه، فـإني لا آيس من الإصلاح الإسلامي، بل أتـرك الحكومـة، واختـار أفـراداً من المسـتعدين فـأربيهم على طريقـة التصـوف التي ربيت عليها، ليكونوا خلفاء لي في خدمـة الإسـلام) (1)

ويعلق على هذا بقوله: (ولاشك أن بهذا النقــل تتجلى لك نفسية الشـيخ محمـد عبـده في أجلى مظاهرهـا من جهة علاقته بالتصوف)(2)

بل إنه يـذكر أن سـر العلاقـة الحميميـة الـتي جمعتـه بالشــيخ الأفغــاني كــان مبــدؤها التصــوف، فيقــول: (وبالجملـــــة إن رغبتهم في الفن هي الــــتي جمعتهم بالسـيد جمـال الـدين الأفغـاني رحمـه اللـه، وهي الـتي أحدثت تلك الرغبة بينهما في أول الصحبة)(3)

وينقل للدلالة على هذا، مـا ذكـره الشـيخ رشـيد رضا من قولـه: (وأمـا ملاقاتـه - يعـني الشـيخ محمـد عبـده لجمال الدين الأفغاني – فهي أن أحد المجـاورين بـرواق

---

[4]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص72.

[1]) مجلة المنار (8/ 453)

[2]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص72.

[3]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص72.

الشام، قال له: جاء من مصر عالم أفغـاني عظيم، وهـو يقيم في خـان الخليلي، فسـر بـه وأخـبر الشـيخ حسـناً ودعاه إلى زيارتـه معـه، فألفيـاه يتعشـى، فـدعاهما إلى الأكل معه، فاعتـذروا، فطفـق يسـألهما عن بعض آيـات القرآن، وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسـرها لهم، فكان هذا مما زاد فقيدنا به عجباً وشغفه حبـاً، لأن التصـوف والتفسـر همـا قـرة عينـه أو كمـال مفتـاح سعادته)[1]

وبناء على هذا كله ذكـر الشـيخ ابن عليـوة أن البنـاء الإصلاحي التنويري مختلف تماما عما تمارسه الجمعيـة، وأنها لذلك وهابية أكثر منهـا عبدويـة، فيقـول: (إن هاتـه التعـاليم الـتي أخـذت مأخـذها من نفس الشـيخ محمـد عبـده والسـيد جمـال الـدين الأفغـاني، والـتي هي نفس التعاليم التي ثبتت جذور أصولها في صميم علماء السنة خلفاً عن سلف حسـبما تقـدم لكم نقلـه هي الـتي تبقى راسـخة في قلـوب الأشـحة على دينهم مـا دام للـدين جناب يحترم بين أبناء المسلمين، وهي التي نرى خاصـة الكتـاب المعتـدلين محتفظين بهـا إلى الآن ومـا كـان احتفاظهم بها إلا احتفاظاً بجوهر الدين من أن يلحقه مـا يهذب بصبغة أو يمس بجوهره على أن التصوف عند من حقق مباديه هو منتزع الجوهر من خصال الدين الحميدة وممثـل للطائفـة الروحيـة وعلى هـذا التعـريب تنطبـق سائر التعاريف في القديم والحادث) [2]

بل إن الشيخ ابن عليوة يذهب إلى أبعد من ذلك حين يبين للجمعيـة مخالفتهـا لصـديقها الحميم محمـد رشـيد

---

[1] مجلة المنار (8/ 379)

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص73.

رضا، فيعقب على بعض النصوص التي تبين موقفه المسالم للتصوف بقوله: (وفي ظني أنه لا شيء أبين من هذا فيما نريد إثباته وزاد على ذلك حضرة الكاتب ما أثبته للصوفية من تأثير الإرادة وغيرها من الخوارق التي تعتبر عند البعض من أهل العصر الحاضر من الخرافات ولا مستند لهم في ذلك إلا سوء الظن وعدم اعتبارهم ما للروح من الكمالات والخصائص الذاتية وهذا من حضرة الكاتب أبلغ ما يعتبر في الصراحة وأوضح ما يتأتى في التعريف)[1]

المطلب الرابع: تهمة العنف في التعامل مع المخالف

وهي من التهم التي توجهت بها الطرق الصوفية للجمعية، كما توجهت بها الجمعية للطرق الصوفية كما رأينا ذلك سابقا، وكما سنراه في الباب التالي، ولكنا بالبحث والتدقيق في دلائل عنف أعضاء الجمعية سواء كانوا من الصادقين في نسبتهم أو من المحسوبين عليها، فإنا نجد عنفهم أشد وعلى مستوى أعلى، بخلاف الطرق الصوفية، التي لم تتعد تهم العنف فيها أفرادا من العامة، من دون أن يتبناها شيوخ الطرق أو يهتموا بها.

بخلاف العنف الذي مارسه بعض رجال الجمعية أو عوامها، فإنا نجد الجمعية في صحفها الرسمية تتبناه وتشجعه، ووكمثال على ذلك نسوقه هنا لما نرى من تعتيم عليه من المتحدثين عن الجمعية ومآثرها ما حدث للشيخ الحافظي بعد خروجه من الجمعية، أو طرده منها، فقد ذهب إلى عنابة التي كانت معقلا من معاقل الطريقة العلاوية، وذهب كما يذهب أي رئيس جمعية أو حزب إلى المؤيدين له، لكنه للأسف قوبل من المؤيدين

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص75.

الجمعيـة بمـا وصـفته (صـحيفة الصـراط) متهكمـة في مقالة تحت عنوان رئيسي يقول: (كيف دخـل الحـافظي عنابة وكيف خـرج منهـا)[1]، وتحتـه عنـوان فـرعي يقـول (دخلهــا متشــعّب الأطمــاع عظيم الآمــال بين الشّــكّ واليقين وخرج منها مُنكسر الخاطر بخُفّ حُـنين)، وتحت هذين العنوانين الممتلئين بالإثارة كتبت تصف مـا حصـل بنبرة ممتلئة بالتهكم والسخرة والحقد مقالا طـويلا هـذا بعض ما جاء فيه: (وما جاء ضُـحى الغـد حتّى شـاع وذاع أنّ الإذن قـد دُبّـر لـه بإلقـاء خطـاب في الجـامع الكبـير فانتشرت شيعة العليوي في البلـد لـدعوة النّـاس فضـلا عن إطلاق برّاح , وما طرق هذا النّبأ أسماع رجـال بونـة الأحرار وحظرت سـاعة الحـافظي المُعيّنـة حتّى هرعـوا إلى المسجد من كلّ فوج على مُختلف طبقاتهم فغصّت أفنيته واكتضّت رحابه.. شرع الحافظي في إعـادة سـرد الآيات , وفي تلك الأثناء سمعنا صوتا من سدّة المسجد: (فاقوا)، فدخلت أوجه الشـيعة المُتهلّلـة وشـيخهم في طــور الاصــفرار وانكشــف لهم مــا وراء السّــتار وذهــل الحافظي، فأشير عليه بالتّمادي وما كـاد يفـوه بكلمـات بعد سرد الآيـات حتّى ارتفعت الأصـوات بالسّـخط عليـه وعلى شيخه العليوي من كلّ جانب وأسمع أيضا ألفاظــا بذيئة.. وفي الحال نادى مناد أيّها النّاس الخروج الخروج فائتمروا مُبـادرين وتجمهـروا بصـحن المسـجد وخارجـه محيطين بــه من كــلّ جــانب وعلا الضــجيج: (أخرجــوه أخرجوه أخرجوا الحافظي أخرجـوا بـائع الذّمّـة أخرجـوا نصير العليوي وخديمه), عند ذاك شـاهد المـوت الأحمـر بعينيه فانقلب فرحه ترحا وسروره غمّا وصـار يُفكّـر في الخروج من هذا المـأزق وإلى أين الفـرار وكيـف النّجـاة فبــادر العليويــون إلى الكوميســاريّة وأعوانهــا.. وبقي مُختفيـا بالمسـجد هُنيهـة حتّى قـدم بعض الأعـوان مـع

---

[1] جريدة الصراط السوي، العدد (05). 26 جمادى الثانية 1352هـ. ص 07.

رئيسهم فأخرج محروسا بهم تعلوه الكآبـة مُنتقـع اللّـون مُرتجف الفؤاد, وما تخطّى باب المسجد حتّى دخــل في دور الطّمـاطم والـبيض وحتّى الهنـدي رغمـا عن كونـه مُحاطا بالأعوان ودفاعهم , ولنكتف عن ما وراء هذا بمـا نشرته الصّحف الفرنسـويّة والعربيّـة.. وبعـد فـراره في سيّارة أحضرت لهذا المهم.. فأمطرت عليها حجـارة من سجّيل وكثر الصّـياح والضّـجيج حولهـا مُـدّة سـيرها إلى فرع الزّاويـة العليويّـة بقي بهـا مُسـتترا تحرسـه شـيعته حتّى أتاه على السّاعة الحادية أو الثّانية عشـرة ليلا أمـر رسمي يقتضي عدم السّماح لـه بـالمبيت فيهـا فغادرهـا حـالا غـير مأسـوف عليـه إلى قريـة منـدوفي قانعـا من الغنيمة بالإياب)[1]

والعجيب أن الصحيفة الرسمية للجمعية، والتي نقلت هذا الخبر بطريقة ممتلئة بالإثارة، لم تنتبه إلى أن هؤلاء الــذين أخرجــوا الحــافظي من المســجد، ومنعــوه من الكلام، ورموه بما رموه به لم يكن لأجل أفكـار طرحهـا لم تكن مقبولـة لـديهم، فالرجـل بمجـرد بدئـه بقـراءة القـرآن كمقدمـة لحديثـه بـدأ الإنكـار عليـه كمـا تنقـل الصحيفة.

وفي هذا رسالة واضحة تدعو من خلالها الجمعيـة إلى عدم سماع الآخر، بل المباردة لطرده ورميه بالطمـاطم والـبيض والهنـدي كمـا فعـل بالحـافظي، لأن الصـحيفة وصفت هؤلاء الذين قاموا بذلك بكونهم (أحرار عنابة)

ونحن في هــذا الموقــف - مــع إنكارنــا لكثــير من الأساليب القمعية التي مارسها المستعمر الفرنسي مـع الشعب الجزائري - إلا أنا لا نستطيع أن ننكر عليه إغلاق مثل هذه الصحيفة الداعية إلى الفتنة والشـغب الـذي لا

[1] جريدة الصراط السوي، العدد (05). 26 جمادى الثانية 1352هـ. ص 07.

مبرر له.

بــل إن الجمعيــة في صــحفها الرســمية لم تكتفي بتشجيع العنف المحلي، بـل راحت تشـجع العنـف الـذي مارسه الوهـابيون، وغـيروا على أساسـه معـالم التـاريخ الإسـلامي الـتي كـانت محفوظـة لأجيـال طويلـة في الجزيرة العربية.

فقد ذكر الزاهري في صحيفة الشـريعة النبويـة، وهي صحيفة رسمية للجمعية، ما فعلـه الوهـابيون بالأضـرحة وغيرها في الحجـاز مؤيـدا، وذلـك في بعض قصصـه في الشـريعة، حيث قـال: (.. وأمـا القبـاب المهدومـة فـإن الحكومة العربية الإسلامية السعودية قـد أحسـنت كثـيرا إلينا معشر الحجاج؛ فإنها بـذلك قـد وجهت وجهتنـا كلهـا إلى اللــه وحــده فأقبلنــا عليــه تعــالى بأفئــدتنا وقلوبنــا وبأسماعنا وأبصارنا وكان حجنا إليه خالصـا وكنـا نقضـي مناسكنا مخلصين له الدين، ولـولا ذلـك لتـوزعت نياتنـا، ولكان لنا في حجنا من هذا القباب شركاء مع اللــه على أننا ذهبنا بنية أن نحج إلى بيت اللـه الحـرام ونـزور قـبر سيد الوجـود ﷺ ولم تكن نيتنـا أن نحج إلى تلـك القبـاب المنصوبة أو المهدومة ولو لم يكن ذلك مرادنا لما حملنا أنفسنا مشقة السفر إلى الحجـاز ولاكتفينـا بزيـارة هـذه القباب التي ملأت علينا بلادنا سـهولها وجبالهـا فمن منـا يصـعد جبلا أو يهبـط أرضـا أو يقطـع واديـا دون أن يجـد كثيرا من القباب و((المــزارات))؟ وإني أعتقــد أن بعض المطوفين في الحجـاز هم أيضـا يهولـون من أمـر هـذه القباب المهدومة, ويبــالغون في تعظيمهــا ويكـثرون من التأسف عليها ويصفونها بعبارات مؤثرة تبعث في أنفس الحجاج الحسـرة والأسـى وتسـتثير حـزنهم على ذهابهـا وحنقهم على هادمها (!!) يقول المطوف للحاج مثلا: هنا كانت قبة سيدنا فلان صفتها كيت وكيت, وهدمها الملك! وهنالك في موضع كذا كانت قبة سـيدتنا فلانـة, ويصـف

هذه القبة بأروع الصفات وأجمل النعـوت, ثم يقـول لـه: وقـد هـدمها الملـك أيضـا! فيظن الحـاج المسـكين أنـه بذهاب هذه القباب قد فاته خير كثير.. ولـو أن الحكومـة العربية السعودية قد نظـرت في أمـر هـؤلاء المطـوفين الذين يشوهون سمعتها عند الحجاج فوضعت لهم نظاما كالنظـام الـذي وضـعته كثـير من حكومـات أروبـا للأدلاء والمترجمين الذين يرافقـون السـواحين الـذين يـزورون بلادها لحسنت سمعتها ولقضـت على هـذا النكـير الـذي يثيره عليها الجامدون من المسلمين ولسلمت من هــذه التهم والأقاويــل الــتي تشــاع عنهــا في كثــير من بلاد الإسلام ولعلها فاعلة إن شاء الله)

بل إن الجمعية لم تكتف بتشجيع مـا فعلـه الوهـابيون في الحجاز، وإنما راحت تشجع ما يفعلـه الوهـابيون في الجزائـر، أو تنشـئ وهـابيين جـدد في الجزائـر، وكمثـال على ذلك ما ورد في صحيفة الشريعة النبوية في عددها الثاني، فقد جاء فيه تحت عنوان (داعية السنة في جبـل أوراس) هذا الخبر: (جاءنـا كتـاب من بعض سـكان هـذا الجبل يثنون فيه على ما قام به الأخ الشيخ المسعود بن علي من مقاومة الشركية الكبرى المنتشـرة في جهـات عديدة من القطر وهي الشجرة التي تزار وتقـام حولهـا الـزردات وتـذبح لهـا الـذبائح وتنـذر لهـا النـذور وتـدعى بالشجرة أم الخبوط. فقد كانت عندهم شـجرة عظيمـة من هذا النـوع, فقـام الشـيخ بوعـظ النـاس وإرشـادهم وتذكيرهم بالقرآن العظيم والأحاديث النبوية حتى أقلعوا عنهـا وتأسـف الـذين كاتبونـا على أن لم يكن غـير هـذا الشيخ يقوم بمثل ما قام به.. نحن نشكر لهذا الأخ عمله جازاه الله بأحسن الجزاء ونذكر غيره من جميع الإخوان أهل العلم أن يقوموا في نواحيهم بمثل ما قـام بـه فـإن الأمة متهيئة لسماع الحق وقبوله وإن لكلام اللـه تعـالى وحديث نبيه ﷺ من فم مرشـد مخلص حكيم لأبلـغ الأثـر

في القلوب وأنجح الدواء للنفـوس, وذكـر فـإن الـذكرى تنفع المؤمنين)[1]

وهذا من أكـبر الأدلـة على مـدى الصـلة الرابطـة بين الجمعيـة والفكـر الوهـابي المتطـرف، والـذي لم يكتـف بالعنف اللفظي، بل راح يضم إليه العنف بكل أصنافه.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمـة الـتي يمكننـا استخلاصـها من هـذا الفصل:

1 ــ بما أن كلا من الجمعية والطـرق الصـوفية تنتمي إلى مدارس خاصة لهـا امتـدادها في العـالم الإسـلامي، فقد كان لـذلك أثـره في التهم المتبادلـة بين الطـرفين، وهذا ما جعلنا نعود إلى الجذور الفكرية التي ينتمي إليها كلا من الجمعيـة والطـرق الصـوفية عنـد سـرد التهم المتبادلة.

2 ـــ رأينـا، ومن خلال اسـتقراء أصـول التهم الـتي وجهتها الجمعية للطرق الصوفية انحصارها في: ــ تهمة البدعة والخرافة ــ تهمة الكفر والشرك ــ تهمة ابـتزاز الأموال ــ تهمة مداهنة الاستعمار ولكل تهمـة من هـذه التهم فروعها المرتبطة بها.

3 ــ تعتبر تهمـة التعبـد بالبدعـة والخرافـة من أشـهر التهم التي وجهتهـا الجمعيـة للطـرق الصـوفية، وأكثرهـا طرحا، حتى صارت لفظة (الطـرق) لا تـذكر إلا مقرونـة بكلمة البدع، وهي من التهم الـتي اتفـق عليهـا المعتـدل والمتشدد من أعضاء الجمعيـة، وليس الفـرق بينهمـا إلا في التعميم، فبينما نرى المتشـددون يرمـون كـل أفعـل الطرق بالبدعة والخرافة وما يستتبع ذلك من البعـد عن الكتـاب والسـنة، نـرى المعتـدلين أقـل حـدة في هـذه

---

[1] جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد 2، ص5.

الجوانب، فلا يعممون أحكامهم.

4 ــ تعتبر تهمة وقوع الطرق الصوفية في الكفر والشرك من أخطر التهم التي لم تصبها جمعية العلماء على مشايخ الطرق الصوفية فقط، وإنما صبتها على العوام أيضا، وهي نتيجة حتمية للتأثر المبالغ فيه من طرف علماء الجمعية بالتيار الوهابي الجارف، والذي لم يستنكف عن تكفير العوام بحجة أنهم – لزيارتهم الأضرحة أو تعلقهم بالصالحين – قد وقعوا في الشرك الجلي.

5 ــ تعتبر تهمة ابتزاز الطرق الصوفية الأموال من أكثر التهم ورودا عند أعضاء الجمعية جميعا – على حسب ما نعلم- لأنهم يعتبرون الهدف الأساسي من الطرق هو استغلال أموال المريدين لمصالحهم الشخصية، بل يعتبرون أنه لولا ما يدر به المريدون والعوام من أموال على الزوايا ومشايخ الطرق لما بقيت هذه الطرق.

6 ــ تعتبر تهمة مداهنة الطرق الصوفية الاستعمار من التهم المشتهرة، والتي لا تزال تتداول على الرغم من أن أكثر المقاومات كانت من رجال الطرق الصوفية، ولكن ذلك – مع ذلك- لا يشفع لهم عند أكثر الباحثين، نظرا لبعض التصريحات التي أدلوا بها، والتي تنسخ جميع ما قاموا به من أعمال تدل على غيرتهم على وطنهم، مع أن الكثير من أمثال تلك التصريحات صدرت من رجال الجمعية، ووجدت التبريرات التي تسيغها.

7 ــ تنطلق الطرق الصوفية في تعاملها مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من وصف يتكرر كثيرا، ويعتبر بوابة لكل التهم التابعة له، وهي كون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ليست سوى فرع من

فـروع الوهابيـة في الجزائـر، وقـد ذكرنـا في الفصـول السابقة أسباب هذه التهمة، وما يصح منها، وما لا يصح.

8 ـــ أن هـذا الاسـم الـذي أعطتـه الطـرق الصـوفية للجمعية هو الذي يسر عليها إسـداء مـا تشـاء من التهم إليها، ذلك أن الشيخ محمدا بن عبد الوهاب وأتباعـه قـد لقـوا من العـالم الإسـلامي منـذ ظهـور حـركتهم حربـا شـــعواء، وألفت في الـــرد عليـــه وعليهم المصـــنفات الكثـيرة، والـتي كـان يصـل أكثرهـا إلى زوايـا الطـرق الصوفية، فيجدون فيها القواسم الكثـيرة المشـتركة بين كلتـا الحركـتين، ولعـل هـذا مـا يسـر لظهـور المؤلفـات الكثيرة في الرد على ما تطرحـه الجمعيـة على الطـرق الصوفية من إشكالات وتهم.

9 ـ رأينا من خلال استقراء التهم الموجهة من طرف الطرق الصوفية للجمعية، أو للحركة الوهابيـة أنهـا أربـع تهم كبرى، هي: تهمة الجهل والغرور، وتهمة المســارعة إلى التكفير، وتهمة إنكار الولاية وما يترتب عليهـا، تهمـة العنف في التعامل مع الآخر.